بجوى كومار سينها

الانسان الجديد فى الاتحاد السوفيتى

بيجوى كومار سينها

الانسان الجديد فى الاتحاد السوفييتى

انطباعات كاتب هندى عن
الحياة السوفييتية المعاصرة

دار التقدم
موسكو

ترجمة محمد الجندى

Синга, Б.
ал-Инса
х)
М, 197

الاهداء
الى الذكرى المقدسة
لرفيقى
بهاجات سينغ
الذى وجه الى مواطنيه
وهو يواجه المشنقة
نداء الى الاشتراكية

х) **Б. К. СИНГА**

НОВЫЙ ЧЕЛОВЕК В СОВЕТСКОМ СОЮЗЕ

на арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتى

С $\frac{11301-563}{014(01)-75}$ 917—74

الانسان هو مقياس كل الأشياء

بروتاجورس (٤٨٥ ـ ٤١٥ قبل الميلاد) (منقولة عن أفلاطون)

اسمع أيها الأخ الانسان ! الانسان قبل كل شىء ـ هو الحقيقة العليا
لا يوجد ما هو أعلى منه

شانديداس (القرن الخامس عشر)

ان أهم مخلوقات عصر الثورة الروسية هم الناس الذين أنتجتهم

رومان رولان

أنا أقف مع هؤلاء الذين يبنون ويكنسون ويشرقون ليحرروا
الانسان من البؤس
أنا أغنى للوطن الذى يسمى الآن وطنى
ولكنى أغنى ثلاث مرات لما سيكون

مايا كوفسكى

مقدمة

لست كاتبا محترفا ولهذا فانني عندما عزمت على كتابة هذا الكتاب كان عي أن أقدم لقرائى توضيحا مرتبطا بأيام الحركة الثورية حينما كانت بلادنا غير حرة .

منذ أكثر من اربعين عاما ، فى أواخر العشرينيات وفى أجزاء مختلفة من شمال الهند ، أصبح عدد كبير من الشبان ، من طلبة الجامعة فى الغالب ، أعضاء فى الرابطة الاشتراكية الجمهورية لهندوستان — وهو الحزب الثورى المشهور لتلك الأيام . وكان بهاجات سينغ من كلية لاهور القومية واحدا منهم . وانضممت أنا أيضا الى الحزب ، وكنت آنذاك طالبا فى كلية كنيسة المسيح بكانبور . ان الحركة الثورية الهندية للقومية المناضلة التى بدأت فى السنوات الأخيرة من القرن الماضى مع النهضة الثقافية فى ماهاراشترا والبنغال فى أيام تيلاك وأورو بيندو قد تحولت فى هذا الوقت الى الاتجاه الاشتراكى .وقد أثر انتصار ثورة أكتوبر فى روسيا تأثيرا عميقا فينا. كنا جميعا شبانا متعلمين حساسين لقيم الحياة العليا . وفى مجتمع يسوده الأغنياء سواء الهنود او البريطانيون كانت خبرة حياتنا مريرة ، وكذلك كانت خبرة حياة أقربائنا وأعزائنا . ولم تكن تسود الحياة الصعوبات الاقتصادية وحدها ، بل كانت تسودها ايضا المذلات المستمرة .

لاح لنا فى انتصار الفلاحين والعمال فى روسيا منظر حياة جديدة . واعتبرنا هدف الاشتراكية الذى أعلنوه مثلا أعلى لا للقضاء

النهائى على الاستغلال الاقتصادى الذى تمارسه القلة على الكثرة فحسب ، وانما أيضا لبناء مجتمع جديد يعيش فيه الناس حياة سعيدة ، يقفون ورؤوسهم مرفوعة يغنون مباهج حياة تنبع من ظروف الفرص المتساوية والحرية للجميع .

وفى ذلك الوقت كان شوكت عثمانى ذاهبا سرا الى موسكو مع آخرين للاشتراك فى المؤتمر العالمى السادس للأممية الشيوعية الثالثة . وقد طلب منى فى كانبور ان أصحبه مع بعض رفاقى الآخرين كممثلين للحزب الثورى لنبحث عن المساعدة السوفييتية لبرنامجنا . تشاورت مع بهاجات سينغ وشعرنا أن الوقت ليس ملائما . وقررنا أن نذهب معا الى موسكو بعد ذلك بقليل ، بعد أن يكون حزبنا قد قام ببعض الأعمال الكفاحية الهامة التى كنا نرتب لها .

تغير اسم حزبنا حينئذ الى رابطة الهندوستان الاشتراكية الجمهورية لاعلان ايماننا بالاشتراكية كقضيتنا . وقررنا أيضا فى اللجنة المركزية أن ندعو للافكار الاشتراكية أمام حبل المشنقة وفى ساحة المحكمة التى قد يواجه بها أعضاء حزبنا . واسسنا أيضا «نوجاوان بهارات سابها» («جمعية الشبيبة الهندية») كبرنامج علنى لنا .

ولمناصرة هذه السياسة ألقيت القنابل فى الجمعية المركزية لتسجيل الاحتجاج ضد القوانين المعادية للعمال التى اصدرتها الحكومة . وقبل ذلك بشهور قليلة قتل رميا بالرصاص فى لاهور ضابط البوليس البريطانى الذى كان مسئولا عن موت لالا لاجبات راى . وأعلن منشور لرابطة الهندوستان الاشتراكية الجمهورية بهذه المناسبة : « هدفنا العمل لثورة تنهى استغلال الانسان للانسان » .

وقد اتهم ساردار بهاجات سينغ بهاتين العمليتين وحكم عليه بالاعدام فى قضية مؤامرة لاهور . وقبل شنقه بعدة أيام كتب فى رسالة

موجهة الى الحكومة : « لنعلن ان حالة الحرب قائمة وستستمر ما دامت الجماهير الكادحة الهندية وثرواتها الطبيعية تستغلها حفنة من المستغلين . قد يكونوا رأسماليين بريطانيين فقط أو رأسماليين مختلطين بريطانيين وهنود أو حتى هنودا فقط . ستشن هذه الحرب بعزم وبشدة متجددة باستمرار وبجرأة أكبر وبعزم لا يهتز حتى تقوم الجمهورية الاشتراكية» .

وباعتبارى شريكا لساردار فى القضية فقد حكم علي بالنفى الابدى وأخذت أنقل من سجن الى سجن لمدة عشرين عاما تقريبا . ولكن الثقة التى حصلنا عليها فى تلك الأيام عمقتها الحوادث فى السنوات التالية فى بلادنا وفى العالم الخارجى .

ولهذا فقد شعرت بسعادة كبيرة عندما أصبح واضحا وذلك بعد حصولنا على حريتنا السياسية الاعتراف المتزايد فى بلادنا بأنه من خلال الاشتراكية وحدها نستطيع ان نحل المشاكل الوطنية الملحة وأن نحصل على اعادة بناء اجتماعى كامل لصالح الملايين الكادحة . ولكننى وجدت حينئذ أن الخطى بطيئة جدا فى هذا الاتجاه وأن التقدم يسير بتردد شديد . لم يتجمع الشبان المتعلمون كطبقة تحت راية الاشتراكية . ولم تستجب الجماهير أيضا بالدرجة اللازمة لتصبح قوة منظمة على النطاق القومى . وعلى نطاق البلاد ، وبالرغم من كثرة الاعلانات عن الاخلاص للقضية الاشتراكية كان هناك كثير من التسلق المؤلم للسلطة والاثراء . وعندما فكرت فى السبب فى هذا كله شعرت بأن هناك شيئا خاطئا أساسيا فى الموقف من الاشتراكية ، وفى طريقة النظرة للمثل الأعلى وتقديمه أيضا . وظهر لى أن الجانب الاقتصادى يبالغ فى تأكيده . ولا شك أن الجانبين المادى والروحى للاشتراكية يكمل بعضهما البعض . ولكن كلما ارتفع بناء النظام الاجتماعى الجديد على الأسس الاقتصادية التى تقوم

على الأمن والوفرة فان الجوانب الروحية هى التى تتخذ معنى أكبر . وفى بلاد مثل بلادنا التى ما زال عليها أن تبنى الاشتراكية وأن تخوض نضالا ثوريا قاسيا ولا هوادة فيه من أجلها لا تكون الدعوة الى الاوساط غير المنظمة وخاصة من المتعلمين الذين هم فى طليعة الحركة السياسية فعالة الا اذا قدمت لهم الاشتراكية بشكل سليم كحركة كبيرة لا من أجل الخبز وحده ، وانما من أجل اقامة مجتمع جديد وعادل لرجال ونساء يعيشون حياة سعيدة لها معنى تقوم على قيم أخلاقية من الامانة والصدق والحب ومشاعر الاخاء وخدمة المجتمع . لقد انغمست الهند لسنوات فى تقاليدها الروحية وان أية حركة جماهيرية يجب أن تكون فى انسجام مع هذا التراث القومى لكى تكون قوية .

بهذه الأفكار شعرت بالدافع لزيارة الاتحاد السوفييتى ورؤية الاشياء بنفسى من وجهة النظر هذه ، وأن أجمع التفاصيل عن كيف نما « الانسان الجديد » خلال تجربة أكثر من خمسين عاما ، وكيف هو جميل فى أفكاره وعمله . هل كان قادرا على أن يطرح الى الأبد القبح الذى لازمه من قبل كنتاج للمجتمع الاقطاعى والرأسمالى القائم على المصالح الأنانية الضيقة ؟ لقد ظننت أننى أخدم القضية بأسلوبى المتواضع المحدود عندما أقدم الصورة بصدق لمواطنى عند عودتى .

لسنوات كنت أقرأ كتبا عن البناء الاشتراكى . ولكن هذه الدراسة لها محدوديتها الواضحة . فلرؤية الحياة فى ألوانها الغفيرة ، وفى تفاصيلها الدقيقة ، فان على الانسان أن يلقى الناس على أرضهم وأن يستمع الى آمالهم ومخاوفهم . على الانسان أن يرى الوجوه والمواقف الحقيقية التى تقف وراء الاحصاءات المتراكمة فى المجلدات . وهكذا أردت أن أرى الاتحاد السوفييتى الحقيقى الحى .. شعبه ـ

من رجال ونساء وأطفال ـ الذى يبلغ تعداده اليوم مائتين وخمسين مليونا .

سنحت لى هذه الفرصة عند نهاية عام ١٩٦٩ عندما قمت بجولة فى الاتحاد السوفييتى ككاتب لمدة شهرين. وقد استطعت بعد ذلك فى عام ١٩٧٢ أن ألقى الناس فى بيوتهم وفى مصانعهم وحقولهم ، وأن ألاحظ منجزاتهم وأن أشعر بخفقات قلوبهم . وكان فى استطاعتى أيضا أن أحصل على فكرة عن الاتجاهات خصوصا فى مجال حوافز العمل التى تثير الجدل . وفى بحثى لرؤية عملية تطور الانسان ، وفن الحياة الذى كان يكتسبه كرست جانبا كبيرا من وقتى لدراسة نموذج التعليم . ان التعليم الالزامى ذى العشر سنوات للأطفال بين سن السابعة والسابعة عشرة على نطاق الاتحاد السوفييتى يعنى فى الواقع أن كل الجيل الذى سيشكل ويصوغ مصير الاتحاد السوفييتى هو الآن فى الزى المدرسى .

ظللت من يوم لآخر أتحرك الى أماكن جديدة وأرى وجوها جديدة . من كرملين موسكو ومن لينينجراد المقدسة مهد الثورة والمقاومة الأسطورية لجحافل هتلر وصلت الى الحقول الخضراء لمزرعة تعاونية فى تاجيكستان فى المنطقة الآسيوية التى تلامس تقريبا حدود كشمير ثم وجدت نفسى بعد ذلك بين أولاد وبنات المدارس المتوردين المبتسمين . وعندما عدت الى موسكو قابلت بعض الاخصائيين ومديرى المعاهد مثل معهد الاستشراق ، (القسم الهندى) وأكاديميين فى مجال التعليم ، وبعض كبار الصحفيين فى « البرافدا » والصحف الأخرى ، وبعض كبار العاملين فى النقابات والمنظرين الشيوعيين وقادة الشباب والنساء . تناقشت وتحدثت حول أسس المواضيع ثم أسرعت الى الناس ، لأنه فيهم فقط يمكن

آن أشاهد النظام الجديد المتطور فى جدته ونشاطه وامكانياته المتزايدة . لقد ذهبت بعيدا عن ضجيج وضوضاء المدن الكبيرة اللامعة الأضواء ، وزرت شقق وبيوت الناس العاديين ، وأماكن عملهم وقصور الثقافة التى حصلوا عليها حديثا وأماكن الموسيقى والأفلام والمسارح والنوادى .

وذهبت أيضا الى منطقة بحيرة بَيْكال فى سيبيريا ورأيت بنفسى كيف ذهب الأولاد والبنات المتعلمون الى الأماكن المقفرة للأدغال الكثيفة ، وكيف بنوا مثل المجاهدين من خلال عملهم الرائد الذى يتسم بالتصميم مدنا جديدة مفعمة بالنشاط .

ومن هناك ذهبت الى كازاخستان ، المنطقة الواسعة التى تقع فى الأجزاء الآسيوية على حدود الصين . وقد ضمنت مذكراتى مناطق آسيا خاصة – أرض الكازاخ والتاجيك – لأن مشاكلها فى الماضى بما فى ذلك مشاكل أوزبكستان المجاورة ومدنها القديمة الشهيرة بخارى وسمرقند كانت قريبة جدا من مشاكلنا فى مجال الاقتصاد والسياسة وكان هناك تشابه ملحوظ بينها وبيننا فى الأرضية التاريخية والثقافة والحضارة .

فى كل هذه الأماكن حاولت بفكر مفتوح أن أحصل على الحقائق عن أسلوب الحياة الجديدة المرئى فى كل ما حولنا . كانت هناك أسئلة كثيرة فى ذهنى . هل تصبح حياة المواطن السوفييتى أكثر سعادة وحرية؟ ما هى المفاهيم التى كان ينميها حول حياة الأسرة والجنس والحب والجمال والدين ودوافع العمل الخ .؟ هل كانت قوميته تتوازن مع اخلاصه للأممية ؟ وماذا عن تذوقه للأدب والفن ؟ هل توجد لدى الشباب حمية الجهاد التى كان يتميز بها الثوريون القدماء ؟ هل فقدت المرأة سحرها الأنثوى وصفاتها الغريزية نتيجة لمساواتها الكاملة مع الرجل ؟ هل ضعفت روابط الأسرة ؟

وفوق كل شىء الى أى مدى استطاع النظام الاجتماعى الجديد أن يجعل الحياة أكثر ثراء وكمالا فى الجانبين المادى والروحى ؟ لقد كانت هذه مسألة رئيسية لأن الاشتراكية أو أى نظام اجتماعى آخر يزعم أنه يقوم من أجل الانسانية والارتفاع بها ، كان عليه أن يمر بالنسبة لهذه المسألة باختبار القدرة على ان يخدم بشكل ملموس الفرد .. الكائن البشرى الذى ليس هو شيئا مجردا وانما يعيش كثيرا باحتياجاته وقدراته ورغباته .

ولكى أحصل على نظرة أعمق جمعت كمية كبيرة من الكتب المختصة والتى يعتمد عليها مما نشر أخيرا فى الاتحاد السوفييتى بالنسبة لمختلف وجوه الحياة ومما لم أقرأه من قبل . وقد ثبت أن هذا مفيد وقد أوردت فى هذا السرد مقتطفات من بعض هذه الكتب .

ويجب أن أذكر أننى قمت بنفسى بوضع برنامج زياراتى واجتماعاتى . أننى أستطعت أن أقوم بها كلها دون أى عائق . ولم أر ولم أشعر بأى ستار حديدى . ويجب أن أشكر وكالة « نوفوستى » للأنباء ، واتحاد الصحفيين السوفييت اللذين كانا على أتم استعداد لترتيب جولاتى وتحديد المواعيد والزيارات لمختلف الأماكن . لقد أعطيتهم فى البداية برنامجا من سبع صفحات على الآلة الكاتبة وضعته بنفسى . وكانت لهم معرفة بكتابى السابق « فى اندامانس الباستيل الهندى » الذى صادرته الحكومة البريطانية ، وكذلك مساهمتى المستمرة فى الصحافة الهندية حول النضال من أجل الحرية من وجهة نظر ديمقراطية ، مما سهل تفهمهم السريع لموقفى الخاص بالتأكيد على رؤية حياة الرجال والنساء العاديين من زاوية انسانية .

وعندما بدأت فى السفر الى الاتحاد السوفييتى لم تكن لدى أية أوهام حول رؤية الأشياء ناصعة البياض أو داكنة السواد . لقد

عمدت الى كتابة لمحات عن البناء الثابت لنظام اجتماعى جديد فى طريق متعرج ، وعن البناء الضخم فى فترة الانتقال . وقد كوفئت جيدا . فقد استطعت أن أرى الصورة الرائعة المبهجة للانسان الجديد المزدهر الذى وصفته فى الصفحات التالية .

بيجُوىْ كومار سينها

الفصل الأول

مؤشر حساس

من الثابت أن نظام التعليم فى أية دولة يعتبر مؤشرا حساسا لمستوى نمو المجتمع ككل وهو أيضا مرآة لدوافعها وتطلعاتها وأحلامها فى الغد .

وعلى هذا فقد أدرجت فى برنامجى بصفة خاصة زيارات للمدارس والكليات فى أجزاء مختلفة من الاتحاد السوفييتى .

ولقد أثبتت الأيام التى كرستها لهذا الأمر أنها مثمرة ؛ فقد أعطتنى صورة شاملة عن نظام التعليم فى الاتحاد السوفييتى المعمول به .

قضيت يوما بأكمله فى مدرسة موسكو رقم ٢٦ متنقلا من الفصول الأولى حتى الفصل العاشر وهو أعلى الفصول . كانت الفصول ذات نمط مألوف . ولقد اخترت هذه المدرسة لأن اللغة الانجليزية كانت هى وسيلة دراسة العديد من الموضوعات ، وبذا أمكننى التحدث مباشرة مع التلاميذ . وفى الصف الثانى وجهت السؤال لحوالى ٤٠ تلميذا جميعهم فى الثامنة عما يعرفون عن لينين وكانت الاجابات التى تلقيتها ، فى تيارحديث لم يتوقف لمدة نصف ساعة ، صريحة جدا . وكانت تلك الاجابات فى جمل قصيرة وبسيطة . فقال أحد الأطفال : « اعتاد لينين أن يساعد أمه » ، وعندما سألت : « كيف ؟ » أجاب : « كان يكنس الأرض وينظف

الأطباق » . وقالت طفلة صغيرة : « علّم لينين ذات مرة قطة القفز فوق العصا » ، وأضاف آخرون : كان لينين أمينا ، رؤوفا ، كان يقول الصدق دائما ، أحب الموسيقى ، سُجن أكثر من مرة ، « نفى أيضا » ، أحب العمال ، كان له أخ طيب أعدم ، أحب والديه وأطاعهما دائما ، كان « مثيرا للضوضاء دائما عندما كان طفلا صغيرا ، لم يتعال أبدا » ، أحب العمل ، لم يتأخر عن الدروس أبدا . ولينين هو نموذج للشعب السوفييتى اليوم لقد أعطتنى هذه العبارات التلقائية فحوى المفهوم الاشتراكى للرجل الصالح ، وهو المفهوم الذى يسيطر على عقول الجيل الصاعد .

وجدت فى أحد فصول الصفوف العليا معلقا على الجدران أعلام الدول ، صورة نصفية للينين ، سطور من شكسبير منها : « يموت الجبناء عديدا من المرات قبل موتهم » كان كل شىء معروضا بصورة جميلة .

يوجد فى المدرسة « نادى تاغور » . والنادى حافل بكتبه ، ومصنوعاته الحرفية من جامعة شانيكتان ، وفوق كل شىء أشعاره الغنائية . وبناء على طلبى غنت فتاتان بلهجة سليمة مدهشة أغنيات رابندرانات . وكانت مديرة النادى هى السيدة ڤالريا بوكوڤا وهى احدى المدرسات بالمدرسة . وعندما سألتها عن كيف تطرقت الفكرة الى ذهنها أول مرة قالت أنها تأثرت تأثرا عميقا بالمفهوم النبيل لتاغور عن المرأة . وبتنظيم النادى أصبحت قادرة على أن تقيم رباطا روحيا مع الشاعر الهندى العظيم .

وبينما كنا نتحدث فى صالة النادى لاحظت عددا كبيرا من الأطفال يتزاحمون خارج الباب المغلق ، أسند أصغرهم أنوفهم الى اللوح الزجاجى . ابتسمت السيدة بوكوڤا وفتحت الباب . هل

يوجد مجال لأى كلام فى مثل هذه الحالة ؟.. أعطونى هدايا — صور ، دميات ، كتب ، رسوماتهم ، ميداليات لينين ، أسطوانات — مجموعة كاملة من عالم الأطفال .

نظام التعليم

لا توجد فى الاتحاد السوفييتى مدارس خاصة ؛ فتقديم خدمة التعليم هى مسئولية الدولة . ويقوم نظام التعليم السوفييتى على مراحل ثلاث — مرحلة المنشآت السابقة على المدرسة (مرحلة ما قبل الالتحاق بالمدرسة) ، مرحلة التعليم المتوسط العام والمتخصص ، ثم مرحلة التعليم العالى . وتشمل المرحلة الأولى دور الحضانة للاطفال الذين تقل أعمارهم عن ثلاث سنوات ثم رياض الأطفال لمن تتراوح أعمارهم بين ثلاث وسبع سنوات . ويقدر عدد منشآت المرحلة الأولى بأكثر من مائة ألف منشأة . يقوم الآباء باصطحاب حوالى عشرة ملايين طفل كل صباح الى هذه المنشآت . وتعد هذه الدور نعمة كبيرة بخاصة للامهات اللواتى لا يقدرن بطريقة أخرى على العمل خارج البيت ثمانى ساعات فى اليوم دونما قلق على صغارهن . وغالبا ما تكون مديرة دار الحضانة او روضة الأطفال مدرسة مؤهلة تلقت تدريبا طبيا خاصا . وتتمتع مساعِداتها بتدريب خاص أيضا ويتعلم الطفل فى دار الحضانة وروضة الأطفال أن يأكل بنفسه ، وأن يغتسل بنفسه ، وأن يرتدى ملابسه بنفسه . كذلك يتعلم تنظيف وترتيب أدواته ، واعداد فراشه والاعتناء بلعبه . ويشارك الطفل فى لعب نشيط بنّاء وفى الرياضة البدنية لمدة من ثلاث لاربع ساعات يوميا . ويتعلم الطفل التحدث بطريقة صحيحة ، وكذلك

الرسم والغناء والحركات الايقاعية . وفوق كل شيء يعوّد الطفل على اكتساب عادات الحياة الجماعية .

ويلقى الأطفال العناية طول اليوم وتقدم لهم وجبات غذائية .

ويلحق بدار الحضانة وروضة الأطفال ذاتها طبيب ووصيفة .

وتصل التكاليف الكلية لكل طفل فى العام ثلثمائة روبل للاطفال بين ٣ و٧ سنوات فى رياض الأطفال والى اربعمائة روبل للأطفال الذين تقل أعمارهم عن ثلاث سنوات . (فى دور الحضانة) [الروبل-١,٢ دولار أمريكى] .

يدفع الآباء جزءا من التكاليف فقط تتراوح بين ١٥ ، ٢٥ ٪ . وتتوقف هذه النسبة على مستوى دخولهم ويعتبر هذا الانفاق منخفضا للغاية اذا ما أخذنا فى الاعتبار أن متوسط دخل الوالدين فى الشهر يساوى ٢٤٠ روبلا ، واذا ما أخذنا فى الاعتبار أيضا أن متوسط عدد الأطفال فى الأسرة أقل من طفلين . والحاق الأطفال بدور الحضانة أو رياض الأطفال ليس الزاميا . ولكن عندما يبلغ الطفل سن السابعة يتحتم عليه إذن دخول أبواب المدرسة ذات الفصول العشرة والتى تخصص لمرحلة العمر الثانية من سن السابعة حتى الثامنة عشر .

ويعتبر التعليم العشرى وفقا للقواعد المعمول بها مؤخرا الزاميا لكل الأطفال . وتشتمل هذه المرحلة على أساسيات كل من المعارف العامة والتقنية وتشرب القيم الروحية ومبادئ الأخلاق بالاضافة للتربية البدنية . وينقسم التعليم المتوسط الى مرحلتين : المرحلة الابتدائية من الفصل الأول حتى الثالث والمرحلة الثانوية من الفصل الرابع حتى العاشر . وينفق نصف مدة المرحلة الأولى فى تعلم اللغة ، أما النصف الثانى فيخصص للرياضيات ، والرسم ، والموسيقى ،

والتربية البدنية ، والأعمال اليدوية ، والعلوم الطبيعية والتاريخ .

ويكلف التلاميذ بمهام أخرى مثل تزيين حجرات الدراسة ورش أحواض النباتات والعمل فى المقاصف وحجرة الترفيه وتوضيب الملاعب والطرقات ومساعدة كبار السن ومساعدة أسرهم .

ويمكن اجمال وصف هذا كله بتعويد الطفل أو الطفلة فى سنوات التكوين على الانغماس فى الحياة الاجتماعية الأرحب ، وعلى مساعدة بعضهم لبعض . أما فى السنوات السبع التالية فتسير الدراسة المنهجية فى موضوعات عدة تشمل الرياضيات والفيزياء ، والكيمياء ، والبيولوجيا ، والتاريخ ، والجغرافيا ، واللغة الروسية (و اللغة القومية اذا كانت المدارس خلاف الروسية) ، واللغات الأجنبية ، والرسم ، والأدب ، والغناء ، والعمل اليدوى ، والتربية البدنية .

ويُعنى هذا المنهج بالتزويد الشامل بكل من العلوم الطبيعية الدقيقة والعلوم الانسانية . ويشمل التدريب التقنى خلال هذه السنوات التدريب على أسس الانتاج الصناعى والزراعى وعلى استخدام الآلات والمعدات اثناء الدروس . ويؤكد فى الأشكال العليا (الراقية) فى كل الموضوعات على استخدامها العملى . ويبلغ العدد الكلى للمدارس حوالى مائتى ألف من بينها ٤٥,٥ ألف مدرسة متوسطة . ولا تدفع رسوم للتعليم على الرغم من أن الدولة تتكلف عن كل تلميذ حوالى ٩٠ روبلا فى العام . وتوجد مدارس متخصصة يبلغ عددها ٤٢٦٠ مدرسة ، مدة الدراسة بها ٤ سنوات . ويلتحق بها التلاميذ الذين أمضوا ثمانية فصول فى التعليم المتوسط العام ، وذلك بعد النجاح فى امتحانات القبول . وتتخصص هذه المدارس فى فروع مختلفة من الصناعة والنقل والزراعة والمواصلات والبناء

والطب والموسيقى والفن والتدريس . وتغطى قائمة المهن والحرف التى تتخصص فيها هذه المدارس ألفا ومائة ميدان . ويتخرج من هذه المدارس الأخصائيون ذوو التأهيل المتوسط . ويتلقى الطلاب هنا منحا دراسية شهرية ولا يدفعون رسوما للتعليم . ويرتفع متوسط التكاليف السنوية للطالب الى ثمانيمائة روبل . لقد تخرج فى سنة ١٩٧١ من المدارس المتوسطة المتخصصة ١٠٨٣,٣ ألف اخصائى .

وتقوم بتوفير التعليم العالى ٨١١ منشأة تعليمية من معاهد وجامعات . ويبلغ عدد الجامعات ٥٢ جامعة تغطى أربعمائة تخصص . وتقوم الجامعات بدور كبير فى تدريس العلوم التطبيقية الحديثة القائمة على الفيزياء والرياضيات والكيمياء والبيولوجيا والميكانيكا والسيبرناطيقا . كذلك تقوم بدور كبير فى الدراسات العليا لمدرسى الكليات وفى اعداد متخصصين ذوى درجة مرشح او دكتور فى العلوم وتخرج الجامعات العديد من الأخصائيين فى العلوم الانسانية . وبالاضافة الى الجامعات تقوم باعداد الأخصائيين فى العلوم الانسانية معاهد خاصة بالمعلمين وموظفى المكتبات والاقتصاديين والحقوقيين والاخصائيين فى الفنون المختلفة .

ويتخصص كل معهد فى موضوع واحد معين . وتتراوح مدة الدراسة ما بين خمس وست سنوات وتعمل الكليات السوفييتية على الربط بين التعليم النظرى البحث والتدريب العملى . ويمثل التدريب العملى الذى يتم خارج الكليات نسبة ٢٥ ـ ٣٠ ٪ من الحجم الكلى للدراسات النظرية ، كما ينفق نصف وقت التدريب العملى فى معامل الكليات . ومن بين ٦٧٢,٨ ألف شخص أتموا تعليمهم بالمعاهد العليا عام ١٩٧١ بلغ عدد المتخصصين فى

مجال الصناعة والبناء ٢٤٣,٦ ألفا ، وفى مجال النقل والمواصلات ٣٠,٠ ألفا وفى مجال الزراعة ٦٣,٥ ألفا وفى مجال الاقتصاد والقانون ٥٢,٠ ألفا ، وفى مجال الصحة والتربية البدنية والرياضة ٤٦,٩ ألفا ، وفى مجال التثقيف ٢٢٩,٦ ألفا وفى مجال الفنون والسينما ٧,٢ ألفا . ويبلغ حجم النفقات الحكومية عن كل طالب بالمدرسة العليا ١٠٠٠ روبل سنويا . ويتلقى اغلب الطلاب منحا دراسية شهرية تتراوح بين ٤٠ و٦٥ روبلا . ويتلقى المتفوقون منهم علاوة مقدارها ٢٥ بالمائة . والتعليم بالمدارس العليا كما هو الحال فى المدارس الثانوية بلا رسوم . ويبلغ عدد الطلاب الذين يتلقون تعليمهم بالاتحاد السوفييتى اليوم ٤,٦ مليون طالبا . أما عدد المتعلمين بصفة عامة فى الاتحاد السوفييتى فهو يزيد عن ٨١ مليونا ، أى ما معناه أنه يتعلم فى الاتحاد السوفييتى شخص من كل ثلاثة أشخاص . ويخصص للتعليم بالاتحاد السوفييتى حوالى ١/٦ ميزانية النفقات وهو ما يزيد عن ميزانية الدفاع بنسبة ٦ ٪ .

ويعطى الدستور السوفييتى حق التعليم للمواطن . وتبذل الجهود بكل المعايير الممكنة لتوصيل التعليم لكل زاوية وركن فى البلد ولكل فئة من فئات الشعب رغم تسهيلات التعليم المتزايدة لتوسيع نطاق التعليم منذ ١٩١٧ أمكن منذ عشرة سنوات فقط تطبيق نظام التعليم الالزامى على الصفوف الثمانية الاولى . والأعداد الكبيرة من الناس كبيرى العمر الذين اتركوا التعليم يشعرون اليوم برغبة ملحة فى الافادة من التسهيلات الحديثة والمحسنة فى مجال التعليم . حتى صغار العمر الذين لم يكملوا تعليمهم (تحت ظروف مختلفة) بعد الفصل الثامن والذين التحقوا بالعمل فى المصانع والمزارع أو المكاتب الحكومية يرغبون فى استكمال دراساتهم . لأجل هؤلاء

الناس يوجد عدد كبير من المدارس والمعاهد المسائية ، وللدراسة بالمراسلة واسعة الانتشار . فيوجد ٣٠ معهدا مسائيا ، وللدراسة بالمراسلة ، وكذلك أكثر من ١٠٠٠ كلية مسائية والدراسة بالمراسلة فى المعاهد العامة . وينتمى لها خمسون بالمائة من العدد المطلق من قطاع طلاب المدارس العليا . واذا ما أضفنا له قطاع المدارس الفنية الثانوية يبلغ العدد الكلى للطلاب أربعة ملايين وخمسمائة ألف .

ويحظى الناس الذين يدرسون ويعملون فى آن واحد بامتيازات ملحوظة تقدمها الدولة منها اجازة اضافية بمرتب لمدد تتراوح بين ١٠ و٤٠ يوما مع بدل الذهاب الى المختبرات ومراكز الامتحانات. وتقدم مراكز التليفزيون بهدف مساعدة هؤلاء الناس محاضرات حول موضوعات علمية وهندسية يقوم بها العلماء والأساتذة البارزون .

وبقدر ما يقدم لهم من ضمان اقتصادى ووقت فراغ بقدر ما يبدى الشعب السوفييتى ككل اهتماما متزايدا بكل مجالات المعرفة الانسانية. ويفسر لنا هذا ذلك الظهور فى الماضى القريب « للجامعات الشعبية» الذى يعتبر نوعا جديدا من المنظمات التى عليها أن ترفع من المستوى الثقافى للسكان. وحسب البيانات الأخيرة التى حصلت عليها توجد بالاتحاد السوفييتى سبعة عشر ألف جامعة شعبية . وقد أقيمت هذه الجامعات فى الوحدات الانتاجية الكبيرة وفى معاهد البحوث والمنشآت الثقافية والمدارس العليا ومزارع الدولة والمزارع التعاونية . ويتردد على هذه الجامعات المتخصصة فى العديد من مجالات المعرفة ٣,٥ مليون طالب فى غير أوقات العمل ، للاستماع لمحاضرات عن مشاكل العلم والتكنولوجيا والأدب والفنون والتربية والاقتصاد والطب والدولة والقانون ، والفلسفة ، والعلاقات الدولية . ويعمل بالتدريس

فى هذه الجامعات أكثر من عشرين ألف عالم وأستاذ وأستاذ مساعد ومدرس وموجه ثقافى ومهندس على أساس تطوعى بدون أى مقابل . ولقد بدأت فى العمل « الجامعات الشعبية النسوية » ، وهى تنظم محاضرات عن الرعاية الصحية ، وقوانين الزواج والأسرة ، وتربية الأطفال وموضوعات متشابهة . ويدل تحليل الأرقام الخاصة بجميع المترددين على هذه الجامعات فى عام ١٩٦٩ على أن ٢٠ بالمائة من المترددين يحملون شهادات للتعليم العالى و٣٩ بالمائة شهادات للدراسة الثانوية و٣١ بالمائة ممن لم يكمل الدراسة الثانوية و١٠ بالمائة فقط ممن يحمل شهادات الدراسة الابتدائية .

الأكاديمى زابوروجيتس

وجدت من الضرورى ، حتى أفهم بصورة أفضل نظام التعليم ، أن أقوم الى جانب زياراتى للمدارس بمناقشة مستفيضة مع أحد رجال التعليم البارزين . وعلى ذلك فقد أتيحت لى جلسة صباحية لمدة ثلاث ساعات كاملة مع زابوروجيتس أكاديمى العلوم التربوية وادوارد كوستياشكين العضو المراسل لأكاديمية العلوم التربوية السوفييتية . ولقد كان كل منهما رئيسا للمعهدين المختلفين . فالأول كان رئيسا للمعهد الخاص بالتعليم قبل الالتحاق بالمدرسة والثانى رئيسا لمعهد رفع مستوى كفاءة المعلمين . وكل منهما يتمتع بسمعة كبيرة فى مجاله الخاص وقد قام كل منهما بالسفر الى أجزاء كثيرة من العالم بقصد تجميع الخبرات .

أشار الأكاديمى زابوروجيتس فى البداية الى أنهم وهم بصدد بذل جهودهم فى التعليم يعتبرون أن المرحلة السابقة على المدرسة هى أكثر المراحل أهمية . فلقد وجدوا علميا أن ما يتعلمه الطفل

فى فئة العمر من ٤ الى ٦ سنوات يمد جذورا عميقة له . فلو اكتسب الطفل عادات سيئة تصبح من الصعب معاونته على التخلص من هذه العادات . وعلى هذا فان عملية تكوين الشخصية تبدأ فى هذه المرحلة المبكرة جدا . فيطلع الأطفال على عالم المعرفة من خلال نظام اللعب والعمل والدروس ويلقنون نمط السلوك فى المجتمع الاشتراكى ، ويشربون الحياة الجماعية والتصرف الجماعى من خلال الخبرة بالعاطفة الجماعية فى النشاط المدرسى . وقال لى الأكاديمى زابوروجيتس توضيحا لذلك أنه استغرب عندما وجد فى رياض الأطفال فى انجلترا وامريكا أن الطفل يشير دائما الى اللعب التى يلعب بها قائلا « لعبى » ، أما فى الاتحاد السوفييتى فأى طفل لا يشعر بهذا أو يتكلم بهذه الطريقة . وان تكلم فسوف يقول « لعبنا » . ولقد شارك كوستياشكين فى المناقشة وعند أحدى المراحل انهمك فى عرض وجهات نظره لدرجة أنه نسى أنه أخذ يتحرك حتى حافة النضد الذى كان يجلس عليه ، وبحيلة ما دفعته الى الخلف قليلا . وحتى بعد انتهاء الساعات الثلاث أعرب عن أنه لو توفر لديه وقت أطول لاستطاع أن يشرح بصورة أكمل ، المبادئ الأساسية لنظام التعليم. ولهذا فقد أرسل لى الى الفندق كتاباته فى نفس اليوم الذى ظهرت فيه فى «البرافدا» وغيرها من الصحف .

وكان اللقاء معهما مفيدا جدا اذ اننى حصلت فيه بالاضافة الى التفصيلات الخاصة بالأسلوب والمنهج التعليميين على خبرة من التعامل المباشر مع العالمين السوفييتيين . وليس لديهما شىء من الغرور . انهما مجرد باحثان عن الحقيقة ، مشغولان باكتشافها بعقليهما المتفتحين . وقبل أن أغادرهما أدركت أن كلا منهما قد اشترك فى الحرب ضد النازية وحصل على عدد من الميداليات ،

لكننى لم أستطع أن أحثهما للكلام عنها ، فابتسما فى تواضع وقالا : ان مثلنا العديدين . ولقد تذكرت أنهما ينتميان الى قمة عالم التعليم . وتضم أكاديمية العلوم السوفييتية ٢٤٠ عضوا و ٤٣٥ عضوا مراسلا و٧٢ عضوا اجنبيا كما تضم أكاديميات العلوم فى الجمهوريات السوفييتية زهاء ١٠٠٠ عضوا وعضوا مراسلا . وهم أناس يتمتعون باحترام عظيم فى البلاد ويساوى راتب الأكاديمى راتب رئيس الوزراء السوفييتى وحتى يفوقه فى بعض الأحيان .

زيارة لروضة الأطفال

أصبحت زيارة احدى رياض الأطفال فى موسكو بعد هذا الحديث أمرا هاما بالنسبة لى . وصلت الى روضة الأطفال فى الصباح المبكر . استقبلتنى عند البوابة الرئيسية التى تفضى الى بناء مكون من طابقين يتوسط حديقة واسعة ، مديرة روضة الأطفال . وقد طلبت منها أن تصحبنى وترينى كل شىء فى المنشأة ، وقالت لى أنه من الأفضل أن أقابل أصغر الأطفال أولا ووافقت على اقتراحها . لقد بدأت الجولة بما يشبه « باستقبال عظيم » أقامه لى طفل نحيل صغير جدا تبعه ثلاثة من الاقران اذ قدم لى على طبق متعدد الألوان قليل من الفاكهة البرية الصغيرة تشبه التوت الذى ثقبت أطرافه وأدخلت من خلالها أوراق ملونة لتحولها الى «رؤوس فاكهة». وتنقلت بعد ذلك من حجرة لأخرى . رأيت حجرات نوم ذات أسرة بيضاء نظيفة . ورأيت حجرات اللعب والطعام مدموجة معا وفى الأخيرة موائد صغيرة حول كل منها ثلاثة أو أربعة مقاعد . وهنا كان كل أنواع لعب الأطفال . وقد بدا لى شىء غريب ، ذلك أنه شغلت بعض المقاعد حول الموائد بدب . وسألت المديرة

عما اذا كان هذا قد يخيف الأطفال الذين يجلسون الى جوارها . أجابت « بالعكس تماما . فسوف يأكلون بشهية كبيرة » . وقد كان الأطفال فى حجرات دراستهم لأنه حلت ساعة الدراسة . ولهذا فقد ذهبت للقائهم .

كان الأطفال فى أحدى الحجرات يصنعون دميات من الصلصال . سألت أحدهم عما اذا كان سيعطيها لى ، فنظر أولا الى معلمته ولما قرأ فى عينيها السماح بذلك وضع الدمى فى يدى المبسوطتين وحذا حذوه آخرون. وهكذا أخذ الأطفال ينظرون نحو المعلمة ، والدميات تتدفق الى يدى . بعد ذلك انتقلت الى « حديقة الحيوانات » الموجودة فى احدى غرف روضة الأطفال . هناك رأيت طيورا صغيرة ، أرانب بيضاء ، وسمكا ملونا . كان القائمون عليها يطعمونها بحكمة بالحشائش وغيرها من المأكولات الصالحة. وكان التزيين الهادف يشغل كل الجدران والممرات وفناء المدرسة محولا المكان كله الى منظر بديع . بينما كنت أفحص الدميات وجدت « رجالا » و« نساء » بيض البشرة ينامون فى أسرة صغيرة يستند رؤوسهم على وسادات كثيرة الوبر . بينهم ايضا كان هناك زنجيان سعيدان — رجل وامرأة ذوى وجهين أسودين رائقين سعيدين راقدين فى سريريهما . ذهبت الى المطبخ أيضا . كانت هناك سيدات يرتدين أثوابا بيضاء ناصعة يقمن باعداد وجبات الأطفال . وكان هناك صندوقان خشبيان ضخمان وعريضان مملوئين بالعنب الذى كان سيقدم للاطفال فى اليوم نفسه . ولا تزرع الكروم فى منطقة موسكو ويصل العنب من المناطق الآسيوية النائية للاتحاد السوفييتى .

كان الأطفال ذوو الوجوه المشرقة الممتلئة والأعين المشعة ، فى ملابسهم المتعددة الألوان يشدوننى للبقاء . لكن كان قد مضى



الاستجمام بعد الغداء في احدى رياض الاطفال .

على ثلاث ساعات ، فأنهيت زيارتى بعد الحديث مع المديرة .

تحدثتْ عن أطفال مؤسستها ، وعلى وجهها ظهر دفء الأم قالت : فى بعض الأحيان فقط قد يتعلق الطفل بذيل رداء أمه أو بنطلون أبيه لبضعة أيام بعد دخوله الدار . ولكن سرعان ما تصبح الدار بيته الثانى حيث يجد رفاقه ولعبه ومعلمته التى تعد بمثابة خالة له . وهكذا يوما بعد يوم تتشكل شخصيته. ويدرس كل طفل على حدة بغرض ابراز قدراته وميوله . وتبذل العناية للتأكد من أن

شيئا لا يكبت عنده القدرات الابداعية والمبادرة . ويلقن الأطفال من خلال سرد الحكايات والألعاب جوهر القيم الروحية ، والمعرفة . كذلك فهم يشرّبون حب الطبيعة من نباتات وحيوانات وذلك من خلال حرية استخدام الحديقة ، زهورها ، نباتاتها ، وكذلك حديقة حيوانات المدرسة وأخيرا يتخطى الأطفال من خلال عملية التعليم مرحلة عدم الادراك الى المرحلة التالية وهى مرحلة الدراسة المنهجية المنتظمة فى المدرسة الثانوية .

جامعة لومومبا

بعد المدرسة وروضة الأطفال كان على أن أقوم بزيارة احدى الجامعات. وقررت أن أقوم بزيارة جامعة الصداقة بين الشعوب الشهيرة التى تحمل اسم باتريس لومومبا . وللاسم تاريخ . فباتريس لومومبا هو المناضل العظيم من أجل الحرية وهو أول رئيس وزراء للكونغو الحرة . أراد أن يعيد بناء بلده . ورغم اتساع بلده وثرائها فقد ذكر لأحد الصحفيين الغربيين بأنه كان فى الكونغو كلها أقل من عشرين خريجا من المدرسة العليا وذلك بعد قرون من « عملية التحضير » التى قام بها الحكام الأوربيون . أراد أن يتخلص من التخلف والجهل المتوارثين عن الماضى الاستعمارى . لكن حياته انتهت على أيدى العملاء الامبرياليين . وقتل بوحشية . وأزمع الشعب السوفييتى على تخليد ذكراه فأنشأ هذه الجامعة فى موسكو لطلاب دول أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية . أما بخصوص الغرض من الجامعة فقد قال لى نائب المدير (ويسمى بالروسية بروركتور) ى . ن . سوكولوف : ان الهدف من انشاء الجامعة هو مساعدة هذه الدول فى اعداد الاخصائيين وذوى المهارات العالية متلقين تعليمهم فى ظل روح

الصداقة بين الشعوب . وأكثر من ذلك فترجع فكرة انشاء الجامعة الى اعطاء الفرصة فى التعليم للطلاب من العائلات ذات الدخول المتواضعة . وتأكيدا لذلك فقد خصص عدد من الأماكن للسلطات الحكومية وكذلك للمنظمات الاجتماعية لترشح الطلاب الآهلين لذلك . ومن خلال عشرة سنوات مضت بعد تأسيس الجامعة أتم أكثر من ألفين وثلثمائة طالب تعليمهم بها .

وعلى كل طالب أن يتلقى فى العام الدراسى الأول دورة فى اللغة الروسية التى تصبح بعد ذلك لغة دراسته . كذلك يتلقى دورة اعدادية خاصة لتضع كل الطلاب على نفس المستوى العلمى المطلوب . وعلى ذلك تتراوح المدد الدراسية بين ٤ و٥ سنوات . فمدة دراسة الهندسة ٤ سنوات يزيد عنها الطب سنة . وتؤخذ فى الاعتبار متطلبات البلاد التى وفد منها الطالب وذلك عند تصميم موضوعات الاعمال خلال الفصول الدراسية ، وموضوع رسالة الدبلوم البحوث. أطلعنى سوكولوف بالرضاء أنهم أصبحوا قادرين على زيادة عدد الطلاب مع مرور الوقت . وأن آخر تعداد لهم يزيد عن الثلاثة آلاف طالب . من هذا العدد ألف طالب من كل من دول أفريقيا وأمريكا اللاتينية أما عدد طلاب الدول الآسيوية والعربية فهو ٦٠٠ و٨٠٠ طالب على التوالى . أما عدد الطلاب الهنود فيبلغ ٢١٠ ومن نيبال ٩٩ طالبا . وتتحمل السلطات السوفييتية نفقات مواصلاتهم الى ومن أماكن الدراسة وبالاضافة لذلك تقدم لهم ملابس دافئة وسكن مجانى علاوة على منح دراسية شهرية مقدارها ٩٠ روبلا . وتزداد شعبية الجامعة ، ويمكن الاشارة الى ذلك من الواقعة التى تقول أنه قدم تسعة آلاف طلب التحاق فى السنة لشغل ستمائة مكان . ويقول نائب مدير الجامعة بأن زهاء

٢٠٠ اخصائى من خريجى جامعة لومومبا يعملون رؤساء هيئات وعمداء كليات فى بلادهم . ومنهم فنكتا كريشنا ردّي من الهند الذى يعمل رئيسا لقسم الرياضة فى معهد التكنولوجيا فى كويمباتورى .

قلت لسوكولوف اننى مهتم جدا بمعرفة انطباعه عن الطلبة الهنود . وكنت سعيدا عندما امتدحهم لسلوكهم العام ولنظامهم ولنتائجهم الدراسية . وقلت اننى أرغب فى مقابلتهم ، فتساءل : « فى نفس الحجرة أم فى مكان آخر ؟ » وعبرت بأدب عن اختيارى لاجتماع منفصل . جاءت الفتيات والشباب الهنود ورووا بحماس كيف أنه تقدم لهم كل التسهيلات المتاحة بالجامعة . ولقد شاركوا فى الحياة الاجتماعية مشاركة فعالة ، وقدموا عروضا تمثيلية للمسرحيات الهندية ، وعروضا راقصة مما لقى استحسانا كبيرا .

وسألت نائب المدير عما اذا كان الطلاب الوافدون من مختلف البلدان متحدين عاطفيا . فأجاب سوكولوف قائلا انهم سرعان ما يتعودون على الروح الجماعية المميزة للحياة السوفييتية . فهم يسافرون فى الصيف الى اماكن نائية كأعضاء فى مجموعات تطوعية مختلطة من أجل المشاركة فى المشروعات التى تخدم السكان المحليين . وقد ساهموا مؤخرا فى بناء خط سكة حديد فى كاريليا — وهى منطقة غابات وبحيرات ، كما ساهموا فى بناء مجمع المعادن بسيبيريا وفى انشاء حظائر المواشى وفى انشاء مدرسة ووحدات سكنية فى كازاخستان . لقد كان الطلاب الهنود من أعضاء هذه المجموعات أيضا .

يكتب الطالب السابق حسين سيديبى من وطنه نيجيريا الى أستاذه فى الجامعة « ... ولسوف نعطى نحن الخريجون الأفريقيون كل المعرفة التى تحصلنا عليها فى الجامعة ، للقضية النبيلة فى

خدمة شعوبنا . فأكثر من ثلثمائة وثلاثين افريقيا وافريقية عادوا الى بلادهم كأخصائيين . وهم الآن يعملون فى ثلاثين دولة ... شكرنا الحار لمعلمينا ... » . قال مدير الجامعة مؤخرا : « عندما فتحنا أبواب أول معهد علمى عال دولى ببلدنا ، كنا نعلم اننا مقدمون على تجربة جديدة ... هل كان من الممكن تكوين مجتمع متلاحم من الشباب من مختلف الدول ذوى وجهات النظر المختلفة والخلفيات الاجتماعية المختلفة ..؟ ولقد واجهنا فى الواقع عقبات معينة ، ولكنها ما كانت من النوع الكؤود الذى لا يذلل بأى الوسائل . »

ولقد أعطيت الفرصة مرة ثانية لمشاهدة المزيد من المدارس والكليات عندما قمت بزيارة جمهوريتى طاجيكستان وكازاخستان فى الشرق .

المعلمون والآباء

يعتبر التدريس مهنة هامة ومشرفة فى الاتحاد السوفييتى . وقد منح حوالى ٢٥٠ ألف من المدرسين ميداليات وأوسمة . وعشرات الآلاف منهم اعضاء فى مجالس السوفييت التى منها مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتى . ولقد جعلتنى مناقشتى مع المدرسين مقتنعا بأن المدرسين يتقبلون مهنتهم على أنها مكرسة لغاية نبيلة . وهم بلا تمييز يحترمون شخصية الطفل ، وهم واعون لعدم زحف أى شىء لأسلوب تدريسهم يؤدى لتحطيم الروح التلقائية والابداعية التى تتواجد فى سنوات التكوين بوفرة . ليس هناك تفكير أبدا فى العقاب البدنى . وهو ممنوع أيضا . المدرس يحب التلاميذ . ولكل فصل مدرس خاص مسئول عن كل جوانب نمو الطفل .

ويقوم المدرس بدراسة كل طفل واقع تحت مسئوليته . مشاكله الخاصة ، احتياجاته ، النمو فى بناء شخصيته . ولقد تعرفت على مدرس كثير التدخين لم يدخن لعدة سنوات فى أثناء ساعات التدريس ، بغض النظر عن عدم ارتياحه وذلك حتى لا يقدم مثلا سيئا . وتبلغ عدد دروس فى الفصول العليا ثمانى عشرة اسبوعيا ، وفى الفصول الابتدائية ٢٤ درسا وذلك حتى لا يشعر المدرسون بأى اجهاد عقلى أو جسدى فى عملهم . ويتراوح عدد التلاميذ فى الفصل بين ٣٥ و ٤٠ تلميذا ، يقوم أحدهم بدور الألفة (العريف) . ويبلغ العدد الكلى للمدرسين أكثر من ٢٦٠٠٠٠٠ تشكل المدرسات منهم نسبة ٧١ ٪ .

وتبدأ مرتباتهم فى المدرسة الثانوية من ١٤٥ روبلا فأعلى .

ووفاء بالواجب بعثت الحكومة السوفييتية واللجنة المركزية للحزب الشيوعى رسالة مشتركة موجهة لمؤتمر المعلمين عبرتا فيها عن « الامتنان العميق لخدماتهم المتفانية » . وذكرت الرسالة : «ان المدرسين السوفييت ليشكلون الجزء الأكبر من مثقفينا المجيدين ، الذين يكرسون كل طاقاتهم ومعرفتهم لتعليم الجماهير العريضة من الشعب ، ويساهمون مساهمة كبيرة فى زيادة الثروة الروحية والمادية للمجتمع الاشتراكى » . ويحتفل المجتمع كله فى أول أحد من شهر أكتوبر كل عام بعيد المعلم . ويعبر الطلاب السابقون الذين استقروا فى حياتهم عن احترامهم لمدرسيهم القدامى فى هذا اليوم وذلك فى شكل هدايا ، حفلات ، خطابات ، وبرقيات . ولقد واتتنى الفرصة أن أكون موجودا بالاتحاد السوفييتى فى هذا اليوم . واقتنصت المناسبة لاستمع الى ذكريات بعض الناس فتكلموا جميعا باعزاز عن مدرسيهم الذين تحملوا آلاما

2—1849

قصوى من أجل تربيتهم تربية سديدة . ذكرتنى أحاديثهم ان المدرس هو حلقة وصل بين الأجيال ، فهو يختصر الفارق الزمنى ، أو كما عبر أحد رجال التربية السوفييت : « انه عداء التتابع الذى ينقل العصا من الحاضر للمستقبل . وهذا يجعل عمله جذابا وخلاقا حقا » .

يوجد أكثر من مائتى معهد تربية واربعمائة مدرسة تربية تقوم بتدريب أكثر من مليون مدرس. و « أوتشيتلسكايا جازيتا » (« جريدة المعلم ») هو اسم الجريدة اليومية للمدرسين والتى توزع بـ ١٢٠٠٠٠٠ نسخة . وترأس التربية أكاديمية العلوم التربوية التى أنشئت فى أيام الحرب ضد النازية ، وهى تصيغ السياسات وتختبر المشكلات . وفى سنة ١٩٧٢ كان عدد أعضائها ٥٢ عضوا و ٧٧ عضوا مراسلا . وحاليا ووفقا لبحوثها اختصرت مدة التعليم الأولى الى ثلاث سنوات فى المدارس آخذا بعين الاعتبار النمو المبكر للاطفال فى المجتمع المعاصر . يتم تصعيد بيانات المدرسة وخاصة فى مجال العلوم الى أعلى من أجل اجراء هذه البحوث . ويستدعى هذا اعادة النظر فى محتويات موضوعات الدراسة . وتضطلع الأكاديمية بهذه الغاية .

يعتقد رجال التربية السوفييت أن النجاح فى التعليم على نطاق شعبى يعتمد على كيفية ادارة المدرسة ادارة حسنة من أجل تنسيق جهودها مع الأسرة . وعلى ذلك يحافظ على الاتصال الفعال مع الآباء . فيقابل الآباء كمجموعة بصفة دورية مدرس أبنائهم . ويتم الاتصال بأولياء أمور الأطفال بالنسبة للمشاكل الخاصة بهم . وبعد مناقشتها ينسق الجهد من أجل معالجة الأخطاء . وتشرف مجالس الآباء على مجموعات الهوايات ، وتنظم الرحلات السياحية

على اختلافها ، وتقيم الحفلات المثيرة والمسابقات وتساعد التلامذة على تهيئة حجرات الدراسة والمعامل والمكتبات .

لكن يوجد بعض الآباء الذين تطغى عواطفهم على عقولهم . والنتيجة هى عاطفة بلا حدود تدلل الطفل وتشجعه على عادات لا تسير مع نغمة التربية بالمدرسة . وقد أثيرت هذه المشكلة بالنقد من مجلة الشباب . والقصة عن أب اصطحب ابنه الصغير الى حديقة الحيوان ومر به امام قفص النمر . ووقفا قريبا منه . أخذ الطفل فى دفعه للوراء قائلا «أبى ! اذا أكلك النمر ، من يقوم بعمل واجباتى المنزلية ؟». ويقدم التليفزيون والراديو برامج خاصة ، كما تظهر بانتظام المقالات بالصحف لاعطاء النظرة السديدة والمعرفة .

«البيت والمدرسة» مجلة واسعة الانتشار توزع بمليون وأربعمائة ألف نسخة . يفضل بعض الآباء حسب ظروفهم وصعوباتهم الخاصة الحاق أطفالهم بمدارس اليوم الطويل التى أدخلت مؤخرا . وفى هذه المدارس يبقى الأطفال بعد انتهاء الدروس ويتناولون غذائهم وشايهم بالمدرسة كما يقومون بأداء واجباتهم المنزلية تحت اشراف معلميهم . وتقدم هذه المدارس نجدة كبيرة للوالدين اللذين يعملان وليس لهما أقارب كبار السن فى البيت لاستقبال طفلهما الصغير عند عودته من المدرسة بعد الظهر . وفى ظل هذا النظام لا يترك الأطفال لأنفسهم ولا تكون لديهم الفرصة للتجوال بجوار بيوتهم دون رعاية . ويوجد أكثر من ٥٦٠٠٠٠٠ طفل حاليا فى هذه المدارس . ان الحلقة الثالثة فى نظام التعليم هم المواطنون السوفييت أنفسهم الذين يساهمون بفاعلية كممثلين فى مجالس السوفييت وبصفة خاصة كأعضاء فى لجانها التعليمية .

ان السمة المميزة للتعليم السوفييتى هى منهجه الذى يجمع بين الدراسات النافعة للعلوم وبين المضمون الروحى لموضوعات العلوم الانسانية . ويؤدى هذا فى خلال السنوات الهامة والخلاقة لنمو الطفل الى النمو المنسق لشخصيته . فتكرس له خلال السنوات العشر بالمدرسة ٣٧٤٥ ساعة للعلوم الانسانية و ٣٩٢٠ ساعة لأسس العلوم الطبيعية والرياضيات . وتخصص للدراسات الجمالية ٤٥٠ ساعة وللتربية البدنية ٧٠٠ ساعة وللتدريب اليدوى ٧٠٠ ساعة أيضا . يقول ميخائيل بروكوفييف وزير التعليم حول نمط التعليم هذا : «انه يرمى الى اعطاء أبناء مدارسنا أساسا سليما للتعليم العلمى ، ونظرة متطورة للحياة ، وتدريبا مهنيا يتفق مع المعدل المتزايد للتطور العلمى والتكنولوجى آخذين فى الاعتبار احتياجات المجتمع ، والقدرات الفردية للتلاميذ وميولهم ، وفى نفس الوقت لتأكد القيم الروحية والجمالية الأصيلة ، والتربية البدنية للجيل الأصغر» .

ويقول تيموفييف العضو المراسل بأكاديمية العلوم السوفييتية : «وليس بعيدا الزمن الذى ستتطلب فيه الظروف من الانسان القدرة على استخدام الآلات الالكترونية الحاسبة . ان زيادة الطبيعة التقنية والرياضية للمعرفة عملية طبيعية تفرض نفسها حتما على منهج المدرسة . واننى لمبتهج فى نفس الوقت أن أقول انه ينمو عند زملائى شعور بأن التعليم يجب ألا يركز فى المقام الاول على المجالات التقنية .

تكافح المدارس من أجل اعداد الناس الذين سوف يصبحون

أخصائيين أكفاء . هذا سليم للغاية . وتوجد هناك حاجة قوية خاصة لمتخصصين ذوى تعليم فنى . وهذا أيضا أمر مسلم به . وفى نفس الوقت وعلى الرغم من ذلك فان دور الفنون الجميلة فى التعليم يزداد ولا يتقلص . ولا يوجد فى هذا تناقض . فالأدب والتاريخ والفنون الجميلة هى الترياق الروحى الذى يمنع الناس من التحول الى مجرد منتجين ومستهلكين للخيرات المادية » .

يبدأ التعليم الجمالى فى روضة الأطفال حيث يقوم الأطفال بمساعدة مربياتهم بتشكيل رسوماتهم الأولى ، وتكوين الشواخص من الصلصال ، والمشاركة فى الرقص والغناء . يستمر تعليم الموسيقى فى المدرسة الثانوية لمدة سبع سنوات ، ويدرس خلالها التلامذة الغناء الكورالى واساسيات الموسيقى . أما الفن فيدرس لمدة ست سنوات . ولمساعدة التلامذة على اكتساب الذوق السليم ، يدعو كثير من المدارس مصممى الأزياء ومصممى الديكور الداخليين ليبينوا للتلاميذ ما الجميل وما القبيح . وتوجد خمسون كلية لتدريس الآداب والفنون. ويقوم نصف هذه الكليات باعداد الموسيقيين ذوى الكفاءة العالية . بالاضافة لذلك توجد ٣٢٠٠ مدرسة موسيقى تدرس حوالى ٥٠٠٠٠٠ طفل . وتقوم كليات الفنون الأخرى بتدريب الممثلين والمخرجين ونقاد المسرح والفنانين والمصورين والخطاطين والمؤلفين والناشرين . يوجد فى موسكو معهد لتلقين الجمال للأطفال . وهو يقوم بالبحوث فى هذا المجال .وقد أجرى على المتدربين فى المدرسة المهنية رقم ٧ فى منطقة سفردلوفسك استفتاء للتحقق من مفهوم الجمال والحسن عند الرجل وفى عمله . أجاب ٨٤٤ من ١٠٠٠ ولد وبنت ممن وجه لهم الاستفتاء بأنهم يحبون مقرر الجمال وأجاب ١٧ بأنهم لا يحبون هذا المقرر . ولم يجب الباقون على هذا



التمثال البرونزي لطالب امام الواجهة الرئيسية لجامعة موسكو التي تحمل اسم لومونوسوف .

السؤال أو كانوا يعطون اجابات مبهمة مثل « المقرر مفيد » « لا أعرف حقا » ... وهكذا .

وقليل من بين الذين اجابوا بالايجاب حصروا أنفسهم فى كلمة « نعم » فقط . لكن الأغلبية شرحت لماذا أحبت هذا الموضوع .

وقد علق النقاش نيكولاى بايداكوف قائلا : « أحب جدا دراسة الجمال . تمر ساعتى دراسة الجمال بسرعة جدا . أعتقد أنه لو درس كل الشباب الجمال فسوف يصبح مستواهم الثقافى أعلى » .

وأجاب متدرب آخر : « يعلمنا هذا الموضوع أن نخلق الجمال بعملنا الذاتى ، ويساعدنا على أن نرى ونتحقق من الجمال فى عملنا » .

وبالنسبة للموضوعات التقنية والعلمية نجد أن التركيز ينصب على جانب التدريب العملى وذلك لتقريبه من الانتاج الاقتصادى للدولة . وتقوم مدارس التدريب المهنى الزراعية بتدريب سائقى التراكتورات والآلات الحاصدة الدارسة والبناة ومربى المواشى وفنيى الرى ، والاخصائيين الكهربائيين . كما هى تهتم أيضا بقطاع الخدمات اذ تقوم بتدريب الخياطين ، والحلاقين وميكانيكيى السينما وعمال اصلاح الأجهزة المنزلية . ويرتبط التدريس فى الكليات بالحياة فى البلد عن طريق العديد من الروابط ، فعلى جميع الطلبة بما فيهم الذين يدرسون العلوم الانسانية القيام بالعمل الميدانى . فيقوم طلاب كلية الفلسفة بالتدريس فى الكلية التحضيرية . ويعمل طلاب كلية التاريخ فى الأرشيف والمتاحف . ويقوم طلاب كلية القانون بالتدريب العملى فى المحاكم . أما بالنسبة لطلبة كليات العلوم الطبيعية فانه من السهل عليهم اكتساب المعرفة العملية فى الوحدات الانتاجية والمعامل .

لقد واجه الانتقال الى نظام التعليم الثانوى الالزامى العام فى الاتحاد السوفييتى رجال التعليم بكثير من المشكلات . احدى هذه المشكلات هو كيفية الربط بين التدريب المهنى التخصصى مع التعليم الأساس الضرورى لكل فرد . ولقد حلت هذه المشكلة جزئيا عن طريق تطوير المدارس الثانوية المتخصصة والمدارس المهنية التى يحصل فيها التلامذة على التعليم العام شأنهم شأن تلامذة المدارس الثانوية العامة . فى نفس الوقت خطت مدارس التعليم العام خطوات لها اعتبارها نحو التزويد بالتدريب التخصصى وذلك بادراج مقررات اختيارية خاصة فى الرياضيات والمواد العلمية والتقنية والتدريب اليدوى ابتداء من الصف الثامن . ولقد طورت أيضا المدارس والفصول التى تزود بمقررات تخصصية فى الموضوعات المختلفة وتنظم المدرسة مثل هذه الدورات بالتعاون الوثيق مع الكليات وهيئات البحوث والصناعة . ويستدعى الاخصائيون المؤهلون من الخارج لالقاء محاضرات ، كما يعطى الطلاب الفرصة للعمل فى معامل حديثة رائعة . ولقد جعلت هذه المعايير التى اتبعت مؤخرا نظام التعليم الموحد أكثر مرونة .

وفى الاتحاد السوفييتى الذى يشمل أكثر من مائة قومية يدرس الأطفال فى المدارس بستة وستين لغة من لغاته . وللآباء حق اختيار اللغة التى سوف يدرس بها أبناؤهم وتشتمل مقررات المدرسة على تاريخ كل شعوب الاتحاد السوفييتى وجغرافية كل الجمهوريات السوفييتية . ويساعد هذا على أن يربى فى الأطفال والصبية الاحترام العميق لكل القوميات وتاريخها وثقافتها ، وتقاليدها القومية ، ويطور من مناخ الحياة فى أسرة كبيرة تقوم على الصداقة . وينظم التعليم مع الأخذ فى الاعتبار تماما كل ثقافة قومية . وفى المدارس العامة

التى تكون لغة الدراسة بها لغة محلية ، تدرس اللغة الروسية كلغة ثانية . وهذا يساعد على ايجاد وسيلة عامة للتعامل بين شعوب كل الجمهوريات الخمس عشرة المكونة للاتحاد السوفييتى . وتدريس لغة أجنبية واحدة أمر اجبارى أيضا . ففى الصف الخامس يختار الأطفال اللغة الأجنبية . وهم يختارون فى أغلب المدارس الألمانية أو الانجليزية أو الفرنسية أو الاسبانية . ان جعل التعليم عاما ، مشتملا ذلك على مناطق لم يكن لها فى العهد القيصرى حتى لغة مكتوبة ولا أى أثر لمدرسة يعتبر غاية عظيمة . ولكن تم اجتياز كل الحواجز فينظم التعليم بنفقات وعمل كبيرين ، ويصل حتى أجزاء نائية جدا ومختلفة .

منظمة الطلاب

لطلاب كافة المعاهد التعليمية العليا السوفييتية هيئاتهم التنظيمية . ويشترك ممثلوهم فى مجلس ادارة المنشأة التعليمية على قدم المساواة مع المسئولين والاساتذة . وتهتم هذه المجالس بالمشكلات الأساسية لأنشطة التعليم والبحث والطلاب أيضا أعضاء فى لجان القبول وكذلك فى الهيئات التى تقوم بتعيين الخريجين ومجالس بيوت الطلاب ، والاشراف على مطاعم الطلاب وعلى تقديم المنح الدراسية . ويشتركون اشتراكا كليا فى مناقشات المجلس فى المسائل المتعلقة باكتمال عملية التدريس والتطور الأكاديمى . وتنظم الهيئات الطلابية بصفة منتظمة الأنشطة الاجتماعية المفيدة ، وترتب مشروعات العطلة الصيفية الخاصة بخدمة الناس والتى عادة ما تكون فى المواطن النائية .

الوظائف

البطالة غير معروفة فى الاتحاد السوفييتى . فلا يرى المرء هناك شابا مؤهلا أو فتاة مؤهلة يلهثان بجنون مع والدين قلقين بحثا عن وظيفة ، وغالبا ما يخفقون فى الحصول عليها . والسبب هو الطابع المخطط للاقتصاد الاشتراكى . تقوم الجامعات والكليات ومدارس التدريب المهنى باعداد الاخصائيين وفقا للحاجات الفعلية للاقتصاد القومى وللمجال الثقافى . وتثار المشكلة أولا فى المدارس الثانوية . فالشباب يعد معنويا للعمل . ويطلع الشباب على المهن المختلفة وأساليب العمل . ويقوم الطلبة الذين على وشك التخرج بزيارة المصانع ، مواقع التشييد ، والمزارع الجماعية ومزارع الدولة حتى تتاح لهم فرصة اختيار المهنة الملائمة . وهم يلتحقون وفق رغباتهم بمدارس التدريب المهنى أو المعاهد التى تقوم بتدريس الموضوع محل الاختيار . ومع ذلك فان اؤلئك الذين يرغبون فى الالتحاق بالعمل بصورة مباشرة يمكنهم أن يتوجهوا للاستشارة الى لجنة الدولة الخاصة بالقوى العاملة فى أى جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفييتى والتى لها فروع تعمل فى كل منطقة واقليم . وتقدم نقابات العمال أيضا مساعدات أساسية للحصول على مهنة. ويضمن لكل خريجى المعاهد عمل فى نطاق اختصاصهم . وتتلقى الكليات طلبات لطلابها من أجل العمل فى وقت مناسب . يختار الطلاب أماكن عملهم المقبل عند اجتماعهم بلجنة الدولة وبحضور ممثلى المنظمات التى تقدم العمل لهم . وبعد تعيين الخريج يمنح شهرا اجازة وتذكرة سفر مجانية له ولأفراد أسرته . يتم تزويده بالسكن المناسب فى مكان عمله . وينص القانون على أنه ليس من حق الادارة فصله من عمله خلال السنوات الثلاث الأولى لتشغيله كما

أن من مسئولية الادارة مساعدته على أن يصبح اخصائيا جيدا . يوجد فى أغلب المشروعات الانتاجية مجالس للاخصائيين الشبان . ووظيفة هذه المجالس ليست فقط ضمان استقبال جيد لزملائهم الجدد ولكن أيضا مساعدتهم بكل طريقة ممكنة على بدء نشاط عملهم . فيناقش أعضاء المجالس مع القادمين الجدد ما هو المحل أو القسم أو المكتب الذى يرغبون العمل فيه وأى الأنشطة العامة سوف يحوز اهتمامهم . وبهذا يبدأ القادم الجديد حياته فى المكان الجديد فى جو مشجع وآمن .

الانفاق

جاء فى تقرير وزير المالية عن ميزانية الدولة بالاتحاد السوفييتى عن عام ١٩٧٣ أن التكاليف الجارية للمدارس وغيرها من منشآت الأطفال بلغت ١٢٢٠٠ مليون روبل . وقد لوحظ فى التقرير أن ما خص اصلاح وصيانة منشآت الأطفال من دور حضانة ورياض أطفال بلغ ٣٠٠٠ مليون روبل . وتخصص ميزانية الاتحاد السوفييتى ١٢٥ مليون روبل لمزيد من التحسينات فى الوجبات التى تقدم بالمدارس ، وفى منشآت الأطفال . وفى الاتحاد السوفييتى تبذل جهود كبيرة لجعل البضائع الخاصة بالأطفال مثل الأحذية والملابس الجاهزة ، وملابس الخروج رخيصة وفى متناول الجميع . فنجد على سبيل المثال أن وحدات انتاج الصناعات الخفيفة تزود بورش لانتاج سلع الأطفال حتى تباع بأسعار مخفضة . وتدفع الدولة لهذه المشروعات من ميزانيتها الفرق بين الأسعار العادية وبين أسعار البيع المخفضة . ففى عام ١٩٦٩ خصص مبلغ ٥٠٠ مليون روبل لهذا الغرض . وهذا يعنى أنه قد تم انفاق مبلغ ٥٠٠ مليون روبل زيادة لتزويد أطفال الاتحاد السوفييتى بملابس جيدة وأنيقة .

وتتبع الدولة كل الخطوات الممكنة التى تجعل بها انفاق الأسر على خدمة التعليم قليلا بقدر الامكان . لا توجد ضرورة لان يذهب الاطفال الى مدارسهم بالاتوبيس بل يذهبون مشياً وبهذا يوفرون الوقت والنقود . وكقاعدة تقع كل المدارس فى نطاق نصف ميل من مسكن الطفل وتقدم كل الكتب وأدوات الدراسة والامدادات المدرسية . باسعار منخفضة وتتكلف مجموعة الكتب الدراسية لتلميذ الصف السابع ثلاثة روبلات وسبعين كوبيكا (١٠٠ كوبيك تساوى روبلا واحدا) . وثمن الكراسة المكونة من مائتى صفحة يساوى ٢٢ كوبيكا وثمن القلم الرصاص كوبيكين . ويثمن الزى المدرسى بسعر منخفض لدرجة يكون عندها فى مقدور كل أسرة شراءه . ولسنا فى حاجة للنظر الى ما يدفع للمدرس مقابل دروس خاصة لأن المدرسة توفر ذلك فى داخلها . فتخصص للأطفال الذين يتخلفون عن المستوى العام للفصل ساعات تدريس اضافية لمعاونتهم على اللحاق بالباقين .

ولا يدفع التلاميذ الذين ينتمون لأسر ذات دخل منخفض أو ذات أعداد كبيرة مقابل معيشتهم فى المدارس الداخلية . ويدفع الآباء فى الأسر مرتفعة الدخل نسبة تتراوح بين ٣٠ و٧٠ ٪ من تكاليف المعيشة فى المدارس الداخلية وتكاليف الملابس. ويتراوح ايجار الحجرة فى المدينة الجامعية بين روبل وروبل ونصف فى الشهر وتتكلف الوجبات الغذائية فى مطعم الكلية ما بين ٨٠ كوبيكا وروبل فى اليوم ويزود الطلاب بكوبونات تكفل لهم التمتع بالراحة فى مصحة للاستجمام أو فى بيوت الراحة أو فى المعسكرات الرياضية . ويبذل كل جهد فى المدرسة لجعل التلاميذ فى صحة جيدة . فيوجد طبيب وممرضة فى خدمة مستمرة طول الوقت . كما أنه توجد بالمدارس

الكبيرة عيادات للأسنان . ويمر كل التلاميذ بفحص طبى دورى . والأطفال الذين يرى الأطباء أنهم ليسوا أقوياء يرسلون « لمدارس الغابة » الموجودة خارج المدينة حيث يكتسبون القوة بينما يواصلون دراساتهم ويساعد المدرسون ذوو الخبرة الطفل فى مستشفيات الأطفال وفى المصحات على مسايرة منهج المدرسة . أما بالنسبة للأطفال العاجزين أو المتخلفين عقليا فتوجد لهم مدارس داخلية خاصة . أما اليتامى وقد زاد عددهم بعد الحرب العالمية الثانية فيقيمون فى بيوت للأطفال ويمنحون جميعا منحا دراسية فى المدرسة الثانوية وفى الكلية .

يتناقض كل هذا تناقضا حادا مع الظروف فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث أن أبناء أسر العمال محرومون من التعليم العالى لأن رسوم التعليم فى غير مقدورهم فهى تبلغ ٧١٨ دولارا فى السنة فى المدارس الحكومية و ٢٥٠٠ دولار فى المدارس الخاصة المسماة بالمدارس العامة . وتوجد اعانات دراسية تتراوح بين ٢٠٠ و ٧٠٠ دولار ولكنها تمنح لعدد ضئيل من الأطفال . وتشير بيانات منظمة اليونسكو أن ٥٨ ٪ من التلامذة فى مدارس الولايات المتحدة هم من أبناء الأسر الغنية وأن ٢٠ ٪ من أبناء الأسر المتوسطة . أما الباقون ونسبتهم ٢٢ ٪ فهم من أسر العمال والأسر ذات الدخل المنخفض . بالاضافة الى تكاليف التعليم المرتفعة تمثل الطريقة المتبعة فى نظام التعليم عقبة أمام الطبقات الفقيرة . توجد فى بريطانيا والولايات المتحدة اختبارات لدرجة الذكاء فى المدارس الحكومية حيث يصنف الأطفال فى الفئات A ، B ، C . ويقول البروفيسور البريطانى المستر فرنون أن عدد الأطفال من أسر غنية الذين اجتازوا أعلى الاختبارات كانوا ثلاثة أضعاف عدد الأطفال من الأسر

الفقيرة الذين اجتازوا نفس الاختبارات . وقد اجتاز فى ولاية ايلينيوس بالولايات المتحدة الأمريكية الاختبارات لدرجة الذكاء ٢٣ بالمائة من أطفال الطبقات العليا ولم يجتزها احد من بين أطفال الطبقات الدنيا كما يصنف هذا النظام مدارس لفئات مختلفة . ويوزع الأطفال ذوو درجات الذكاء المنخفضة على مدارس تعدهم للعمل اليدوى أو العمل الذهنى البسيط . ويلتحق أبناء الأسر الغنية « بالمدارس العامة » دون اجتياز أية اختبارات . ولنعرض فى هذا الصدد لبعض الأرقام عن الناس الذين يشغلون اليوم وظائف عليا فى انجلترا ، فسبعة وثمانون بالمائة من الجنرالات و٨٣ ٪ من الأساقفة (المطارنة) و ٦٧ ٪ من كبار رجال الخدمة المدنية ، و ٨٥ ٪ من القضاة ، و٩٥ ٪ من كبار الديبلوماسيين و ٨٨ ٪ من السفراء هم من خريجى « المدارس العامة » .

ومن حيث المبدأ فان المدارس السوفييتية مفتوحة لكل شخص دون النظر لوضعه الاجتماعى أو أصله القومى أو العرقى . ولا يؤمن رجال التعليم هناك باكتشاف القدرات عن طريق اختبارات أولية مصطنعة . وهم يعضدون نمو الأطفال فى العديد من أنشطة الحياة ، كل حسب خطوته فالبعض بطىء والآخرون حثيثون ، البعض فى الدراسات النظرية والآخرون فى النشاط العملى . وبدلا من نظام درجة الذكاء ، تقدم المدارس السوفييتية تسهيلات للجميع على حد سواء انطلاقا من الفكرة القائلة بان عامل البيئة المحيطة بالطفل قد يساهم بقوة أكبر وفعالة فى التعويض عن المثالب التى قد تكون لدى الطفل وقد ترجع الى تربية الأسرة أو الى الوراثة ، أو غيرها من الظروف . ولقد نتج عن هذا المنهج توزيع عادل للمناصب العليا بين كل الطبقات .

نستطيع فقط أن نقيم تقييما تاما معدل التطور العظيم فى مجال التعليم عندما نعرض للظروف السابقة على الثورة . قبض بوليس القيصر على فلاحة تدعى آنانييفا لاشتراكها فى الحركة الثورية . كتبت الفلاحة فى اعترافها أن حلم حياتها هو أن ترى ابنها يلتحق بالمدرسة العليا . وعندما قرأ القيصر الكسندر الثالث اعترافها كتب ملاحظة جانبية . « انه لأمر مرعب حقا ـ فلاح يريد أن يرتفع للمدرسة العليا ! ». وفى مناسبة أخرى قال القيصر « الحمد لله » وذلك عندما علم أنه لا أحد من الفلاحين الذين يلحقون بجيشه يستطيع القراءة . كان التعليم العالى فى ظل النظام القيصرى مفتوحا فقط أمام الطبقات الغنية . وكان حوالى ثلاثة أرباع السكان أميين . وفى تخوم الامبراطورية الروسية التى تقطنها قوميات غير روسية كانت الظروف سيئة بصفة خاصة . وكانت نسبة من يقرؤون ويكتبون من سكان آسيا الوسطى ثلاثة بالمائة فقط . لقد بدأ حقا بعد الثورة عصر التعليم الشعبى .

ففى السنوات العشر الأولى بعد قيام السلطة السوفييتية من ١٩١٧ الى ١٩٢٧ محيت الأمية فعليا . لقد صدر فى عام ١٩١٩ مرسوم أجبر جميع السكان الذين تتراوح أعمارهم بين ثمانى سنوات وخمسين سنة على تعلم القراءة والكتابة وقد خفض يوم العمل ساعتين للمترددين على فصول محو الأمية مع صرف رواتبهم كاملة غير منقوصة . وشارك فى محو الأمية آلاف المعلمين والطلاب والموظفين . لقد كانت هناك حملة شاملة ضد الأمية . ففى عام ١٩٢٠ أدخلت الحكومة نظام التعليم العام الأولى الالزامى . وفى عام ١٩٤٩ أدخل نظام التعليم الالزامى على الصفوف السبعة . وفى

عام ١٩٥٩ أدخل نظام التعليم الالزامى على الصفوف الثمانية . وسوف يتحقق فى الفترة من ١٩٧١ حتى ١٩٧٥ الانتقال الى نظام التعليم الالزامى الثانوى . وقد وجهت هذه المراحل المختلفة بكثير من الصعوبات التى كان لا بد من التغلب عليها . لقد اتخذت فى العشرينات فى آن واحد مع حملة محو الأمية الاجراءات الرامية الى اعداد الاخصائيين الذين كان يحتاج اليهم بصورة ملحة الاقتصاد فى تطوره وعليه لقد نظمت الدورات الاعدادية فى « كليات العمال » حيث يحصل العامل-الطالب على التعليم المتوسط فى دورة مكثفة لمدة ثلاث سنوات بدلا من عشر يلتحق بعدها بالكلية .

وما زال مسجلا حتى الآن كيف أن الأساتذة المتعلقين باساليب العالم القديم كانوا ينظرون الى هؤلاء « الأطفال من السوقة » بازدراء . وفى قاعة للدراسة رأى أحد هؤلاء الأساتذة فتاة تحضر المحاضرة وهى ترتدى منديلا مربوطا حول رأسها بطريقة ريفية . قال الأستاذ موجها اليها الكلام بلهجة لاذعة : « أنت يا آنسة .. لقد جئت الى معبد العلم هذا كما لو كنت قد جئت الى شونة بهذه الخرقة القذرة حول رأسك . قولى لى من فضلك : هل تسمعين شيئا ؟ واذا كنت تسمعين ، هل تفهمين ما أتحدث عنه ؟ جمدت القاعة فى سكون مصعوق . أما الفتاة فقد تحركت فى ارتباك الى باب الخروج . عند ذلك وقف عامل وقال بلهجة وقورة هادئة : « نحن العمال العاديون نخجل لاجلك يا بروفيسور . لكن لا تخش شيئا فلن نمسك . لقد جئنا هنا لندرس ولسوف ندرس أيا كان الأمر فلا تضيع الوقت واستمر فى محاضرتك ».

أتى الغزو النازى للاتحاد السوفييتى بضرر كبير على الشعب ، ففى الأراضى التى احتلها النازيون قاموا بتخريب وتدمير ٨٥٠٠٠

مدرسة عامة وقد كان يتردد عليها قبل الحرب خمسة عشر مليونا من التلاميذ ، وكذلك ٣٣٤ معهدا عاليا وكان يتردد عليه ٢٣٠ ألف طالب و ٤٢٧ متحفا وعدة آلاف من المكتبات وغيرها من مراكز الثقافة .

يتعلم فى مدارس الاتحاد السوفييتى ٥٠ مليون طالب . ويقدر عدد طلاب المعاهد العليا بأكثر من ٤,٦ مليون طالب ويمثل هذا العدد ٤ أضعاف نظيره فى كل من بريطانيا وفرنسا والمانيا الاتحادية وايطاليا مجتمعة ، وهى الدول التى يبلغ مجموع عدد سكانها عدد سكان الاتحاد السوفييتى . ويقدر عدد مهندسى الاتحاد السوفييتى (٢٨٧ ألف مهندس فى عام ١٩٧١) ب ٥,٧ أضعاف نظيره فى الولايات المتحدة .

التعليم كأساس صلب

لقد حازت الانجازات ، التى ليس لها نظير ، فى التعليم السوفييتى الاعجاب الشديد لكل من درسها بدون تحيز . فقال الدكتور زاكر حسين رئيس جمهورية الهند الذى كرس كل حياته تقريبا لقضية نظام التعليم السديد بعد زيارته الرسمية للاتحاد السوفييتى : « نظرا لما قرأت وما سمعت وما رأيت ، أصبح واضحا بالنسبة لى أنه فى المجتمع العظيم الجديد الذى تبنونه فوق هذه الأرض ، فان الطفل والعالم والمعلم اذا جاز لى استخدام التعبير — فئات مميزة . والحق أنكم تبنون للمستقبل وقد اخترتم المعرفة العلمية والتعليم كحجر أساس تقيمون فوقه الصرح النبيل . وان تطلعاتكم وآمالكم وانجازاتكم لهى مصدر الهام للمعلمين والعاملين بالتعليم فى العالم كله ».

ويكتب أرنولد توينبى فى مناقشة « التعليم فى آفاق التاريخ » : « ان العقل البشرى المنفرد ضيق النطاق ، فهو لا ينجح أبدا سواء فى أن يلقى نظرة شاملة على سطح الكرة الأرضية كله أو أن يتحقق من داخل الكرة الأرضية حتى مركزها . ولكنه على الأقل لا يحتاج الى ان يفيد نفسه بأى من هذين المطلبين على وجه مطلق . فهو يستطيع أن يأخذ عينة من كل منهما وسيكون مثل هذه النزعة الكاثوليكية الثقافية تعليما حرا » . أما . ه . ج . ويلز فيرى فى كتابه « على هامش التاريخ » : « يصبح التاريخ الانسانى أكثر وأكثر سباقا بين التعليم والكوارث » . ويواجه نظام التعليم السوفييتى الأمرين فهو بالطبع حر وهو أيضا قادر على مواجهة « الكارثة » العالمية . ولتوضيح هذه الاعتبارات الأساسية يكتب وزير التعليم العالى والمتوسط المتخصص فى الاتحاد السوفييتى يليوتين « يشكل نظام التعليم السوفييتى نظرة الطالب المادية الى العالم الخارجى ويسلحه بمعرفة عميقة ومنهجية . وينمى قدراته على امتداد الخطوط الاجتماعية المفيدة . والى جانب تلقين الطلاب بالمعرفة واكسابهم الخبرة ، تشربهم المدارس العليا مستوى أخلاقيا . فتعلمهم العمل بضمير ، وتربى فيهم روح المسئولية الاجتماعية ، وعدم التساهل فى التعدى على المصلحة العامة ، وتربى فيهم روح الجماعية والتعاون المتبادل بين الرفاق ، والنقاء الروحى والدأب من أجل البساطة والتواضع فى الحياة العامة والخاصة وكراهية الظلم والطفيلية وعدم الأمانة والوصولية والجشع . لقد صممت عملية التدريب فى المدارس العليا بحيث تعطى الطالب المعرفة العميقة بالقوانين الأساسية للنمو فى الطبيعة والمجتمع وكيفية استخدامها استخداما صحيحا وخلاقا فى حياته وعمله » .

الفصل الثانى

البناة الشبان

كتب أنطون ماكارينكو المربى المعروف لاسهامه فى التربية السوفييتية يقول ان التعليم فى الاتحاد السوفييتى قد تحول من مجرد « معرفة واسعة النطاق لكيفية قضاء الحياة الى سلاح لبناء الحياة ». ولم يكن فى استطاعة المدرسة — بأية حال — توفير مثل هذا التعليم الشامل . وللقيام بهذه المهمة تكونت منظمة جماهيرية للشباب ... هى رابطة الشبيبة الشيوعية المعروفة باسم « الكومسومول ». وتمارس هذه المنظمة عملها على مستوى النطاق القومى للبلاد ، وعضويتها مفتوحة للأشخاص الذين تتراوح اعمارهم من ١٤ الى ٢٨ عاما . ويبلغ عدد اعضائها فى الوقت الحاضر ٢٩ مليون شخص . وترتبط بالكومسومول منظمة أخرى للفتيان الصغار وهى منظمة الطلائع ويبلغ عدد اعضاء المنظمة الأخيرة نفس عدد اعضاء الكومسومول تقريبا . ومنظمة الطلائع تضم الفتيان والفتيات من سن ١٠ الى ١٥ عاما . ومجموع عدد اعضاء المنظمتين ٥٢ مليون عضو ، وهو رقم بالغ الدلالة فى حد ذاته ، وهو أقل قليلا من نصف عدد سكان البلاد الذين تقل أعمارهم عن الثلاثين عاما .

واكمل ٥٠ فى المائة — تقريبا — من اعضاء الكومسومول تعليمهم العالى أو الثانوى . ويوجد من بينهم — حسب احصائيات عام ١٩٧٠ — مليون و ٨٠٠ ألف من المهندسين والفنيين والمتخصصين الزراعيين والمدرسين والأطباء والعاملين فى مجال الثقافة . وهذه

المنظمة الضخمة — التى تعتمد على العمل التطوعى وتضم بين صفوفها واحدا من كل اثنين من الشبان والشابات — قوة جبارة وهى تلعب دورا بارزا فى حياة البلاد . وتضطلع — فى جميع أوجه نشاطاتها — بدور تثقيفى مكمل لما تقوم به المدرسة . وهى تغرس بواسطة برامجها العملية القيم الخاصة بتشكيل المجتمع الشيوعى وتجعل ذلك جزءا من حياة اعضائها .

وقد جاء فى تقرير المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفييتى ما يلى :

« ومن الصعب تصور وجود قطاع من البناء الاقتصادى والثقافى لم تستخدم فيه طاقة أعضاء الكومسومول وابداعهم واندفاعهم . فان مشاريع البناء الطليعية التى يقوم بها أعضاء الكومسومول والمسابقات الجماعية فى المهارة المهنية لدى العمال الشباب وفصائل البناء الطلابية وفرق الشبيبة الانتاجية ومخيمات العمل والاستجمام الصيفية — كل ذلك أفعال ملموسة وهامة جدا يؤديها الكومسومول ، مرشد الشباب السوفييت .

لقد كانت المهمة الاساسية للكومسومول ولا تزال هى تربية الشبيبة بروح المبدئية الشيوعية والاخلاص لوطننا السوفييتى وبروح الاممية ، والدعاية النشيطة لاصول مجتمعنا وقيمه الروحية ».

البداية

تأسس الكومسومول فى عام ١٩١٨ . وكان ذلك خلال فترة الحرب الأهلية عندما كانت الحكومة الثورية للعمال والفلاحين تقاتل الاعداء فى الداخل — المتمثلين فى بقايا الطبقات الثرية . ووقفت الدول الرأسمالية فى العالم الى جانب المستغلين ومدتهم

بمساعدات ضخمة من اجل الاطاحة بالنظام الجديد . وفى الفترة ١٩١٨ ــ ١٩٢٠ بعث الكومسومول الى الجيش الاحمر أكثر من ٧٥٠٠٠ شخص . وبلغ مجموع من ساهموا فى الكفاح ضد المتدخلين والحرس الأبيض وقطاع الطرق حوالى ٢٠٠ ألف كومسومولى . وفى تلك الايام العصيبة كثيرا ما اغلقت ابواب مراكز اللجان المحلية للكومسومول ووضعت عليها اللافتات التى تحمل العبارات التالية : « تتوقف اللجنة المحلية عن العمل . فقد توجه جميع اعضائها للجبهة ». وارتدى الشبان والشابات ملابس جنود الثورة . وكان الجنود الجدد يحتلون على الفور اماكن الجنود الذين يصرعون . وكتب الشاعر أدوارد باجريتسكى عن تلك الايام فقال :

لقد كان الشباب هو قائدنا
للتضحية بالذات .
وكان الشباب هو الذى يلقى بنا
على ثلج كرونشتات .
وحملتنا خيول الفرسان
الى بعيد .
وفى ميادين موسكو
طرحت اجسادنا
ولكن بالدماء الحارة فى عروقنا
نهضنا من جديد .
ومع وجود الرصاص فى رؤوسنا
كنا نفتح أعيننا .

وكتب ألكسندر ميلتشاكوف ــ سكرتير اللجنة المركزية للكومسومول فى ذلك الحين ــ فى مذكراته عن دورة المؤتمر الثالث للمنظمة الذى عقد فى عام ١٩٢٠ . فقال : « كان عدد



رقعة على باب احدى اللجان المنطقية للكومسومول في عام ١٩١٩ : « اللجنة مغلقة . الجميع توجهوا الى الجبهة » .

المندوبين يزيد عن ٥٠٠ فرد ... وكان الكثيرون منا قد حضروا على التو من الجبهة أو من العمل التطوعى لاعادة تعمير ما خربته الحرب من معامل ومصانع أو من القرى النائية . وكان الشبان والشابات

يرتدون الملابس المتواضعة بل واحيانا الملابس الرثة .. وكانت الملابس السائدة تتألف من معاطف الجيش الواسعة وزى الجنود والقمصان الروسية البسيطة وقد حلتها أوشحة الرأس الحمراء التى ترتديها الفتيات » .

وقال لينين فى خطابه الشهير فى هذا المؤتمر : « ... ان الشباب هو الذى سيواجه بالاضطلاع بالمهمة الفعلية لبناء المجتمع الشيوعى ... ومن ثم فعند التعرض لمهام الشباب من هذه الزاوية ينبغى علىّ أن أقول ان مهام الشباب بصورة عامة ورابطة الشبيبة الشيوعية وغيرها من المنظمات بصورة خاصة يمكن تلخيصها فى كلمة واحدة هى « تعلموا »... ان على رابطة الشبيبة والشباب بوجه عام ان يتعلموا الشيوعية . وبدون العمل ، وبدون النضال ، فان الاكتفاء بالمعرفة النظرية للشيوعية المستقاة من الكتب والنشرات الشيوعية لا فائدة منه على الاطلاق ». وأكد لينين أيضا ان « فى الوسع أن تصبح شيوعيا فقط عندما تثرى عقلك عن طريق الاطلاع على جميع الكنوز التى صنعها البشر » .

ولم تستغرق الجيوش الشعبية وقتا طويلا فى القضاء تماما على القوى المعادية . وكانت المهمة التالية تتمثل فى اعادة تعمير اقتصاد البلاد والتحرك الى الامام فى طريق تنفيذ خطط التنمية الاشتراكية . وكان العالم الرأسمالى قد لجأ ــ بعد أن فشل فى تدخله المسلح ــ الى فرض مقاطعة اقتصادية شاملة تقريبا على البلاد . الاّ ان ذلك لم يوهن من تصميم الحكومة السوفييتية فشرعت فى عملية اعادة البناء واضعة ثقتها كلها فى قدرات شعبها .

وفى تلك الايام أصدر المؤتمر السادس للكومسومول الذى عقد فى عام ١٩٢٥ بيانا دعا فيه جميع اعضاء الكومسومول وشباب

الفلاحين والعمال الى ادراك ان « مهمة الجيل الجديد ــ الذى يرغب فى تنفيذ وصايا لينين ــ هى التغلب على الفاقة والدمار وجعل بلادنا ــ ومعها الانسانية قاطبة ــ سعيدة ، حرة ، تعيش بكدها ولكن فى بحبوحة .. والطريق الى ذلك يكمن فى تجميع جهودنا ، وحشد جميع قوانا المبعثرة فى النضال ضد الجهل ونقص الثقافة والتخلف الاقتصادى والفقر والتحيز والتعصب الاعمى والتكاسل وهما من مخلفات الماضى وانعدام المهارة والاهمال والافتقار الى الايمان بقدرة العلم والتكنولوجيا .... ولكى يتم ذلك ينبغى البدء من الاعمال الصغيرة البسيطة (مثلا اصلاح مبنى مدرسة أو القيام بحرث جماعى للحقول) الى التنمية الواسعة النطاق لصناعتنا واقتصادنا ، والتعاون بين كافة السكان والى كهربة البلاد » .

وكتب فاسيلى فاسيوتين ، عضو الكومسومول منذ انشائه وسكرتير لجنته المركزية من عام ١٩٢٢ الى عام ١٩٢٤ يقول : « اننى اتذكر فترة العشرينات عندما كنا نلبس الردئ من الملابس ولم نكن نأكل حتى الشبع ، ونعمل أيام « السوبوتنيك » الاختيارية (وهى اعمال تطوعية يقوم بها الشعب الواعى بواجبه بدون ان يتقاضى أجرا عليها) لاعادة تعمير المصانع وبناء الطرق . ولم نكن ننتظ اى مقابل مادى ، لأننا كنا نعلم ان الدولة ليست لديها اموال تدفعها » .

اثناء الحرب

وعلى اثر هجوم هتلر المفاجئ فى يونيو عام ١٩٤١ طرأ تغير حاد على برنامج الكومسومول . فقد انضم الملايين منهم الى القوات المسلحة من اجل مقاومة المعتدى وطرده خارج البلاد . وأصدرت المنظمة قرارا جاء فيه : « تدعو اللجنة المركزية للكومسومول

ان يكون كل عضو من اعضائها على أتم الاستعداد ، وهو ممسك بالسلاح فى يده ، للذود عن وطنه وشرفه وحريته ». وفى شتاء عام ١٩٤١ خيم الخطر على مختلف الجبهات . وفى جميع المواقع ، قاتل اعضاء الكومسومول الغزاة ببطولة . وشهدت مشارف موسكو فى شهر اكتوبر معركة ضارية . وكان أركادى بولويكتوف ، عضو الكومسومول وكشاف المدفعية يبحث عن مكان لينصب فيه مدافع بطاريته . ومن اجل ذلك زحف قريبا من مواقع الاعداء حتى يجعل قوة النيران أكثر فعالية. وفى هذه اللحظة اصابته رصاصة العدو . وبعد انتهاء المعركة وجد رفاقه فى جيب معطفه الرسالة التالية :

« عزيزى ساشا ، اذا ما قتلت فاكتب لاهلى واخبرهم اننى مت وقلبى سعيد. اننى ابغض الفاشية وابغض حثالة الفاشيست من لصوص وقتلة العالم . واذا كانت لدىّ حياة أخرى ، لكنت ضحيت بها أيضا . أخبرهم اننى فخور بأننى قاتلت فى هذه المعركة العظيمة .

وداعا ولا تنسنى .

أركادى بولويكتوف . »

وفى احدى القلاع الصغيرة فى سفاستوبول التى تعرضت لقصف شديد من جانب المدافع الالمانية وجد قتلى تسعة من المدافعين عنها من اعضاء الكومسومول وكلهم من البحارة . ووجدت رسالة فى داخل كمامة الغاز لاحدهم . جاء فيها :

« ٢٠ ديسمبر ١٩٤١ .

روسيا ، يا وطنى ، لقد حاربت أنا ابن كومسومول لينين وتلميذه ، كما أملى علىّ قلبى ، وظللت اقاتل الافعى

حتى آخر نبضة فى قلبى وفى صدرى . اننى احتضر ولكنى اعلم علم اليقين اننا سوف ننتصر .

يا بحارة البحر الأسود ، اقضوا على اللعنة الفاشية المجنونة . لقد وفيت بقسم الجندى حتى النهاية .

كاليوجنى ».

وداخل مدينة لينينجراد التى حوصرت لمدة ٩٠٠ يوم ، ساعد اعضاء الكومسومول — وهم جياع ويعيشون على مؤونة من الطعام لا تتعدى ١٢٥ جراما من الخبز يوميا — السكان طول الوقت . فقد عملوا على تقديم يد المساعدة للمرضى والمحتضرين داخل المنازل الكئيبة الباردة . وكانت المدينة تعانى من نقص المياه ، ولكن كان الفتيان والفتيات الشاحبو الوجوه ينتقلون من منزل لآخر لسد احتياجات المواطنين . وكانوا يجلبون المياه من المسافات البعيدة . وكان البعض منهم احيانا لا يعودون الى منازلهم لأن الحرب قضت عليهم . فقنابل الاعداء ونيرانهم تقوم بعملها .

ولم تخض الحرب ضد النازيين القوات العسكرية النظامية فحسب ، ولكن خاضتها فصائل الأنصار أيضا . ومع مرور الوقت ، أصبحت هذه الفصائل أكثر تنظيما وفعالية وراء خطوط الاعداء فى الاراضى المحتلة . وعمل اعضاء الكومسومول بنشاط بين صفوف الانصار وكانوا يشكلون جزءا كبيرا من قوتهم الضاربة . وبلغ عدد منظماتهم السرية أكثر من ٣ آلاف منظمة . وحارب فى واحدة من هذه المنظمات مدرس اسمه تيموفييف ومعه ابناه فلاديمير وعمره ١٧ عاما وجينادى وعمره ١٥ عاما . وكان الثلاثة معا يعملون على مدفع رشاش . ولم يعش فلاديمير طويلا . وسقط صريعا خلال هجوم شنه الانصار على الفاشيست تحت قيادته .

وعندما انتهت الحرب ، تذكرت البلاد بفخر ابطالها الشبان . وحصل ثلاثة ملايين ونصف مليون من اعضاء الكومسومول على أوسمة وميداليات الاتحاد السوفييتى لبطولتهم وبسالتهم . ومن بين ١١ ألفا من ابطال الاتحاد السوفييتى ، يوجد ٣٥٠٠ من اعضاء الكومسومول بينهم ٦٠ شخصا حصلوا على هذا اللقب مرتين .

ومن بين هؤلاء الابطال ، الفتاة نينا سوسونينا . فقد حاصر النازيون فى اغسطس عام ١٩٤٣ المنزل الذى كانت تساعد فيه أباها لاجراء عملية جراحية لاحد الانصار الجرحى . ونجح الأب والابنة فى صد المحاصرين لبضع ساعات حتى اشتعلت النار فى المنزل وهلك جميع من بداخله . لقد لقى الكثيرون من الجنود السوفييت والشباب مصرعهم خلال الحرب والكثيرون سقطوا صرعى فى اليوم الأخير اثناء القتال من اجل سقوط برلين . لقد هلكوا فى الوقت الذى كانوا فيه يحلمون بالعودة الى الوطن ولقاء أقربائهم وأعزائهم واستئناف حياة السلم والسعادة .

ابطال العمل

وبعد انتهاء الحرب ، أصبحت اعادة بناء الاقتصاد المنهار وتدعيمه مهمة على اكبر جانب من الأهمية على المستوى القومى . وتحول اعضاء الكومسومول — الذين كانوا على خطوط الجبهة وفى ايديهم البنادق — الى الانهماك بنفس الحماس فى العمل لاعادة تعمير المصانع والمزارع . وانضم اليهم الشباب السوفييت بوجه عام الذين لم يكونوا قد انضموا بعد الى عضوية المنظمة . وبدأت اعمال ضخمة فى سيبيريا والشمال والشرق الأقصى . وكانت السمة

المشتركة فى كل هذه الاعمال اشتراك الشباب النشط فيها . واليه يرجع الفضل فى بناء ٢٢ مدينة و١٤٠ مستوطنة فى تلك المناطق .

وشيدت فى أذربيجان ، وعلى الشاطئ الصحراوى لبحر قزوين « مدينة الشباب » — سومجايت — التى يبلغ معدل اعمار سكانها ٢٨ عاما . وخلال العقدين الماضيين ، ترك نحو مليونين من الفتيان والفتيات شققهم المريحة فى المدن وتسهيلاتها وذهبوا الى مواقع بناء المشروعات للمساهمة فى اعمال التنمية . ولم تعقهم — بأية حال — الظروف الصعبة فى الغابات الكثيفة فى سيبيريا والمناطق الثلجية الباردة فى أقصى الشمال . ولكن على عكس ذلك تماما ، فقد حفزتهم الى بذل جهود أعظم . وقد كتب ألكسندر ويرث ، احد الصحفيين البريطانيين البارزين فى كتاب ألفه بعد زيارة قام بها لروسيا فى عام ١٩٦٧ وقال انه خلال العمل الذى قام به افراد الكومسومول لبناء المركز الصناعى « كومسومولسك على آمور » فى وسط غابات الشرق الاقصى فى العشرينات ... لقيت اعداد كبيرة من الشباب المتحمس مصرعهم جوعا وبتأثير مرض الاسقربوط خلال الشتاء الأول من بدء العمل . وان المدينة القائمة الآن هى رمز على تضحياتهم بأنفسهم وبسالتهم وحبهم لوطنهم .

وقد أصبح الآن تقليدا متبعا للطلاب ان يجمعوا بين الراحة — خلال العطلات الصيفية — والعمل فى مواقع البناء . وهم يتوجهون فى مجموعات لمواقع المشروعات والمزارع الحكومية فى سيبيريا والشرق الأقصى أو للعمل فى حقول المزارع الجماعية المنتشرة حول المدن الكبرى . ويحصل الطلاب على أجر نظير أعمالهم الا ان ما يدفعهم الى العمل ليس الاعتبارات المادية بقدر احساسهم بالواجب ازاء المجتمع . وقد ساهم اكثر من ٧٠٠ ألف فتى وفتاة

فى استصلاح ٤٢ مليون هكتار (الهكتار الواحد يعادل ٢,٤٧ من الفدان) من الاراضى البكر . وبفضل سواعد هؤلاء الشبان شيدت محطات الطاقة وحفرت المناجم وبنيت المصانع فى مناطق سيبيريا . وليس مما يدعو للعجب اذن ان عشرات المدن ومستوطنات العمال ومئات المشروعات الصناعية والمزارع الجماعية والحكومية والمدارس ، بل حتى بعض السفن تحمل اسم الكومسومول . كما منح لقب بطل العمل الى الكثيرين من افراد الكومسومول .

فى المجالات الأخرى

وليس ثمة قطاع من حياة الوطن ، الّا وقد ساهم فيه الكومسومول بنشاطاته . ويقوم اعضاؤه بنشاط مكثف فى مجالات التربية والصحة ، وقضاء وقت الفراغ والرياضة والثقافة والانتاج فى المدن والريف على حد سواء .

ويساعد الكومسومول فى بناء مبانى المدارس وتجهيز معاملها وورشها . وهم يعملون أيضا على نشر التعليم عن طريق المراسلة والفصول المسائية ويرتبون للشباب وسائل التعليم المهنى . ولهم ممثلوهم فى لجان الاختيار للمدارس العليا والمجالس العلمية . ويقدمون المساعدة للمتخصصين الشباب للالتحاق بالوظائف المناسبة لهم . وهم يلعبون دورا نشطا فى نشر الثقافة الرياضية والالعاب الرياضية بين الشباب .

وهم يؤدون النشاط نفسه فى المؤسسات الثقافية والتربوية مثل النوادى وقصور الثقافة والمكتبات . وهم يجذبون قطاعات عريضة من الشباب الى هذه المؤسسات . ويقوم اعضاء الكومسومول انفسهم بالمبادرة فى تنظيم اللقاءات المشوقة والمسابقات بين الهواة والمهرجانات

والمناقشات فى « مقاهى الشباب ». وهدفهم من ذلك الاستفادة بأكبر قدر ممكن من وقت الفراغ المتزايد نتيجة لادخال نظام العمل خمسة أيام فى الأسبوع . وكانت اللجنة المركزية للكومسومول من بين منظمى مهرجان فنون الهواة على مستوى الاتحاد السوفييتى .

وفى مجال الاقتصاد الوطنى ، يقوم الكومسومول بتنظيم المباراة بين شباب العمال وكان من نتيجة ذلك أن جميع المشروعات الجديدة دخلت حيز التشغيل فى الأوقات المحددة لها . وبفضل العمل الدائب لاعضاء الكومسومول والشباب ، تم تحقيق بعض الانجازات قبل الوقت المحدد لها فى الأصل .

وفى عام ١٩٦٢ بدأت حركة شبابية جديدة اطلق عليها اسم « النور الكشاف للكومسومول » وبموجب برنامج هذه الحركة ، أخذ شباب الكومسومول على عاتقهم مهمة التقصى داخل وحدات الانتاج بهدف القضاء على اية سلبيات موجودة . ويساهم فى هذه الحركة بضعة ملايين من الشباب . واشتركت المنظمة أيضا فى حركة هامة أخرى ، فقد ساهم شباب المخترعين والمكتشفين وخبراء الترشيد الصناعى فى معرض المخترعات التكنيكية على مستوى الاتحاد كله .

وأشارت الى هذا الاسهام الهام اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى فى رسالة التحية التى وجهتها الى مؤتمر الكومسومول الذى انعقد فى عام ١٩٦٨ بمناسبة الذكرى الخمسينية ، فقالت « ان شبابنا العامل يرفع عاليا وبشرف التقاليد الثورية للاجيال الأكبر سنا للطبقة العاملة البطلة فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية ؛ انهم اتقنوا خبرة القدامى وفنهم فى الانتاج . وتزيد الآن السواعد الذهبية للفتيان والفتيات من العمال ثروة البلاد التى توفر الأساس

لتحسين مستوى حياة الشعب . انهم يضعون فى حيز التطبيق العملى الافكار المقدامة لعلمائنا ومصممينا » .

وبدأت مؤخرا بمبادرة من جانب رابطة الشبيبة الشيوعية حركة شبابية على المستوى القومى للبلاد لمعرفة كل شىء يتعلق بنضال الجيل السابق خلال الأيام العاصفة لعام ١٩١٧ والسنوات التى تلت ذلك والحرب الاهلية والتدخل الأجنبى ، وأيضا بشأن الفترة الحديثة خلال الحرب ضد النازية . وشكلت آلاف المجموعات لاكتشاف الطرق التى شهدت المعارك والسير فيها والقيام اثناء ذلك بجمع دقائق التفصيلات حول بطولة المحاربين . ويعمل المشتركون فى المسيرات من الشباب على ترتيب وتنسيق مدافن وقبور الجنود والتحقق من مصير المفقودين منهم . كما يعملون أيضا على انشاء النصب واللوحات التذكارية تخليدا للشهداء . كما يجتمع الشباب بقدامى المحاربين الذين ظلوا على قيد الحياة ويسمعون حكاياتهم الملهمة عن المعارك التى اشتركوا فيها مع زملائهم . ويطلق اعضاء الكومسومول على هذه الحركة اسم « مكتشفو الطريق » لارتياد الطرق التى سار على دربها ببسالة آباؤهم وأجدادهم . فى الفترة ١٩٦٦ — ١٩٦٩ أنشأ « مكتشفو الطريق » أكثر من ٦٠٠٠٠ متحف وحجر للمجد وأقاموا حوالى ٤٠٠٠٠ تمثال ونصب تذكارى ولوحة تذكارية .

ويعمد الكومسومول — من أجل توعية الشباب بالمفاهيم الأممية — الى تنظيم حكات التضامن مع الشعوب المناضلة فى مختلف انحاء العالم . ويعمل الشبان والشابات السوفييت خلال « أيام العمل والتضامن » فى مشروعات البناء فى سيبيريا والاراضى البكر والمصانع والمشروعات . وهم لا يتقاضون اجرا عن هذا العمل . والأموال التى يربحونها مقابل العمل تخصص لصناديق الاغاثة . ويعمل الاخصائيون

السوفييت الشبان بعيدا عن بلادهم فى المشروعات الوطنية للدول النامية فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وكذلك فى الدولتين الاشتراكيتين ، كوبا ومنغوليا .

ولدى الكومسومول كجزء من تنظيمه وحركته صحافة قوية واسعة الانتشار . وهو يصدر ١٦٠ صحيفة تابعة له ولمنظمة الطلائع الاحداث ب ٢٢ لغة . كما تصدر ٢٦ مجلة للشباب و ٤٠ مجلة للطلائع والأطفال . ويتضح مدى تنوع الموضوعات التى تتضمنها هذه الصحف من عناوينها فمن بينها الاسماء التالية : « يونوست » (« الشباب ») و « يونى تخنيك » (« التكنيكى الشاب ») و « يونى ناتوراليست » (« الطبيعى الشاب ») و « فيسيليى كارتينكى » (« الصور المبهجة ») و « مولودوى كومونيست » (« الشيوعى الشاب ») و « سمينا » (« الجيل الناشئ ») و « فوكروج سفيتا » (« حول العالم ») .

وتوجد أيضا دور للنشر تصدر العديد من الكتب . وهى تطبع — كسياسة ثابتة لها — مؤلفات شباب الكتاب الناشئين . وأصدرت « مولودايا جفارديا » (« الحرس الشاب ») وهى أكبر دار للنشر تتبع الكومسومول ٣٥٠ كتابا فى عام ١٩٧١ يبلغ مجموع ما طبع منها ٤٨ مليون نسخة . وتعتبر صحيفة « كومسومولسكايا برافدا » الصحيفة الرئيسية اليومية للشباب مؤسسة فى حد ذاتها بتوزيعها الذى وصل الى ٧٫٩ مليون نسخة . وهى تصدر فى أربع صفحات من حجم صفحات الصحف العادى ومقاسها ١٧ فى ٢٣ بوصة وهى مثلها فى ذلك مثل بقية الصحف السوفييتية لا تنشر الاعلانات . وتتضمن موضوعاتها المنتظمة مقالات تتناول مشكلات الشباب وأخبار نشاطات الكومسومول والرياضة والافلام

والمشكلات الاقتصادية للبلاد وكذلك موضوعات عن حركات الشباب فى الدول الأجنبية وأخبار آخر التطورات العالمية . وبالاضافة الى كل ذلك فهى تنشر رسائل للمحرر فتختار أكثر الرسائل تشويقا وأهمية من بين آلاف الرسائل التى يبعث بها الشباب يوميا . وتفجر هذه الرسائل مناقشات تجرى على صفحات الصحيفة وتعالج المشكلات العامة الملحة ويشترك فيها — علاوة على الطلاب وشباب العمال — الاطباء والمهندسون والكتاب والاكاديميون والوزراء .

وقد اقامت « كومسومولسكايا برافدا » معهدها الخاص لاستطلاع الرأى العام . وهو يجرى استقصاءات دورية بين الشباب بشأن المسائل الرئيسية فى السياسة والاقتصاد والثقافة والاخلاق . وقد تم استقصاء للرأى بالغ الأهمية فى عام ١٩٦١ واشترك فيه ١٧٤٤٦ شابا وشابة من مختلف الجمهوريات السوفييتية . وطلب فيه من هؤلاء الشبان ان يحددوا الصفات التى تميز الشاب السوفييتى المعاصر . وأجمع رأى الاغلبية على الصفات التالية :

— الوطنية
— التمسك بالاخلاق
— الصدق
— الاجتهاد
— الاخلاص للمفاهيم الشيوعية
— الرغبة فى المعرفة
— روح الجماعية
— النشاط
— الرغبة فى الجديد
— حب السلام ، والأممية .

4—1849

وتجرى الصحيفة أيضا مسابقة سنوية من اجل اختيار أفضل قصائد الهواة . ويشترك ألوف متعددة فى هذه المسابقة وتصبح — فى الغالب — القصيدة الفائزة شعبية تبعا لذلك . وفى عام ١٩٦٤ ، اعلن الحكام فوز القصيدة التالية التى تمجد روح الانسان التى لا تقهر :

ليس بوسع الاعمى ان ينظر بسخط
وليس بوسع الأخرس أن يصيح بغضب .
وليس فى قدرة من فقد يديه ان يحمل السلاح
كما ليس فى مقدور الذى فقد رجليه ان يسير فى المقدمة
ولكن فى وسع الأعمى ان يصيح بغضب
كما فى استطاعة الأخرس ان ينظر بسخط
ويستطيع من فقد رجليه ان يحمل السلاح
ويقدر من فقد يديه ان يسير فى المقدمة .

الايمان بالشباب

ان ثمة ايمانا كبيرا فى قوة وقدرة الشباب فى الاتحاد السوفييتى. ويتضح ذلك بجلاء من طريقة توفير كل الفرص للشباب للاسهام فى ادارة الأجهزة الحكومية . فقد اعطى الدستور الحق للكومسومول فى ان يقدم المرشحين للانتخابات . وفى عام ١٩٧٠ انتخب حوالى نصف مليون شاب كنواب فى مجالس السوفييتات على مختلف المستويات . من بينهم أكثر من ٢٦٠ ألف شخص عضوا فى الكومسومول ومن بينهم ٢٨١ نائبا يقل عمرهم عن ٣٠ عاما اصبحوا اعضاء فى اعلى هيئة تشريعية وهى مجلس السوفييت الاعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية . وعضوية مجالس السوفييتات لا تمنح فقط فرصة العمل من اجل المصالح الاساسية للشباب ولكنها تمنح أيضا التدريب على ادارة شئون الدولة .

وللكومسومول ممثلوه فى هيئات مجالس ادارة مختلف الوزارات واللجان الحكومية ، وسكرتيروه اعضاء فى هيئات مجالس ادارة عدد من الوزارات من بينها وزارة التعليم العالى والمتوسط المتخصص ووزارة الثقافة . وهو يشارك فى وضع مسودات مشروعات التنمية الاقتصادية الجارية والبعيدة المدى ومناقشتها ، وكذلك مشروعات القوانين والتشريعات الأخرى الخاصة بالشباب . وقد تم اقرار الكثير من القرارات الحكومية والمراسيم الخاصة بمشكلات العمل والتعليم وقضاء وقت الفراغ للشباب بناء على مبادرات واسهام من جانب اللجنة المركزية لرابطة الشبيبة الشيوعية . وتناولت هذه القرارات المسائل الخاصة بتشغيل خريجى المدارس الثانوية ومنح امتيازات لشباب العمال الذين يدرسون فى المدارس المسائية ، وتوفير التسهيلات الثقافية والرياضية فى مواقع البناء ، وانشاء مدارس مسائية لشباب العمال والمزارعين . وتشكل مجالس السوفييتات ، من المجالس المحلية الى اعلى المستويات — لجانا دائمة من النواب مختصة بشئون الشباب . ويتخذ اعضاؤها من افراد الكومسومول دائما جانب المبادرة بشأن مختلف المسائل المتعلقة بحياة الشباب . وخلال خمسة عقود ، هى عمر الكومسومول ، اكتسب نحو مليون شاب الخبرة السياسية والتنظيمية بين صفوفها .

وتوجهت من اجل الحصول على معلومات موثوق بها عن حركة الشباب ومفاهيمها — الى جنادى يانايف ، رئيس لجنة منظمات الشباب لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية وهى هيئة عامة تضم وفى الوقت نفسه تنسق اعمال مختلف تجمعات الشباب بما فى ذلك الكومسومول والطلائع ومجلس الطلبة لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية وجمعيات الشباب لاتحادات الكتاب والمؤلفين

والفنانين ، ولجان الشباب لاتحادات الجمعيات السوفييتية للصداقة مع الدول الأجنبية ، ومجلس السلام السوفييتى والاتحاد المركزى لنقابات العمال لعموم الاتحاد والمنظمات الرياضية . وتقيم هذه اللجنة اتصالات مع منظمات الشبيبة فى ١٣٠ دولة . وفى قاعة تناثرت فيها الدواليب المليئة بالكتب عن الاتحاد السوفييتى والدول الأجنبية ، وجدت يانايف فى انتظارى وبجانبه وقف مترجمه وهو شاب متحفز . وكنت قد سجلت بعض الاسئلة وسلمتها مقدما له من اجل تهيئه الفرصة لرئيس الشباب لكى يعطينى معلومات دقيقة حول أوجه نشاطات الشباب السوفييتى . وبدأ يانايف بقوله : « تختلف مشكلات وأنشطة وآراء الشباب السوفييتى نوعيا عن تلك الخاصة بشباب الدول الاجنبية والتى شاع عنها لفظ « قلق الشباب » . اننا هنا فى هذه البلاد نؤمن بآبائنا وبتقاليدهم الثورية . وأننا منهمكون فى بناء بلادنا ، ونعمل فى جميع ميادين اقتصادنا الاشتراكى وثقافتنا . ونحن نشكل قوة عمل تبلغ نسبتها العددية فى الصناعة ٥٠ فى المائة وفى مشروعات التشييد ٥٧ فى المائة ، وفى المجالات العلمية الجديدة مثل الالكترونيات وغيرها ٦٥ فى المائة . وهكذا فنحن محل رعاية من جانب الكبار بفضل تفانينا فى العمل واخلاصنا للقيم والمثل والتقاليد الاشتراكية . وخلال الحرب ضد النازية كان شبابنا فى كل الاماكن على خطوط الجبهة وفى حركة المقاومة . ومن بين مجموع ضحايا هذه الحرب البالغ عددهم عشرين مليون شخص كان عدد من هلكوا من الشباب من الجنسين الذين تقل أعمارهم عن ٢٨ عاما نصف هذا العدد ، أى تسعة ملايين ونصف المليون » .

وسألت يانايف عن وجهة نظر الشباب السوفييتى بشأن اتجاهات

حركات الشباب فى الدول الأجنبية . فأجاب بقوله ان من المؤسف انه بجانب التضحيات والنشاط الجم للشباب ، يوجد هناك بعض الأفكار السيئة التى تسيطر على أفكار الشباب . ومن بينها اليسارية المتطرفة التى تنطوى على الفوضى وترفض جميع القيم . ومن الاتجاهات الأخرى الابتعاد كلية عن السياسة والانغماس فى نشاط غير سياسى . والاتجاه الثالث يرمى الى تمجيد الشباب واعتباره قوة ثالثة فتية مكتملة النضج ومستقلة عن اى حزب وبعيدة عن اية تأثيرات بورجوازية سيئة . ويستفيد الرأسماليون بذكاء من هذه الاتجاهات ليدفعوا حركات الشباب الى السير فى طرق تتسم بالمغامرة وغير مؤثرة .

ومضى يانايف يقول : « لا توجد عندنا عبادة القوة وأبطال الجنس وأبطال النوم » . وتساءلت قائلا : « من هم هؤلاء أبطال النوم ؟» وضحك رئيس الشباب وقال : « هم فئة من الشباب الذين يعيشون منعزلين فى حجراتهم بدون ان يكون لهم اى اتصال بالحياة الواقعية ولكنهم يعتقدون طول الوقت انهم على علم بكل شىء » . وكان سؤالى التالى : « وماذا بشأن الصين ، وتشى جيفارا ؟» وبدت الجدية على يانايف ورد بقوله : « بالنسبة الى الصين فنحن على ثقة من ان سياسة حكومتها غير ماركسية وغير ثورية . ومع ذلك فنحن نأمل فى ان تتغير هذه السياسة فى النهاية وتصبح علاقتنا مع الصين طيبة من جديد . وهناك مثل صينى يقول : ان الله عندما يريد ان يهلك انسان ، يجعله مجنونا فى البداية . ان القيادة لن تظل الى الأبد هى نفسها . وبالنسبة الى تشى جيفارا ، فالشباب السوفييتى يكن له مشاعر الاعجاب لمواقفه الشريفة وتضحيته بنفسه وما ابداه من روح ثورية طول حياته . ونحن ننظم اجتماعات كل

عام لاظهار تقديرنا لاستشهاده » . وتقدمت بالاقتراح التالى ... لماذا لا يتم توسيع نطاق هذه الاحتفالات لكى تتضمن ابداء التقدير ايضا لأبطال آسيا وأفريقيا مثل باتريس لومومبا وبهاجات سينغ الذى سقط وهو يكافح من اجل القضية الاشتراكية .

وعندما التقيت — بعد ذلك — مع دميترى بولونسكى رئيس قسم الصحافة للجنة منظمات الشباب ، كانت أول جملة سمعتها منه قوله ان الشباب السوفييتى لا يطيق اى اتجاه بيروقراطى . وشرح لى عندئذ بالتفصيل كيف ان صحف الشباب التى توزع بالملايين من النسخ تقوم بدور المنظم والموجه للشباب . ويشجع القراء الشباب على التعبير عن وجهات نظرهم بحرية تامة عن طريق المقالات والرسائل التى يبعثون بها للمحرر ويناقشون فيها المشكلات الحيوية والمبادئ الرئيسية للبناء الاشتراكى فى بلادهم . ويدل نشاط الشباب كذلك على نمو روح المباراة .

التنظيم

والكومسومول منظمة اجتماعية-سياسية ذات استقلال ذاتى وهى تمارس نشاطها تحت قيادة الحزب الشيوعى السوفييتى ويعتبر اعضاء الكومسومول أنفسهم بمثابة مساعدين للشيوعيين . ومن حق منظمة الطلائع الاحداث والمدارس والشيوعيين ان يقترحوا قبول الأفراد فى عضوية المنظمة . ويتم تقديم بطاقة العضوية فى احتفال مهيب يقام عادة فى أحد الاماكن التى تحمل ذكرى ثورية وفى حضور قدماء المحاربين . ويتطلع الشباب الى هذا اليوم باعتباره شرفا كبيرا وحدثا هاما فى تاريخ حياتهم . وقد التقيت بأحد الاساتذة الذى صادف متاعب بشأن عضويته فى المنظمة عندما

كان تلميذا بالمدرسة . فقد تمكن وهو عمره ١٤ عاما فقط من الانضمام الى الكومسومول الذى يشترط لعضويته بلوغ العضو ١٥ عاما كحد أدنى . واكتشف الخطأ وكان عليه ان يواجه تهمة الكذب . وسئل ، لماذا كذب ؟ وأجاب وهو يبكى من فرط احساسه بالذنب انه كان متشوقا ليكون عضوا فى الكومسومول وكان على عجل للانضمام الى المنظمة بسرعة . واعفى من الطرد بناء على توصية مدرسيه فى المدرسة الذين شهدوا ان سلوكه كان ممتازا للغاية فى الدراسة .

ويشكل اعضاء الكومسومول ٧٠ فى المائة تقريبا من افراد الجيش والبحرية . ويرفع سلوكهم المثالى من درجة أداء الخدمة فى القوات المسلحة . وتحتفظ منظماتهم بعلاقات وثيقة مع المنظمات المحلية المدنية للكومسومول ومع شباب العمال والفلاحين . وهى تساعد على اكتساب نظرة صحيحة وتربية الرجال العسكريين على انهم ينتمون الى الشعب وليسوا جماعة عسكرية منفصلة قائمة بذاتها . وتبدى المؤسسات الصناعية والمزارع الجماعية والمعاهد رعاية خاصة لوحدات الجيش والاسطول وهذا يدعم من الرابطة بين المدنيين والعسكريين .

ويوجد فى كل مدرسة سكرتير من الكومسومول وعريف فى كل فصل . ويعمل الاثنان كوسيطين بين الادارة والتلاميذ . ويدخل السكرتير ـ الذى ينتخب سنويا ـ فى كثير من المدارس كعضو فى المجلس التربوى للمدرسة . وهو بهذا الاعتبار يساهم عمليا فى مناقشة جميع الأمور الخاصة بالمدرسة . ولا تتضمن مناهج المدرسة السوفييتية أية تربية سياسية . وتقوم بهذه المهمة اساسا منظمة الكومسومول فى مدارسها السياسية التى تشرف عليها بنفسها ،

وتدرس بها المبادئ الاساسية للماركسية وتطبيقاتها على المستويين القومى و الدولى .

وقد منحت الدولة السوفييتية ٦ نياشين لمنظمة الكومسومول على سبيل الاعتراف بالخدمات الجليلة التى قدمتها هذه المنظمة للأمة . كما حصل الكومسومول على حق التوصية بقبول الاعضاء فى الحزب الشيوعى . ونصف الذين يطلبون عضوية الحزب من بين صفوف الكومسومول .

وعقد المؤتمر السادس عشر للكومسومول فى موسكو فى شهر مايو (أيار) عام ١٩٧٠ . وكان عدد المندوبين ٤٦٨١ مندوبا من بينهم ٤٢ فى المائة من شباب العمال وفلاحى المزارع الجماعية . وكانت نسبة النساء ٤٥ فى المائة . ونسبة المندوبين الحاصلين على التعليم العالى أو الثانوى ٩٤ فى المائة . وكان من بينهم ٧٥ دكتورا فى العلوم و ٢٢ بطلا للاتحاد السوفييتى و٢٥ بطلا للعمل الاشتراكى و٤٢٩٥ حائزا على أوسمة ونياشين سوفييتية . وتحدث ليونيد بريجنيف السكرتير العام للحزب الشيوعى السوفييتى امام الشباب المجتمعين فى المؤتمر فقال :

«ان قدركم هوان تدافعوا عما حققه أباؤكم وان تنفذوا المخططات العظيمة للبناء الشيوعى. وانها لمهمة تتسم بالنبل والمسئولية والالهام . وصدقونى عندما اقول ان الوقت سيحين عندما يحسدكم اطفالكم واحفادكم لما تحقق من أعمال وانجازات على ايدى شباب السبعينات .

« ان الزمن يفرض قوانينه على الناس . ويرث الشباب عن الكبار . وهذا ما يحدث فى داخل نطاق العائلة وهو عينه ما يحدث على مستوى المجتمع . وان تغير الاجيال يتضمن العمل المشترك للناس الذين ينتمون الى مختلف الاعمار وهم يعملون جنبا الى جنب

ويدا بيد . ويحين الوقت لكل جيل لكى يحتل المراكز الرئيسية فى حياة المجتمع . وهذا الوقت قد حان بالنسبة لكم أيضا . ويثق الرفاق كبار السن بكم ويتوقعون منكم تحقيق اعمال بطولية جديدة وانتصارات جديدة فى مجالات العمل .

« اننا لا نستطيع تحقيق تقدم ناجح فى الحياة السياسية والاجتماعية فى بلادنا بدون مساهمة الشباب . ويشكل الكومسومول قوة جبارة . وهو يضم اليوم بين صفوفه العمال والطلاب وفلاحى المزارع الجماعية والعلماء ورواد الفضاء والمدرسين ... ويهتم الحزب بان يكون البناة الشباب للشيوعية من ذوى الثقافة العالية والتفكير الخلاق » .

وتحدث أيضا فى المؤتمر قنسطنطين فيدين ، أحد كبار كتاب الاتحاد السوفييتى وأحد المسئولين فى الاتحاد العام للكتاب . فقال « ان لدينا اهدافا مشتركة تتمثل فى الاسهام النشط فى البناء الشيوعى والصياغة المستمرة للانسان الجديد . فدعونا اذن نكون مخلصين لواجبنا العظيم حتى النهاية ــ نثقف الانسان ونبنى الشيوعية حتى يتحقق نصرها النهائى » .

دراسات اجتماعية

نشر عدد من الصحف التى كانت تصدر فى روسيا القيصرية فى عام ١٩١٣ وأوائل عام ١٩١٤ استقصاء للرأى وجهه لقرائها يتضمن أسئلة عن معنى السعادة المثالية فى رأيهم . وأجاب ٩٧ شخصا من بين مجموع الذين أجابوا على الاستقصاء وعددهم ٥٥٠ شخصا انهم سعداء وقال ١٦٤ شخصا انهم غير سعداء . وذكرت طالبة تبلغ من العمر ٢٤ عاما وتأخذ دروسا فى اللغات الحديثة

فى معرض اجابتها « ان لفظ السعادة ينبغى ان يمحى من قاموسنا لانه لا يوجد مثل هذا الشىء الذى يسمى سعادة » . ووافقها على ذلك موظف شاب يعمل فى سيبيريا بقوله : « انه ليست ثمة سعادة أو معنى للحياة ذاتها . وأين هذه السعادة فى الوقت الذى يقيم فيه كل انسان استقراره على كوارث الغير . ان المجانين فقط هم السعداء (فحياتهم هى السعادة الحقة) وكذلك الناس الذين هم أسوأ من الوحوش والذين لا تتأثر قلوبهم عندما يجوع الآخرون أو حتى يهلكون » .

وقال مدرس يبلغ من العمر ٢٧ عاما فى اجابته « لكى اكون سعيدا ، احتاج الى المثل التى تشبع عقلى وقلبى وتلهمنى » . وتظهر الاجابات على هذا الاستقراء للرأى الذى جرى فى ١٩١٣/١٩١٤ ان اغلبية الشباب فى روسيا قبل الثورة كانوا يعتقدون ان السعادة المثلى تكمن فى المال . فقد ذكرت فتاة تبلغ العشرين من عمرها « ان السعادة تعنى الثروة . المال .. والمال فقط هو السعادة والمال هو أيضا الوسيلة لتحقيق افضل القيم فى الحياة » . وقالت فتاة أخرى عمرها ١٧ عاما : « السعادة هى المال .. المال .. المال » .

وفرق شاسع بين هذه الاجابات والاجابات التى رد بها الشباب السوفييتى خلال الدراسات الاجتماعية التى جرت مؤخرا . فقد ذكر ــ خلال استقراء للرأى ــ ٤٠٦ أشخاص فقط من مجموع المشتركين فى الاستقصاء وعددهم ١٧٤٤٦ شخصا ، ان المال هو الشرط الرئيسى للسعادة . وهم يشكلون فئة قليلة للغاية بالقياس الى مجموع المشتركين فيه . واكدت دراسة أخرى قام بها الكومسومول هذه النتيجة ودلت اجابات الشباب على السؤال التالى « ما هو فى رأيك اهم شىء لتحقيق السعادة ؟ » على انهم يعتقدون ان من اكثر

الأشياء أهمية أن يمارسوا عملا مشوقا لهم فى الدرجة الأولى (وكان ذلك نسبة ٥٤,١ فى المائة) ويلى ذلك وجود علاقات طيبة فى الأسرة (نسبة ٤٨,٦ فى المائة) وبعد ذلك ان يكونوا محل احترام الغير وغير ذلك. وجاء فى المرتبة الخامسة فقط الضمان المادى (وكانت نسبته ٣٦,٩ فى المائة).

وأظهرت اجابات الشباب على السؤال: «ما هى – فى رأيك – الحوافز الرئيسية التى تكمن وراء تصرفات الشباب مثلك ؟» ماهى المثل التى يؤمن بها الشباب السوفييتى. وكانت اجابات الكثيرين منهم (نسبة ٣٧,٢ فى المائة) على النحو التالى «رغبتهم فى ان يكونوا ذوى نفع الى اقصى حد للآخرين» وذكر ما نسبتهم ٨,٦ فى المائة منهم فقط «الطموح والسعى وراء المصالح الذاتية».

وطلبت صحيفة يومية للشباب تصدر فى مقاطعة جوركى من قرائها ان يكتبوا لها باختصار عن حياتهم. واستجابة لذلك وردت للصحيفة خطابات عديدة تحتوى على اجابات مشوقة. فكتب يرماكوف يقول «ابلغ من العمر ٢٢ عاما، ومع ذلك أشعر اننى عشت حياة كاملة، على الرغم من عدم وجود شيء غير عادى فيها كما لم أفعل شيئا خارقا. فأنا مجرد عامل يفخر بعمله. فقد أصبحت بعد دراسة ثمانى سنوات صبى عامل معادن وعمرى ١٦ عاما. وواصلت دراستى فى المدرسة المسائية. وانا اليوم عامل تعدين مؤهل فى مركز للترولى باص». وجاء فى خطاب كتبته تاتيانا شفيتسوفا قولها «أعمل مساعدة بائعة فى محل يبيع السلع وقطع غيار السيارات. ويعتقد البعض ان العمل فى المحلات وظيفة سهلة. فكل ما تفعله ان تستطيع الجمع وتبتسم للمشترين. ولكن هذا غير صحيح. فاليوم يحتاج عمال المحلات الى ثقافة شاملة

تزيد عما يحصل عليه المرء فى المدرسة الثانوية وقد تحققت من ذلك بعد أن بدأت عملى بوقت قصير. ولهذا فأنا الآن أدرس بالمراسلة فى معهد التجارة السوفييتية».

وشرح احد الاطباء – وأسمه أليكسى كوروليوف لماذا اتخذ الطب مهنة فقال فى رسالته «كل انسان له مثله وكل شاب يشرع فى اختيار طريقه فى الحياة يبحث عن شخص يتخذه قدوة له. وكنت محظوظا اذ كان هذا الشخص موجودا فى عائلتى .. كان أبى – البروفيسور بوريس كوروليوف، الجراح وعضو اكاديمية العلوم الطبية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية ... وعندما طلب منى ان اساعده فى احدى عملياته .. أدركت مدى الثقة التى وضعها فىّ ... وسأبلغ هذا العام الثلاثين من عمرى ... وخلال حياتى الشابة حصلت على التعليم العالى وعملت لمدة ٦ سنوات فى احدى العيادات وقمت بنحو ٥٠٠ عملية. وأحضر الآن رسالة فى الدراسات العليا». وكتب احد القراء واسمه أناتولى سافينكوف يقول «تعلمنا الحياة دروسا عديدة، وغالبا ما تجد نفسك تقدح ذهنك فى تصنيفها. الاّ أن هناك شيئا واحدا انا مقتنع به تماما وهو ان اهم شيء فى الحياة ان تكون مفيدا للآخرين. وهذا هو مثلى الأعلى بكل ما فى الكلمة من معنى. وهذا هو الدرس الذى تلقنه الحياة وما علمتنيه ايضا تجربتى الخاصة».

وكانت من بين الكتاب راقصة باليه، ليونورا زلوبينا. وكتبت الملحوظة التالية «انه من الصعب وصف «جيلى» بكلمات قليلة لأن هذا الجيل يتألف من ملايين الشباب والشابات، كل واحد منهم له هدفه فى الحياة. ومع ذلك فهناك شيء واحد نشترك فيه جميعا وهو: أننا نسعى الى تحقيق شيء يستحق منا العناء. واضرب

بنفسى المثل . فقد كنت دائما أرغب فى ان أصبح راقصة باليه . وعملت وكدحت بشكل شاق واخيرا نجحت فى امتحان الدخول لمدرسة الباليه .. وأنا الآن اعمل فى المسرح لمدة ٧ سنوات .. ٧ سنوات من العمل الشاق والمشوق فى اداء الأدوار الجديدة .. ولا يزال عندى الكثير من المشروعات لرقص أدوار جديدة وأسعى الى تحقيق انجازات جديدة فى مهنتى التى اعشقها والتى تدخل السرور الى قلوب اعداد لا نهاية لها من المتفرجين ».

ايليا اهرنبورج

كتب الكاتب السوفييتى المشهور ايليا اهرنبورج المعروف بأفكاره المتحررة غير التقليدية قبيل وفاته عن الشباب فى بلاده فقال :

« بصراحة ، لا اعتقد ان هناك اى عداء بين الاجيال فى اى مكان فى العالم . فى الغرب يوجد عداء طبقى . وانا اعتبر المشكلة بين الآباء والابناء ليست اكثر من تفاوت فى العادات والأذواق . وعندما كنت شابا ، لم نكن نمارس الرياضة بمثل هذا الحماس الذى يمارسها به شباب اليوم . وكنا نرقص على نحو مختلف . واذا ما طلبت اليوم من الشباب ان يرقصوا الرقص الذى كان شائعا فى أيام شبابى فأنا على يقين من ان دعوتى ستقابل بالفتور . وتغيرت الأذواق أيضا فى الفن . فكثير من الاشياء التى اعجبت بها وعمرى ١٥ عاما أصبحت الآن من قبيل الآثار التاريخية . وهذا التغير أمر طبيعى للغاية . فاذا ما قلنا ان الجيل الجديد لا يختلف عن جيلنا ، فكأننا ننكر فترة النصف قرن من وجود الاتحاد السوفييتى .

« واكثر ما اعجب به فى شبابنا هو موقفه الانتقادى من الحياة . ان الشباب لمتلهف على فهم جوهر ما يدور حوله وأن يكون له تأثير

على سير الاحداث ذاتها . وكثيرا ما أسمع الشكاوى من اساتذة الجامعات والمدرسين بأنه من الصعب معاملة الشباب . وهذا حقيقى الى حد ما فالجيل الجديد لا يأخذ الأمور على علاتها . وفى رأيى هذا شىء جميل للغاية . وعلاوة على ذلك ، فلدى الشباب ميزة كبرى على الجيل السابق لهم فيما يتعلق بالثقافة . فعندما كان آباء اليوم شبابا ، كانت عملية توفير الثقافة للشعب قد بدأت لتوها . وعندما تصبح الثقافة ملكية للمجتمع كله ، فهى تتطور فى البداية على السطح وتتقدم عن طريق توسيع نطاقها وليس عن طريق تعميق جذورها ... وهذا التطور للثقافة بالتوسع الافقى على حساب التعمق فيها استمر حتى نشوب الحرب تقريبا . وبعد الحرب أصبحت الثقافة الكمية ثقافة نوعية اى ان المواطن السوفييتى العادى اخذ يتطور الى شخص ذى ثقافة اكثر عمقا ولا تزال العملية مستمرة ، وبالتالى أصبح المستوى الثقافى لشباب الخمسينات والستينات اعلى بكثير من مستوى آبائهم .

« وبطبيعة الحال للشباب نقاط ضعفه أيضا . فلأول مرة فى حياة الاتحاد السوفييتى يتمتع الشباب بحياة سهلة نسبيا ، وأخذ الشباب يتعود بسرعة على هذه الحياة . وكثيرا ما ينظر الكبار الى الصغار باعتبارهم « المدللين الاعزاء » ولكننا — على ما يبدو — لا نرى الاشياء فى وضعها الصحيح . وقد كنت عضوا فى احدى اللجان المكلفة باختيار قصائد للنشر للشباب الذين قتلوا خلال الحرب . وكان لهؤلاء الشعراء أيضا مستوى من الحياة أفضل من المستوى الذى عاش فيه آباؤهم . وأتذكر انهم أيضا كانوا يعتبرون « ضعافا » الا ان الحرب اثبتت انهم حقيقة اشداء فى صلابة الصلب وليست بهم اية عيوب اخلاقية . ويبدو لى ان هناك الكثير من أوجه الشبه

بين شباب الشعراء فى الأربعينات والستينات . فاذا ما دعت الحاجة ، فان الأخيرين سيثبتون انهم لا يقلون شدة وصمودا عن آبائهم . لقد ورث الشباب من الجيل السابق ميراثا ثوريا من الأفكار حول تحولات المجتمع . وليس ثمة خلاف بين الجيلين بشأن ما ينبغى ان يكون عليه المجتمع السوفييتى . ويدرك الشباب انهم ليسوا مهندسى هذا المجتمع الجديد ، فقد صممه وبناه آباؤهم وتقتصر مهمتهم على جعل هذا الصرح أكثر راحة وامتاعا للعيش فيه . وفى هذا الصدد توجد أوجه شبه مشتركة بين شبابنا وآبائهم اكثر مما بينهم وبين الشباب فى الغرب الذين يختلفون معهم فى كثير من المسائل الجوهرية .

« لا يوجد ثمة مجتمع لا يتقدم ، وليس ثمة جيل يعيش على ما ورثه فقط من الجيل السابق له . ان مثل هذا الجيل سيكون جيلا ولد ميتا . اننا أنشأنا صرح المجتمع فى ظروف صعبة للغاية فقد حاول البعض تدميره ، وخلال الحرب تعرضنا لكوارث تفوق طاقة البشر . وعندما انتهت الحرب كان علينا أن نبدأ من جديد . ومرة أخرى كان علينا ان نفكر فى الأساسات وفى مواد البناء . اما الآن ، فالوضع مختلف . فالجيل الجديد عليه أن يفكر بشأن كيف يعيش فى هذا البناء ، وكيف يجعله اكثر جمالا ، وما هى الاشياء التى ينبغى ان يضعها فيه . فالزمن تغير وتغيرت معه المشاكل . فعندما كنا نبنى « ماجنيتوجورسك » أو عندما كنا نحارب فى الخنادق ، كان علينا أن نفكر أولا وقبل أى شىء آخر بشأن خبزنا اليومى . وسيكون من الغباء تخيل أن الشباب سيعجز عن مواجهة المشكلات الأخرى المختلفة عن المشكلات التى واجهتنا . واحداها مشكلة الاخلاقيات الجديدة . فالأخلاق الشيوعية تتطلب اقامة علاقات

جديدة بين البشر . وهذه مهمة معقدة وصعبة للغاية ولا يمكن انجازها بمجرد ترديد الشعارات . والامر يحتاج الى وقت وتحليلات دقيقة وجهود جدية ونوع من الالهام . وعندما ينجز الشباب هذه المهمة ، سوف نحسدهم نحن الآباء » .

لا يوجد هيبيز
ولا يوجد متمردون

اذا نظر المرء الى الدول الغربية ، فانه يجد انواعا من العبارات الجديدة الشاذة تنتشر بين الشباب تحت أسماء متعددة مثل « تيدى بويز » و « مودز » و « روكرز » و « البيتلز » و « سكين هيدز » و « الهيبيز » . وتنتشر المجموعة الأخيرة انتشارا واسعا فى الولايات المتحدة . وارتحل افرادها فى اعداد كبيرة الى مختلف دول العالم . وتشترك جميع هذه الجماعات فى عدد من الخصائص . فهم فوضويون فى سلوكهم ، وهم خارجون عن المألوف فى اللبس والأخلاق وطرق معيشتهم . ويغلب عليهم الاتجاه الى اللجوء الى العنف . وهم دائبو التجول ساعين وراء الملذات السهلة غير مبالين بالقيم الاخلاقية المتعارف عليها أو بمعايير السلوك الاجتماعى . وكثيرا ما ينغمسون فى الجنس البحت بدون حياء لالتماس النشوة والهروب من الملل بصورة مؤقتة . وأصبح تناول المخدرات عادة لديهم . وهذه الجماعات اخذت — الى حد ما — تلوث الجو النقى العام لمجتمع الشباب . وانتشرت بواسطتهم عمليات تعاطى المخدرات والتجارة فيها على نطاق واسع فى الولايات المتحدة وأصبحت تشكل هناك مشكلة قومية .

وقد ذكر الرئيس نيكسون فى رسالة خاصة بعث بها الى الكونجرس

فى عام ١٩٧٠ ان هناك زيادة تبلغ ٨٠٠ فى المائة فى عدد الشباب الذين القى القبض عليهم لتعاطى المخدرات خلال الاعوام القليلة الماضية وأضاف يقول ان زيادة انتشار العقاقير تشكل تهديدا متزايدا للرخاء العام فى الولايات المتحدة . وأشار الى ان بضعة ملايين من شباب الكليات الأمريكية مارسوا تعاطى الماريخوانا والحشيش وعقار الهلوسة (ل . س . د) وحامض البربيتوريك . ويؤدى تعاطى هذه العقاقير الى ارتكاب اعمال بالغة الوحشية ، كما يشير الى ذلك التقرير الذى اذاعته وكالة اسوشيتد بريس الامريكية بشأن احدى الحوادث البشعة التى وقعت فى كارولينا الشمالية فى عام ١٩٧٠ . فقد قام أربعة قتلة ، ثلاثة رجال وامرأة شقراء ، كانت تمسك بشمعدان ، بطعن طبيب وزوجته وبنتيه الصغيرتين وعمر كبراهما ٦ سنوات والأخرى عامان ... بطعنهم جميعا بالخناجر حتى الموت بينما كانوا نائمين وكان القتلة ينشدون خلال عربدتهم الأثمة « الحامض عظيم » و « اقتلوا الخنازير » بينما هم يوجهون الطعنات المتتالية . وكلمة « الحامض » هى اللفظ الشائع لدى هذه الأوساط للدلالة على عقار الهلوسة (ل . س . د) .

وفى بريطانيا ، اصدر مجلس العموم فى مارس عام ١٩٧٠ قانونا لمكافحة انتشار المخدرات للحد من الادمان عليها . وذكرت لجنة من الخبراء البريطانيين ، بعد دراسة اجرتها على عقار الهلوسة انه من المحزن للغاية ان الاغلبية العظمى من متعاطى هذا العقار أشخاص تقل أعمارهم عن ٢٥ عاما . وقالت اللجنة أيضا ان الحافز للقتل يشكل أحد الحالات العقلية التى يولدها العقار . وأشارت الى ان الجزء الأكبر من الكميات الموجودة من عقار الهلاسة فى بريطانيا قد تم تهريبها من الولايات المتحدة فى شكل كابسولات أو حبوب

5—1849

وهى تحمل أسماء مميزة مثل « الضباب القرمزى » و« الابتهاج الأزرق » .

وتحدث مستر كينث كيتينج السفير الامريكى فى الهند فى مؤتمر صحفى عن ظاهرة الهيبيز فقال « ان بعض الهيبيز الذين تحدثت معهم كانوا مثاليين ومثقفين . وهم لا يحبون العديد من الأشياء التى يقوم بها جيلنا . ولن أخوض كلية فى ادانة الهيبيز بوجه عام . فهم يعيشون على هامش الحياة ويتسكعون بلا هدف » . ولم يشرح المندوب الامريكى لماذا اختار مثل هذا الشباب المثالى والمثقف ان يعيش على هامش الحياة . وهو لا يستطيع ان يفعل ذلك لأنه ممثل رسمى للولايات المتحدة .

ان اغلب الشباب فى الولايات المتحدة يشعر بالاشمئزاز من المجتمع الذى يحيط به ، مجتمع اللامساواة الصارخة ، وتزايد البطالة ، مجتمع اللاأخلاق والتمييز العنصرى . وهم يرون الكبار يلجأون دوما الى الفساد كطريقة للنجاح فى المجتمع ويسعون وراء القوة من اجل التحكم فى الآخرين . وتكون ردود فعل الشباب على مثل هذه الحياة الفارغة على اشكال متعددة . تهرب الأقلية منهم من المجتمع نفسه . وبالنسبة لهؤلاء ، تهيئ لهم معيشة الهيبيز وما على شاكلتها وسائل للهروب . الا ان اغلب الشباب لم يختر مثل هذه الطريقة الهروبية فهم يتخذون موقف المعارضة بشدة ، وفى بعض المناسبات ، يعلنون التمرد على الأوضاع التى يعتبرونها جائرة حتى ولو كان ذلك يعنى التضحية بحياتهم . وقد شهد عام ١٩٦٨ — بنوع خاص — موجة من انتفاضات الطلاب التى اكتسحت أوربا الغربية والولايات المتحدة ، وفى داخل الحرم الجامعى اشتبك الطلبة مع البوليس وهم يطالبون بتحسين حالة التعليم وجعله ذا هدف وبمساهمة

الطلاب فى ادارة كلياتهم... وخرجوا الى الشوارع أيضا فى مجموعات اشترك فيها الألوف للاحتجاج ضد الحرب فى فيتنام واضطهاد الزنوج فى داخل الولايات المتحدة .

وفى فرنسا ، بدأت حركة الطلبة من اجل اصلاح نظام التعليم وتطورت بسرعة الى حركة قوية للشعب كله من اجل المناداة بحكم ديمقراطى ليبرالى فى البلاد . وقام الطلبة بانتفاضات مماثلة فى ألمانيا الغربية .

فاذا قلنا ان مثل هذه الانتفاضات القوية للطلبة ترجع الى الصراع بين الاجيال فحسب فاننا نأخذ بوجهة نظر سطحية . فهذه الاعمال لها أسباب أعمق من ذلك . انها أساسا تمرد غير محدد الطريق من جانب الشباب ضد القيم المادية المعوقة المفروضة عليه ، وهى تفرض عليه أيضا تحت ستار من الرياء والنفاق المستمرين . وفى بيان يتسم بالصراحة نشرته صحيفة « نيو يورك تايمز » تحدث جورج كينّان السفير الامريكى السابق فى الاتحاد السوفييتى عن شباب بلاده . فقال :

« ... اننى لا أرمى الى تسليط الضوء على المشاعر المتأججة التى ترك لها ان تسيطر على الطلبة ، اننى لم أشهد اطلاقا فترة فى الحياة القومية الامريكية اكثر خطورة واكثر تهديدا واكثر حسما من الفترة الحالية . كما لا أقصد الى التلويح بأن فى وسع اناس مثلى ان ينظروا الى مثل هذا السخط من برج عاجى بدون اكتراث . وما من أحد منا يستطيع ان يجد المعاذير — وهو يحاول تلمس وسائل الاتصال بهؤلاء الشباب — اذا لم نعترف ، فى معرض تبرير تعاستهم ، بمسئوليتنا الخاصة عن وجود مثل هذه التعاسة ، واذا لم نقرن مناشدتنا لهم بالاستعداد للانضمام لهم فى محاولة ايجاد حلول أفضل .

« واننى لأدرك ، ان وراء كل هذا التطرف وكل هذه الاخطاء الفلسفية وكل هذا التقوقع حول الذات والشذوذ فى الملبس والتصرفات ... ادرك ان علينا هنا ان نعرف اننا نتعامل مع أشخاص قلقين ، وغالبا مرضى يستغيثون ، وهم يتصرفون — على اية حال — بحكمة أو بتهور بدافع من الاخلاص والمثالية ومدفوعين فى ذلك بعدم الرغبة فى قبول حياة بلا معنى ومجتمع لا هدف له . وكم سيكون جميلا ، اذا استطعنا نحن وهم — اى الخبرة من جانب ، والقوة من جانب آخر — ان نضم صفوفنا » .

لم توجد ظاهرة الهيبيز ولا انتفاضات الطلبة فى الاتحاد السوفييتى لأن الظروف هنا مختلفة تماما . فالآفاق الرحبة مفتوحة امام الشباب يختارون منها ما يشاؤون لحياتهم . ويشعر الشبان والشابات انهم سادة اقدارهم ، فلا توجد امامهم اية صعاب اقتصادية أو اية ظروف اجتماعية محيطة تسد طريقهم . وهم يجدون فى آبائهم والكبار نعم المرشدين الذين يساعدونهم بحدب على ان يعيشوا حياة لها معنى يجمعهم كلهم هدف مشترك هو تحقيق السعادة للفرد وللمجموع . وهم يتلقون خلال فترة دراستهم فى المدرسة والكلية التعليم بالمجان ويعاملون باحترام وحب ، وقد أتيحت لهم كل الفرص للمساهمة فى حل المشاكل الهامة التى تؤثر على تعليمهم . وعندما ينتهون من دراستهم ، يتقلدون الوظائف التى تنتظرهم ، حيث لا توجد ثمة بطالة فى الاتحاد السوفييتى خلال الأربعين عاما الماضية . فكيف اذن يمكن ان يكون هناك اى سبب لعدم رضائهم ؟ ومن الناحية الأخرى ، تجد مثلهم العليا وطاقاتهم المتفجرة المسالك جاهزة للسير فى الاتجاهات المثمرة . وهم ليسوا متحمسين لحاضرهم فحسب ، ولكنهم يتطلعون الى الامام ويثقون كل الثقة فى المستقبل .

وجهت صحيفة « أنباء موسكو » السؤال التالى « كيف سيكون مستقبل العالم » الى عدد من الشباب من مختلف المهن .. واشتملت اجاباتهم على تصورات مثيرة . فقد كتب الكاتب القيرغيزى الشاب زولون ماميتوف فى رده يقول : « ان حياتنا تتغير – بفضل التقدم العلمى والهندسى – بسرعة فائقة الآن ، الامر الذى يجعلنى اخشى التكهن بما سيحدث خلال الخمسين عاما القادمة . الآ أننى موقن من ان حياة الناس فى المستقبل ستكون جميلة وأكثر روعة . فسوف يطير ابناء بلدى – من قيرغيزيا – بالطائرات الصاروخية من برارى تيان شان لحضور حفلات الافتتاح فى مسارح موسكو ويعودون الى منازلهم فى اليوم نفسه .... وبطبيعة الحال .. اننى عندما افكر فى المستقبل ، فاننى افكر – قبل كل شىء – فى العلاقات بين الدول والأمم . واعتقد انه ستكون هناك عائلة متحدة واحدة تضم جميع الامم وتعمل من اجل التقدم العالمى والسعادة والرفاهية ».

وذكر ألكسندر تاراسوف الذى كان يدرس فى معهد الهندسة الالكترونية بموسكو « ان من الطبيعى اننى افضل الحديث عن العالم الجميل فى المستقبل (وأنا على يقين من انه سيكون عالما جميلا) كما اراه من خلال مهنتى والهندسة الالكترونية هى مهنة المستقبل . ففى هذا العالم ستتولى الماكينات الالكترونية والاجهزة المتكاملة لمثل هذه الماكينات ادارة الانتاج . ولكن الآلات ستظل آلات وسيظل الناس بشرا . ومن الصعب – طبعا – التحدث عن الناس الذين سيعيشون بعد مائة أو مائتى عام من الآن ، الآ انه مما لا شك فيه انهم سيكونون على مستويات عالية من التعليم والثقافة والذوق الحديث . وستنهار حواجز الغربة ، التى قامت خلال التاريخ

العاصف للبشر . كما سيتلاشى أيضا نزوع الانسان الى الابتعاد عن المجتمع . وستستخدم كل طاقة الانسان وجميع مواهبه الى اقصى حد من اجل تقدم المجتمع » .

وأجاب ايفان اندروسوف ، سائق جرار فى مزرعة « أول مايو » الجماعية الواقعة فى مقاطعة موسكو على السؤال فقال :

« ... سيغير الانسان من وجه الطبيعة فسيكون هناك المزيد من الغابات والبحيرات والبحار من صنع يد البشر . وسيعيش البشر حتى سن ١٢٠ عاما . وخلال فترة شبابهم ، سيسافرون بكثرة الى مختلف قارات العالم وسيزورون أيضا الكواكب الأخرى . وسيكرس البشر سنى حياتهم الوسطى للعمل ، وسنواتهم فى الكبر للفنون والآداب » .

وكتبت أولجا بوتورناييتيس ، عارضة الافلام فى فيلنوس ، تقول :

« اننى أرى المستقبل البعيد – قبل أى شىء آخر – يسوده السلام والحياة بدون خوف من الحرب . لقد علمت من والدتى ما هى الحرب . فهى قد قاست الكثير فى معسكرات النازى وقتل الفاشيست أباها وأخاها امام عينيها . ولن يعرف الجيل القادم كوارث الحرب ، كما لن يعانى من الامراض الخطيرة – فالعلم سوف يتكفل بالقضاء على الفيروسات وجراثيم الامراض ... وهذا يعنى ان الناس سيكونون سعداء ومرحين للغاية » .

وقالت لوبوف تشيركيسوفا – الوقادة فى مصنع فلاديمير ايليتش للهندسة الكهربائية بموسكو :

« ان عالم المستقبل سيكون عالما بدون حروب واستغلال ، وفيه ستستخدم جميع الاموال التى تنفق حاليا على التسلح من اجل رفاهية الشعب ومكافحة الامراض وغزو الفضاء .. الذى ربما يذهب

اليه الناس لقضاء شهر العسل . لقد ترك آباؤنا وأجدادنا الاشتراكية .. هذا الميراث الذى لا يقدر لجيلنا ، ولاطفالنا ولابنى ساشا ، سوف اترك الشيوعية ، اكثر المجتمعات عدالة على الأرض . سيحقق العمل انتاجية عالية وستكون هناك وفرة فى الثروة المادية . ولن يعتبر العمل فى ظل الشيوعية عبئا ، وسيكون ضرورة و بهجة لكل انسان ... وستقل ساعات العمل الى الحد الادنى ، وستتكفل الماكينات الآلية بأداء الاعمال المنزلية ... وسيؤدى كل ذلك الى توفير وقت فراغ طويل للعائلة لاستغلاله فى تنشئة الاطفال وتنمية الشخصية الفردية ، والنهوض بالكفاءات والمواهب فى الفن والأدب . وستكون العائلة كبيرة العدد . فليس ثمة سبب لكى يخطئ الآباء فى اختيار احدهما للآخر . فالحب فى ذلك الوقت سيكون خاليا من أى تصنع .. كان يفرضه عالم الاستغلال ونتيجة للحرمان من الحقوق والنضال طول حياة الانسان من اجل البقاء . ان المشاعر القوية الدائمة ستصبح فى المستقبل الخط الطبيعى لكل قلبين حبيبين » .

الطلائع

تتبع الكومسومول ، منظمة الطلائع للصغار التى تضم الفتية والفتيات من سن ١٠ الى ١٥ عاما وهى تنتشر فى جميع ارجاء الاتحاد السوفييتى . وهى ــ مثل الكومسومول ــ بدأت بداية بسيطة للغاية فى صبيحة الثورة . فقد شكل ٥٢ فتى وفتاة أول مجموعة للطلائع وكان ذلك فى موسكو عام ١٩٢٢ . الا ان هذا العدد تضاعف بعد اشهر قليلة الى بضعة آلاف . وكان على الطلائع الصغار فى تلك الايام الأولى ــ بالاضافة الى تفانيهم فى الدراسات المدرسية ــ أن يقوموا بمهمات هامة أخرى ، كان الكثير منها له اهمية وطنية .

فكان هناك نقص فى المعادن ولذلك قام الطلائع بجمع الخردة . وساعدوا فى انشاء المزارع الجماعية وعلموا آباءهم القراءة والكتابة ومع كل ذلك ، فان الاطفال ــ حتى فى تلك الايام العصيبة ــ كانوا يمارسون أيضا الهوايات المسرحية والرياضة .

وكانت الحرب ضد الفاشية محنة كبرى سواء للكبار أو للصغار . فخلال الغارات الجوية ، كان الصغار ــ مثل الآباء والأمهات ــ يقفون على سقوف البنايات لاطفاء القنابل الحارقة . وتبرع الصغار بدريهماتهم التى اقتصدوها لبناء الطائرات والدبابات . وهذه ليست مساهمة اسمية ، لأنه كانت هناك دبابات بالفعل فى الجبهة وقد نقش على صحائفها المسلحة العبارات التالية : « طلائع موسكو الاحداث » و « طلائع باشكيريا الاحداث ». وانضم العديد من الطلائع الى فصائل الأنصار ومنح مئات منهم الأوسمة والميداليات . وأنعم على اثنين منهم بلقب بطل الاتحاد السوفييتى . وقد حصل على هذا الشرف ليونيد جوليكوف الذى كان يبلغ من العمر ١٤ عاما لأسره ضابطا ألمانيا بارزا برتبة جنرال كانت حقيبته تحتوى على خطط عسكرية .

ويبلغ اليوم عدد الطلائع ٢٥ مليون فرد ويضمون بين صفوفهم كل طفل تقريبا يبلغ سنه العمر المحدد للعضوية وللمنظمة هيكل تنظيمى ونظام داخلى . واعلى جهاز للطلائع هو المجلس التنفيذى التابع للجنة المركزية للكومسومول . وتوجد فى جميع المدارس مجموعات للطلائع مقسمة الى فصائل وسرايا تصرف شئونها بنفسها كأجهزة منتخبة فيما عدا قادتها وهم فى الغالب من المدرسين الشبان . وللطلائع زيهم ورموزهم الخاصة بما فى ذلك شعار الطلائع والرباط الاحمر وشارة الطلائع ، والبوق والطبل . ولهم سلامهم الخاص وتحيتهم

الاجبارية التى تقول « كن مستعدا ! » — « دائما على استعداد ». والرباط الاحمر المثلث يرمز الى وحدة الاجيال الثلاثة : اعضاء الحزب الشيوعى واعضاء الكومسومول ثم الطلائع .

ويتضمن النظام الداخلى للطلائع البنود التالية :

« الفتى الطليعى يحب وطنه .

« الفتى الطليعى يحترم ذكرى الذين ضحوا بأرواحهم فى النضال من اجل حرية بلادنا .

« الفتى الطليعى صديق لجميع الاطفال فى جميع انحاء العالم .

« الفتى الطليعى محب للنظام ومهذب ومجتهد .

« الفتى الطليعى يحب العمل ويصون الثروة القومية .

« الفتى الطليعى رفيق طيب ، يرعى الاطفال الصغار ويساعد الكبار .

« الفتى الطليعى ينمو غير هياب ولا يخشى المصاعب .

« الفتى الطليعى يعشق الطبيعة ويحافظ على الخضرة والطيور النافعة والحيوانات .

« الفتى الطليعى مثال طيب لجميع الاطفال » .

وتمارس منظمة الطلائع انشطة متعددة الجوانب تغطى ميادين الرياضة والتربية الجمالية ، والعمل الجماعى المثمر ، والموسيقى والمسرح وكذلك الأدب ووسائل الترفيه ورحلات الصيد . وهى تعمل على تنمية عنصر المبادرة فى اعضائها وتساعدهم على ان ينموا فتية وفتيات مخلصين ، شجعان وسعداء . وهى أيضا تلقنهم دروسهم الوطنية الأولى ، وتعلمهم كيف يعتبرون الأمور العامة — فى نطاقهم — كأنها أمورهم الخاصة .

ولكى تقوم المنظمة بكل هذه الأنشطة ، وضع تحت تصرفها ٩ آلاف مخيم و ٤ آلاف قصر للطلائع وبيت وناد ، وأكثر من ألف مركز تكنيكى ومحطة لهواة الطبيعة الصغار وكذلك مئات من مراكز السياحة والرحلات والمدارس الرياضية والملاعب ومسارح الاطفال والمتنزهات وطرق السكك الحديدية والسفن البخارية .

ويشارك الطلائع ، فى كل مكان فى المدن والقرى ، فى العمل مع الشعب . فهم يساعدون فى جمع المحاصيل وزرع الاشجار حول المدرسة والمساعدة فى بناء الملاعب ، وتنظيم الحدائق والمتنزهات وجمع الاعشاب الطبية والخردة المعدنية كما يقدمون يد العون فى مكافحة الآفات الزراعية والمساعدة فى دور الحضانة ورياض الاطفال . ويساهم الآباء والأمهات — فى أغلب الاحيان — فى الاعداد والمشاركة فى الاجتماعات التى يعقدها الطلائع . وهم ينظرون الى أعمال ابنائهم نظرة جدية وباحترام . فانهم جميعا تقريبا كانوا طلائع فى طفولتهم وهم يشعرون بالاغتباط عندما يشاهدون ابناءهم وبناتهم يخطون الخطوات الأولى فى حياتهم الاجتماعية . وهم يلاحظون برضى كيف ان كلمات مثل « اننا فعلنا ذلك » و « اننا نود ذلك » و « نريد ذلك » و « مجموعتنا » و « فصيلتنا » و « اغنيتنا » تتكرر باستمرار عندما يتحدث الطلائع الاحداث عما يقومون به .

وتتألف مخيمات الطلائع من منازل دائمة أو خيام وقد اختيرت لها أجمل البقاع فى البلاد ، وفيها يقضى الاطفال من سن السابعة الى الرابعة عشرة أجازاتهم . وفى كل مخيم مسرحه فى الهواء الطلق ومكتبته وملاعبه الرياضية وشاطئ الاستحمام على ضفة النهر أو على شاطئ البحيرة أو البحر ، وله أيضا كرمته ومعمله

ومختبره . وهذه المخيمات تملكها النقابات والمدارس والمزارع الجماعية وقد تم اخيرا تقسيم هذه المخيمات ـ على أساس من التجربة ـ الى نوعين . الأول على النمط الرياضى والنوع الثانى على نمط المصحة . فالاطفال ذوو البنية السليمة وكبار التلاميذ يذهبون الى النوع الأول . وهناك يعيشون فى خيام ويمارسون مختلف الأنشطة الرياضية كما يقومون برحلات الصيد . أما النوع الثانى من المخيمات فهو بمثابة مصحات للصغار والاطفال الضعاف . وفى هذه المخيمات يكون التركيز على وضع نظام خاص ملائم وطعام مغذ وتوفير العلاج الطبى وهذا من شأنه تحسين الصحة والحالة العامة للاطفال الضعاف الاجسام وخاصة فى اعقاب العمليات الخطيرة أو المرض . ومجموع من استجموا وعولجوا فى عام ١٩٧٢ فى مخيمات الطلائع ومراكز الرحلات والسياحة ومصحات الاطفال يزيد على ١٩ مليون طفل . وبالنسبة الى الاطفال الذين يبقون فى المدن ، فتنظم لهم مخيمات خاصة تقام فى المناطق الخضراء والمنتزهات فى المدن . والاقامة فى مخيمات الطلائع مجانية بالنسبة الى ١٠ فى المائة من الاطفال وهى بالنسبة الى خمسين فى المائة منهم فى مقابل دفع مبلغ ٩ روبلات شهريا ويدفع الأربعون فى المائة الباقون ١٨ روبلا و ٦٠ كوبيكا شهريا . ويتحدد هذا التوزيع وفقا لدخل الأبوين . وتتحمل بقية التكاليف بما فى ذلك أجرة نقل الاطفال الى المخيم والخدمات الثقافية الاتحادات النقابية والدولة من صندوق الضمان الاجتماعى .

ويقضى الاطفال الذين يقطنون المناطق الشمالية من اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية عطلاتهم الصيفية فى الجنوب غالبا . وتعوضهم الاقامة خلال العطلة فى مناطق الراحة على ساحل البحر عن قلة الأشعة الشمسية والحرارة فى مناطقهم حيث الشتاء

كئيب ويطول لمدة ٦ أشهر تقريبا . ويستطيع الآن سكان المناطق الواقعة وراء الدائرة القطبية فى الشمال ان يبعثوا باطفالهم الى المخيمات ومراكز الشباب المنتشرة فى ٢٥ بقعة فى جنوب اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية . وتنقلهم طائرات وقطارات خاصة الى الجنوب فى أوائل شهر يونيو (حزيران) من كل عام . ويتمتع الاطفال بتخفيض نسبته ٥٠ فى المائة من الاجرة العادية . ويوجد من بين هؤلاء الاطفال ، ابناء مربى حيوان الرنة والصيادين . وهم يأتون من على بعد مئات بل آلاف الكيلومترات من الشمال الاقصى ومن الجزر القطبية النائية . وهم يتصلون بآبائهم عن طريق الراديو . وهناك مخيمات دولية للطلائع ومخيمات للشباب مقامة فى اجمل بقع القرم وعلى سواحل البحر الأسود فى القوقاز . ويجتمع فى هذه المخيمات اطفال من جميع دول العالم ويكتسبون فيها تجربة خصبة فى التعايش الاممى . وأحد هذه المخيمات ، معسكر أرتيك المشهور الذى نظم لأول مرة فى عام ١٩٢٥ . وتنفق الدولة مبالغ هائلة تصل الى ملايين الروبلات من اجل جعل وسائل الراحة والترفيه محببة للاطفال وصحية وتترك عندهم انطباعات حية فى اذهانهم . ويساهم فى هذا الجهد عن طيب خاطر الاطباء والمدرسون والنقابيون وكل أبناء الشعب السوفييتى .

وهذه المخيمات معدة لوقت قصير فقط ، ولكن يوجد على مدى العام بطوله ٤ آلاف ناد للطلائع حيث يقضى آلاف اطفال المدارس وقت فراغهم . ومثل هذه النوادى الموجودة فى المدن الكبرى ، ضخمة للغاية ويطلق عليها اسم « قصور الطلائع » . وتشمل أنشطة هذه النوادى تنظيم مختلف المباريات وحلقات الرقص والغناء وعقد الندوات المسرحية والثقافية والتكنيكية وكذلك

اقامة المعارض والقيام بالرحلات وتشجيع الهوايات التى تتراوح من التنقيب عن الآثار الى تنظيم مجموعات رواد الفضاء . وتشجع هذه النوادى اى نشاط أو عمل يثير اهتماما سليما لدى الطفل بقدر ما تسمح به قدرة الطفل ومواهبه . وهى لا تشجع — بأية حال — تمضية وقت الفراغ فى عمل انفرادى منعزل ، وذلك فيما عدا بعض النشاطات التى تتطلب ذلك . والتركيز هنا على الحياة الجماعية والنشاط الجماعى . والمبدأ الذى يسترشد به — حسب ما يقول المثل الروسى — هو :

اذا بذرت عملا ما —
فانك ستحصد عادة
واذا بذرت عادة — فانك
ستحصد شخصية
واذا بذرت الشخصية —
فانك ستحصد القدر .

ويجرى فى نوادى الطلائع تنظيم الأمسيات الخاصة واللقاءات والمعارض فى المناسبات التى لها اهمية خاصة فى تاريخ الثقافة على المستوى العالمى . فقد اقام طلائع احدى مدارس موسكو احتفالا كبيرا تكريما للكاتب العظيم هانز أندرسون مؤلف الحكايات الخيالية. واعدوا فيه موجزا عن حياته وقاموا بتمثيل بعض أعماله كما نظموا معرضا للصور لشخصيات حكاياته . ونظم اطفال مدرسة أخرى أمسية أدبية وبرنامجا طويلا أذيع بالراديو عن حياة وأعمال الكاتبين الامريكيين لونجفيلو وهمينجواى. وعرضت اعمال الاطفال الاعضاء فى استوديو الفن التشكيلى فى مدرسة موسكو رقم ٧٢ فى جمهورية المانيا الديمقراطية ، وتركيا ، والبرازيل ، وتشيكوسلوفاكيا والولايات

المتحدة ويوغوسلافيا ، واليابان وايطاليا بالاضافة الى ١٦ دولة أفريقية. ويتراسل الاطفال مع الاطفال فى مثل أعمارهم فى الدول الأخرى . وهم يتلقون — فى نادى فنون الهواة — محاضرات حول الرسم الغربى الحديث والفن التشكيلى والحرف اليدوية فى دول أفريقيا وجنوب شرقى آسيا .

ويضم نادى الطلائع فى لينينجراد ٣٠٠ حجرة وعشرات من المختبرات و ٨٠٠ حلقة تكنيكية وغيرها من الهوايات علاوة على مجموعة من الاستوديوهات التى تضم ٢٢ ألف عضو . ولهذا النادى أيضا مسرحه الخاص وحديقته الشتوية الخاصة . وأكبر هذه النوادى — على الاطلاق — هو قصر موسكو للطلائع الاحداث القائم على تلال لينين . وعندما دخلته من مدخله الامامى المهيب ، شعرت ان الدليل قد قادنى الى أرض سحرية . ويتألف القصر من سبعة مبان متصلة بعضها مع البعض وكلها مبنية من الزجاج والخرسان المسلح فى تصميم معمارى بالغ الروعة . وتوجد عند المدخل حديقة جميلة بها بركة يسبح فى مياهها السمك الذهبى . وبالقصر ٤٠٠ حجرة وقاعة مخصصة لمختلف الأنشطة . ونظرا لوقتى المحدود ، فقد اكتفيت بمشاهدة عن كثب الاستوديوهات الفنية للنحت والرسم وقاعة النادى الدولى . وقام شاب أنيق من الكومسومول وهو طالب ثانوى فى الصفوف العليا بشرح كيف ان الشباب يطلع — عن طريق الندوات والمحاضرات والدروس — على التطورات الدولية وكيف يقوم بالتعبير بوسائله الخاصة عن تأييد نضال شعوب فييتنام وأفريقيا وغيرهما من المناطق . ويقيم النادى روابط وثيقة مع اطفال ٤٠ دولة . وأبلغنى أيضا بنوع من الاعتزاز ان هذا المبنى الضخم قد شيده كومسومول موسكو فى عام ١٩٦٢ وقدمه هدية الى الطلائع



القاعة اللينينية لقصر الطلائع في موسكو ، حيث تقام الحفلات وتلقى المحاضرات وتجرى المناقشات وتقام مراسم قبول الاطفال في منظمة الطلائع .

الاحداث . وأضاف يقول انه يجرى حاليا بناء فندق للطلائع فى المجمع نفسه لينزل فيه الاصدقاء الاحداث الذين يفدون من الدول الأجنبية .

ولمنظمة الطلائع صحافتها الخاصة . وتوزع صحيفتها اليومية بيونيرسكايا برافدا » ٩,٨ مليون نسخة وهو رقم لم يصل اليه توزيع اية صحيفة يومية فى العالم . فضلا عن أنه تصدر فى بعض الجمهوريات الاتحادية وبعض الجمهوريات ذات الحكم الذاتى ٢٨ صحيفة للطلائع ب ١٩ لغة من لغات شعوب الاتحاد السوفييتى وكل طبعة منها تزيد على ١٧ مليون نسخة . وتصدر ٣٥ مجلة للطلائع . ووجه الى نينا تشيرنوفا — رئيسة تحرير صحيفة « بيونيرسكايا برافدا » فى

مقابلة صحفية السؤال التالى « ما هى الصفة المميزة لصحيفتك ؟» وردت قائلة « بوسعى أن أقول انها — قبل أى شىء آخر — تستجيب لمطالب جمهور قرائها . ان الاطفال يمقتون بشدة الآراء المكررة المعادة والمواعظ المضجرة ولا يتسامحون اطلاقا فى عدم الاخلاص وسرعان ما يشعرون بخيبة الأمل فى المدرسين المملين غير الموهوبين ».
وكان السؤال الثانى والاجابة عليه كما يلى :

« لقد تحدثت الآن عن عدم الاخلاص . فهل من الصواب — من الناحية التربوية — التحدث مع الاطفال بصراحة مطلقة عن جميع الأشياء المعقدة والتناقضات الملاحظة فى الحياة ؟ ألا يؤدى النقد من جانب الكبار الى تقويض نفوذهم ؟»

« اننا ناقشنا هذه « المخاطر » مرة ومرات قبل ان نقرر نهائيا ان علينا ان نفعل ذلك بل ينبغى عمل ذلك ، لأن الطفل سيثق بجريدتنا اذا ما وثقت الجريدة به . ان الاطفال يكتبون لنا ويسألون النصح . ويتعين ان نرد على كل رسالة وان نقدم لهم العون أيضا وعندما يعامل البالغون — حتى ولو كانوا من المدرسين — الاطفال بطريقة خاطئة ، فنحن لا نعفيهم من الحساب محافظة على الهيبة المصطنعة . واحيانا تكون انتقاداتنا غير فعالة بطريقة كافية . وفى هذه الحالة نلجأ الى مواصلة هذا النقد فى العمود الخاص الذى ينشر تحت عنوان « بيونيرسكايا برافدا تطلب الكلمة » والذى طلبنا من كل من « برافدا » و « إزفستيا » و « كومسومولسكايا برافدا » صحيفة الشباب ان تنشره لنا . (صحيفة برافدا هى الناطقة باسم الحزب الشيوعى السوفييتى وإزفستيا هى المتحدثة بلسان الحكومة السوفييتية) .

اصدرت الجمعية العامة للامم المتحدة فى عام ١٩٦٠ بيانا عن حقوق الطفولة ، ويقضى بأن من حق الطفل أن يشب وينمو فى

ظروف عادية وأن يحصل على التعليم وأن يصان من الاستغلال . وفى الوقت الذى تطبق بالكامل هذه المبادئ الانسانية فى البلدان الاشتراكية ومنها فى الاتحاد السوفييتى ، يعانى الاطفال فى مناطق كثيرة من العالم من ظروف مؤلمة للغاية . وتقول احصائيات هيئة اليونسكو أن ٦٠٠ مليون طفل يعانون من الجوع والامراض . وتضيف أن الملايين منهم لم يذوقوا طعم اللبن فى حياتهم أو اللحم أو السكر . ويشاهد المرء الاطفال من ماسحى الاحذية فى شوارع نيويورك وواشنطون وسان فرانسيسكو . وفى كنساس يعمل الاطفال فى سن الخامسة فى الحقول مع آبائهم . وذكرت لجنة شكلها مجلس الشيوخ الامريكى لدراسة جرائم الشباب ان ٤٥ ألف طفل يباعون كل عام فى الولايات المتحدة وان سعر كل طفل يتراوح من الف الى ١٠ آلاف دولار . وهناك شركات مختصة بهذه التجارة تستخدم اطباء ومحامين . وفى بعض دول امريكا اللاتينية يشكل الاطفال الذين تقل اعمارهم عن ١٥ عاما نسبة ١٠ فى المائة تقريبا من القوى العاملة . ويقول بول كريسبو — وهو من رجال الدين — انه وجد فى مناطق شمال-غربى البرازيل جماعات من الاطفال تهيم على وجهها بحثا عن الطعام وهم يأكلون أى شىء يصادفهم حتى ولو كان فئرانا أو نملا أبيض . وقد صرح القسيس بذلك لصحيفة « أولتيما أورا » . وتعيد هذه المآسى الى الذهن الكلمات الشهيرة — التى نطق بها — فى ألم مبرح — الدكتورة مونتيسورى بأن الطفل لا يزال « المواطن المنسى » فى كثير من البلاد التى زارتها فى العالم .

6—1849

الفصل الثالث

عملية مستمرة

ان التربية التى تبدأ فى رياض الاطفال ثم بعد ذلك فى المدرسة الثانوية والكلية لا تتوقف بمجرد ان يشغل الطالب وظيفته . فالنظام السوفييتى — على عكس المجتمع الرأسمالى الذى يعمل على تلقين الشباب الحد الادنى من المعرفة التى تؤهله للمساهمة فى الانتاج — يسعى الى توفير التعليم طيلة حياة الفرد ، وأن يعد ليس عمالا اكفاء فحسب، بل، وهذا اكثر اهمية، مواطنين صالحين جديرين بالوطن الاشتراكى ومشبعين بقيم المجتمع الجديد . وليس هناك ثمة مجال فى المفهوم السوفييتى لفكرة النفعية الضيقة التى تدعو الى اعداد الأفراد لاتقان مهنة ما وحسب . ولكن الهدف اكثر شمولا من ذلك وهو يرمى الى مساعدة الانسان على ان يكون شخصية متكاملة ذات آفاق عريضة فى الحياة وان يفهم عميقا ما يختلج فى النفس البشرية من آمال وأشواق .

وهناك تركيز على انه مع تراكم المعرفة وزيادة حدة الذكاء ، ينبغى أن يكون هناك فى الوقت نفسه نمو متوازن للمشاعر والأفكار وذلك من أجل تحقيق التطور المتناسق لجميع جوانب الشخصية التى تختلف عن نوع الشخصية غير المتكاملة ، شخصية المتخصص فى فرع معين من فروع المعرفة أو المهنة . ولتحقيق هذا الهدف ، نظم التعليم فى المجتمع السوفييتى لكى يكون عملية مستمرة

للتعليم الذاتي المتكامل . وتنقل جميع الوسائل المتوفرة من أدب وفنون وموسيقى وافلام وتليفزيون ومسرح ومتحف وصحافة واذاعة ، المعرفة الى كافة الناس لرفع مستواهم الروحى . وتمتاز هذه الوسائل بالمرونة والتنوع بحيث أنها تلقى القبول لدى كل شخص تقريبا فى اى لحظة من حياته . ويطلق على هذه التربية غير الرسمية العمل فى مجال الثقافة ويطلق على المساهمين فيها — من مؤلفين وسينمائيين وموسيقيين وغيرهم — « العاملون » فى القطاع الثقافى للمجتمع . وتمنح الدولة البارزين منهم لقب « بطل العمل الاشتراكى » تقديرا لما يسدونه من خدمات جليلة .

ولقد أكد ليونيد بريجنيف السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى فى خطابه الذى ألقاه فى مؤتمر المدرسين الذى عقد فى عام ١٩٦٨ ، أكد على هذا الدور قائلا :

« وعلينا ان نعبر عن امتناننا لهؤلاء الذين ينتجون الافلام التى تستهوى الناس والتى تثقف النشء بروح التقاليد الثورية وتمجد الجانب البطولى لحياتنا . وقد قدم العاملون فى الحقل المسرحى السوفييتى مساهمة مرموقة فى تثقيف الاطفال والشباب بما كتبوه وأخرجوه من مسرحيات ذات محتوى انسانى ووطنى عظيم ... لقد وضع كل شىء قيم من الناحيتين الايديولوجية والفنية — كالكتب والافلام والمسرحيات واللوحات والتماثيل والمؤلفات الموسيقية — وضعت كلها فى متناول الجميع ... ونحن نعارض أية محاولات للتأثير على شخصية الفنان . وكل ما يوده الحزب والشعب أن تكون الاعمال الفنية مرآة صادقة للحياة وأن تظهر عظمة بطولات الشعب السوفييتى وان تثقف جميع الناس بروح المثل الشيوعية المجيدة وتساعدهم على تحقيق هذه المثل ».

ان المبادئ التى تقوم عليها مثل هذه التربية الشاملة قد بحثت فى السنوات التى اعقبت الثورة . وخلق الفن والأدب السوفييتيان أفكارهما الذاتية ومبادئ التصوير والرسم والموضوعات التى املتها الحياة ذاتها . وكان ماكسيم جوركى ، مؤسس الأدب السوفييتى هو الذى أطلق اصطلاح « الواقعية الاشتراكية » على هذه الجوانب بوجه عام وذلك فى خطابه الذى ألقاه فى المؤتمر الأول لكتاب السوفييت الذى عقد فى عام ١٩٣٤ . وأشار الى أن الاخلاص للحياة هو السمة الرئيسية لها . ومنذ ذلك الحين أخذت هذه الأفكار فى التبلور بشكل أكثر وضوحا . لقد جاء فى تصريح ادلى به احد المسئولين السوفييت : « ان الواقعية الاشتراكية — ومن اهم متطلباتها تصوير الحياة بصدق فى تطورها الثورى — تعتبر من اهم الوسائل فعالية التى تساعد الفنان على الغوص فى اعماق الانسان وتصويرها بصدق . واذ تعكس الواقعية الاشتراكية الواقع بجميع متناقضاته ، فانها فى الوقت نفسه تجعل فى الوسع ادراك الظواهر التى يعبر تطورها وطبيعتها أحسن تعبير عن اتجاه التطور التقدمى وتقديرها تقديرا صحيحا وتصويرها تصويرا فنيا . وسيكون من الخطأ الظن انها تحد من تنوع شخصية الفنان وأسلوبه .. وغير ذلك . فكل فنان من فنانى الواقعية الاشتراكية له تجربته الخاصة ، وموضوعاته المختارة وأسلوبه .. وله شخصيته الخلاقة . الا انه مع ذلك مرتبط مع زملائه بأيديولوجية مشتركة ومبادئ جمالية ... فمحتوى وقيمة الفن الحقيقى يظهران فى كل ما يساعد الشخصية الانسانية على التطور وتوسيع آفاقها ويلهمها بالمثل المجيدة ، ويرفع من مستواها اخلاقيا وفكريا وكذلك ينمى مفهوما جماليا عن العالم ويساعدها على رؤية أفضل للخير والشر

وان تتصرف وفقا لذلك .. أى كل ما من شأنه ان ينمى الشخصية ويساعدها على اتخاذ موقف مستقل ونشط من الحياة وان يظهر الصفات الانسانية الحقة فى البشر . ان كل هذه السمات هى التى تميز أعمال الاشتراكية الواقعية ».

ومع انتشار مثل هذه الآراء بصورة شاملة فى الاتحاد السوفييتى ، لن يكون من المستغرب اذن أن يلقى الفن التجريدى الصدود . ويعتبر الفن التجريدى انتهاكا للمبادئ الفنية الاصيلة لأنه يبتعد عن الواقع باسم التعبير عن الذات . فلوحات هذا الفن تتسم بالغرابة والشذوذ ولا تفهمها الاغلبية العظمى من الناس . وأحيانا ما تكون هذه اللوحات والتماثيل قبيحة بالفعل وتفتقر الى الجمال . ويتساءل النقاد السوفييت : ما هى الرسالة التى تستطيع أن تحملها مثل هذه الاعمال للناس ، ولعقولهم وقلوبهم ، وفى هذا المجال ينقلون عن لينين قوله « ان الفن ملك للشعب . وينبغى ان يكون مفهوما ومحبوبا من قبل الجماهير . ان عليه ان يوحد مشاعرهم ويرتقى بها ... كما يتعين عليه ان يدفع الى النشاط وينمى من الاحساس الفنى الفطرى لدى الجماهير ».

الكتاب

يبذل الكتاب السوفييت جهودهم فى سبيل توصيل الفن الى الملايين عن طريق مؤلفاتهم التى تتسم بالصدق . وهم يصورون الحياة بصورة بهيجة ومحببة للجماهير لان كتاباتهم تنبع من التجربة الواقعية للمؤلفين الذين ينتمون الى صفوف الناس البسطاء من الجنسين . وعندما تحدث جوركى فى جامعة العمال والفلاحين فى لينينجراد فى

عام ١٩١٩ ، خاطب الطلاب قائلا « اننى – كما قد تعلمون جميعكم – من أناس بسطاء ولم أذهب للمدرسة كما لم أدرس فى الجامعة . وتعلمت كل شىء مباشرة من الحياة ، أولا من قراءة الاعلانات فى الشوارع ثم قراءة الكتب بعد ذلك ولكننى تعلمت أساسا من مراقبة الناس ». وذكر ماكسيم جوركى فى مناسبة أخرى « لقد شرعت فى الكتابة بدافع ضغط حياة الفاقة الصعبة ولأنه كان هناك الكثير من الانطباعات التى لم استطع أن امنع نفسى من تسجيلها ».

وعاش ميخائيل شولوخوف ، أحد الكتاب البارزين فى فترة ما بعد الثورة ، أيضا حياة شاقة فى طفولته . وخلال الحرب العالمية الثانية قتلت قنابل الفاشيست والدته ودمرت منزله فى القرية . وعندما كان يتسلم جائزة نوبل فى استكهولم فى عام ١٩٦٥ ، قال فى خطابه: « اننى اتحدث عن الواقعية التى تروح لفكرة اعادة صياغة الحياة ومن أجل اعادة تشكيلها لما يخدم مصالح الانسان . وأنا اتحدث بطبيعة الحال عن الواقعية التى نطلق عليها الواقعية الاشتراكية . وتكمن خاصيتها التى تنفرد بها فى حقيقة انها نظرة الى العالم ترفض كلا من التأمل الذاتى والهروب من الواقع ، وهى تدعو الى النضال من أجل تقدم البشر وتساعد على تحقيق الاهداف القريبة والعزيزة على الملايين ، كما انها تضىء طريق النضال لهم ».

ذكر ايليا اهرنبورج فى حديث صحفى أدلى به قبل ايام قليلة من وفاته : « اننى مجرد انسان. وقد تعفون عنى لكلماتى ذات المحتوى العادى ، ولكن ما من شىء انسانى غير مألوف لى ».

وأعلن قنسطنطين فيدين ، احد ثمانية من الكتاب السوفييت البارزين الذين حصلوا على لقب بطل العمل الاشتراكى فى عام ١٩٦٧ ، فى خطاب افتتاح مؤتمر الاتحاد العام للكتاب فى ذلك

العام: « ان الكتاب السوفييت هم أبناء الثورة السوفييتية وهم يعيشون فى غمارها . وهذه الثورة هى التى تشكل عقيدتهم فى الفن ».

ونشاهد مثل هذه الروح المتأججة والحماس المتوقد الحقيقة والتنقيب عنها بين الجيل الجديد من الكتاب الذين اخذوا يتألقون فى الميدان الأدبى . وبمناسبة انعقاد مؤتمر الاتحاد العام للكتاب الشبان فى موسكو فى عام ١٩٦٩ ، طلبت صحيفة « أبناء موسكو » من بعض الكتاب الذين اشتركوا فى المؤتمر ان يتحدثوا عن خططهم فى المستقبل وعن جهودهم ومواقفهم وكذلك عن الاتجاهات الأدبية فى مناطقهم . وأجاب واحد منهم وهو يورى ريتوف على ذلك قائلا: « لقد حضرت من سيبيريا. وقد ولدت هناك وتخرجت من الجامعة وذهبت الى احدى مناطق التايجا النائية لعمل كمدرس . وما شهدته هناك كان حافزى الأول على الكتابة .. وبطبيعة الحال — كانت اقاصيصى الأولى حول الناس الذين يقطنون قرى سيبيريا .. وكانت شخصياتى من الناس العاديين — صيادين وعمالا . والآن أعيش فى كالينينجراد حيث لا ازال على صلة بالبحر — وهو موضوع ينطوى على الهام لا ينضب .. وترحب دار النشر المحلية بأعمال الكتاب الشبان وتباع كتبهم بسرعة ».

وذكرت سفيتلانا يوفينكو من أوكرانيا « نشرت اشعارى الاولى فى عام ١٩٦٠ عندما كنت طالبة فى جامعة كييف . ومنذ ذلك الحين لم أكف عن الكتابة . ويتناول الموضوع الأساسى لكتاباتى المرأة .. وأحلامها فى السلام وتوفير السعادة لأطفالها ... وقد اتخذت لهذا الكتاب عنوان « الصوت » . انه ليس صوتى بقدر ما هو صوت المرأة السوفييتية .. صوت الأم التى تنشد السلام» .

وقال سيرجى كينياكين من جمهورية موردوفيا ذات الحكم

الذاتى « موطنى موردوفيا وتخرجت من جامعتها وبدأت أعمل فى احدى دور النشر وألفت أول كتبى بعنوان « الحياة والحب » وأنا مدين — مثل شعبى كله — بكل شىء للسلطة السوفييتية . فلم تكن لدينا لغة كتابة قبل ثورة أكتوبر . والآن عندنا جامعة فى سارانسك ولدينا مثقفونا وكتابنا الذين تترجم اعمالهم ليس الى اللغات الأخرى فى بلادنا فحسب ولكن الى اللغات الاجنبية أيضا ».

وقال بوريس أولينيك، وهو شاعر شاب: « لقد بدأت كتابة الشعر وأنا لم أزل صبيا وبعد أن تخرجت من المدرسة درست فى قسم الصحافة فى جامعة كييف ، وبعد تخرجى من الجامعة عملت لبعض الوقت فى صحيفة « مولودايا أوكراينا » ثم فى مجلة الشباب . وقد نشرت ثلاثة دواوين من الشعر وشهدت الفترة الأخيرة بنوع خاص كثرة من القادمين الجدد على الميدان الأدبى . وتنتمى سفيتلانا يوفينكو — مثلا — وهى موجودة هنا الى هذا الجيل الفتى . وأعمالها مزيج موفق من الموضوعات الشخصية والوطنية . والسمة المميزة لأدبنا الفتى هو رهافته وحساسيته بالحياة والاحداث ».

وقال بافيل ألكسندروف وهو شاعر آخر: « كتبت أول قصائدى وأنا تلميذ فى المدرسة الثانوية . وبعد ذلك التحقت بالبحرية واستولى البحر على مشاعرى تماما بعد أن غمرنى كلية . فأشعارى تدور حول البحر وعن البحارة وصداقتهم وهى تنشر فى المجلات والصحف ».

وأشار فلاديمير أنكفاب من جمهورية أبخازيا الاشتراكية السوفييتية ذات الحكم الذاتى الى ان « اهالى أبخازيا ينتمون الى أمة عريقة ولكن أدبها حديث للغاية فهو لم يتطور فى واقع الأمر الا فى ظل السلطة السوفييتية . ونشاهد الآن مؤلفات الكتاب والشعراء من أبناء أبخازيا على أرفف مكتبات كافة الجمهوريات الاتحادية.

وأمامنا – نحن الشباب – الامثلة الطيبة التى نحذو حذوها فيما يتعلق باكتساب المهارة الحرفية والفهم الصحيح للحياة . ان الاحداث التى تجرى حولنا بالغة الاهمية ، فهى تشمل اعادة تشكيل العالم ، وصياغة البشر من جديد وبناء انسان جديد يؤمن بالمثل الشيوعية . وتتمثل المهمة النبيلة والهامة للكتاب فى تصوير هذه التطورات الاجتماعية المعقدة للغاية . وينبغى ان تكون مؤلفاتنا اداة فى تثقيف الشعب وغرس الشفقة والانسانية والوطنية والأممية ».

اتحاد الكتاب

للكتاب والفنانين فى الميادين الأخرى اتحاداتهم الخاصة على مستوى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية والمستويات الاقليمية . وهم يجتمعون من وقت لآخر فى مؤتمرات لدراسة مشكلاتهم وعرض وجهات نظرهم ازاء المستقبل . ويضم الاتحاد العام للكتاب نحو ٦ آلاف عضو . وتساهم كل دار نشر بنسبة طيبة من أرباحها فى « صندوق الأدب » للاتحاد. ويحصل كل كاتب يحتاج الى مساعدة مالية على عون كبير من هذا الصندوق . وبالاضافة الى ذلك يملك الاتحاد منازل للراحة مريحة فى الاماكن التى تتسم بالهدوء حيث يستطيع الكتاب ان يستردوا فيه صحتهم أو ينجزوا أعمالهم.

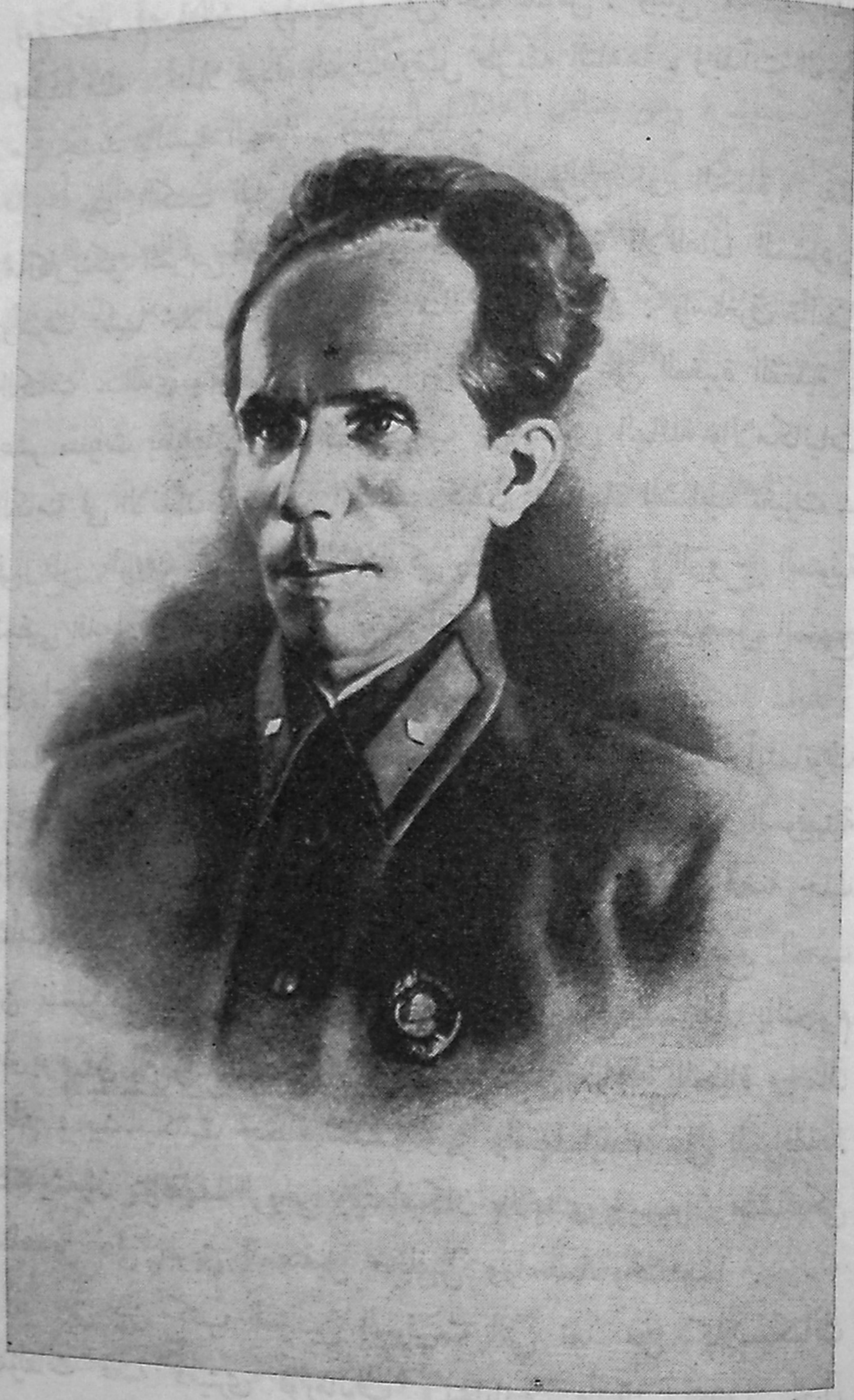
وكتاب الاتحاد السوفييتى مرتبطون تمام الارتباط بمجتمعهم سواء من الناحية العاطفية أو الايديولوجية . فعندما شن الهجوم الهتلرى على بلادهم ، انخرط أكثر من الف منهم فى القوات المسلحة وتوجهوا الى ساحات القتال . وكان من بين هؤلاء شولوخوف وأليكسى تولستوى ، وألكسندر فادييف ، وايليا اهرنبورج . وأكثر من ثلثهم لم يعودوا . وقد نقشت اسماء العديدين من الكتاب – الذين قضوا

نحبهم فى القتال – بماء الذهب على لوحة ضخمة من الرخام وضعت عند مدخل النادى المركزى للكتاب فى موسكو . وهناك لوحات مماثلة فى نوادى الكتاب فى الجمهوريات المتحدة . وحصل نحو ٣ آلاف من رجال الآداب على ميداليات وأوسمة عسكرية ومنح بعضهم لقب بطل الاتحاد السوفييتى .

الأدب

وجرى فى موسكو حديث بينى وبين البروفيسور تشيليشيف ، أحد المتخصصين فى الأدب بشأن موضوع هذا الكتاب ، واقترح فيه علىّ ان أخصص فصلا اتتبع فيه مفهوم « الانسان » كما ورثه الشعب السوفييتى من الكتاب الروسيين ذوى النزعة الانسانية الذين عاشوا فى القرن التاسع عشر ، وكيف تطور هذا المفهوم خلال العقود التى اعقبت الثورة . وقد شكرت البروفيسور على هذا الاقتراح وأبديت ترحيبى به حيث اننى اتفق معه فى انه ما من شىء يعكس الحياة السوفييتية ، ونضال الشعب السوفييتى وتضحياته وانجازاته وآماله وأمانيه أفضل من الأدب .

ان الآداب والفنون فى الاتحاد السوفييتى هى فى حالة مستمرة من التجدد والتغير . وجنبا الى جنب مع الموضوعات الخالدة التى لا تفقد أبدا أهميتها ، يسعى كل جيل جديد للفنانين الى التعرض للموضوعات الحديثة الحيوية ويعمل كمترجم لروح العصر . وعلى الرغم من ان هناك هدفا مشتركا يجمع بين الكتاب السوفييت ، الاّ ان هناك تنوعا كبيرا فى الأسلوب والشكل والمحتوى للأعمال الأدبية التى ينتجونها . وهذه الظاهرة تبدو بجلاء فى مؤلفات كل من الكتاب البارزين والكتاب الناشئين الأقل شهرة على حد سواء .



الكاتب السوفييتي المعروف نيكولاي اوستروفسكي

وأحد الكتب التى اكتسبت شعبية كبيرة كتاب نيقولاى أوستروفسكى « والفولاذ سقيناه ». وقد طبع ٤٩٥ مرة وبلغ مجموع النسخ التى بيعت منه ١٦ مليون نسخة . والكتاب يصور قصة حياة المؤلف نفسه وهو « تخليد أدبى » للانسان السوفييتى ، واشادة بشجاعته وتصميمه اللذين لا يقهران . وقد توفى المؤلف فى عام ١٩٣٦ ولم يبلغ من العمر ٣٢ عاما ، ومع انه عاش حياة قصيرة الآ انها حياة ثورى نشط . وقد شرع فى كتابه هذا عندما كان قعيد الفراش وفاقد النظر طيلة السنوات الثمانى الأخيرة من حياته . وقد اعتبر تأليف هذا الكتاب عملا جديدا له من أجل القضية الاشتراكية .

ويقول بطل الكتاب الشاب بافيل كورتشاجين فى لحظة تصميم على مواصلة الكفاح : « ان أغلى ما يملك الانسان هو الحياة ، وقد منحت له ليعيشها مرة واحدة . وعليه ان يعيشها حتى لا يشعر فيدا بعد بأى ندم ممض لسنوات مرت بدون هدف ، ولا يعانى من أى عار ملتهب لماض حقير تافه . وعليه ان يعيشها حتى يستطيع أن يقول عند الممات : كل حياتى ، وكل قواى ، قد كرستا لأعظم قضية فى العالم قاطبة ـ الكفاح من أجل تحرير البشرية ».

واكتسب شولوخوف شهرة عالمية لملاحمه : « الدون الهادئ » و « حكايات الدون » و « الأرض البكر فلحناها » واكتسبت احدث قصصه « قسمة انسان » شهرة مماثلة لموضوعها الشيق. ويدور الحديث فى هذه القصة عن جندى روسى انزل به القدر من المصائب والمحن ما يكفى لهد اقوى الرجال . الآ انه وجد القوة التى جعلته يصمد لكل هذه المصائب . فقد عانى الجندى من كابوس الأسر الفاشستى، وفقد عائلته (فقد قتل ولده خلال هجوم الجيش الأحمر على برلين) وشاب شعره قبل الأوان من فرط الحزن

ومع ذلك لم يضعف ولم يتخل عن حبه للناس . وتبنى مخلوقا آخر وحيدا مثله ، طفلا شردته الحرب وضل طريقه اثناءها . وبدأت الحياة من جديد بالنسبة اليهما . وسارا معا .

ومن الكتب البارزة أيضا كتاب « الطريق الى الحياة » بقلم ماكارينكو المربى المرموق الذى نظم مستعمرة للاطفال المشردين وأشرف عليها خلال ثمانى سنوات منذ عام ١٩٢٠ . واستغرق تأليف الكتاب ، الذى ينقسم الى ثلاثة اجزاء ويعتمد على الخبرة الفعلية ، عشر سنوات بطولها . ويكشف الكتاب عن القوى الهائلة والامكانيات الكامنة فى الانسان . ويظهر الكتاب كيف ان حياة الشباب تغيرت — فى ظل ظروف المجتمع الاشتراكى — وكيف ان « الروح المتوثبة تمضى قدما للامام وتسمو الى مستويات اعلى فأعلى » بالعمل المبهج من اجل الرفاهية للجميع .

وقوبلت الرواية الأولى للكاتب القيرغيزى تشينجيز أيتماتوف « جميلة » بتقدير كبير . وترجمت الى جميع اللغات السوفييتية وتحولت الى افلام سينمائية أيضا . وتدور الرواية حول قصة حب نشأت فى البرارى المحرقة فى آسيا الوسطى ، حيث جمع الحب بين نفسين حساستين كانا يلتقيان تحت السماء المتألقة بالنجوم بعد يوم من العمل الشاق . وكان احدهما يغنى مباهج الحياة وجمال الوطن ، بينما كانت جميلة تنصت وتهز رأسها ايماء على الموافقة . وكانا يشعران بتوافقهما الروحى ويتماسكان بالايدى ويسيران متشا بكى الساعدين على طريق المستقبل مخلفين وراءهما وحشتهما .

ومن بين كتب المؤلفين السوفييت التى تعد من كلاسيكيات المؤلفات قصة دميترى فورمانوف « تشاباييف » التى تدور حول القائد البطل للثورة والحرب الاهلية ، وكتاب ألكسندر سيرافيموفيتش

« السيل الحديدى » وكتاب ألكسندر فادييف « الهزيمة المنكرة » ويدوران حول الحرب الاهلية ، وكذلك كتاب فيودور جلادكوف « الاسمنت » وهو يتناول احداث السنوات الأولى التى اعقبت الثورة . وثلاثية أليكسى تولستوى « درب الآلام » وهى وصف وتحليل أديان لاحداث الثورة الكبرى ، وأخيرا كتاب فادييف « الحرس الفتى » وموضوعه الوطنيون من الشباب السوفييتى الذين قاتلوا معا يبسالة ضد الفاشيست فى الاراضى التى احتلها النازيون من أرض الوطن .

البطل

وفى كل هذه الاعمال ، خلق كل كاتب بطله مستوحيا ما تجمع من خبرته عن الحياة كما يراها على ضوء مثله العليا عن الانسان . ويدرك الكتاب السوفييت الحاجة الى خلق ابطال ايجابيين يمثلون الانسان الجديد ، والذين يكونون مصدر الهام للملايين بفضل المثال الذى يضربونه . وقد قطع الكتاب كل صلة بأدب العصور الغابرة الذى كان يصور افعال الملوك والملكات والقديسين والأوغاد — أى الأدب الذى يتحدث عن القلة المميزة وليس عن الشعب الذى يجد ليكدح طول حياته ثم يزول . والبطل ، فى الكتب السوفييتية هو ابن الأرض ، العامل أو الفلاح أو الجندى فى الجيش الأحمر أو أحد المثقفين العاديين . وفى قصة « الدون الهادئ » الشخصية الرئيسية مجرد فلاح بسيط لم يدرس فى الجامعة . وهو لا يدعى المعرفة الواسعة ، ولكن ما يميزه سعيه الحثيث الى كل ما هو عظيم وجميل وكذلك صفاته الخلقية المشرقة .

ويصور شولوخوف فى كتابه « الأرض البكر فلحناها » من جديد نفس الطراز من البطولة ، فالبطل — دافيدوف — رئيس مزرعة

تعاونية ويدين بولاء عميق لقضية الثورة الاشتراكية فى الريف .

ويقول فيل ليباتوف ، الكاتب المعروف والمحاضر فى معهد جوركى للآداب فى هذا الصدد « اننى أشارك تماما رأى كتاب روسيا بشأن ما نسميه بمشكلة البطل الايجابى . واننى أجد مئات الأشخاص من بين صفوف السائقين والعمال العاديين ، والنجارين وسائقى الجرارات الذين يصلحون ليكونوا مثلا يحتذى فى السلوك الجمالى والاجتماعى ، ومع ذلك فان الأدب لم يأخذ على عاتقه مهمة الدعوة الى المبدأ القائل « افعل مثلما أفعل ». وعندما اتحدث عن ابطالى، اضع نصب عينى ما يتحلون به من اخلاق ممتازة قد تصلح كأساس لبطل ايجابى يلقى قبولا على نطاق واسع ».

وتتخذ الاشتراكية الواقعية ـ التى يشكل هذا المفهوم عن البطل احد جوانبها الايجابية ـ موقف المعارضة ضد بعض الجوانب السلبية . فهى تعارض بشدة الحط من قيمة الانسان وهى الظاهرة التى تظهر واضحة فى كثير من المؤلفات فى الدول الرأسمالية . ويقول الكتاب السوفييت انه من الخطأ الفاحش الذى يضر بالانسان كانسان ان يعمد كثيرون من كتاب الدول الغربية ـ وخاصة فى الولايات المتحدة ـ الى تمجيد القسوة والدعوة الى الفسق والفردية والأنانية وخلق صور مغرية لرجال احرزوا نجاحا فى حياتهم عن طريق انتهاك المعايير الأخلاقية والأنغماس فى لذات الجنس والمتع بفضل اموالهم الحرام .

الأدب المتعدد القوميات

ومن الملامح الهامة للأدب السوفييتى طابعه المتعدد القوميات . فالأدب السوفييتى ليس مقصورا على الأدب الذى يكتب باللغة الروسية ، ولكنه أدب على مستوى الاتحاد كله تدخل فيه ـ بدون

أن تتخلى عن كيانها الوطنى ـ عشرات من آداب مختلف الأمم والقوميات التى تقطن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية .

ويكتب الآن الأدب السوفييتى وينشر فى ٦٥ لغة من لغات شعوب اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية . ولكل قومية سوفييتية تقريبا الآن مشاهيرها من رجال الأدب وأسماؤهم معروفة جيدا لدى جميع القراء السوفييت لأن كتبهم لا تطبع باللغات القومية للمؤلفين فحسب ولكن أيضا باللغة الروسية . وتجرى فى الأدب السوفييتى الآن عمليتان متوازيتان وهما متحدتان فى المحتوى والأسلوب ولكنهما ذاتا جوانب قومية متعددة من ناحية الشكل . فمن ناحية ، تجرى عملية احياء وبعث التقاليد القومية ، ومن الناحية الأخرى ، يتم نوع من التداخل والتأثير والاثراء المتبادلين بين مختلف الآداب القومية وتقاربها على أساس من الافكار والاهداف المشتركة . ويؤمن الشعب السوفييتى فى انه ليس بوسع أى أدب أو ثقافة ان يزدهر ما لم تكن له جذوره فى التربة الوطنية . ولهذا من الضرورى المحافظة على فردية كل ثقافة وطنية ، وتنمية الفنون الشعبية التى تعكس حياة الشعب فى أسمى وأدق صورها .

ولم يكن للامم الصغيرة التى كانت تقطن روسيا أى كاتب محترف من بينها قبل قيام الثورة . والآن يبلغ عدد رجال الأدب الذين يؤلفون بـ ٦٥ لغة أكثر من ٥٠٠ أديب . ولم تكن الشعوب التى تعيش فى الاماكن النائية من البلاد تتصور ان تكون عندها حروف أبجدية لكتابة كلامها . والآن وخلال الفترة التى اعقبت الثورة فى عام ١٩١٧ ، لم تحصل هذه الشعوب على لغتها الخاصة بالكتابة فحسب ، ولكن اصبح لها أدبها الخاص . وقد بلغ عدد الكتب التى صدرت بلغة « توفا » (التى يتحدث بها ١٣٩ ألف نسمة)

خلال سنوات السلطة السوفييتية ١٣٦٢ كتابا ، بلغ مجموع نسخها ٥ ملايين ونصف مليون نسخة . وصدر بلغة « تشوكتش » ويتحدث بها ١٤ ألف نسمة فقط ٢٧٧ كتابا . وخلال الأربعين عاما الماضية صدر ٧ آلاف كتاب بلغ مجموع نسخها ٢٢٫٥ مليون نسخة بلغات الشيشين واللاك واللازجين والكاباردا التى تتحدث بها شعوب القوقاز التى يبلغ تعدادها نحو ١٫٣ مليون نسمة فقط .

ولم يكن فى استطاعة الكثيرين من كتاب القصص الشعبية الموهوبين – الذين وضعوا الأسس لآداب شعوبهم – التى حصلت على ابجديتها بعد الثورة – لم يكن فى استطاعة هؤلاء ان يكتسبوا اية شهرة أدبية الا بعد قيام السلطة السوفييتية فى مناطقهم . وان انبثاق آداب هذه الشعوب وانتشارها ونجاحها الكبير امر مذهل حقا . ويتحرك هذا الأدب الذى ينتجه القادمون الجدد فى عالم الآداب فى انسجام واع مع آداب المناطق الاكبر حجما . ويقول شاعر من جمهورية باشكيريا ذات الحكم الذاتى (يبلغ تعدادها ١٫٢ مليون نسمة) : « هذه هى عقيدتى – فليشدو نايّ الخاص لقومى باسم الجميع ، وان يستوعب جميع الحان البحار والجبال والبرارى » .

ويواصل كلامه ... « ليس هناك ما يدعو للقول من جديد بأن كل أدب قومى انما هو نتاج تطور الفن الشعبى القومى . ولكن الجمع السليم بين التقاليد الشعبية والاكتشافات الفنية الجديدة والانجازات والسعى من أجل استيعاب خبرة الغير .. ان ذلك فقط هو الذى يكفل تطور واثراء الأدب ورفع مستواه الايديولوجى والفنى . ان الصورة الفجة التى يرسمها الطفل تحقق له لذة أكثر من أى عمل لفنان حقيقى . اننا – نحن الباشكير – الذين تعلمنا القراءة والكتابة منذ ٤٠ أو ٥٠ عاما فقط لنشعر بالاغتباط ازاء أدبنا ، لانه أدبنا وقد

كتب بلغتنا القومية وانتجناه نحن ، بغض النظر عن بدائيته المحتملة . ومن الطبيعى للغاية اذن ان مثل هذا الموقف يلعب دورا هاما فى تطوير وعينا القومى الذاتى . وبمرور الوقت ، تعرف الباشكير أكثر وأكثر على العلوم والثقافة العالمية المعاصرة . وهم الآن يقرأون دانتى وبوشكين وجوته وطاغور وهوجو وشكسبير . وهم يذهبون للمسارح لمشاهدة مسرحيات الكتاب الكلاسيكيين فى العالم وهم يعجبون ويفهمون موسيقى بيتهوفن وتشايكوفسكى وفيردى . ونما الاحساس الجمالى لقرائنا واتسع نطاق أفقهم الجمالى . وبالاضافة الى ذلك تولد عندهم اهتمام ليس بالمشكلات القومية فحسب ولكن بالمشكلات الدولية أيضا ومشكلات العصر .. ويريدون ان يجدوا الحلول لهذه المشاكل فى الاعمال والمؤلفات الأدبية المقدمة لهم » .

و يعبر مؤلف آخر اسمه رسول حامزاتوف عن رأيه يقول :

« ان مكانة اى كاتب انما تتحدد بأفكاره وموهبته والهامه ومهارته . وهو ليس فنانا من يبالغ فى الخصائص القومية ويركز اهتمامه على الظواهر المنفردة ويقدم وجبة مغلقلة متبلة بصورة مبالغ فيها على انها من نتاج الفن القومى . ان الروح الشعرية تتجلى عندما تصبح الوطنية شاملة . وهل عظمة أبسن ترجع الى ملامح خاصة بشعبه ؟ أو نأخذ مثل عمر الخيام .. ان الوطنية تمنح الفنان سعادة غامرة فى عملية الخلق .. بينما تولد فى القومى المتطرف المشاعر القومية المتعصبة وضيق الافق والشح وعدم الاحترام للآخرين .

ان الأدب السوفييتى ليس أدبا متعدد القوميات فحسب ولكنه أدب أممى أيضا . وقد ثارت فى الفترة الأولى بعد قيام الثورة مناقشات محتدمة بشأن الخط الذى يتعين على الأدب والفن ان ينتهجاه فى ظل النظام الجديد . وكتب لينين – معربا عن رأى

الاغلبية — يقول ان المهمة التاريخية للطبقة العاملة لا تكمن فى اختراع نوع من الثقافة البروليتارية الخاصة ولكن فى تطوير افضل ما فى الثقافة الحالية وتقاليدها وانجازاتها على أساس من الماركسية . واكد ان المرء لن يصبح شيوعيا حقا الا عندما يثرى نفسه وعقله بجميع المعرفة المتجمعة لدى البشرية . ولا يعنى استيعاب التراث ان يصبح المرء حياديا فى انتقائه واستخدام القيم الثقافية . وان الأخذ من التراث الثقافى للماضى يعنى بالاستناد الى لينين التخلى عن كل ما هو مصطنع ورجعى ومعاد للقومية ، وان يحل مكانه كل ما هو ثمين وصائب وديمقراطى من أجل خدمة البناء الاشتراكى .

ويبدو صدى لهذه الآراء فيما ذكرته المرحومة يكاترينا فورتسيفا وزيرة الثقافة فى اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية فى مؤتمر صحفى حيث قالت :

« يتعلم فنانونا دوما من الحياة وقد تربوا على افضل النماذج للفن الواقعى سواء فى الوطن أو على المستوى العالمى . ان الحلول الفنية المبهرجة غريبة عليهم شأنها شأن نشدان الوسائل البلاغية والتكنيكية الغامضة بهدف التأثير ، والشك من أجل الشك نفسه وكذلك نسخ الواقع بطريقة تأملية سلبية » .

الشعراء

وتبدو هذه الآراء واضحة فى أعمال عدد كبير من الشعراء الشبان . ومن أحد الظواهر الملفتة للنظر فى المجتمع السوفييتى تجمع عدد كبير من الناس للاستماع الى الشعراء وهم يقرأون قصائدهم . وحتى عندما يجتمع هذا الحشد فى القاعات الكبرى مثل قصر الرياضة فى موسكو — الذى يسع ١٨ ألف نسمة — لا يبقى فيه

كرسى واحد شاغرا . ويضع الشعراء كل شبابهم النقى وحماسهم فى قصائدهم ، الأمر الذى يفتن الجمهور ويسيطر على حواسه . وأثناء المؤتمر الخامس للكتاب الشبان ، قرأ بعض الشعراء قصائدهم . وفيما يلى اثنتان من هذه القصائد :

مثلما تتشابه المحيطات ، يشبه الناس بعضهم البعض ...
انظر — على السطح فقط ، تبدو أرواح الناس متشابهة
ولكنها جد مختلفة فى اعماقها وأحاسيسها
وما يختلج فيها من رغبات وعواطف ،
وهى تختلف أيضا فى تفكيرها واستجاباتها
وحرارتها وحماسها وكذلك فى حبها وبغضها.

— رودلف ريميل من ساحل البلطيق فى استونيا

تكلم ، أيها الشاعر ، كما شئت ،
فليس ثمة قيود هنا ... من اى نوع ،
انها ليست لعبة ، يتراشق فيها بالكرات .
فهى مملكة الانسان ، وكثيرة هى ،
ومتنوعة هى عوالمه الخفية .
اكدح ، ولا تدع ابدا قواك تهدأ ،
انشد كما يحلو لك ، ولا تركن للهدوء والتعقل.
وكلما عظم عذابك — أيها الشاعر —
كلما زاد توهج شعلتك .

— جنادى ياكوشينكو من مدينة تامبوف ، روسيا الاتحادية .

وتحدث فلاديمير سوكولوف — الذى يعتبر واحدا من احسن الشعراء الروس المعاصرين — فى مؤتمر صحفى فقال :

« بغض النظر عن الموضوع الذى اكتب عنه ، سواء كان ذلك عن الزهور أو ماسورة للمياه ، فأنا اكتب عن الحب . وذلك

لأنه عندما يولد الحب أو الاعجاب ، يسرع الناس على الفور لحماية هذا الشعور من الزيف والبذاءة ، ويقيّمون كل شىء انسانى حقا فى الانسان . وأنا افضل القصائد القصيرة . فعندما تتحدث عن الحب ، فانك لن تجد مطلقا الكلمات الكافية ، وفى الوسع قراءة الشىء الكثير بين السطور وبين الكلمات . وأحب أن أؤكد الحقائق الخالدة فى الشعر حتى لا تفقد هذه الحقائق قيمتها ، وحتى يتغلب الاخلاص والتكامل الخلقى على الفحش والتفاهة ».

وعبر الشاعر البارز فاسيلى فيودوروف عن الفكرة ذاتها فى مؤتمر الكتاب . فقال « ان الذى لا يحب شعبه ولا يفهمه ، سيعجز عن فهم وحب اى شعب آخر وثقافة هذا الشعب ونضاله من أجل مستقبل أفضل ».

ويكتب الناقد الأدبى سيريبرياكوف فى معرض تقييمه للاتجاهات المعاصرة فيقول :

« ان الحركة السريعة لعصرنا الحاضر واضحة تماما . فالانسان الحديث يعيش فى دوامة واعصار من الاحداث الاجتماعية والحياة السياسية العاصفة وكذلك وسط الانجازات الهائلة للعلوم والهندسة . ومنذ وقت ليس ببعيد ، اتخذنا فى قصائدنا — عندما كنا شبابا — السرعة رمزا لعصرنا . وهكذا كنا نقابل فى شعرنا تعابير مثل الدراجات البخارية التى تنهب الأرض مسرعة على الطرق المسفلتة ، وطائرات الركاب من الالومنيوم التى تزرع الاماكن جيئة وعودة . وتبدو البلدان وتختفى مثلما يحدث فى المشكال (أداة بها قطع متحركة من الزجاج الملون ما أن تتغير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الاشكال الهندسية — المترجم) . ومر وقت قصير . وفجأة اصبح الشعراء الشبان الذين اتخذوا السرعة مثالا لهم ، فى

مؤخرة المسرح الأدبى وتطوراته . وحل محلهم فصائل من الشعراء الجدد الممتلئين ثقة والمتعاظمى القوة الذين يتسمون بنظرة غير متعجلة ومتأنية للحياة . كما يمتازون بالتبصر العميق فى تاريخ البلاد والتراث الثقافى الذى خلقه الشعب ، وكذلك بالرغبة فى التغلغل الى جوهر الاشياء والاحداث كما يتحلون أيضا بفهم أوضح لما ينبغى ان يكون عليه الشعر مثل رسالته الوطنية وكيف يكون فى خدمة الشعب ... ان الرغبة فى معرفة الحياة وفى تحقيق السعادة للبشر .. هذا هو الدرب الذى يسير فيه الشعر السوفييتى الفتى اليوم عبر خضم الاحداث المتفجرة ، وعبر ما يميز عصرنا من سرعة ».

الكتب

تحتل الكتب ، فى ميدان الثقافة فى الاتحاد السوفييتى — المركز الأول كقوة تربوية جبارة . والكتب ترافق الانسان من طفولته الى سن نضوجه وكبره ، ترافقه باعتبارها الرفيق والناصح والصديق . ويسجل الاتحاد السوفييتى — طبقا لاحصائيات اليونسكو — أرقاما قياسية فى انتاج الكتب وترجمتها . وربع الكتب الصادرة فى العالم ، من المطبوعات السوفييتية . وقد صدر منها أكثر من ٢,٤ مليون كتاب فى ٤٠ ألف مليون نسخة خلال الفترة من ١٩١٨ الى ١٩٧١ وقد طبعت هذه الكتب بـ ١٤٤ لغة من بينها ٨٩ من اللغات التى تتحدث بها شعوب اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية و٥٥ لغة أجنبية . وتصدر آلاف الكتب الجديدة كل عام ويطبع منها أكثر من ألف مليون نسخة . وتصدر ٦ كتب سنويا لكل مواطن ويبلغ ما يباع منها يوميا ٣ ملايين نسخة .

ومع كل ذلك ، فان الطلب يفوق العرض وتنفد معظم الكتب

خلال بضعة أيام قليلة من نشرها . وكانت الروايات والقصص – ولا تزال تتمتع بشعبية ورواج عظيمين ، وتبلغ نسبتها عشر مجموع ما يصدر من الكتب عامة . وأصبح القارئ السوفييتي يتميز بذوق شامل . فهو يشترى الكتب الممتازة للمؤلفين السوفييت بنفس الحماس الذى يشترى به كتب مؤلفى الدول الأجنبية . وتطبع المؤلفات الكلاسيكية الروسية أيضا مثل اعمال بوشكين وجوجول وتولستوى ودستويفسكى وتشيخوف وجوركى ، فى ملايين النسخ ، وتترجم الى لغات القوميات السوفييتية الأخرى ، وهى تقرأ على نطاق واسع . ويقول الناشرون بحق ان افضل ما انتجه البشر يختار ويطبع فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية . وما من كاتب أجنبى مشهور الا وتوجد كتبه متوفرة باللغة الروسية وباللغات الرئيسية السوفييتية الأخرى . وينشر سنويا أكثر من الفى كتاب لمؤلفين غير سوفييت ويطبع منها أكثر من ٧٠ مليون نسخة . وخلال الفترة وحدها التى اعقبت الحرب صدرت طبعات تتراوح كل طبعة ما بين ١٠٠ ألف الى ٢٠٠ ألف نسخة لمختارات من اعمال شكسبير ، وجوته ، وبلزاك ، وديكنز ، وهوجو ، وزولا ، ودوماس ، وموباسان ، وابسن ، وجاك لندن ، ورومان رولان ، واناتول فرانس ، وتوماس مان ، وجالزورزى ، وبرخت ، وقد صدرت هذه المجلدات فى بضعة طبعات . وبلغ مجموع مبيعات أعمال جاك لندن ٢٨ مليون نسخة صدرت بـ ٣٢ لغة ، وبلزاك ٢٣ مليون نسخة بـ ١٨ لغة وشكسبير ٦٫٥ مليون نسخة بـ ٢٨ لغة . وبلغ ما بيع من نسخ لمؤلفات هيوجو فى عام واحد ٧ ملايين ونصف مليون نسخة .

وشعرت بالاغتباط الشديد عندما علمت بتفصيلات حول الكتاب الهنود . وقد وجدت ان التراث الهندى وكذلك كتابنا يلقون الاحترام

الكبير والحب فى الاتحاد السوفييتى . وأكثرهم شعبية رابندرانات لآرائه حول الانسان والانسانية . وقد طبعت مؤلفاته فى ٥ ملايين نسخة بـ ٢٢ لغة وفى ١٣٥ مطبوعا . وفى الخمسينات ، عندما صدر أول مجلد له فى طبعة بلغ عدد نسخها ٩٠ ألف نسخة بيعت كلها عن آخرها فى خلال ٣ أو ٤ أيام . وقد ترجم نحو ٧٠٠ كتاب لمؤلفين هنود وصدر منها ٢٥ مليون نسخة بـ ٣٤ لغة وذلك خلال العشرين عاما الماضية . وتشمل هذه الكتب : أوبانيشادز ، وبهاجواد جيتا ، وبانتشاتانترا ، وهيتوبادش ، ومهابهاراتا ، ورميانا ومؤلفات كلاسيكية لكاليدا ومؤلفات بانكيم تشاندرا وسارا تشاندرا ، وبريمتشاند ، وكذلك الاعمال الشعرية الخاصة بفالاثول ، وسرى سرى وسميتراناندان بانت ، وأمريتا بريتام ، وعلى سردار جفرى كما تشمل كتب كل من ر . ك . نارايان ، بهابانى بهاتاتشاريا ، وكذلك على اعمال المؤلفين الراديكاليين مثل : ياشبال ، مولكراج أناند ، وكريشنا تشاندرا ، وك . م . عباس ، وساجاد زهير وقد صدرت أعمال المهاتما غاندى وجواهر لال نهرو فى بضعة طبعات . وهناك سلسلة للمؤلفات الشرقية الحديثة تضم مختارات تمثل أدب الدول النامية فى الشرق . ومن بين مجلدات السلسلة التى بلغ ما صدر منها حديثا ٢٣ مجلدا ، يوجد كتابان : الأول قصص هندية والثانى قصص بنغالية وهناك سلسلة أخرى تضم ١٠ مجلدات وتتناول تاريخ الأدب العالمى .

وتصدر كتب الاطفال بجميع اللغات . وتجىء دارا « ماليش » (أى الصغار) و « أدب الاطفال » فى مقدمة دور النشر فى هذا الحقل وقد اصدرت الداران فى عام ١٩٧١ أكثر من ٣٤٤ مليون نسخة من كتب الاطفال . وتبذل المحاولات باستمرار من أجل

نشر أفضل ما يوجد فى الأدب العالمى . وقد صدرت حكايات هانز أندرسون فى طبعات بلغ مجموع نسخها ٢,٩ مليون نسخة . ويتعرف الصبية والصبيات فى دروس الأدب بالمدارس على الروائع العالمية ولا تتوقف دور النشر عن اصدار مثل هذه المؤلفات فى سيل لا يتوقف . ويغرم الاطفال كثيرا بالكتب ، ولكل طفل – عادة – ركن خاص فى منزله يحفظ فيه مكتبته الصغيرة .

ولا يوجد هنا قطاع خاص للنشر . وتقوم دور النشر بعملها تحت اشراف اتحادات النقابات والحزب الشيوعى والكومسومول ، ووكالة نوفوستى وغيرها من المنظمات العامة وكل منها تختص بفرع خاص من فروع النشر . وتصدر الجمعيات الدينية مطبوعاتها الخاصة . وتوجد أيضا دور نشر حكومية . ويبلغ مجموع دور النشر ٢٢٠ دارا . ويحصل كل مؤلف على دخل من مؤلفه ويتوقف ذلك على حجم الكتاب وعدد نسخه وموضوعه . وأسعار الكتب زهيدة للغاية . وسعر الكتاب المدرسى – فى المعدل – يبلغ ٢٦ كوبيكا ، وكتب الزراعة ٢٧ كوبيكا ، والقصص ٤٠ كوبيكا ، والكتب العلمية ٢٥ كوبيكا . ويمكن شراء الكتب بالتقسيط عندما يزيد المبلغ الكلى عن ٢٥ روبلا .

وينظم بيع هذا العدد الهائل من الكتب ١٥ ألف مخزن لبيع الكتب منتشرين فى البلاد . وتساعد فى هذا العمل « مكتبات الشعب» فى المصانع والأماكن الأخرى التى يديرها متطوعون فى كل وحدة . وتساهم المنظمات التعاونية بقسط كبير فى تنظيم بيع ٤٤٠ مليون كتاب للفلاحين وهذا العدد يزيد أربع مرات عن مجموع الكتب التى كانت تصدر سنويا فى روسيا ما قبل الثورة .

وخلال وجودى بموسكو ، أمضيت يوما كاملا تقريبا فى

زيارة لمكتبتين كبيرتين لبيع الكتب وبعض الاكشاك المقامة على جوانب الطريق . ولمدة أربع ساعات ، تفقدت « دار الكتب » وهى مبنى حديث من طابقين فى شارع كالينين ويعتبر أكبر مخزن لبيع الكتب فى كل الاتحاد السوفييتى . والكتب معروضة فيه بشكل منسق وموزعة على عدد من الأقسام . وفى قسم الأدب ، وجدت مجموعة جذابة أنيقة التغليف لتشارلز ديكنز وهى فى ٣٠ مجلدا وأميل زولا فى ١٨ مجلدا وأناتول فرانس فى ٨ مجلدات . وللهند قسم خاص . ويتفرع قسم الفنون الى اقسام فرعية فهناك تصنيف خاص للموسيقى وآخر للباليه وثالث للملحنين ورابع للأوركسترا وقائديها . وتمتلئ بضعة أرفف بمؤلفات لينين . ويوجد قسم خاص للكومسومول وآخر لكتب الاطفال . ولم أجد كتابا واحدا من النوع الجنسى الرخيص وكتب الجريمة التى خرجت من الولايات المتحدة على شكل طوفان وغمرت دول جنوب شرقى آسيا بما فى ذلك بلدنا ، من أجل تسميم عقول الشبان غير الناضجين . وليس هناك ثمة احتمال لاستيراد الكتب المناوئة للمبادئ الانسانية أو التى تدعو لعبادة القسوة والفسوق أو التى تروج للنظرة الساخرة المستهينة بالحياة الشخصية . ولم اشاهد فى واجهات المكتبات أى غلاف لكتاب يعرض صدرا عاريا أو فخذا فى وضع غير لائق . وهناك حظر على كتب الاباحية الجنسية والكتب التى تدعو للفاشية والتفرقة العنصرية . وتساءلت عن القصص العلمية ، وعلمت ان مثل هذه الكتب مع الكتب الرياضية تلقى شعبية بين الشباب . وهذه الكتب – على عكس الكتب الامريكية المثيرة – تدور حبكتها حول الامكانيات الهائلة للعلم فى خدمة الانسانية . ولمست بنفسى مدى رخص أسعار الكتب فقد اشتريت – كمراجع لى – ١٩ كتابا وكانت

مفاجأة سارة لى عندما قدمت لى العاملة فاتورة بمبلغ ٩ روبلات وبضعة كوبيكات فقط .

وقد لاحظ مرة اهرنبورج هذه الملاحظة :

« انه ليس من الأهمية العظمى لأدبنا السوفييتى ان يحرز هذا الكتاب أو ذاك النجاح، ولكن الشىء الذى يعتد به هو اننا خلقنا عشرات الملايين من القراء الاذكياء والمواظبين على القراءة ». وتقول احصائيات اليونسكو ان أكثر القراء شرها فى القراءة يوجد فى اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية . فالناس لا يقرأون فى المنزل فى أوقات الفراغ فحسب ولكن فى كل مكان . وقد شاهدت اناسا يقرأون وهم يتنقلون فى مترو الانفاق وهم جالسون على الارائك الخشبية فى الطرق العامة وفى المتنزهات . ورأيت اغلب الفتيات العاملات فى المصاعد فى الفندق الذى نزلت به وكذلك عاملات الاجنحة فيه يحملن الكتب منتهزات الفرص للقراءة فيما بين اوقات العمل. والقراء يساهمون فى نشاط ايجابى . فهم فى احيان عديدة يجتمعون فيما يطلق عليه « مؤتمرات القراء » التى تعقد فى النوادى والمكتبات والمدارس لمناقشة احدث الكتب ونقد مؤلفيها بحرية مطلقة :

المكتبات والمتاحف

تدار المتاحف والمكتبات باعتبارها جزء من حركة التربية والتنوير . وهناك ٣٦٠ ألف مكتبة تحتوى على ٣٣٠٠ مليون كتاب ومجلة . وليست هناك اية رسوم على العضوية . وتعمل مئات الآلاف من المكتبات متنقلة فى المصانع والمزارع الحكومية والجماعية المنتشرة فى أرجاء البلاد . ويبلغ مجموع عدد الكتب التى تستعار

سنويا نحو الفى مليون كتاب . وفى اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية مائة كتاب لكل مواطن (وكان فى روسيا القيصرية ٦ كتب) بينما فى الولايات المتحدة لا يتعدى هذا الرقم ١١ كتابا .

ومكتبة لينين فى موسكو هى أكبر مكتبات اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية قاطبة . وتحتوى على ٢٥,٧ مليون وحدة من المخطوطات و ٢٢ قاعة للمطالعة بها ٢٥٠٠ مقعد . ويتردد عليها يوميا ١٠ آلاف قارئ. وعندما زرت المكتبة ، شاهدت شريطة متحركة بسرعة تحضر الكتب ومجموعات الجرائد لعدد كبير من القراء . ووجدت فى القسم الهندى من ضمن الكتب النادرة كتاب « أحاديث كريشنا مع أرجن » مترجما الى الروسية فى عام ١٧٨٨ عن كتاب باللغة الانجليزية من عمل تشارلز ويلكنز ، وكذلك وجدت كتابا لقواعد اللهجات فى شرق الهند منشورا فى عام ١٨٠١ . وأيضا كتاب « مهابهاراتا بيرات باربا » باللغة الروسية . ووجدت من بين الكتب العامة المكتوبة باللغة الهندية عددا من المؤلفات الخاصة بنضالنا التحررى ، وكذلك صحيفة « أناندا بازار باتريكا » البنغالية اليومية . والتقيت فى احدى الحجرات المخصصة للقراء للاطلاع على الكتب المصورة على الافلام بشاب افريقى اسمه سوميون أموتايو من الاكاديمية النيجيرية وكان يجرى دراسات حول تركيب اللغات الأفريقية . وكان يجلس بجانبه شاب روسى يقرأ فى احد الكتب « النادرة ». واخبرنى هذا الشاب انه يعمل صحفيا فى الشرق الأقصى وان قراءة الكتب النادرة هى احدى هواياته منذ ايام دراسته . وطلبت من دليلة المكتبة المرافقة لى أن تزودنى باحصائيات عن اتجاهات القراءة بين الشباب ، وعن اختيارهم للموضوعات ... الخ . الا أنها أبلغتنى ان فى وسعى الحصول على هذه البيانات من المختص بالدراسات

الاجتماعية بالمكتبة . ونظرا لضيق الوقت ، لم اتمكن من متابعة الموضوع .

وفى موسكو ، مكتبة ضخمة أخرى هى مكتبة الآداب الاجنبية التى تضم ٤ ملايين مجلد بـ ١٢٨ لغة . وفيما يتعلق بالمتاحف فى اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية ، فيبلغ عددها الكلى ١٢٠٠ متحف تقريبا ، وكلها مخصصة للموضوعات التى تتناول النضال الثورى ، والتاريخ ، والفنون ، والمسرح ، والموسيقى ، والعلوم الطبيعية . وتشكل زيارات هذه المتاحف جزءا منتظما من برنامج التربية المدرسية .

الصحافة

تمتاز الصحافة السوفييتية فى اهدافها ومحتوياتها وأسلوبها بطابعها الخاص المختلف تماما عن طابع الصحف فى الدول الرأسمالية . وتعتبر هذه الصحف التى يصل توزيعها الى ملايين النسخ ، المنظم ـ بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة ـ على المستوى الجماهيرى الواسع لكل أوجه النشاط الاقتصادى والسياسى والثقافى والاجتماعى للشعب . وفى يوم « ٥ مايو » ـ يوم الصحافة السوفييتية ، كتب ليونيد ريتشميدين ، الصحفى البارز ، يقول :

« تخصص جرائدنا ومجلاتنا مساحات كبيرة لتغطية الاحداث الخاصة بالعمل الخلاق للانسان فى صالح المجتمع ، واهتمام هذا الانسان بالمحافظة على الملكية العامة وتنميتها ، وما يتحلى به من روح جماعية ورغبة فى المساعدة الرفاقية ، وكذلك علاقاته الانسانية والاحترام المتبادل بين الناس ، والاهتمام بالعائلة وتنشئة الأطفال ، بالاضافة الى التضامن مع الشعب العامل فى جميع البلدان والامم .

وفى كلمات أخرى ، فان الصحافة تعكس الانسان الجديد الذى خلقه المجتمع الاشتراكى والذى يتحلى بمبادئ اخلاقية جديدة تخدم قضية الانسانية والتقدم العام للبشرية ».

وتخلو الصحف السوفييتية من اى حديث عن الجنس أو قصص الجريمة ولا تنشر أية شائعات مثيرة عن الشخصيات أو القادة . ولا تتضمن موضوعاتها أية سلاسل هزلية أو صفحة للشئون المالية وأخبار تقلبات السوق . ولا يوجد بها أية اعلانات تجارية وينعدم بها بتاتا عامل الاثارة . وتصدر الصحف عادة من أربع أو ست صفحات يقرأها بالفعل الناس ولا يكتفون بمجرد القاء نظرة عليها .

وتتكون الصحف المركزية اليومية من صحيفة « برافدا » (أى الحقيقة) الناطقة بلسان الحزب الشيوعى وتوزع ٩,٢ مليون نسخة . وصحيفة « أزفستيا » (أى الأخبار) وهى متحدثة باسم الحكومة وتوزع ٨,٦ مليون نسخة ، وصحيفة « ترود » (صحيفة النقابات) ويصل توزيعها الى ٤,٩ مليون نسخة. وكذلك صحيفة «سلسكايا جيزن» (أى حياة الريف) وتوزع ٦,٦ مليون نسخة وأخيرا «سوفيتسكى سبورت» («الرياضة السوفييتية») ويبلغ توزيعها ٣,٣ مليون نسخة. وهذا التوزيع يعد كبيرا اذا قورن بارقام توزيع الصحف فى الولايات المتحدة حيث لا يزيد توزيع صحيفة « نيويورك نيوز» التى تجىء فى أول القائمة بالنسبة الى الصحف الواسعة الانتشار . فتوزيعها مليونان وتليها صحيفة « نيويورك تايمز » وتوزيعها ١,٥ مليون . وتطبع الصحف المركزية فى وقت واحد تقريبا فى ٤١ مدينة عن طريق القوالب التى تنقل بالجو الى ١٢ مدينة هامة نائية مثل اركوتسك وطشقند وغيرها . وتنقل جميع صفحات الصحف المركزية خلال دقائق قليلة عن

طريق قنوات الاتصال التلفزيونى لطبعها . ويبلغ مجموع عدد الصحف ٦٨٧٨ صحيفة كما يبلغ عدد المجلات والمنشورات المنتظمة حوالى ٦ آلاف ، وهى تصدر بـ ٦٧ لغة . وتطبع من مجلة « رابوتنيتسا » النسائية ١١,٢ مليون نسخة . وتطبع من مجلة « زدروفيه » (أى الصحة) نفس عدد النسخ تقريبا . ويبلغ مجموع توزيع الصحف فى اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية ١٤٤,٧ مليون نسخة أى ثلث عدد النسخ التى تطبعها صحف العالم كله . وتشترى كل عائلة سوفييتية — فى العادة — ٤ من الصحف والمجلات*. وكما هو الحال بالنسبة الى الكتب فان دور نشر الصحف والمجلات اما هيئات حكومية أو منظمات اجتماعية .

وخلال مناقشة حول الموضوعات التى تنشرها صحيفة « برافدا » ، جرت بينى وبين فالنتين كوروفيكوف وهو احد كبار الصحفيين السوفييت ، لفت نظرى بنوع خاص الى ما يقوم به قسم « رسائل الى المحرر » بالصحيفة . وقيل لى ان كلا من « برافدا » و « ازفستيا » و « ترود » تتلقى — فى المعدل — ألف رسالة يبعث بها يوميا المواطنون . وتغطى هذه الخطابات كل جوانب الحياة تقريبا . ففيها يجد المرء معلومات بشأن سير العمل فى المشروعات والمزارع الجماعية والحكومية ونشاط مجالس السوفييتات والمعاهد العلمية والفنية وكذلك بشأن جهود العمال البارزين . وهى تتضمن فى الوقت نفسه انتقادات مرة لجميع النواقص ، ومناقشات مستفيضة لمشكلات السياسة الخارجية والموقف الدولى . وتقوم هيئة خاصة من المحررين بدراسة كل رسالة على حدة واعطائها العناية اللازمة . فالرسائل التى تتضمن شكاوى ،

* ويبلغ سعر الصحيفة اليومية كوبيكين ويتراوح سعر المجلة من ١٢ الى ٣٠ كوبيكا .

8*

تحول الى السلطات المختصة وتبلغ النتائج فى النهاية الى المراسلين . وتلقى مثل هذه الرسائل التى تحولها الصحف الاهتمام الواجب ، وتتخذ بشأنها اجراءات علاجية عند الضرورة . وتنشر صحيفة « برافدا » صفحة كاملة من الرسائل مرتين كل شهر ، هذا الى جانب تحقيقاتها العادية اليومية . وتخصص الصحف اعمدة خاصة لنشر انباء أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية :

ولمجلة « كروكوديل » الهزلية الاسبوعية شعبية كبيرة وهى تطبع ٥ ملايين نسخة وتنتقد هذه المجلة بجرأة بأسلوبها الساخر أى نواقص تكتشفها فى حياة البلاد . وقد جمعت ١٦ عددا من اعدادها الأخيرة لالقاء نظرة على ما بها من صور كاريكاتورية . ووجدتها منوعة للغاية ولاذعة . ويصور أحدها عددا من عربات نقل البضائع وهى تطير فى الهواء ولا تتحرك على القضبان لأن حمولتها تقل كثيرا عن طاقتها ، ويظهر كاريكاتور آخر وصول آلات لازالة الثلوج الى مناطق حارة فى الجنوب بعثت بها وكالة توزيع السلع . وكتب تحت الرسم « ينبغى عليهم الآن ان يبعثوا لنا بالثلوج». وأيضا ، تذكر احد الآباء واجبه ازاء طفله ، فذهب لزيارته فى المدرسة ، وهناك ابلغوه ان ولده الآن طالب فى الكلية . وفى كاريكاتور آخر ، تبدو احدى الزوجات وهى تسأل زوجها لماذا ينحنى بشدة أمام تمثال من الثلج ، ويجيبها الزوج بقوله « من يدرى ، ربما يكون ابن رئيسى هو الذى صنعه ». ويحتوى كاريكاتور آخر على نقد لفئة المديرين . وتظهر فيه عربات نقل محملة وقد وقفت فى صف طويل وجميع سائقيها يغطون فى النوم ، حيث لم تصل بعد آلات التفريغ . وكانت جميع الصور الكاريكاتورية تتسم بالصراحة والنقد اللاذع .

تذيع فى البلاد أكثر من ٥٠٠ محطة اذاعة البرامج الاذاعية بـ ٦٧ لغة من لغات الاتحاد السوفييتى ويستمع اليها الناس فى كل منزل فى البلاد بفضل وجود ٦٠ مليون جهاز لاسلكى وأكثر من ٤٨,٤ مليون جهاز راديو سلكى لنقل البرامج الاذاعية . وتذاع البرامج التليفزيونية من ١٣٠ مركزا للتليفزيون و ١١٠٥ محطات لاعادة نقل البرامج منها ١٤٥ محطة قوية ويبلغ مجموع عدد اجهزة التليفزيون فى البلاد ٤٥ مليون جهاز . ومن المتبع فى الاتحاد السوفييتى ان تذاع الأفلام السينمائية الطويلة الجديدة على شاشات التليفزيون بعد عشرة أيام فقط من أول عرض لها فى دور السينما . ويطلق أسم « ليلة سعيدة ، أيها الاطفال » على البرنامج الذى يذيعه تليفزيون موسكو كل مساء ويصور حكاية خيالية للاطفال الصغار .

ويعد الانتاج السينمائى فى الاتحاد السوفييتى فنا وليس صناعة . والفيلم السوفييتى يعطى صورة صادقة لتطور حياة الشعب ممجدا حيوية هذا الشعب وانجازاته . وجميع قصص الأفلام السوفييتية — كما هو الملاحظ فى الأفلام التى انتجت بعد الحرب مثل « قسمة انسان » و « انشدة الجندى » و « حب وحرب » — كل قصص هذه الأفلام صادقة فى تصويرها لشخصية الانسان السوفييتى الصلبة وانسانيته وثراه الروحى . يشجب السينمائيون السوفييت افلام « جيمس بوند » وما يماثلها التى تصور على الشاشة رجال العصابات فى ثوب الرجال الشجعان الناجحين وتصور المرأة كشرك فى اللعبة مستخدمة تأثير الجنس ، وتنسج هذه الأفلام القصص التى تمجد قطاع الطرق والقتلة . ومن الناحية الأخرى تعمل السينما السوفييتية على الحث

8—1849

على الاقبال النشط على الحياة واحترام البشر ، كما تنمى فى الناس مبادئ الاخلاق السامية والاحساس بالجمال .

وبالاتحاد السوفييتى ٤٠ أستوديو للأفلام تنتج سنويا من ١٢٥ الى ١٣٠ فيلما طويلا بما فى ذلك ٢٠ فيلما خاصا بالأطفال . ويبلغ عدد دور العرض فى البلاد ١٤٥ ألف دار . وفى المناطق النائية يجرى عرض الأفلام عن طريق قوافل سينمائية متحركة . وتنقسم تذاكر السينما الى ثلاثة انواع وتتراوح أسعارها ما بين ١٠ الى ٥٠ كوبيكا . وتعرض أيضا الأفلام الأجنبية الممتازة فى دور العرض السوفييتية . وتحظى الأفلام الهندية من انتاج بيمال روى ، وساتياجيت راى ، وراج كابور ، وكوازا أحمد عباس بتقدير كبير . ويتردد كل مواطن — فى المعدل — على دور السينما ٢٠ مرة فى السنة . ويلى الأفلام فى الشعبية التردد على المسارح . وهناك أكثر من ٥٥٠ فرقة مسرحية محترفة تقدم مسرحياتها بـ ٤٥ لغة امام ١١٤ مليون متفرج سنويا . وتمثل على المسارح المسرحيات الدرامية للكتاب أشيلوس وسوفوكليس ويوربيديس جنبا الى جنب مع مسرحيات شكسبير ، وشيلر ، وتشيخوف ، وجوركى . وهناك علاوة على ذلك ٤٤ مسرحا للاطفال وأكثر من مائة مسرح للعرائس .

الفن للملايين

اعلنت ثورة اكتوبر ان الفن أصبح ملكا للشعب ولم يعد حكرا على الاغنياء العاطلين . ويتجلى تطبيق هذه السياسة باسهام الجماهير على نطاق واسع فى المدن والقرى فى فن الهواة . ولم يعد الناس مجرد متفرجين . فقد تألفت فى كل مكان فرق للهواة لتقديم الاعمال الدرامية وعزف الموسيقى والأنشاد الجماعى وأعمال الباليه .

وبلغ عرض بعض هذه الفرق مستوى فرق المحترفين . وأصبح فن الهواة منبعا لا ينضب للمواهب الجديدة . ووصل عدد هذه الفرق الى ٤٠٠ ألف فرقة ومجموع عدد أفرادها ١٤ مليون شخص . وينتشر فى انحاء البلاد أكثر من ١٣٣ ألف ناد كامل التجهيز ودار وقصر للثقافة وهى تتبع المنظمات الجماهيرية مثل المزارع الجماعية والنقابات والكومسومول . وتقوم كلها بتنظيم وتقديم كل التسهيلات لالقاء المحاضرات وتنظيم المناقشات والكونسرتات والمسرحيات وعرض الأفلام وتنظيم حفلات الرقص والمهرجانات وكذلك المعارض . وبالنسبة للمراقبين المحايدين ، يعتبر هذا الانجاز الذى حققه الشعب كله فى هذا المجال ثورة ثقافية حقيقية .

الفصل الرابع

الأدوار الثلاثة

التقيت فى مبنى ضخم يحمل رقم ٢٣ فى شارع بوشكين بموسكو وهو المقر الرئيسى للجنة النساء السوفييتيات ، التقيت هناك مع ليديا بتروفا التى كانت فى ذلك الوقت نائبة رئيسة اللجنة وأجريت معها حديثا صحفيا . وكانت بتروفا فى أوائل السبعينات من عمرها ، الا ان السن — على ما يبدو — لم تكن باية حال حائلا بينها وبين القيام بالعمل المنتظم الشاق التى تضطلع به يوميا من أجل خدمة قضية المرأة . وهى تعكف على تأليف كتاب بعنوان « المرأة فى الماضى وفى الحاضر » . وخلال حديث امتد لساعة كاملة ، وصفت بتروفا كيف ان المرأة حققت — عن طريق مراحل مخطط لها — تقدما مطردا . وهى باعتبارها استاذا فى التاريخ والاقتصاد ، تملك تحت يدها جميع الحقائق . وفى كلامها عن الأساسيات ، قالت ان الخط السياسى يهدف الى « جعل العلاقات العائلية أكثر قوة وان يقدر الزوج الزوجة كانسان ، وذلك لأن العلاقة بينهما علاقة مساواة . ان المرأة ليست «جريها لا كشمى» (ملكة البيت) فحسب . فهى تقدم أيضا مساهمة كبيرة فى المجتمع الكبير».

وخلال مناقشتنا ، وقرب النهاية ، استخدمت كلمة « خدمة » بالصدفة فى معرض الاشارة الى واجبات الزوجة ازاء زوجها . وعلى الفور استثيرت بتروفا نوعا ما وقالت: « لا ! لا ! انها ليست من أجل الفراش لامتاع زوجها ». وشرحت لها اننى لم اقصد هذا المعنى على

الاطلاق . وعلمت ان بتروفا عاصرت أيام القياصرة وهى فى سن المراهقة عندما كانت الاغلبية الساحقة من النساء بائسات . وهذه التجربة هى التى جعلتها شديدة الحساسية ولا تقبل أية فكرة توحى بان للمرأة مكانة وضيعة وغير متساوية مع الرجل .

المرأة فى أيام القيصرية

من بين جميع الأوضاع المشينة لروسيا قبل الثورة ، كان أكثرها وضوحا وضع المرأة المزرى والمستغل . وكانت القوانين المدنية لحكومة القيصر تنص على انه « ينبغى على الزوجة اطاعة زوجها فى كل شىء . وليس لها الحق فى ان تخرج — بأية حال — عن سلطانه » . وأحد تعاليم الكنيسة الارثوذكسية فيما يتعلق بالعلاقة الزوجية يتضمن ارشادات تفصيلية بشأن كيفية معاملة الزوجة العاصية ويقول « انه من الأوفق ضربها بالسياط ... فالسوط موجع وفعّال ، وهو أيضا رادع ومفيد » .

ولم يكن فى وسع المرأة التوظف بدون موافقة الزوج . وكان هذا قانونا . واذا ما ذهبت الى مكان ما بدون موافقته المسبقة ، على البوليس ان يحضرها بالقوة . وكانت الأوضاع السائدة فى المناطق الآسيوية من الامبراطورية القيصرية أكثر سوءا . فكان على المرأة هناك ان تلبس الحجاب . وكانت الفتاة تباع للرجل قبل بلوغها سن الرشد لتكون احدى زوجاته لأن تعدد الزوجات كان عادة متبعة فى تلك البقاع . وعند وفاة الزوج ، تصبح الزوجة شرعا من ممتلكات أقرب اقربائه ، مع الأوانى المنزلية والدواجن وبقية ممتلكاته كلها قابلة للبيع لمن يرغب فى الشراء . ولم تكن للمرأة أية حقوق شرعية لحماية نفسها ، وكانت تعامل معاملة الرقيق . وكانت الاغلبية العظمى

من النساء لا يقرأن ولا يكتبن . ويظهر الاحصاء الذى جرى فى عام ١٨٩٧ أنه فى ذلك الوقت كان ٥٥ فى المائة من النساء العاملات بأجر يشتغلن خادمات فى منازل الاثرياء والموظفين . وكان ٢٥ فى المائة منهن يعملن فى الحقول فى اراضى الملاك وأثرياء الفلاحين . وكان ١٣ فى المائة فقط يعملن فى المصانع ومواقع البناء و٤ فى المائة فحسب يعملن فى التعليم والخدمات الطبية .

وقضت ثورة اكتوبر فى ١٩١٧ على هذه المظالم . واعلنت المساواة للمرأة فى المجتمع وفى العائلة كمبدأ وكان ذلك فى المراسيم الأولى التى اصدرتها الدولة السوفييتية الجديدة . وتنص المادة رقم ١٢٢ من دستور اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية — وهو المعمول به حاليا — على ما يلى :

« للمرأة فى اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية الحقوق المتساوية مع الرجل فى كافة المجالات الاقتصادية والحكومية والثقافية والاجتماعية وكذلك فى الحياة السياسية » .

وكان هذا بالفعل اعلانا بتحرير المرأة من الاضطهاد الذى استمر دهورا . ومع ذلك ، فان التقرير على الورق شىء وتوفير الظروف الفعلية لمساعدة المرأة على التمتع بهذه الحقوق شىء آخر . وكفلت الدولة السوفييتية للمرأة تحقيق هذه المادة فى الدستور عن طريق منحها — على قدم المساواة مع الرجل — الحق فى العمل والراحة والتعليم والضمان الاجتماعى . وهناك اجراءات اضافية وتتمثل فى قيام الدولة بتوفير وسائل حماية الأمومة والطفولة وتقديم المساعدات المالية للامهات ذوات الاطفال الكثيرين وأجازة الأمومة المدفوعة الأجر بالكامل وكذلك انشاء شبكة واسعة النطاق من دور الولادة ورياض الاطفال ودور الحضانة . ولا يوجد فى الاتحاد

السوفييتى أى تمييز فى الاجر فالمرأة والرجل يحصلان على اجر متساو نظير العمل المتساوى . وتتخذ هذه الاجراءات جميعها طابع التكامل – كجزء من اعادة البناء للحياة على أساس من التخطيط الامر الذى يعد جزءا جوهريا من التفكير الفلسفى الاشتراكى . والهدف من كل ذلك هو أن تعيش المرأة حياة كاملة وخصبة فى ادوارها الثلاثة : كزوجة وأم ومواطنة .

فى مجال العمل

ان تحرير المرأة فى البلاد قد فتح الطريق واسعا امام المرأة ومنحها الامكانيات غير المحدودة للتطور . فقد أصبحت المرأة مؤهلة فى مختلف المهن لاداء واجبها كمواطنة تساهم فى العمل فى الاقتصاد الاشتراكى للبلاد . وهى مثل الرجل تقوم بدور نشط فى كل مجال تقريبا من مجالات العمل وأحيانا قد « تتفوق » على ممثلى « الجنس الاقوى ». وقد قضى الاتحاد السوفييتى نهائيا على مفهوم الحرف والمهن « الرجالية البحتة » و« النسائية البحتة ». واليوم تحتل المرأة وظائف بالغة الاهمية فى كل جوانب الحياة . فهى مهندسة ومصممة ومديرة فى المشروعات الصناعية والمختبرات ومواقع البناء .

وتمثل المرأة العاملة فى الاقتصاد الوطنى بوجه عام ٥١ فى المائة من القوى العاملة فى الوقت الراهن ، وفيما يتعلق بالقطاع الصناعى والزراعى كل على حدة ، تبلغ نسبة تمثيلها ٤٨ فى المائة و ٤٥ على التوالى . وهناك مجالات أخرى فى قطاعات الاقتصاد والثقافة ، تزيد فيها نسبة النساء بشكل ملحوظ . وفى التعليم والثقافة تبلغ النسبة ٨٣ فى المائة وفى التجارة والخدمات الترفيهية تبلغ النسبة

٧٦ فى المائة وفى قطاع المال ٧٨ فى المائة وتشكل النساء نسبة ٧٢ فى المائة من جملة عدد الأطباء وهى نسبة مرتفعة للغاية بالقياس الى الولايات المتحدة حيث النسبة لا تزيد عن ٧ فى المائة وعن روسيا ما قبل الثورة حيث كانت النسبة ١٠ فى المائة فقط .

وأدى نظام المزارع الجماعية الى احداث تغيير جذرى فى مركز المرأة فى الريف . فقد قضى على ما كانت تعانيه المرأة منذ عصور طويلة من عدم مساواة ، وجعلها حرة ومستقلة اقتصاديا ، كما وسّع من أفاقها وحولها الى عنصر نشط فى بناء المجتمع الجديد . للمرأة اليوم الهيمنة على الانتاج الزراعى للبلاد . وهى تشكل نسبة ٥٢ فى المائة من الايدى العاملة فى المزارع الجماعية . وبين صفوف الاخصائيين فى مختلف الفروع وفى مقدمتهم المهندسون الزراعيون ، والخبراء فى تربية الحيوانات والبيطريون الذين نالوا تخصصا على مستوى التعليم المتوسط أو العالى ، تزيد نسبة النساء بينهم عن ٤٣ فى المائة . وأدى التقدم العلمى والتكنيكى الى تغيير طبيعة العمل الزراعى . فالمرأة التى حصلت على دراسة تخصصية تعمل على الآلات المعقدة والاجهزة الآلية . وتشغل اعداد كبيرة من النساء مناصب عضوات فى مجالس ادارة المزارع الجماعية ونائبات لرؤساء مجالس الادارة ورئيسات المجالس .

وفى قطاع الصناعة تشكل النساء ثلث العدد الكلى للمديرين التنفيذيين والأخصائيين . وهناك أكثر من ٣٨٨٥٠٠ امرأة يعملن فى مجال الابحاث العلمية فى الاتحاد السوفييتى . وأكثر من ٧١ ٥٠٠ حاصلة على درجة الدكتوراه أو الماجستيراه فى العلوم وهناك أكثر من ١٩٠٠ امرأة تحمل لقب بروفيسور أو أكاديمى أو عضو بالمراسلة فى أكاديميات العلوم . وبالنسبة الى السلك القضائى ،

تحتل النساء نسبة ٣٢,٣ فى المائة من مجموع عدد القضاة ونسبة ٣٥٪ من المحامين ونسبة ٤٨,٣٪ من المستشارين المساعدين و ٨٠٪ من الموثقين. وتقدم المرأة مساهمة كبرى فى مجال العلوم . وهناك نحو ١٠٠٥ نساء عضوات فى اتحاد الكتاب السوفييت ، وأكثر من ٩٠٥٦ عضوة فى اتحاد الصحفيين . ويبلغ عددهن فى اتحاد الفنانين السوفييت نحو ٣٥٠٠ . وهناك ٣٦٩٢ امرأة عضوة فى اتحاد المهندسين المعماريين . ومن بين اعضاء اتحاد المؤلفين الموسيقيين السوفييت يوجد أكثر من ٣٥٠ امرأة مؤلفة وناقدة موسيقية .

وتدل التقديرات على أن أربعة أخماس النساء القادرات على العمل تقريبا يعملن فى المجالات الانتاجية فى صالح المجتمع ؛ بينما تشتغل البقية فى اعمال المنزل أو فى قطع الاراضى الصغيرة التى تملكها العائلة وتوفرها المزارع الجماعية والحكومية لاعضائها فى الريف .

وقد حصلت أكثر من مليون امرأة على أوسمة وميداليات نظير خدماتهن الجليلة للدولة السوفييتية . ومنحت ٤,٤٩٧ سيدة لقب بطل العمل الاشتراكى . وحصلت ٢٤ منهن على هذا اللقب مرتين . كما اقيمت النصب التذكارية لهن فى مسقط رأسهن وقراهن .

لماذا العمل ؟

ان العمل لا يعنى بالنسبة للمرأة السوفييتية مجرد وسيلة للتكسب . فهو يمنحها ايضا احساسا بالزهو الوطنى والكرامة ، ويكون بمثابة الأساس الاقتصادى لتمتعها بالمساواة سواء على مستوى العائلة أو على مستوى المجتمع بأسره . وبالاضافة إلى كل ذلك فالعمل شرط جوهرى لتطور شخصية المرأة الشامل .

وفى حديث صحفى قالت ماريا أفسيانكوفا، عضوة هيئة رئاسة لجنة النساء السوفييتيات والحاصلة على الماجستيراه (فى الاقتصاد)... قالت : « لقد تناقشت مرارا عديدة فى هذا الموضوع ... لماذا تعمل المرأة ..؟ ... واجريت ايضا تحليلات اجتماعية بشأن هذا السؤال ... والنتيجة الرئيسية المستخلصة من كل ذلك هى : ان العمل لنسائنا ليس مجرد مصدر للدخل اضافى فحسب للعائلة ، ولكنه ايضا مسألة تتعلق بالكرامة الانسانية . ان السيكولوجية الاجتماعية الجديدة للمواطن السوفييتى تنعكس فى ضرورة ان تساهم نساؤنا فى عمل مفيد للمجتمع .»

وأجرى احد محررى جريدة «المرأة السوفييتية» الموسكوفية والواسعة الانتشار بضعة احاديث صحفية مع عدد من النساء ونشر وجهات النظر المشوقة التالية :

تامارا تيموشينكو رئيسة قسم الأدوية الكيميائية فى احد المصانع الكيميائية . وهذا القسم يعتبر مصنعا مستقلا ولهذا فهو كبير الحجم . وتعمل تامارا فى صناعة الأدوية منذ ٢٢ عاما وهى رئيسة لهذا القسم منذ عشر سنوات . وتتسم شخصيتها بالرزانة والهدوء بل انها ميالة الى ان تكون جافة. قالت «ان كونى امرأة كان عاملا مساعدا اكثر من ان يكون عقبة . ان القسم أشبه المنزل وكل انسان يعرف ان المرأة شديدة التدقيق بشأن ادارة المنزل اكثر من الرجل ... ان النساء لا يتسامحن اطلاقا فى اخطاء المدبرة ... وهن ميالات لأن يغفرن للرجال هفواته ».

تعمل جالينا بروشونينا نائبة مدير فى ثانى اكبر مصانع الدخان فى البلاد . وهى شابة مليئة بالحيوية ذات عينين بنيتين . قالت : «اننى متزوجة وعندى ولدان. ويعمل زوجى نائباً لمدير احد مصانع

تعليب الأسماك . ونحن – بطبيعة الحال – نتشاور ويساعد بعضنا البعض . ونقسم عمل المنزل بيننا نحن الأربعة ، ولهذا فأنت ترى ان عائلتي لا تعرقل عملي ، بل على عكس ذلك تماما . والمسألة مثار الخلاف هي عندما أضطر للسفر في مهمة ، وعندئذ زوجي يشكو : «متى أكف ان أكون ابا – حاضنة» . انني جد سعيدة بعملي وخاصة عندما أرى النتائج . وأعمل على تحويل كل انسان إلى دراسة الاقتصاد ، وقد اقنعت بالفعل شقيقتي بدراسته ...»

تتولى آلا بفلوكيموفا منصب رئيسة قسم الخدمات لدى مجلس البلدية . وهي جديدة في هذا العمل ، وكانت قبل ذلك تعمل كبيرة المهندسين في مصنع الكيماويات . وتشرف هذه المرأة الشابة الأنيقة على ٧ آلاف عامل وعاملة يعملون في صالونات الحلاقة ، ومحلات التفصيل ومصانع الاحذية والممرضات وعمال النظافة . وكانت ملاحظاتها على النحو التالي :

«أعتقد أنه من الأصعب على المرأة أن تكون مسئولة عن العمل . فهي أكثر عاطفية ومن الأصعب بالنسبة لها التغلب على الأخطاء . ولكن لها جوانب حسنة : فهي لا تصبح متساهلة . ومن الأسهل على المرأة المسئولة ان تقيم علاقات مع النساء ، ويحسن الرجال الذين يقعون تحت مسئوليتها من مظهرهم» .

«انني مقتنعة بأن المرأة اكثر استعدادا للاشراف على خدمات التسهيلات ، فلديها ذوق أرقى واحساس رهيف بما هو جميل ومريح» .

تاتيانا نيكفوروفا ... عمرها يزيد عن ٥٠ عاما ... وهي تشرف على مصنع الملابس منذ ١٥ عاما . تقول : «يجيء الي –

في احيان عديدة – الأزواج طلبا للتوسط في الخلافات العائلية . ولا أود ان اتحدث عن عدد العائلات التي تمكنت من جعلها تقف من جديد على اقدامها . وعندي ابنة في موسكو لديها طفلة في المدرسة . وهي لا تكف عن مطالبتي بالعودة للمنزل : «اننا نحتاج الآن إلى جدة وليس إلى مديرة» . ولكنني لا أتصور تركي المصنع . وحالما اخطو عتبته انشغل به عما عداه . وتقول لي النساء العاملات : «يا تاتيانا ايفانوفنا . لماذا لا تقضي كلنا شهرا واحدا تعتني خلاله بحفيدتك ؟ ان في استطاعتنا ان تعمل ذلك لمدة عشرين عاما» .

وكان الأخير في هذه الاحاديث الصحفية ، جيورجي شكراي ، وهو كبير المهندسين في المصنع الذي تعمل فيه تاتيانا نيكفوروفا . قال :

«كيف اعمل تحت رئاسة مديرة ؟ ليس لدي ما أشكو منه . فتاتيانا نيكفوروفا تعرف عملها جيدا . وهي تطلب الكثير من نفسها ومن الناس الذين يعملون معها وخاصة مساعديها . وكان هناك مثل شائع يقول : «ان المزرعة التي تديرها امرأة تكون مزرعة فاشلة» ولم يفكروا في مثل آخر يناقضه ، الأمر الذي يؤسف له ، لأن المرأة اكثر قابلية لتولي الادارة في الصناعة الخفيفة ، حيث يوجد عدد كبير من النساء العاملات . لأنهن يجدن فيها لمسة الام في علاقتها بهن ولهذا السبب يكون أسهل لديها معالجة جميع المشكلات ذات الطابع الشخصي علاوة على مسائل الادارة» .

واجرت المجلة نفسها استفتاء للرأي بين عاملات مصنع للمكانس الكهربائية حيث تشكل النساء ثلثي مجموع عماله . لقد اشتركت في هذا الاستفتاء ١٧٢٠ عاملة . وأجابت على السؤال : «هل انت راضية عن وظيفتك؟» اجابت ٢٤٦ عاملة بأنهن راضيات

تماما و ٤٢ راضيات بوجه الاجمال و ٩٢ بين بين و ٢٢ اميل لعدم الرضى واجابت ١٠ بانهن غير راضيات واجابت ٨ بقولهن انهن لا يعرفن . واجاب عدد كبير « بنعم » او « لا » بدون اى تعليق .

وبالنسبة للسؤال « لماذا تعملين » اجابت ٢٢٧ عاملة بأنهن يحببن ان يكنّ مع الناس ، واجابت ١٨٠ بأنهن يرغبن فى ان يكن مستحقات للمعاش . وردت ١٦٠ بأنهن يعملن من اجل زيادة دخل الأسرة. وقالت ١٤٧ بأنهن يوددن ان يكن ذوات نفع للمجتمع . وذكرت هؤلاء النساء ان العمل مشوق والمرتب عال . واضافت انهن يحببن ان يكن مستقلات اقتصاديا وأن يضعن دراستهن التدريبية موضع التطبيق ويرفعن فى الوقت نفسه من مهاراتهن .

وذكرت آلكسندرا كوزمينا ــ التى تعمل فى المصنع منذ سنوات كثيرة ــ « لو طلب منى فى الاستطلاع ان اذكر التبريرات لقلت : اننى أعمل لكى أكون ذات فائدة للمجتمع . اننى أشعر ــ عندما أساهم فى عمل جماعى ــ برابطة وثيقة مع الناس ، باعتبارهم يكونون أمة ...

« لقد عملت لمدة ٣١ عاما فى هذا المصنع . وعندما انظر ، فى المساء ، الى مصابيح الشوارع والنوافذ وهى مضاءة ، أقول لنفسى : ان هذا نتيجة لما ساهمت به من عمل .

« لقد كان شغل المرأة الشاغل ، فى وقت ما ، يتركز على كيف تلحق أولادها بالحضانة أو بروضة الأطفال . واليوم ، لدى مصنعنا ٦ رياض للاطفال وحضانتان ولا يرفض قبول أى طفل . اننى أعمل كل ما فى استطاعتى لكى انقل خبرتى ومعرفتى للعمال الشبان ».

وقالت فيرا لارينا رئيسة اللجنة النقابية بالمصنع : « ان العمل الجماعى يتسم بصفة ثمينة ، ومجتمعنا كله مشرب بهذه الصفة . ان العمل جنبا إلى جنب الآخرين ينمى فى الانسان احساسا ساميا بالواجب الوطنى والمسئولية ».

ويقول مدير المصنع فاسيلى فينوجرادوف انه يشعر بأن « العمل الخلاق للأفراد والمجتمع يجعل الحياة تستحق ان تحيا ومشوقة ومثمرة اجتماعيا ، وهو فى الوقت نفسه مصدر للرضى الأخلاقى السامى ... ان واحدا من كل ثلاثة عمال من العاملين بالمصنع يواصل دراسته ، ونصف هؤلاء من النساء ».

وسئلت ٥٠٠ امرأة متزوجة ، وكانت اجاباتهن على النحو التالى : قالت ٧٥ فى المائة منهن ، انهن راضيات تماما عن عملهن ، وذكرت ٦٦ فى المائة منهن ان « الجو الطيب الذى يسود العمل » هو ما يشدهن اكثر من اى شىء آخر الى العمل . وذكرن أسبابا أخرى مثل « الأجر المناسب » و « القرب من المنزل »... الخ .

فى المجالات الأوسع نطاقا

أتاحت الظروف المؤاتية فى المجتمع الاشتراكى للمرأة السوفييتية ان تكشف كاملا عما تكتنز من قدرات متعددة وقوى مبدعة ، وتتعاظم من عام لآخر ارادتها وحيويتها وتفانيها فى خدمة المجتمع . وان اتقانها العمل ليس إلا جزءا فحسب من القصة . فانجازاتها لا تقل عظمة عن ذلك فى المجالات الأوسع للحياة فى البلاد .

ان المرأة تشترك فى ادارة الدولة على جميع المستويات . وتدل الزيادة المطردة فى عدد النساء المنتخبات للمجالس المحلية

والمركزية على ثقة الشعب — بوجه عام — المتزايدة فى قدرة المرأة وفى طريقة ممارستها للعمل :

ويتزايد عدد النساء فى مجلس السوفييت الاعلى باستمرار من انتخاب للآخر . فقد كان عدد النساء فى أول مجلس سوفييت اعلى انتخب لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية ١٨٩ امرأة ، وارتفع هذا العدد فى المجلس الثانى إلى ٢٧٧ وفى المجلس الثالث وصل العدد إلى ٢٨٠ وفى المجلس الرابع بلغ ٣٤٨ وفى الخامس ٣٦٦ وفى المجلس السادس ٣٩٠ وفى السابع ٤٢٥ وفى المجلس الثامن — وهو الموجود حاليا — وصل عدد العضوات الى ٤٦٣ وهو يمثل ما نسبته ٣١ فى المائة من جملة اعضاء هذا الجهاز المركزى .

وبالمثل تتزايد باطراد نسبة عدد النساء العضوات فى الاجهزة المحلية للحكومة ومجالس السوفييت . وقد ارتفعت هذه النسبة من ٣٢ فى المائة فى عام ١٩٣٩ إلى ٤٥,٨ فى المائة فى عام ١٩٦٩ . ويبلغ عدد العضوات فى مجالس السوفييت العليا فى الجمهوريات الاتحادية ٢٠٤٥ نائبة اى ما نسبته ٣٤,٨ بالمائة من مجموع النواب . ويبلغ عدد النساء فى مجالس السوفييت العليا فى الجمهوريات ذات الحكم الذاتى ١١٣٩ نائبة اى ٣٨ فى المائة من مجموع النواب .

وعلى مستوى الحكومات المحلية — مجالس نواب الشعب العامل (على مستوى الأقاليم والمناطق ، والمقاطعات والنواحى و المدن والمستوطنات والقرى) يوجد ٩٩٢٢٤٧ نائبة من مجموع مليونين و ٧٠ ٥٣٩ نائب ونائبة .

وتحتل المرأة الكثير من المناصب الحكومية على أعلى المستويات فى الاتحاد السوفييتى . فهناك ثلاث عضوات فى هيئة رئاسة مجلس السوفييت الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية . وهناك

يادجار نصرالدينوفا الأوزبيكية الجنسية التى شغلت — منذ سنوات عديدة — منصب رئيسة هيئة رئاسة مجلس السوفييت الأعلى لجمهورية أوزبكستان السوفييتية الاشتراكية وهى الآن رئيسة مجلس القوميات فى مجلس السوفييت الاعلى لاتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية ، احد مجلسى اعلى سلطة فى البلاد . وهناك عدد من النساء يشغلن مناصب رؤساء ونواب رؤساء لهيئات مجالس السوفييت العليا فى الجمهوريات ذات الحكم الذاتى . ويبلغ عدد النساء اللائى يتقلدن مناصب رئيسات اللجان التنفيذية لمجالس السوفييت المحلية يبلغ عددهن ٨ آلاف امرأة . وتشغل المرأة ايضا مناصب الوزيرة ونائبات للوزراء وكذلك يقمن بالاشراف على عدد من الفروع الاقتصادية والثقافية كما يلعبن دورا مرموقا فى الاجهزة التشريعية .

وتقوم المرأة بدور نشط فى المجال السياسى ايضا . فقد انضمت المرأة — بأعداد كبيرة — للحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى . ويبلغ الآن عددهن ٣ ملايين عضو ومرشح للعضوية اى ما يوازى خمس مجموع أعضاء الحزب . ومثلما تزايدت عضوية النساء فى المجالس ، ارتفع ايضا عدد العضوات فى الحزب منذ الثورة . وكانت نسبتهن فى عام ١٩٢٢ لا تزيد عن ٨ فى المائة وزادت فى عام ١٩٢٧ الى ١٢ فى المائة . وتحتل الكثيرات من النساء الشيوعيات مناصب حزبية هامة — فهن عضوات فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى وسكرتيرات لجان الحزب فى الاقاليم والمقاطعات والمدن والنواحى . وهناك اكثر من ١٢ مليون مراهقة وشابة (اى نحو ٥٠ فى المائة) يتمتعن بعضوية منظمة الشبيبة الشيوعية اللينينية — الكومسومول .

وتقوم المرأة بدور نشط فى أعمال الاتحادات النقابية وتبلغ

نسبتهن نصف مجموع الاعضاء البالغ عددهم ٩٨ مليون عضو .

ويتمتع تقريبا جميع النساء العاملات بعضوية الاتحادات النقابية .

وتشكل المرأة نسبة ٣٤ فى المائة من مجموع عضوية المجلس المركزى العام للاتحادات النقابية، وهو الهيئة التنفيذية العليا، ولجنة الرقابة المركزية ، و ٤٨ ٪ من مجموع عضوية اللجان على نطاق الجمهوريات والدوائر والأقاليم ، و ٥٥ ٪ من مجموع أعضاء لجان المناطق والمدن . ويبلغ عدد النساء العضوات فى اللجان النقابية فى المصانع والمشروعات وكذلك اللجان المحلية ... يبلغ نحو ٣ ملايين امرأة اى ما يوازى ما نسبته ٦٠ فى المائة من مجموع العضوية

كما تقوم المرأة ايضا بدور هام فى المنظمات التعاونية . وتساهم المرأة السوفييتية بحماس فى الحركة النسائية الدولية . وتقيم لجنة النساء السوفييتيات علاقات مع ٢١٦ منظمة نسائية فى ١٢٠ دولة .

ومنذ انتهاء الحرب ، زار اكثر من ٦٠٠ وفد من الدول الأجنبية الاتحاد السوفييتى بدعوة من اللجنة . ومن الناحية الأخرى ، قام اكثر من ٢٠٠ وفد نسائى سوفييتى بزيارة الدول الأجنبية .

البسالة والنبل

وتجلى ما تتصف به المرأة من مثالية وشجاعة ونبل بوضوح وبكثرة خلال فترة الحرب الأهلية واثناء الحرب ضد النازى . فقد قاتلت المرأة جنبا الى جنب مع الرجل من اجل انتصار الثورة وفى الدفاع عن البلاد . واستشهد العديد منهن وهن صامدات فى مواقعهن حتى النهاية . وقد اعدمت ثلاث فتيات فى عام ١٩٢٠ على أيدى الحرس الأبيض المناهض للثورة . وعبرت احدى هؤلاء الفتيات واسمها دورا ليوبارسكايا فى رسالة كتبتها قبل اطلاق النار

9—1849

عليها لأقربائها عن مشاعرها ، فقالت : « اننى أموت بشرف ، كما عشت بشرف حياتى القصيرة . بعد ٨ أيام سأبلغ من العمر الثانية والعشرين ، ومع ذلك فسأصرع بالرصاص هذا المساء . وانه لشىء مؤسف الموت بهذه السرعة ، مؤسف لاننى لم اقدم إلا القليل للثورة . والآن فقط أشعر حقيقة باننى ثورية وعضو عامل فى الحزب . وسيخبركم رفاقى كيف تصرفت عندما القى القبض علىّ وعندما صدر حكم الاعدام ضدى . لقد ابلغونى اننى تصرفت جيدا . اننى ابعث بحبى الى والدتى العزيزة العجوز ... رفيقتى . وأن ما فعلته كان عن قصد ولا أشعر بالأسف لان تكون نهايتى بهذا الشكل ... وعلى كل حال فأنا أموت كشيوعية شريفة . اننا جميعا الذين القى القبض عليهم لم نضعف وننهار . واليوم قرأت الصحف لآخر مرة فى حياتى. ان شعبنا يتقدم نحو بوريسلاف وبيريكوب. وبعد فترة ، فترة قصيرة جدا ، ستتنفس أوكرانيا كلها نسيم الحرية ويبدأ العمل من اجل البناء . وللأسف ، فاننى لن أشارك فى هذا العمل . حسنا ... ووداعا ... مع تمنياتى لكم السعادة».

وذكر لينين ، وهو يعبر عن تقديره لمثل هؤلاء النساء الباسلات «ما اعظم الشجاعة السامية التى اظهرنها وما أشجعهن اليوم . وتخيل لنفسك مقدار المعاناة والمشاق اللتين عانينهما . وهن صامدات فى مواقعهن لأنهن يردن الدفاع عن السوفييتات ، لأنهن يرغبن فى الحرية والشيوعية . حقا ... ان نسائنا العاملات ممتازات . انهن محاربات يتحلين بالوعى الطبقى. انهن يستحققن كل اعجاب وحب ».

وعندما هاجمت المانيا النازية اتحاد الجمهوريات السوفييتية الأشتراكية ابدت المرأة السوفييتية شجاعة على مستوى ابناء جنسها

كله فى الجبهة وفى المؤخرة . فكانت على خطوط الجبهة قائدات الطائرات والقناصات والمحاربات بالمدافع الرشاشة وقائدات الدبابات والعاملات على الأجهزة الاذاعية والجراحات والممرضات . وفى المؤخرة ، تولت المرأة عمل الأزواج والأبناء والأخوة ، حالما انضموا إلى القوات المسلحة. وحافظت المرأة على استمرار عجلة الانتاج وعملت بحمية ، احيانا لمدة ١١ او ١٢ ساعة يوميا فى المصانع وفى المزارع . ومنحت ٩١ امرأة لقب بطل الاتحاد السوفييتى اعلى الألقاب فى البلاد لتصرفاتهن البطولية فى المعارك وشجاعتهن فى الحرب .

وقد عبر ليونيد بريجنيف بصورة واضحة عن اسهام المرأة فى دحر الاعداء فى تقريره الذى القاه بمناسبة الذكرى العشرين لانتصار الشعب السوفييتى فى الحرب . ويقول التقرير :

« اننا ننحنى اجلالا وعرفانا بالجميل للنساء السوفييتيات اللواتى أبدين معجزات من الشجاعة فى أيام الحرب العصيبة . ان الروح العالية وقوة الارادة الصلبة لنسائنا السوفييت ، وكذلك تفانيهن واخلاصهن وحبهن لوطنهن وأيضا جلدهن الذى لا حدود له فى العمل وشجاعتهن فى المعارك ... ان كل هذه الصفات لم تتكشف بهذه القوة التى ظهرت بها فى ايام الحرب . ان صورة المرأة المجندة وهى ممسكة بيدها البندقية ، وكذلك صورتها وراء عجلة قيادة الطائرة وايضا صورتها كممرضة فى الجيش أو حاملة محفة لنقل الجرحى أو جراحة وعلى كتفيها الشارات ... ان كل هذه الصور ستعيش فى ذاكرتنا كمثال ملهم للتفانى والوطنية .

« ولنلق نظرة على ما فعلته المرأة من اجل النصر فى المؤخرة . انها قامت بنصيبها من العمل وكذلك عمل الذين ذهبوا الى الجبهة .

واذا كان هناك ميزان ، واستطعنا أن نضع فى احدى كفتيه الانتصارات العسكرية لجنودنا وعلى الكفة الأخرى ما قامت به المرأة السوفيتية من اعمال على الصعيد المدنى ، اذا فعلنا ذلك ، فربما تتعادل الكفتان وتقفان ثابتتين مثلما وقفت ثابتة صلبة المرأة السوفييتية البطلة بجانب رجلها وا بنائها فى ايام الحرب العصيبة ».

وقد اعلنت هيئة رئاسة مجلس السوفييت الاعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية يوم ٨ مارس « يوم المرأة العالمى » يوم عطلة وذلك اعترافا بالخدمات الجليلة التى أدتها المرأة السوفييتية من اجل بناء الشيوعية ، وما قامت به اثناء الحرب ضد النازيين وفى النضال من اجل السلام والصداقة بين جميع الامم . ويحتفل بهذا اليوم من كل عام باعتباره عيدا قوميا فى جميع أرجاء الاتحاد السوفييتى .

نساء بارزات

تكشف قصص حياة النساء اللائى قمن بأعمال بارزة فى الاتحاد السوفييتى بصورة لا تتغير عن صفة مشتركة — وهى ان مواهبهن قد نمت إلى اقصى حدودها بفضل الامكانيات غير المحدودة التى اتاحها ، على نطاق واسع ، النظام الاشتراكى لجميع النساء . وتعطى المثال النموذجى لذلك فالنتينا تيريشكوفا المعروف اليوم اسمها فى جميع انحاء العالم لعملها الفذ عندما حلقت فى الفضاء الخارجى لمدة ٧١ ساعة ، وكانت بذلك أول رائدة فضاء . وولدت فالنتينا فى عام ١٩٣٧ فى عائلة فلاحية تقطن احدى القرى الصغيرة فى منطقة ياروسلافل . وقتل أبوها ، وكان يعمل سائق جرار فى احدى المزارع الجماعية ، خلال الحرب العالمية الثانية . وعندئذ

واجهت العائلة المتاعب ، ومن اجل التخفيف منها التحقت تيريشكوفا وعمرها ١٧ عاما بالعمل فى مصنع الاطارات فى ياروسلافل ، ثم انتقلت بعد ذلك للعمل فى مصنع للنسيج كانت تعمل به والدتها وشقيقتها الاكبر منها. وواصلت فالنتينا دراستها – مثل بقية الفتيات العاملات – بدون ان تتوقف عن العمل . والتحقت فى البداية بمدرسة مسائية ثم اخذت دروسا بالمراسلة فى مدرسة مهنية للنسيج وفى عام ١٩٥٩ ، انضمت ومعها بعض صديقاتها الى احد نوادى الطيران المحلية واجتازت اختبار القفز بالمظلات الواقية وكان تقديرها الاولى . واصبحت فى عام ١٩٦٠ متخصصة تكنولوجية فى نسج القطن . وأخيرا تقدمت بطلب وقبلت ضمن مجموعة للتدريب على غزو الفضاء . ودرست علوم الفلك والجيوفيزياء وعلم الصواريخ وعددا من العلوم المتخصصة الأخرى وتدربت على قيادة الطائرات وسفن الفضاء . ثم جاء اليوم التاريخى ، يوم ١٦ يونيو ١٩٦٣ ، – لحظة انتصارها عندما حلقت فى سفينة الفضاء « فوستوك ٦ » فى مدار حول الأرض . ومنحت فالنتينا لقب بطل الاتحاد السوفييتى لهذا الانجاز . وفى عام ١٩٦٣ تزوجت رائد الفضاء آندريان نيقولاييف . فقد احبا بعضهما البعض قبل ان تنطلق فالنتينا فى الفضاء الخارجى . وأنجبا فى العام التالى بنتا . وتحمل تيريشكوفا الآن رتبة كابتن فى الجيش السوفييتى وهى تدرس فى اكاديمية جوكوفسكى للقوات الجوية . وتتولى – منذ عام ١٩٦٨ – بالاضافة الى ذلك منصب رئيسة لجنة النساء السوفييتات وهى بهذا الاعتبار تسافر الى جميع انحاء العالم . وتقول فالنتينا : « ان السلام عزيز بالنسبة لنا نحن النساء . وانا ادرك ما معنى الحرب ، فقد قتل والدى فى الجبهة وهو يدافع عن حرية واستقلال بلادنا . وترك والدتى وحيدة ومعها



يادجار نصر الدينوفا

ثلاثة أطفال ، ونحن كلنا نعرف مصاب فقدان الأب بالنسبة للعائلة ».

« انه كان من الأفضل ان تلدى حجرا من ان تلدى واحدة مثلك ، فإن الحجر – على الأقل – سيكون ذا فائدة فى بناء احد الجدران ». بمثل هذه الكلمات كان يقابل مولد البنت فى أوزبكستان . وفى هذه المنطقة عينها ولدت يادجار نصرالدينوفا فى عائلة طحنها الفقر ، وكان ذلك فى عام ١٩٢٠ . وأصبحت يتيمة عندما القى بها من المنزل زوج أمها ولم تكن تبلغ الرابعة من عمرها . وأشفق عليها بعض الجيران فأخذوها عندهم وترعرعت بينهم . وحتى سن العاشرة لم تكن تستطيع القراءة او الكتابة ، وكانت عند رؤية احد الرجال تسرع الى وضع نقاب أسود على وجهها ... كانت وجلة للغاية . وفى ذلك الحين انتصرت الثورة فى هذه المناطق النائية أيضا . وأصبحت أوزبكستان جمهورية اشتراكية فى عام ١٩٢٤ . ومن اجل الاطفال الفقراء أنشأت الدولة الجديدة بيوتا لترعاهم ، وفى احد هذه البيوت التحقت يادجار وأتيحت لها الفرصة فى ذلك المنزل ان تدرس فى احدى مدارس التأهيل المهنى بأحد المصانع . وبعد مغادرتها لبيت الاطفال بقيت مع امرأة طيبة كان عندها طفلان صغيران . واقدمت يادجار مع هذه السيدة بجرأة على احراق النقاب التقليدى . وعملت يادجار بالنهار ، وبالليل كانت تواصل دراستها فى مدرسة مسائية ، وبعد ذلك التحقت بالكلية واصبحت تعرف بعد ذلك بيادجار نصرالدينوفا ، المهندسة . وسرعان ما اثبتت انها متخصصة كفؤة . وكانت منطقتها متخلفة ، فانهمكت فى العمل التطوعى . وانتخبها الشعب نائبة عنه فى مجلس السوفييت الاعلى للجمهورية . وفى المجلس انتخبها الاعضاء بدورهم رئيسة لهيئة

رئاسة مجلس السوفييت الاعلى لجمهورية أوزبكستان . وبعد ذلك بوقت انتخبت نائبة الرئيس لهيئة رئاسة مجلس السوفييت الاعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية . وهى الآن تتولى منصب رئيسة احد المجلسين الذين يتألف منهما البرلمان السوفييتى وهو مجلس القوميات ويوكل لها – من عام لآخر – مسؤليات أعلى وأعلى .

وتتشابه تقريبا مع هذا الظروف التى أحاطت بالسنوات الأولى من حياة بيبى بالفانوفا ، وزيرة التعليم فى تركمانيا . فقد أحضرها والدها بالفان خالمراد مع بقية الاسرة التى يبلغ مجموع عدد أفرادها ١٢ شخصا .. الى عشقآباد وكانت صغيرة جدا . وقد حملت جميع ممتلكات الأسرة على جملين . وكانت تلك أيام الجوع والشقاء قبيل اندلاع الثورة حيث كان الموت يحصد الناس حصدا . ولم يبق من عائلة بالفان الكبيرة العدد بعد مضى ٣ أعوام إلا ٤ افراد كانوا يعيشون فى كوخ من الطين بناه بالفان بنفسه فى طرف المدينة ، هو وزوجته وفتاتان وهما بيبى واينى . ومات الأب بالتيفوس . فواجهت الأم مشكلة اعالة الاطفال . وكان ان أصغت للشيوخ ، حماة العادات القاسية . قالوا : « ابحثى لكل منهما عن زوج ». وكان زوج بيبى يكبرها بعشرين عاما . ان بيبى لا تحب ان تتذكر هذه الفترة .

وتعتبر نينا بوبوفا من الشخصيات المشهورة فى الاتحاد السوفييتى التى تملك سجلا من الخدمة الساطعة . فقد منحت جائزة لينين الدولية للسلام . وقد ولدت فى اسرة عمالية . وفقدت عائليها من مطلع طفولتها ، ونشأت مع شقيقتها فى دار للأطفال . وبدأ نشاطها الاجتماعى فى المدرسة ، فقد انتخبها الرواد قائدة لهم . وعندما

انهت المدرسة الثانوية نظمت قسما للتأريخ بمتحف مدينة تامبوف ورأسته . وكان أعز أحلامها ان تتلقى تعليما عاليا . فأقبلت على الدراسة ونجحت فى الالتحاق بقسم الفلسفة فى معهد الفلسفة والأدب . وعينت عقب تخرجها رئيسة لقسم الباحثين فى الجامعة . وخلال حصار القوات النازية لموسكو نالت حب واحترام أهالى المدينة لتفانيها وشجاعتها ومواهبها التنظيمية . وكانت ترأس الدفاع المضاد للطائرات عن منطقة كراسنوبريسننسكى وتشاهد فى كافة النواحى التى تتعرض للغارات . وهى تذهب الآن الى البلدان المختلفة تحمل رسالة السلام والصداقة بين الشعوب .

وتنتمى جمال كالوبابييفا الدكتورة فى العلوم (هندسة) ، وهى شخصية معروفة جيدا ، الى القومية الكازاخية . وقد حضرت مؤتمرات فنية عقدت فى الولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا الشرقية . وعندما طلب اليها ان تتحدث عن حياتها وكيف صارت من العلماء روت ما يلى :

« نشأت بين أربعة من الاخوة بينهم فتاتان . انهيت المدرسة ثم تخرجت من معهد التعدين والصناعات المعدنية . وعملت طيلة عشرين عاما فى أكاديمية العلوم بالجمهورية الكازاخية . وانا فى الوقت الحالى أرأس معملا ... اننى من كازاخستان التى ترتبط فى أذهان كثير من الأجانب ، ولو دون وعى ، بفكرة الصحراء القاحلة ، والرعاة والمخيمات المقامة من الجلود أو الفلين التى كانت ما تزال قائمة فى العشرينيات من هذا القرن .

« كان جدى من الرعاة الرحل . وكانت أمى أمية . أما أنا فقد ولدت فى العهد السوفييتى والتحقت بالمدرسة فى السابعة من عمرى . وكانت أول كلمة قرأتها بعد ان تعلمت أبجدية اللغة هى « لينين ».

« لقد قال أبى ، الذى كان من عمال البناء ، ان لينين هو الرجل الذى شق طريق المعرفة امام الكازاخيين . وقد تلقينا جميعا ، نحن الأطفال الأربعة ، تعليما عاليا أو ثانويا متخصصا ... وأنا متزوجة ولى طفلان . ويعمل إبنى فى مجال الفيزياء أما ابنتى فتدرس الموسيقى بالكونسرفتوار . ان حياة الآلاف العديدة من نساء كازاخستان تشبه حياتى كثيرا . فهن يعملن وهن سعيدات . ولم يخطر هذا أبدا ببالى كشىء غير عادى . فنحن جميعا نملك كافة الفرص للدراسة واختيار الحرفة والمهنة التى نرغبها . والحقيقة ان الكثيرين يعتبرون مهنتى من المهن غير المألوفة بالنسبة للمرأة ».

التسهيلات

تحظى النساء بالدعم الثابت المتعاظم من جانب الدولة فى سعيهن لان يصبحن اعضاء كاملى المساواة فى المجتمع. وهن يؤلفن ٤٩ ٪ من مجموع طلبة المؤسسات التعليمية العليا فى حين تزيد نسبتهن بين طلاب المدارس الثانوية المتخصصة ، إذ تتجاوز ٥٣ ٪ . وهذا بالرغم من ان الامتيازات الخاصة التى كفلتها السلطة السوفييتية للتعليم النسائى فى اعوامها الأولى قد الغيت منذ عهد بعيد. وتتولى سلسلة كاملة من المدارس المهنية والفنية تدريب الكوادر النسائية. وتطبق المشاريع والمؤسسات أشكالا مختلفة من البرامج لرفع مستوى تأهيل العاملين بها كما تضم المصانع والمجمعات الصناعية مدارس مهنية . وقد تحولت بعض المدارس المهنية أخيرا الى مدارس مهنية فنية تتراوح مدة الدراسة بها بين ثلاثة أعوام وأربعة . وفى هذه

المدارس يجرى تعليم الفتيات اللاتى اكملن مرحلة الثمانى أعوام من الدراسة مهنا بالغة التنوع فى نفس الوقت الذى يتابعن فيه دراستهن الثانوية . وتملك الفتيات فى الاتحاد السوفييتى الآن فرصة الاختيار بين ٩٧٥ مهنة مختلفة .

ولا يعتبر الزواج او الأمومة من الأسباب التى تبرر رفض تشغيل المرأة . وعلى العكس فان رفض استخدام امرأة او طردها بدعوى الحمل او الرضاعة يعتبر جريمة تتضمن مسئولية جنائية . ولكن يمكن نقل الحامل بتوصية من طبيبها الى عمل أخف بنفس الأجر . وتحصل كافة النساء على اجازة مدفوعة الأجر مدتها ٥٦ يوما قبل الوضع و٥٦ يوما أخرى بعده . واذا كان الوضع غير طبيعى او ولد توأمان ، فان الاجازة التالية له تمتد الى سبعين يوما . ولا تتأثر هذه الاجازة بمدة العمل السابقة . وبوسع المرأة ان تضم اجازتها السنوية الى اجازة الوضع . واذا شاءت ان تبقى فى المنزل بعد انتهاء اجازة الوضع ، فان ادارة العمل مجبرة على ان تعطيها اجازة اضافية بدون أجر : وطوال العام التالى للوضع تحتفظ المرأة بحقها فى منصبها ويعتبر سجل خدمتها مستمرا .

وتتلقى النساء العاملات بالاضافة الى فترات الراحة العادية فى يوم العمل ، فترات اضافية لا تقل من نصف ساعة كل ثلاث ساعات ونصف من العمل ليتمكن من اطعام اطفالهن الرضع . ويستمر هذا الوضع طوال فترة الرضاعة عن طريق الثدى . أما اذا كانت الرضاعة لا تجرى عن طريق الثدى فان الأم تحصل على هذه الفترات الاضافية حتى يبلغ الطفل تسعة شهور من العمر . وبوسعها ان تضيف هذه الفترات الى ساعة الراحة المخصصة لتناول طعام

الغذاء أو تنتقصها من يوم العمل . ولا يتعرض راتبها لاى خصومات نتيجة لذلك .

وتتمتع النساء السوفييتيات بحق الحصول على معاشات التقاعد من الدولة . وهن يحصلن على هذه المعاشات فى سن الخامسة والخمسين بشرط ان يكن قد عملن لمدة عشرين عاما . اما سن التقاعد بالنسبة للرجل فهى الستون . وتتمتع المرأة التى انجبت خمسة أطفال او اكثر وتولت تنشئتهم حتى سن الثامنة بحق التقاعد فى سن الخمسين عندما تكتمل مدة خدمتها خمس عشرة سنة ، الا اذا كان لها هذا الحق فى سن مبكرة . ففى عدد من الصناعات التى يتميز العمل فيها بشىء من الصعوبة ، تتقاعد النساء فى سن الخامسة والاربعين . هذا فى حين ان سن التقاعد بالنسبة للنساء فى الولايات المتحدة هو ٦٢ ، وفى فرنسا ٦٠ ، وفى ألمانيا الغربية ٦٥ ، وفى السويد يتقاعد الرجال والنساء فى سن واحدة هى ٦٧ وفى كندا ٧٠ .

لكن الاشتراك على قدم المساواة فى العمل الاجتماعى لا يعنى على الاطلاق ان المرأة يجب ان تقوم باعمال الرجال الشاقة . ان اجتذاب النساء الواسع الى الانتاج الاجتماعى يصحبه اهتمام دائم من جانب الدولة والنقابات بحماية العمل النسائى وتحسين ظروفه الى أقصى درجة ممكنة . وتشرف النقابات اشرافا صارما على مراعاة التشريع الذى يحرم استخدام الايدى العاملة النسائية فى الأعمال الانتاجية المجهدة والضارة بصورة خاصة وفى الأعمال التى تجرى تحت سطح الأرض فى الصناعات التعدينية وفى بناء المنشئات الواقعة تحت سطح الأرض وفى الأعمال المتصلة باذابة المعادن وصبها ،

الخ . ويحدد التشريع أيضا الوزن الذى يتعين على النساء حمله أو نقله أثناء عملهن .

ويعكف اكثر من عشرين من معاهد الأبحاث فى الاتحاد السوفييتى على دراسة المشاكل المتعلقة بحماية العمل النسائى . وقد تمت فى مصانع النسيج التى تتألف غالبية عمالها من النساء ، مكننة كافة العمليات الشاقة والمجهدة . وجرى تخفيض عدد الورديات الليلية بالنسبة للنساء إلى الحد الأدنى .

وقد كتب البروفسور يفيم ماريفتش ، من معهد اقتصاديات الاتحاد السوفييتى التابع لاكاديمية العلوم ، كتب فى الآونة الأخيرة بشأن مسألة تشغيل المرأة ما يلى :

« ان الكتابات الاقتصادية السوفييتية تناقش الآن باهتمام قضية تحديد ساعات عمل أقل للنساء . والمقصود هنا أولئك اللاتى يرغبن لاسباب مختلفة فى يوم عمل أقصر حتى يتمكن من العناية بمنازلهن ، ورعاية أطفالهن ، أو الجمع بين العمل والدراسة ، إلى آخر ذلك من الاسباب .

« وأنا أتفق فى الرأى مع أولئك الاقتصاديين الذين يرون انه من الضرورى الآن (وخاصة من أجل تطوير قطاع الخدمات) انقاص ساعات العمل بالنسبة للنساء اللاتى لا يستطعن العمل كل الوقت فى الانتاج الاجتماعى بسبب انشغالهن بالمنزل وتربية الأطفال » .

حياة اكثر كمالا

ان جاذبية الحياة البيتية بالنسبة للمرأة أمر طبيعى . ففى نطاقها ، وفى جو هادئ أليف ، تتاح لها فرصة ممارسة حياة اكثر كمالا

مع زوجها وأطفالها . ولا بد للمراقب ، كى يفهم طبيعة حياة كهذه ، ان يطلع على بعض القضايا المرتبطة بها مثل مفهوم الجمال وأتجاهات الأزياء ، والموقف من الجنس والحب والزواج ، والعلاقات العائلية ومكان الاطفال فيها .

وقد وجهت السؤال التالى الى فتيات تتراوح أعمارهن بين السابعة عشر والواحدة والعشرين وذلك فى احدى مدارس موسكو وبعد ذلك فى كلية بكازاخستان : « ما هو الرجل الجميل فى نظرك ؟» وأجابتنى احدى الطالبات بقولها : « يجب ان يكون أمينا ». وقالت صديقتها : « يجب ان يقول الصدق ». وتلقيت اجابات أخرى متنوعة : « هو الذى يكرس حياته كلها من أجل المجتمع »، « هو الذى يحب بعمق »، « يجب ان يكون فردا متناسقا مع المجتمع ولا يكون فرديا »، « يجب ان يكون شخصا عاقلا راغبا فى خدمة الناس »، « هو الرجل ذو الجسد القوى »، « هو ذلك الذى يحب الأطفال ولو كانوا قبيحين ». واشتركت هذه الاجابات فى شىء واحد هو اجماعها على ان الجمال ينبع من الأعمال الحسنة والقيم الاخلاقية ومن المشاركة فى التقدم الاجتماعى . وكان بوسعى ان أشعر بان ما يقلنه ينبع من أعماقهن . كنت أرقب وجوههن الشابة . لكن بدا لى من الغريب ان واحدة منهن لم تشر الى الجمال الجسدى . لهذا قلت لفتيات موسكو : « اذن فانتن جميعا لا تعجبن بالجمال الجسدى ؟» وكانت الاجابة : « هذا ليس صحيحا . لكن الجمال الجسدى ليس بذى أهمية كبيرة ».

ومن قبيل ذلك المواد التى تنشرها الصحف السوفييتية حول هذا الموضوع ، وهى مشوقة للغاية . ففى المدرسة رقم ١٣٣ بموسكو ناقش تلاميذ الصفوف العليا من الجنسبن الذين تتراوح أعمارهم

بين الخامسة عشر والسابعة عشر ، هذه القضية . وافتتحت مديرة المدرسة ، صوفيا نيكولاييفنا ، النقاش عندما خاطبت الفتيان قائلة : « لقد لحظتكم مرارا تدعون الفتيات الجميلات أساسا للرقص ، فهل يعنى هذا انكم تعتبرون الجمال الخارجى هو الاساس ؟ »

اجاب سيريوجا ايفانوف : « حسنا ، ربما لم يكن هذا هو الشيء الاساسى ، لكنه بتأكيد شيء مهم . أنا مثلا أحب ان أطالع وجها جميلا . وأحب ان أرى جسدا متناسقا وخطوة رشيقة وهيئة معتدلة ». وأضاف ميشا شاختورين : « أنا أيضا أحب الفتيات اللاتى يعتنين بملابسهن ، واللاتى يصففن شعورهن بطريقة جذابة ويجدن استعمال أدوات الزينة وأحمر الشفاه . واعتقد بشكل عام ان الانسان يجب ان يعمل على ان يكون اكثر جاذبية مما هو فى الحقيقة . ان الوقوع فى غرام شخص من هذا النوع يصبح اكثر سهولة ».

وقال باشا كوسكوف : « انا أيضا أعتقد ان الجمال أمر بالغ الأهمية . لكنه يجب ان يكون طبيعيا . فعندما أرى فتاة ذات شفتين مصبوغتين أو رموش ملونة أحول وجهى عنها على الفور».

وتدخل اليوشا سليفرستوف قائلا : « ان وجها جميلا او جسما متناسقا فقط لا يعنيان شيئا لدى . انتم تعرفون ما يحدث أحيانا . تلتقط كتابا ذا غلاف جميل وعندما تفتحه تكتشف انه ممل وسرعان ما تضعه جانبا. الفتيات أيضا يمكن ان يصبحن كذلك . فما الفائدة اذا كانت الفتاة تتميز بالجمال الابكم ، اذا كانت جميلة ولكنها شريرة او متقلبة الاهواء ؟ يجب ان تشع الفتاة لطفا وطيبة . هذا

هو الشيء الاساسى . عندما أرى ان فتاة ما على ما يرام من الداخل ، أشعر بجاذبيتها ».

وجه محرر احدى المجلات السؤال التالى الى سبعة أشخاص، بينهم صبى فى السادسة وعجوز فى الثمانين ،... « من هى المرأة المثالية ؟» وحصل على الاجابات التالية :

« هى الفتاة القادرة على تسلق الشجرة مثلى ! » (اليوشا فاسيليف ، صبى فى السادسة من عمره) .

« هى الفتاة التى تستطيع مصادقتها ولا تتكلف او تتظاهر ولا تكتب لك سطورا غبية اثناء الدرس . والتى أيضا لا تشكو طول الوقت اثناء الرحلات ». (يورا توبوليف ، ١٢ سنة ، الصف السادس).

« يجب ان تكون جميلة بالطبع . لكنها يجب ان تكون ايضا مهتمة بالأدب والفنون بحيث يمكن الحديث معها . (سيريوجا اسيبوف ، ١٧ سنة ، طالب طب فى الصف الأول).

« المرأة المثالية ؟ ومن الذى يريدها ؟ سأكون ضجرا معها : انا أشعر بالبهجة دائما مع تانيا . بالطبع هناك لحظات حزينة ايضا . لكننا سعداء مع ذلك سويا ، لان كل منا يفهم الآخر . ثم انها تملك ارادة قوية وهى تعرف ما تريد . انها الآن ممرضة لكنها تنوى ان تصبح طبيبة» . (اناتولى بوتابنكو، ٢٦ سنه، عامل حدادة ، جرى الحديث فى قصر الزواج).

« المثالية تعنى العصرية . والعصرية تعنى البساطة وعدم التكلف والاخلاص . الزوجة المثالية ؟ هى التى تكون صديقة حقيقية». (اندريه شوروف ، ٣٦ سنة ، اب لطفلين).

« المثالية هى الجميلة . جميلة لكن جمالها مغلق فى وجه الجميع عدا الشخص الوحيد المختار . هى امرأة تعلو على كافة

السخافات والصغائر والخيلاء ». (ارمن جابريليان، ٣٧ سنه، فيزيائى، أعزب).

« بينى وبينك ، زوجتى أولجا المرأة المثالية . لقد مر على زواجنا ٥٨ سنة . لكن ما زلت أعجب لأنوثتها الدائمة وللأحساس بالجدة فى علاقتنا . انها تملك كل ما أقدره فى الناس : النبل وحسن الادراك ، اللباقة والاخلاص ». (كاراديميتريف ، ٨٠ سنة، الفنان الجدير لجمهورية روسيا السوفييتية).

وقد اتيح لى اثناء جولاتى فى الشوارع ، وزياراتى للمؤسسات والعائلات المختلفة ، اجتماعاتى بطلبة الكليات ، ان ارقب النساء فى ساعات عملهن وساعات راحتهن . وجدت النساء السوفييتيات طازجات ، وجذابات فى زينتهن المتحفظة ، وثيابهن البسيطة والانيقة فى الوقت نفسه ، وسلوكهن الطبيعى . وهن فوق كل شىء يجمعن بين الرشاقة الغريزية فى المرأة والبراءة والرصانة . ان عملهن جنبا الى جنب مع الرجال لم يفقدهن شيئا من أنوثتهن التى تضاعفت ، على العكس ، نتيجة لتطور شخصياتهن وما يتلقينه من تعليم عال . لم ألمح لديهن اية محاولات لاستعراض اجسادهن أو افتتان الرجل . وانا بالطبع اتحدث عن الطابع العام لا عن استثناءات محدودة . وقد لاحظت ان النساء يملن قليلا إلى البدانة ، لكن افتقادهن الى النحافة لا يزعجهن فى شئ بل لا يبالين به . وربما يعود هذا الى شعورهن بانهن جميلات فى نواح أخرى — فى مواهبهن . ان التذوق الجمالى الذى درسنه فى مطلع شبابهن قد خلق لديهن بالتأكيد احساسا بالجمال أعمق وأبقى فى جوهره من مجرد الشكل الجسدى السطحى . وعندما أفكر فى هذه الحقيقة أشعر مخطأ الفكرة التى ضمنها شكسبير هذين السطرين :

10—1849

لان النساء مثل الورد ، فما ان
يتبدى زهره الرائع مرة حتى يتساقط على الفور .

وكم أصاب جون كيتس عندما قال :

الجمال هو الحقيقة ، حقيقة الجمال .

ولما كان الجمال يعتبر سمة أقرب الى الروح منها الى البدن، فمن الطبيعى الا تقام له فى الاتحاد السوفييتى مسابقات جمال. يقول البروفسور خارتشيف فى هذا الشأن « ليست عندنا مسابقات جمال لان الجمال الانسانى لا يتحدد بالشكل واللون والمقاييس وحدها . فهو أيضا يتشكل فى العالم الداخلى للانسان . وعندما نجعل من الجمال مادة للمضاربة التجارية فاننا بذلك نقتل روحه ».

الأزياء

مثل هذه المفاهيم عن الجمال هى التى تتحكم فى تيارات الأزياء لدى النساء السوفييتيات ، فى ملابسهن وزينتهن وحليهن . وتوجد فى موسكو والمدن الكبرى الأخرى عشرات من بيوت الأزياء التى تنظم عروضا دورية لأحدث اتجاهات المودة . وعندما تعجب احدى المشاهدات بنموذج معين تستطيع ان تشترى تصميمه مقابل كوبيكات قليلة ثم تعهد لاحد حوانيت الخياطة باعداد الملابس التى تريدها : وقد وجدت فى المحلات الكبرى بموسكو مجموعة واسعة من ملابس السيدات فى ألوان بهيجة ومتنوعة . وتوجد هناك سترات بياقات عالية وفساتين مزركشة . ويستخدم الفراء الصناعى فى الزراكشة . وتتصدر هذه المعروضات بلوزات ذات ياقات



في احدى صالات متجر الالبسة النسائية الجاهزة

عالية . وتتراوح أسعار السترات بين ٣٠ و ١٠٠ روبل . ويؤكد تفصيلها خطوط الجسم الطبيعية فى بساطة وأناقة كما يتميز بجمال الالوان وتناسقها . ولا تجد بينها ألوانا مبهرجة او صارخة ولا تحايلا صارخا من اجل الاثارة الجنسية . وتفضل النساء عادة الملابس الجاهزة . وهناك اقبال كبير على السلع المطرزة . ويضم كل حانوت لبيع الاقمشة عمالا متخصصين فى التفصيل حسب الزى المطلوب .

فى المهرجان العالمى للشباب والطلبة فى صوفيا عام ١٩٦٨ ذكر أحد مندوبى الشباب السوفييتى : « ليس ثمة قمع للمودة فى الاتحاد السوفييتى — فهذا أمر يبعث على السخرية . ان الايديولوجية الشيوعية لا تفترض التقشف فى الحياة اليومية . وعقائد الناس تقاس لا بمدى سعة سراويلهم او الوان شعورهم . ومن حق كل شخص

ان يكون له ذوقه الخاص . واذا ما ترددت الدعوة فى الاتحاد السوفييتى احيانا الى ضرورة مناقشة الذوق ، فان هذا يعود فقط الى ان الشخص الذى يتميز بالتطرف فى ذوقه يصبح مدعاة للسخرية ... ومن السمات الرئيسية للمودة السوفييتية ديموقراطيتها ، وأسعارها المعقولة ، وتوفرها للجميع . ولا يجرى المصممون السوفييت خلف النماذج غير المألوفة من أجل ادهاش الجمهور . وهذا هو السبب فى انك لن تجد فى الاتحاد السوفييتى ملابس من الالومينيوم والاوراق المالية وقشور الاسماك او فساتين يكلف الواحد منها ثمن سيارة ... وأخيرا فان الصناعة السوفييتية ليست قادرة بعد على انتاج ملابس جيدة وجميلة بالقدر الذى يكفى ٢٤٠ مليون مواطن بأذواقهم ورغباتهم المتنوعة . لكن الموقف يتحسن بسرعة » .

تقول ناديجدا جيليزنوفا فى مقال عن أحدث الأزياء : « الواقع ان المودة أصبحت اكثر شبابا فى السنوات الأخيرة . فقد زال الافراط فى الحجم غير الضرورى والزخرفة والتفاصيل الزائدة . لقد أعطت معاصراتنا الشابات اصواتهن للبساطة والاقتصاد ، والراحة والالوان البهيجة الفرحة » .

لقد رأيت فتيات يرتدين « المينى » ، وفى تاجيكستان النائية أيضا ، لكن « المينى » ليس منتشرا . وعلى اية حال فانى لم اصادف نساء يعرضن مفاتن أجسادهن او يرتدين ملابس صممت فى نزوة . أما الأطفال فقد لاحظت ان ملابسهم تتميز بالحيوية وبلمسة مرحة غير مألوفة تجعلهم يبدون كالعرائس الساحرة .

وليست أدوات التجميل بصناعة مزدهرة فى الاتحاد السوفييتى كما هو شأنها فى البلاد الغربية حيث أصبحت متشابكة مع الاعلانات المدوية . فالمرأة السوفييتية تلجأ الى الماكياج على نطاق أصغر

بكثير من زميلتها الغربية . ان اصبع الشفاه يستخدم ولكنه ليس رائجا . ولا ترى الرموش الصناعية فى اى مكان . ويجرى الآن افتتاح العديد من صالونات التجميل . لكنها لا تجرى وراء أهداف الزخرفة الضيقة . فشعار هذه الصالونات هو أن الجمال يكمن فى الصحة . وهى لذلك تقدم ، الى جانب العطور وأدوات التجميل ، انواع العلاج المختلفة من اجل تنظيم الطعام والنوم فضلا عن العلاج الطبيعى .

ونساء الاتحاد السوفييتى ، شأنهن شأن بقية النساء فى العالم أجمع ، مغرمات بالحلى . لكنهن يسعين دائما وراء الجمال الفنى ولا يعبثن بالقيمة المالية من أجل الفخفخة والتظاهر . ولهذا فان الحلى الذهبية نادرة وغالبا ما تقتصر على خواتم الزواج . وهن يقبلن على المنتجات اليدوية المصنوعة من الكهرمان ، ذلك الحجر المتعدد الالوان الذى يجمع من شواطئ بحر البلطيق . وهو يتميز باشراقة اشعاع داخلى ومزيج من الظلال اللامعة من مختلف الالوان . وتتكلف القلادة الجيدة حوالى الثلاثين روبلا . ولما كانت أغلب النساء السوفييت يعملن فان الحلى الثقيلة لا تناسب أزيائهن . لكن الأساور المصنوعة من الفضة او الكهرمان، هى والأقراط، تنتشر بينهن . وتتميز مثلا هذه الاشياء فى الأقاليم الشرقية بطابع شرقى واضح .

الجنس

فى رسالة صادرة عن الفاتيكان بمناسبة عيد الميلاد الماضى ، هاجم البابا بولوس فى حدة ازدياد التهافت على الجنس فى الحياة الحديثة . وانتقد البابا صحافة الاثارة الجنسية و « الرأى المتساهل الذى يدعو الى اطلاق العنان للانحطاط الحسى والجنسى الذى

يسيطر على أذهان الرأى العام وعلى العادات الحديثة ، والذى يتحول فى النهاية الى شىء دنىء للغاية ومحزن للغاية» . ويتبدى مدى الانحطاط فى أنباء الصحف التى تصلنا بين الحين والآخر من بلاد الغرب . فقد أبرقت الاسوشيتد برس من لندن هذا العام ان وزارة الصحة أعلنت عن ٦٠٠٠ من حالات الاجهاض الشرعى فى فترة خمسة أسابيع تنتهى فى الثلاثين من ديسمبر ، وأجريت ١,٣٠٠ من هذه العمليات على فتيات تقل اعمارهن عن سن الخامسة عشر . وجاء فى نبأ آخر ان عيادات تخطيط الاسرة اقيمت فى عدد من المدن الجامعية الامريكية حيث تقدم المعلومات الخاصة بمنع الحمل ووسائل للطلبة ، المتزوجين منهم وغير المتزوجين . وقد اقيمت هذه العيادات استجابة لازدياد المطالبة بها بين الطلبة وهم يدافعون عنها بان « ستحمى الفتيات النشطات جنسيا بالفعل واللاتى سيتعرضن للمتاعب ما لم تقدم لهن النصائح الخاصة بمنع الحمل » . ويقول الدكتور آلان جوتماخر مؤلف كتاب « تخطيط الاسرة وسكان العالم » ، ان عدد عمليات الاجهاض غير القانونية التى تجرى فى الولايات المتحدة يتراوح بين ٨٠٠٠٠٠ و ١٠٠٠٠٠٠ حالة كل سنة . ويقدر ان ١٠٠٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠٠ من النساء فى فيتنام الجنوبية حاليا يعشن كعاهرات وعاملات فى البارات او « زوجات مؤقتات » للجنود الامريكيين .

مثل هذه الظواهر لا يعرفها الاتحاد السوفييتى اليوم . فقد أدى النهوض الروحى للنساء السوفييتيات واستقلالهن الاقتصادى الى اختفاء الدعارة كمؤسسة من مؤسسات المجتمع فى روسيا . ويجرى تلقين شباب البلاد باطراد عن طريق المطبوعات والمحاضرات فى المدارس ، بالاضافة الى التعليم الجمالى العام ، نظرة سليمة الى

الجنس والحب . ويتم هذا على مدار سنوات الدراسة . وتمارس الحياة السعيدة المتآلفة للوالدين فى المنزل تأثيرا دائما واعيا . وعندما تطرقت إلى قضية التربية الجنسية فى لقائى مع ادوارد كوستياشكين ، العضو المراسل فى أكاديمية العلوم التربوية ، قيل لى بصراحة ان البحث قد بدأ أخيرا حول قضية الجنس من كافة جوانبها التى تشمل مظاهر متعددة ذات طبيعة اجتماعية وفلسفية وسيكولوجية وفسيولوجية واخلاقية ولا زال من الضرورى جمع مواد كثيرة فى هذا الشأن . لكن الموقف الاساسى فى هذه القضية قد تحدد منذ زمن طويل ، بعد الثورة مباشرة وهو يدعو الى التسامى بالحياة الجنسية على اعتبار أنها جزء من الحب الروحى . وقدم لى كوستياشكين ، على سبيل إيضاح أفكاره ، بحثا مطبوعا له حول موضوع « الاخلاق الجنسية والتربية الجنسية فى الاتحاد السوفييتى » ، يقول فيه :

« ان الاخلاقية الجنسية فى الاتحاد السوفييتى تقوم على مبدأ ان الجنس والحب والاسرة يجب النظر اليها لا باعتبارها أمورا تعنى الاشخاص وحدهم بقدر ما تعنى المجتمع ككل . ولا بد من تنظيم الدوافع الجنسية وتوجيهها بالعقل بحيث تتفق وهدف المجتمع فى تأسيس عائلات وطيدة سعيدة . ان تحرير النساء واعطائهن المساواة التامة بالرجال يجعل النقاوة الأصيلة فى الحب أمرا ممكنا . ان مجال التعبير الجنسى هو الزواج . وليس هناك ترحيب بالنشاط الجنسى السابق على الزواج أو السلوك الجنسى الشاذ . وتتبع التربية الجنسية هذه المبادئ . فهى لا تهدف الى تقديم المعلومات عن المظاهر المختلفة للجنس . ولكنها ترمى الى تحقيق هدفين ... تثقيف الفتيات والفتيان بأدوارهم الاجتماعية كرجال ونساء وتلقينهم الأخلاقية الجنسية التى تشمل كبح جماح الدوافع الجنسية ... ان

المشكلة الاساسية فى التربية الجنسية هى اذن إقرار المستويات الاخلاقية العليا فى الامور العاطفية ... التربية الجنسية يجب ان تكون أوسع من مجرد دروس فى الفسيولوجيا ... ان السلوك المتمدن فى الحب يتوقف على تعلم السيطرة على النفس فى الطفولة » .

نفس الأفكار يوردها الكاتب السوفييتى الدكتور أتاروف فى كتابه « مشاكل التربية الجنسية » . فهو يلاحظ :

« ان معالجة الحياة الجنسية كأداء فيزيولوجى بسيط أمر يتعارض تماما مع كافة القواعد الاخلاقية للمجتمع الاشتراكى . ففى ظل الاخلاقية الاشتراكية لا يمكن ان تكون هناك حياة جنسية تقوم على الباعث الفيزيولوجى وحده دون التآلف الروحى بين الشريكين » .

وفى المدارس الثانوية السوفييتية يقدم المدرسون والأطباء المعلومات الضرورية الخاصة بالمحافظة على الصحة لكل من الاولاد والفتيات على حدة فى سن معينة . ويدرس تلاميذ الصفوف الثلاثة الأخيرة العمليات الفيزيولوجية بالتفصيل كجزء من برنامج واسع حول علم التشريح البشرى واسس علم البيولوجيا . أما القضايا الجنسية فلا تحظى باهتمام خاص غير ضرورى . ويعتبر من المهام اليومية الجوهرية للمدرسين « تنمية المروءة والفروسية فى السلوك بين الصبية والفضائل الانثوية الناعمة بين الفتيات » . ولا يغيب عن البال أبدا ما قاله لينين فى هذا الصدد وهو ان السيطرة على النفس والانضباط الذاتى لا يعنيان العبودية ، فهما ضروريان أيضا فى الحب . ان تنظيم النشاط الرياضى والنشاطات الاجتماعية والاهتمامات الثقافية المتنوعة يساعد على الحد من الحافز الجنسى فى الحدود الصحية والمعقولة . وقد اكد البروفسور كولبانوفسكى ، رئيس قسم التربية الجنسية فى أكاديمية العلوم التربوية للاتحاد السوفييتى ، فى

مقال له : « ان اخصائيى الجنس فى كافة أنحاء العالم مقتنعون بان كافة انواع الشذوذ الجنسى تمتد جذورها الى الطفولة والمراهقة . ان التنشئة الرشيدة للجيل الصاعد تقدم الوقاية المثلى ضد هذا وهى الضمان للحياة العائلية السعيدة . لكن هذا لا يعنى الاقتصار على الفيزيولوجيا والمعلومات البسيطة التى تعتبر الحد الادنى لما يجب ان يكون لدى كل شخص مثقف . المسألة الاساسية هى تنمية علاقات سليمة واعية وعلى مستوى اخلاقى رفيع بين الجنسين . فمثل هذه العلاقات ضرورية للحب الانسانى الذى هو بدوره ضرورى للسعادة الشخصية والعائلية . ان ما يجب تربيته هو العفة التى تستند إلى المعرفة لا إلى الجهل ... ان المبدأ الاساسى للاخلاقية السوفييتية يتمثل فى الموقف الجدى من الحب ، والوعى بالمسئولية السامية عن كافة نتائجه . ان كلا من قهر الجسد والحرية غير المسئولة هو أمر غريب على الحب . والهدف هو تربية العفة والامانة فى العلاقات الجنسية ، وتغذية ذلك الشعور النبيل ، الحب الانسانى ، وهو وحده القادر على ان يمد الناس بالسعادة الحقيقية ».

عندما تسود مثل هذه الافكار فى المجتمع ، يصبح من الطبيعى ألا يجد الزائر للبلاد السوفييتية ذلك الاستغلال للحافز الجنسى باسم الفن الطبيعى ، الذى يتزايد انتشاره فى بلاد الغرب . ان الوان الفجور والاثارة الجنسية لا تقدم على المسرح او على الشاشة فى التمثيليات والافلام . وليست هناك كاباريهات فى الفنادق والنوادى تقدم فيها نمر التعرى بلا حساب . وفى اكشاك الصحف ومحلات بيع الكتب لا يعثر المرء على كتاب موضوعه الرئيسى هو الجنس فى أشكاله المرضية ، يروى بوضوح تام مشاهد حية للتقبيل والعناق والجماع ، أو يمجد الاغتصاب والانحرافات الجنسية . ولا تباع

المجلات التى تحتوى على صور مثيرة أو قصص الأغراء . ولا تنشر الصحف اعلانات تمثل نساء شبه عاريات . ولا توجد فى الطرقات لوحات دعاية للافلام السينمائية تصور الرجال والنساء فى أوضاع مبتذلة . ان كتابا سوفييتيا بعنوان « الانسان والمجتمع » يصم امثال هذه التصرفات بانها غريبة على فلسفة الحياة السوفييتية . يقول :

« ان المبدأ الشيوعى القائل « لكل حسب حاجاته » لا يجمعه اى جامع مع « مشاعية الزوجات » ، او الفوضوية وعبادة الجنس والتحلل باسم « الحرية المطلقة » ، لان هذا كله ليس سوى تعبير عن الموقف البرجوازى من المرأة كشىء ـ لا كانسان ـ يستهدف اشباع الشهوات الخسيسة ... فبالنسبة للمفكر البرجوازى تعتبر المرأة شيئا ، اداة لاشباع الشهوة ، وليست شخصا ، مما يفسر لنا السبب فى انها ، هى الأخرى ، تظل خارج مجال اخلاقياته ».

الحب

ان المثل الأعلى السوفييتى هو اكساب الحافز الجنسى فى الانسان انسانية . يقول رونوف بهذا الصدد فى مجلة سوفييتية :

« ان الحب بين الرجل والامرأة لا يمكن بالطبع ان يكون تاما دون الجنس . ان العلاقة الجسدية التى تتوج الحب هى احدى المتع الثمينة التى يقدمها العشاقان بعضهما لبعض. لكن الحب الانسانى مستحيل دون التناسق بين ما هو روحى وما هو جسدى ، وهو تناسق يتحكم فيه الأول فى الثانى ويكبح جماحه . والحب من الناحية الأخرى يمثل عاطفة اكثر رقة وحساسية من الافتتان الجنسى ، فهو يزدهر بفعل الرفقة والاهتمامات والأذواق والعادات المشتركة ...

ان الحب فى المجتمع السوفييتى يعامل بالتقدير والاجلال الجديرين بعاطفة قوية نبيلة . ويتابع أغلب الآباء بفهم وحصانة تجارب أطفالهم البالغين فى الحب . ويستمد الشباب السوفييتى الالهام لمثله الاعلى فى الحب من التقليد الانسانى التقليد فى الحب ، وهو تقليد تمتد مناسبه الى « راما وسيتا » و « شولاميت وسلمون » ، وقد تطور وتقدم على يد كل من رأى فى الحب قوة روحية عظيمة إلى جانب كونه عاطفة جسدية . وفى المجتمعات التى يسودها عدم المساواة وتنتفى منها العدالة لا يزدهر مثل هذا الحب لانه لا يمثل بالنسبة للانسان قيمة اكبر من الثروة أو السلطة . وفى كل من الأدب والحياة غالبا ما ينتهى الحب بمأساة حقيقية . ومع ذلك استمر هذا المثل الانسانى للحب يكتسب المزيد من القلوب حتى أصبح فى عصرنا المثل الأعلى الذى يستهدفه مجتمع بكامله . لا يقدر كل فرد فى المجتمع الاشتراكى على بلوغ هذا المثل فى حبه ، ولكن طموح مجتمعنا لتحقيقه واضح ».

وقد واجهت مرارا اثناء مناقشاتى حول هذا الموضوع الفكرة التى يؤمن بها المفكرون السوفييت بان للحياة الجنسية المنظمة بهجاتها الممتعة وانها لا يمكن ان تتحقق الا عندما يقع رجل وامرأة فى حب الشخصية الكاملة لكل منهما . ومن ناحية اخرى فان الهوس الجنسى ليس الا مرض يؤدى الى الانحطاط والتوحش . انه يدمر الانسان الحقيقى ويحوله الى حثالة ، الى كائن بلا مثل سامية ، دون محتوى داخلى ، يعيش حياة حيوانية معتوهة . مثل هؤلاء الناس يعيشون فى حالة من الانفعال الدائم يسعون خلف كل ما هو مثير ، ونادرا ما يستمتعون بالاتزان والسلام الداخليين . فكل فترة من الأعصار العاطفى تخلف لهم فى أعقابها نتائج فادحة . إنهم لايعرفون مطلقا العاطفة الرومانتيكية

الحقيقية ومباهج الحياة الطازجة النظيفة . يقول ماكارينكو عن هذا الجانب :

« الحب ليس مجرد ثمرة لانجذاب حيوانى جنسى بحت . الحب الحقيقى لا يمكن فهمه الا على أساس خبرة المودة الانسانية التى لا تعتمد على الجنس . ان الشاب لن يحب زوجة او حبيبة ما لم يكن قد أحب والديه وزملائه واصدقائه ، وكلما إزداد حبه للآخر ين بهذه الصورة ، سما حبه الجنسى . وعلاوة على هذا فان الغريزة الجنسية عندما تقترن بالتجربة الاجتماعية ، وتكتسب بها سموا ، تصبح أحد المنابع لاعظم ما فى الجماليات ، وأرفع ما فى السعادة البشرية » .

ويقول كونستانتين لابين عن نفس الموضوع : « ان فكرة الحب – الخالى من الانانية والتحيز – هى المثل الذى يسعى اليه الشباب السوفييتى . فهو يعتبر الحب احتراما واخلاصا متبادلين ، وسعيا لمشاركة أفراح الاخر وأتراحه ، وعاطفة تحفز الكائنات البشرية على ان تكون أفضل واكثر جمالا ».

ويقول الفيلسوف السوفييتى بالاجوشكين فى مقال بعنوان « الحب كما نفهمه » :

« ان علماء الاجتماع الغربيين كثيرا ما يدعون ان الحضارة ومساواة النساء تؤديان بالحتم الى اضعاف أواصر الاسرة بل وانهيارها . وفى رأينا ان كل شئ يتوقف على زيادة تطوير العلاقات الاسرية وعلى مركز الاهتمام : الجنس أم وحدة الاهتمامات الروحية .

« والمعروف للكافة ان عبادة الجنس من السمات المميزة للمجتمع البرجوازى . فالجنس هو المعيار الأساسى فى العلاقات الاسرية هناك . واعطاء الاسبقية للجنس يؤدى الى ان يفقد الزواج

أهميته الاستقلالية ويفسح المجال لتعدد الزوجات والعلاقات السابقة على الزواج والمصاحبة له . وتتضح لنا خطورة الوضع من كتاب عن « النهضة الجنسية » ، هو مؤلف جماعى لعشرة من أساتذة علم الاجتماع نشر فى الولايات المتحدة أخيرا . فمؤلفو الكتاب لا يخفون قلقهم بشأن الظاهرة التى يعالجونها : التحلل بين الشباب فى أمريكا وعدم مبالاته بالاخلاقيات والزواج .

« أما فى الاسرة السوفييتية ، فان وحدة المصالح الروحية هى التى تنمو . ولا يقلل هذا على الاطلاق من قيمة الجنس بصفته الاساس الطبيعى للعلاقات الزوجية . لكن هذا الأساس لا يعترف به الا فى علاقة وثيقة ببدايته الروحية ، الا وهى الحب العميق ورقة المشاعر . وليس من عبث ان اهتماما عظيما فى الاتحاد السوفييتى يوجه الى التربية الاخلاقية للشباب والى ايجاد وتنمية علاقات نقية وجميلة بين الفتيان والفتيات الصغار وادراكهم قيمة المشاعر الرومانتيكية السامية والصداقة .

« ان الاهتمامات المشتركة التى تربط الزوج والزوجة تجد تطبيقا لها فى مجالات عديدة . والجدير بالذكر ان لهما مصلحة مشتركة لا فى تربية أطفالهما وادارة شؤون منزلهما وحسب ، ولا فى الاستجمام والترفيه عن أنفسهما وحسب ، وانما أيضا فى عملهما ، فى حياتهما الاجتماعية ، فى المزيد من تحسين مستواهما الثقافى والتعليمى » .

الزواج

بمثل هذه الأفكار عن الحب والجنس ، يقوم الزواج والاسرة فى الاتحاد السوفييتى على مبادئ المساواة بين الرجال والنساء ، على

اتفاق زوجى حر مجرد من دوافع الارتزاق وعلى مشاعر الاحترام والحب المتبادلين . وبكلمات ادوارد كوستياشكين : « هذا الحب بعيد تماما عن « الليبيدو » أى الحافز الجنسى عند الفرويديين . ان مزاعم فرويد بان كافة المشاعر والعلاقات ذات القيمة العامة — الحنان والصداقة والثقة وغيرها — هى فى الواقع تعبير عن حوافز جنسية بحتة ، هى مزاعم قذرة ومذلة ... ان علم الاجتماع الماركسى ونظرية التربية الماركسية يتعارضان فى حزم مع أى تقليل من أهمية العلاقات الحميمة بين الكائنات البشرية والحب والرغبة فى السعادة العائلية الشخصية . وهما فى نفس الوقت ضد اى اتجاه يقلل من شأن العلاقات الجنسية الفردية ويخضعها بصورة كلية لمهمة بناء مجتمعنا » .

وفى نفس الاتجاه كتبت «البرافدا» فى احدى افتتاحياتها تقول :

« لقد أصبحت الابوة والأمومة منذ زمن طويل واحدة من الفضائل فى البلاد السوفييتية ... ان ذلك الشاب العابث الذى يتزوج خمس مرات فى العام لا يمكن ان يحظى فى المجتمع السوفييتى بتقدير الرأى العام شأنه فى ذلك شأن الفتاة التى تطير كالفراشة من زواج الى آخر ... ان ما يسمى « بالحب الحر » وعدم النظام فى الحياة الجنسية هما شيئان برجوازيان تماما لا يربطهما شئ بالمبادئ الاشتراكية ولا بأخلاقيات المواطن السوفييتى وقواعد السلوك لديه » .

يقول البروفسور أناتولى خارشيف ، من علماء الاجتماع السوفييت المعروفين ، فى كتابه « الزواج والعلاقات العائلية فى الاتحاد السوفييتى » ... « ان الشيوعية ترفض فكرة وحدة الزواج وعدم تعدده ، طالما تولدت عن الملكية الخاصة وتدعمت بواسطتها ،

لكنها ترث هذه الفكرة وتطورها بصفتها أعلى درجات العلاقة بين الجنسين ».

ان هذه الافكار عن العلاقات الزوجية ليست مجرد دعاية صادرة عن الدوائر العليا . فقد أصبحت بمثابة القاعدة المقبولة لدى الشعب . وقد تحدث صحفيان سوفييتيان هما لاجرانش وسيماكوف مع سبع من عاملات خط التجميع فى مصانع تليفزيون موسكو كن يشربن القهوة ويثرثرن أثناء راحة قصيرة . كن جميعا فى سن الشباب ، بين الثامنة عشر والعشرين . وفى البداية دهشن قليلا من الطريقة التى وجه بها الصحفيان اسئلتهما : « دقيقة أيتها الفتيات ! أجبن من فضلكن على هذا السؤال ؛ ما هو الرجل الذى يمكن ان يصبح زوجا مثاليا ؟ ومن هو الزوج الذى تفضلنه ؟ »

قالت ناديا باومان : «هذا بالتأكيد سؤال غير متوقع ، لكننى سأحاول الاجابة ... طويل أسمر ووسيم . ويجب قطعا ان يكون ذا طبيعة مرحة ، متحدثا ماهرا يستمتع بالتواجد مع الآخرين . ويجب ، أولا وقبل كل شىء بالطبع ، ان يحبنى . وسوف أصر على ان يغسل الأوانى والملابس . فلن أتحمل أى كسل ».

ليديا زوبيفا : « لى صديق الآن يتميز بالصفات التى تسأل عنها . فهو شخص جيد . انه يحترمنى ولا يصر دائما على ان تكون له الكلمة العليا . الزوج والزوجة يجب ان يحترما اهتمامات كل منهما . مثلا انا احب القراءة والاستماع الى الشعر بينما يقرأ هو المطبوعات التكنيكية فقط . وغدا سنذهب الى المسرح وبعد غد الى حمام السباحة . هناك أشياء كثيرة تجمع بيننا ».

تونيا زايتسيفا : « انا أحب الناس الجادين . يجب ان يكون رجلا حقيقيا وقوى الشخصية يساند زوجته ولا يشكو أبدا . يجب

ان يكون مثابرا وغير أنانى . ويمكن ان يكون من النوع الهادئ ، لكن من الأفضل ان يكون قادرا على الحديث فى أى موضوع بحيث يكون الحديث معه شائقا . وبالطبع يجب ان يتميز بروح الدعابة والا كانت الحياة معه مملة . شكله ؟ ليس بالطويل ، عينان زرقاوان ، شعر خفيف ، يهتم بالملاكمة ، ولا يدخن . ها قد رايت انى اتحدث عن شخص محدد . هو الآن فى الجيش وسيعود فى العام القادم . وأنا أحبه ».

فيرا شولجينا : « أتمنى شخصا يملك مشاعر حقيقية وعميقة . وانا لم ألتق بعد بمثل هذا الشخص . يجب ان يكون إما بحارا أو جنديا — فهم يتميزون بالوسامة والتفانى . ان للجيل الاكبر قيما مختلفة — فهم يقولون أن أهم شىء بالنسبة للزوج الا يشرب الخمر وان يكسب كثيرا . ربما كان هذا مهما لكن الحب هو الشىء الأساسى ، اليس كذلك ؟ على اية حال ماما تقول أنى ما زلت صغيرة ولم يحن الوقت بعد للتفكير فى الزواج ».

ناتاشا مولوستفوفا : « اعتقد ان هناك الكثير الذى يمكن قوله فى هذا الموضوع . لكنى لا أعرف كيف أقوله . يجب ان يكون شجاعا شهما ، وأمينا — مثل مواطنينا من رواد الفضاء . ويجب أيضا ان يكون — مثل أبطالنا — باحثا عن الأشياء ومكتشفا لها — لا من أجل نفسه وانما من أجل الآخرين . ولا بد ان تكون هناك شرارة ما فى شخصيته وأحلامه وعمله . ومن الأفضل أيضا ان يكون محبا للموسيقى وخاصة بيتهوفن ».

رايا سلطانوفا : «اهم شىء ان نحب أحدنا الآخر . وأيضا : الثقة المتبادلة التى تساعد على تجنب كثير من المكدرات مثل مشاهد الغيرة . ان فيتيا الذى مضت على زواجى به سنتان ليس أنانيا

وعلى استعداد دائم لمساعدتى ومساعدة الآخرين . انه سائق . وكثير من أذواقنا متماثلة . فكلانا يحب الموسيقى والكتب رغم انه يفضل الأوبريتات وكتب الحرب بينما أحب الأوبرا وموسيقى الأرغن والروايات التاريخية . وأحيانا ما نختلف لكننا نتفق بشأن القضايا الأساسية المتعلقة بالحياة والناس والاشياء . انه زوج مثالى ».

رايا مولودتسوفا : « لقد مضى على زواجى ثلاث سنوات ولدى ابنة عمرها سنتان . اذا أرادت المرأة ان يصل زوجها الى الكمال تعين عليها ألا تتلفه ! فمثلا اعمال المنزل يجب تقاسمها مناصفة . فليس هناك ما يبعث على الخجل إذا ما وضع الزوج إزارا ليعمل فى المطبخ أيام السبت والأحد أو أخذ الأطفال فى نزهة . وانا أومن بان الزوجين يجب ان يقضيا عطلاتهما سويا . لقد مضينا انا وزوجى سويا الى لينينجراد . وهو يعرف المدينة جيدا فصحبنى فى أنحائها . كانت عطلة سيتذكرها كلانا طويلا . اننا سعيدان للغاية فى حياتنا المشتركة . لكن لدى سؤال واحد وحسب : هل من حق الزوج ان يقضى وقتا طويلا فى كرة القدم ؟»

ويتم الزواج بالمدن الكبيرة فى قصور الزواج . وعندما يقرر الشبان الزواج يتعين عليهم ان يتقدموا بطلب فى هذا الشأن الى القصر أو الى القسم المختص فى مجلس السوفييت المحلى . ويلى ذلك فترة انتظار مدتها شهر كى تتاح لهما فرصة التفكير مرة أخرى فيما اذا كانت مشاعرهما قوية حقيقة وقرارهما سليما . وقد أردت ان أشهد بنفسى ما يحدث وأطلع ان امكن على بعض التفصيلات الحميمة من بعض الأزواج . فذهبت لرؤية المراسم بقصر الزواج فى لينينجراد . كان المبنى الضخم الجميل الذى يطل على شاطئ نهر النيفا ملكا لابن أخ القيصر قبل الثورة . ووجدت القاعات

11—1849

الفسيحة ذات الأرضية المصنوعة من المرمر مؤثثة جيدا بصورة تخلق جوا دافئا . كان الانسجام يسود الجماعات المرحة التى تنتظر دورها فى دخول قاعة الزواج الرئيسية فى الطابق الأعلى . ولجت هذه القاعة فى صحبة زوجين ومرافقيهما . كانت العروس تتوسط الجمع فى ردائها الأبيض بلون الثلج وطرحة الزفاف الموسلين ، والى جوارها العريس فى رداء أنيق . وأحاط بهما الاصدقاء والأقارب الذين حمل أغلبهم باقات الزهور. ووقف أمامهما أحد نواب السوفييت المحلى والمشرف على مراسم اليوم ومسئولة من « قصر الزواج ». ووجه اليهما النائب التهانى باسم المواطنين ثم خاطبهما قائلا :

« يجب ان تؤلفا اسرة قوية . انى أتمنى لكما حياة سعيدة وأطفالا . لا تنسيا والديكما واقاربكما واصدقاءكما وعليكما ان تحترما والديكما وتذكرا أنهما سيساعدكما فى المواقف الصعبة ».

وتلته ممثلة « قصر الزواج » فهنأتهما وقالت : « انكما الآن تلجان حياة جديدة . فلا تتشاجرا . واجتهدا فى التكيف مع ظروفكما الجديدة ، واحتفظا بأدبكما . وليساعد كل منكما الآخر ويثق به ».

سألت مترجمى عن المعنى الدقيق لكلمة « الثقة ». فقيل لى انها تعنى الايمان بالمعنى الجسدى والروحى . وعندئذ تبادل العروسان خاتم الزواج ، ووقعا على سجله ، ثم تلقيا الوثيقة المثبتة له . وتبع ذلك قبلات الوالدين . وبانتهاء المراسم غادرت الجماعة القاعة التى رددت جدرانها الضحكات والموسيقى المرحة وانطلقت الى حيث يقام حفل الزواج . وتعقد هذه الحفلات فى المدن الكبيرة بالمساكن او الفنادق ، أما فى الريف فتمد الموائد الحافلة بالاطعمة والمشروبات فى الهواء الطلق إذا ما كان الطقس ملائما والا تم ذلك فى الاكواخ والنوادى . وفى فندق «اوكرايينا» الذى أقمت به كنت أشهد يوميا

أمثال هذه الاحتفالات السعيدة من ضحك وأغانى ورقص وموسيقى وعبث لا نهاية له . كان المرح يصل الى قمته عندما يحمل الضيوف كؤوسهم ويصيحون بأعلى أصواتهم « جوركو » وتعنى « مر ». ولا يحتسى الضيوف كؤوسهم فى هذه الحالة الا عندما يتبادل العروسان القبلات اى بعد ان تحيل قبلاتهم مرارة الشراب الى عذوبة .

ويبلغ متوسط عدد الضيوف فى أمثال هذه الحفلات بين ٣٠ و ٤٠ شخصا ، أغلبهم من الاصدقاء الشبان للعروسين . ولا تشهد هذه الحفلات أو المراسم السابقة عليها أى استعراض ما للثراء أو أى تظاهرات . أما الهدايا مثل أجهزة المطبخ والاعمال الفنية ، وهى فى العادة غير غالية ، فيقدمها الاصدقاء فى هذه المناسبة ، ولا تتجاوز النفقات الاجمالية للزواج مائتين أو ثلاثمائة من الروبلات . أما تقليد الدوطة أو المهر الذى كان يسود الأيام القديمة فلا يخطر على بال أحد اليوم . فى أحد مراسم الزواج فى موسكو أشار نائب السوفييت الى هذا الجانب عندما قال للعروسين : «انكما تحبان أحدكما الآخر . وهذا هو مهركما . فلا تبددانه . أما الباقى فسيأتى فى الوقت المناسب ». ان العادة السائدة الآن تقضى بان يتلقى العروسان التهانى الأولى من ممثل للسلطة السوفييتية . ولا تجد الفتيات السوفييتيات ، وهن متعلمات يكسبن عيشهن بأنفسهن ، ما يجبرهن من الناحية الاقتصادية على البحث عن رجال يعولوهن . فباختفاء تأثير النقود واعتبارات الملكية الخاصة أو المركز الاجتماعى للاسرة ، أصبحت الفتاة السوفييتية تملك حرية اختيار الرجل الذى تحبه حقيقة ليكون شريك حياتها . وفى استقصاء اجتماعى جرى بقصر الزواج فى لينينجراد ، وجهت عدة اسئلة الى خمسمائة من الأزواج الجدد. وعلى سؤال « ما هو فى رأيك الشرط الاساسى



مراسم عقد القران في قصر الزواج.

للزواج الدائم السعيد ؟» أجاب ٧٦,٢ ٪ — الحب أو الحب مع تطابق الآراء والثقة والصداقة ، ١٣,٢ ٪ — التكافؤ والاحترام المتبادل ، ٤ ٪ — الحب وظروف المعيشة ، ١,٦ ٪ الحب والمزايا المادية .

وفى قصر الزواج بموسكو قال العريس يفجينى بتروف ، وهو من عمال التجميع فيبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما ، قال فى مقابلة ، انه اصيب بمعسكر رياضى وفى المستشفى إعتنت به ممرضة تدعى زينا فاسيلييفا ، فى العشرين من عمرها ، وتدرس فى الصف الثالث بمدرسة تدريب الممرضات ...

« لقد أعجبت على الفور ببساطتها واستعدادها للمرح ، وبشىء ما فى عينيها — كما لو كانت تنتظر ان يحدث شىء ما جديد فى كل لحظة ... وعلى استعداد دائم لتقوم بشىء طيب ... انى ما زلت أفيض اعجابا بها . وقد أثرت فى ثقتها بالآخرين . فهذه الصفة تبدو لى ملازمة لكل انسان نقى وطيب . ويعجبنى حماس زينا لدراستها وللقراءة . ودائما ما نجد موضوعات للحديث ... أعتقد انه من الممتع ان تكون على علاقة ودية بفتاة ذات مظهر متواضع تكتشف فيها كل يوم وكل ساعة شيئا جديدا معجزا — أشياء تثير فيك مشاعر رائعة . انى على ثقة اننا سنعيش فى توافق تام . وسوف نذهب بعد اكتمال مراسم الزواج فى رحلة بحرية . وفى أوقات فراغنا سنصغى للموسيقى ونقرأ ونمارس الرياضة ونستقبل اصدقاءنا . سيكون الامر رائعا عندما نقوم بهذه الأشياء سويا ! » .

وعندما جاء دور زينا ، العروس ، قالت : « ان حبنا ورغبتنا فى تكوين اسرة ، يستندان الى هذا التماثل فى الآراء . اننا نشعر بالسعادة او الحزن لنفس السبب . وهذا فى رأيى ذو أهمية بالغة بالنسبة للتفاهم المتبادل . وسوف أحاول ان أجعل من حياتنا كلها

مهرجانا مستمرا . أرجوك ، لا تظن أنى أحلم . كلا ، كلا ... واذا ما حاول المرء حقيقة بشكل جاد ، أمكن ذلك . ان الكثير يتوقف على المرأة . مثلا ، خذ الصباح . يمكن ان يكون مضجرا باردا ، ويمكن ان يصبح سعيدا مبهجا . وبوسع الزوجين ان يشعرا بالسعادة سويا عندما يشهدان الشمس المشرقة الساطعة ، او ربما خططا لشىء فى المساء . ويمكن للمرأة ان تعد المائدة بحيث تبدو جميلة ، وتقول شيئا لطيفا لزوجها ، وتبعث به للعمل فى حالة انشراح . حسنا ، الكثير أيضا يتوقف على الرجل بالطبع . وآمل الا يجعلنى زوجى هدفا لما قد ينتابه من مزاج سىء . لكن هذا يتطلب الشجاعة ولست أحب الرجال الذين يرهبون العمل اليدوى . بالمناسبة ، احدى الصفات التى اجتذبتنى الى يفجينى انه يجيد عمل كل شىء . انها متعة ان أرقبه يعمل . لقد لحظت فى المعسكرات الرياضية نواقص ملحوظة فى التربية ، فبعض الاطفال كانوا قادرين على معالجة اى شىء بايديهم بينما لم يكن آخرون على نفس المهارة . وانا مسرورة لان زوجى ليس من النوع الأخير . كما انى مقتنعة بان حياتنا سويا ستكون موفقة. فنحن صديقان وتماثل افكارنا وآراءنا هو ضمان السعادة » .

وقد كشفت دراسة انتقائية للازواج عن أرقام شائقة . فقد أوضحت ان ٢١ ٪ من الازواج الشبان تعارفوا فى أماكن العمل ، و ١٧ ٪ فى أثناء الدراسة ، و ٣٣ ٪ اثناء الرقص ، وفى الحفلات والنوادى والملاعب الرياضية وغير ذلك من أماكن الترفيه ، و ٥ ٪ فى مراكز العطلات ، و ٣ ٪ عن طريق الاقارب بينما التقى ٢ ٪ بالصدفة . وأبرزت الدراسة أيضا ، ان غالبية الزيجات تمت بعد تعارف دام اكثر من سنة ، وان الزوج والزوجة فى تسع حالات من

عشر يتمتعان بنفس المستوى التعليمى تقريبا . وفى ٦٥٪ من الزيجات كان الطرفان من نفس العمر . أما الذين يفصل بينهم فارق زمنى مقداره عشر سنوات فلم تكن نسبتهم تتجاوز ٤,٥ ٪ .

وعلقت ليونتييفا ، من علماء الاجتماع ، على هذه البيانات قائلة :

« ان للشباب موقفا جادا من الزواج ، وهم يرغبون فى التعارف جيدا بقدر الامكان ، ولهذا يلتقون ويتعارفون فى الاماكن التى تتيح لهم ان يعرضوا مميزاتهم ويبرزوا جداراتهم على افضل وجه . وبالطبع هناك طريق طويل بين النظرة الأولى والولع ثم الزواج . ويفضل الشبان ان يعرضوا مشاعرهم لاختبار حقيقى ، حتى يقتنعوا بان ما يربط بينهم هو تطابق الاهتمامات ، وليست الجاذبية وحدها ...

« ماذا يحدث عندما يقرر رجل وامرأة الحياة سويا ؟ لا بد وان يخبرا والديهما — فمن المتعارف عليه فى بلادنا ان تؤخذ ارادة الوالدين رهن الاعتبار . وهناك اماكن فى آسيا الوسطى وأوكرانيا ما تزال تحافظ على شعائر الزواج القديمة : فعندما يقرر الشابان الزواج ، يبعث والدا العريس بالخطاب الى ابوى العروس . لكن العادة ان الشبان انفسهم هم الذين يحسمون الأمر فيما يتعلق بمستقبلهم وهم يملكون كل الحق فى ذلك . فمتوسط سن الزواج ، وهو ٢٤ للعروس و ٢٦ للعريس ، يتيح لهم ان تكون لهم آراؤهم المحددة عن الحياة ، وافكارهم الخاصة عن الحب والزواج والاسرة. ففى هذه السن يكون كل منهما قد صار يمتلك حرفة أو مهنة وصار مستقلا اقتصاديا ... أما حالات الزواج المبكر بين الطلبة فتتطلب معونة الوالدين ، لكن الشبان والوالدين يعتبرون هذه المعونة بمثابة

اجراء مؤقت : فعندما ينهى الشابان تعليمهما ويحصلان على الشهادة والعمل يصبح فى وسعهما الاعتماد على انفسهما » .

ومن التطورات الهامة ازدياد عدد الزيجات المختلطة بعد ان فقدت التمييزات القومية والدينية سيطرتها على عقول الشعب . وقد بلغت نسبة هذه الحالات فى طشقند وسمرقند ٢٠ ٪ . وبلغت نسبة الزواج المحلى بين ابناء الشعوب الاسيوية من ناحية وأولئك الذين ينتمون جنسيا الى الجزء الأوروبى للاتحاد السوفييتى من ناحية أخرى سبعة بالمائة . وتبلغ نسبة الزواج المختلط فى لينينجراد ١٧,٥ ٪ .

وقد التقيت مرة باستاذة جامعية ، وهى سيدة جميلة انيقة وذات حيوية فى مقتبل الثلاثين . وأثناء الحديث الذى جرى بيننا عن الحياة السوفييتية طلبت منها ان تذكر لى كيف تزوجت . ترددت فى البداية ثم قالت ان القصة ربما لم تكن شائقة للغير . فقد التقت بزوجها للمرة الأولى فى منزل أحد الاصدقاء . لم تشعر بشىء غير عادى . لكنه بدا كانما مال اليها . والتقيا بعد ذلك عدة مرات . كان خريجا وهى ايضا . وتدريجيا بدأت تلحظ تغيرا فى داخلها . فقد اجتذبتها اليه مراعاته الفائقة للمشاعر الرقيقة عند المرأة وصدقه الشفاف فى أحاديثه . وعندما تمت خطبتهما أخيرا سألها أصدقاؤها الشبان « ماذا وجدت فيه ؟ » فأجابت : « وجدت رجلا » .

سألتها : « هل أدركوا ما تعنين ؟ »

قالت : « بعضهم فعل . لم يكن زوجى بالغ الوسامة من الناحية الجسدية وهى نقطة إيجابية لانى اومن بان الرجال الذين يتميزون بوسامة بالغة ليسوا ممتازين من جوانب أخرى » .

قاطعتها : « وماذا عن النساء ؟ »

قالت : « الشيء نفسه ».

وعندما سألتها عما حدا بها الى اعتناق هذا الرأى ، أجابت : « كنت وقتها فى الخامسة والعشرين . وتعلمت هذه الحقيقة من الحياة والأدب . ومع ذلك كنت خائفة ان ينتهى زواجى الذى تم بسرعة فى شهرين ونصف بالفشل . لكن الزمن اثبت ان خوفى لم يكن على أساس . فعلى مدى السنوات الثمانى التى انصرمت على واجنا ازدادت متعتنا عمقا وصرت أسعد النساء على ... »

وهنا بدا عليها الخجل ولم تستكمل جملتها . كانت عندما التقيت بها فى مهمة خاصة بعيدا عن زوجها . وذكرت لى انها عندما تزوجت كانت تود دائما ان تسمع من زوجها كلمات تعبر عن حبه وكان هو يحبط أملها بقوله : « لماذا تريدين الكلمات ؟ ألا تشعرين بحبى؟ ». والآن ، وقد باعدت بينهما مسافة كبيرة ، صار يكتب اليها رسائل رائعة تفيض حلاوة ورقة . وكانت تتمنى ان يطير الزمن حتى تنتهى المدة المخصصة لعملها لتعود الى زوجها .

وأسرت لى احدى الخريجات الشابات (٢٢ سنة) بقصتها بناء على طلبى . قالت :

« تزوجت منذ سنتين . وعندما كنت فى السابعة عشر التقيت برجل حياتى فى احدى مخيمات الكومسومول . كان قائد المجموعة . وبينما كان يخاطب بقية الفتيات دون كلفة كان ينادينى انا بصيغة الجمع الدالة على الاحترام . وخطر لى ان الأمر غريب فسألته عن السبب . أجاب انه لا يعلم بالضبط ، لكنه كاشفنى بعد زواجنا بانه مال الى بسبب سلوكى الجاد المخلص مما ملأه بشعور الاحترام إزائى . وقال ان « عيناى العميقتين وابتسامتى الرصينة » قد سحرته . والواقع انى أتميز بطبيعة جادة الى درجة غير عادية منذ طفولتى .

وهذا يفسر لماذا ملت اليه بدورى لأنى الفيته يتحرى الصدق فى كل ما يقوله . وباذن منى زار منزلنا فى القرية بعد شهور قليلة . وهناك طلب يدى فوافقت . لكنه كان مقبلا على فترة التدريب العسكرى التى تمتد ثلاث سنوات . سألنى ما اذا كنت استطيع انتظاره تلك المدة . قلت : « بالتأكيد . الأمر فى منتهى البساطة ». لكن هذا الانتظار الطويل كان صعبا للغاية . وكانت رسائله التى وصلت الى اثنتين بل وثلاث فى اليوم الواحد هى الشيء الوحيد الذى خفف من قسوة تلك الفترة ».

سألتها عن مشاعرها الآن فقالت : « اننا جد سعيدين . ونحن نشعر الآن بميزة مرور بعض الوقت بين تعارف الرجل والمرأة وزواجهما ». وعلى سؤالى الأخير : « هل تتشاجران ؟ » أجابت مبتسمة : « أجل ، كثيرا ، ودائما حول أشياء تافهة وعندئذ أسرع بتسوية الأمر . « فأزغزغ » زوجى وعندئذ يذوب . وننطلق فى ضحكات قلبية ثم نتناول طعاما شهيا من اعدادى ».

لكن الزواج ليس رحلة سعيدة فى جميع الحالات . فتقول احصائيات عام ١٩٦٠ ان معدل الطلاق فى الاتحاد السوفييتى يقرب من حالة واحدة فى كل تسع زيجات . وأبرزت دراسة لوثائق محكمة مدينة لينينجراد ان ١٧ ٪ من حالات الطلاق تعود الى عجز الزوج او الزوجة عن انجاب الاطفال او الى عدم الاكتفاء الجنسى ، و ٢٨ ٪ الى الخيانة الزوجية و ٢١ ٪ الى تضاؤل الحب وتنافر الأمزجة ، و ١٧ ٪ الى عدم عودة الزوج من الحرب ، و ٥ ٪ بسبب الرغبة فى العودة الى الاسرة القديمة (فى اغلب الحالات الاخيرة تكون الاسرة قد فقدت أثناء الحرب ثم تم العثور عليها).

ومن الدوافع الأخرى قحة الزوج وفظاظته ، عجز الزوجة عن

ادارة المنزل ، المشاجرات حول المساكن والنقود ، الخلافات مع الوالدين . وتصدر ٦٠ ٪ من طلبات الطلاق عن الرجال بينما تبلغ النسبة الخاصة بالنساء ٤٠ ٪ . ان الرقة البالغة التى تميز العلاقات فى الاسرة السوفييتية تعرضها لأخطار كثيرة إذ أصبحت مصدرا لتناقضات جديدة لم تكن الاسرة القديمة تعرفها . فنقص الاهتمام واللباقة من جانب الزوج او الزوجة ، وهو ما لم يكن ذا بال فى الاسرة القديمة القائمة على سلطة الاب ، بوسعه اليوم ان يخلق سوء تفاهم عميقا بين الزوجين . وقد شكت كثير من المطلقات فى الاستفتاءات التى جرت حول هذا الموضوع من تصرفات أزواجهن الجافة المجردة من الاهتمام . ويذكر كثيرا عدم توافق الطباع كسبب للطلاق . وهناك تناقض آخر فى الاسرة الحديثة يرتبط بالجانب الحميم من العلاقات الزوجية . فأحيانا ما يتصور الصبية والفتيات ان ولع الواحد منهم بالآخر – وهو ميل جسدى بحت لا يدعمه ارتباط روحى حقيقى – هو الحب الحقيقى . وعندما يتحدان فى زواج ، غالبا ما يتم بسرعة ، فسرعان ما يمل أحدهما الآخر ويسعيان الى الطلاق .

ويسمح القانون بالطلاق فى الاتحاد السوفييتى . لكن القانون فى سبيل دعم الاسرة ، واساسا لحماية مصالح النساء والاطفال ، قد وضع بعض القيود فى طريق فصم عرى الزواج . فاذا كان للزوجين أطفال غير بالغين ، تعين ان تتم اجراءات الطلاق امام المحكمة الشعبية التابعة للمنطقة أو المدينة . وتتخذ المحكمة اجراءات من أجل اصلاح الأمر بين الزوجين . واذا ما ثبت للمحكمة انه من المستحيل ان يعيش الزوجان سويا ، تفصم عرى الزواج . اما اذا كان للزوجين أطفال بالغون ، حق لهما ان يفصما زواجهما بالاتفاق

المتبادل فى مكتب تسجيل المدينة . وفى حالة انهاء الزواج ، تتخذ المحكمة عند الضرورة ، الاجراءات الكفيلة بالدفاع عن مصالح الأطفال الصغار او الزوجة العاجزة .

الأسرة

روج البعض فى الماضى ان الشيوعيين يرغبون الغاء الزواج وتدمير الاسرة . وقد أخرسهم تطور الحياة الفعلية فى الاتحاد السوفييتى ، فبدلا من « تأميم النساء » المزعوم ، قوى النظام الاشتراكى الاسرة وأثراها بصورة لم تعرفها من قبل . وقد وصل موريس هندوس بعد عدة جولات قام بها فى مختلف انحاء روسيا الى النتيجة التالية : « ليس هناك من مكان آخر فى العالم تبارك فيه مؤسسة الاسرة بالوضوح والقوة اللذين يلمسهما المرء فى روسيا اليوم ». وأضاف : « ان الاسرة تحظى هنا بالقبول والتكريم والتمجيد ».

ولا يسلم أحد فى الاتحاد السوفييتى بصحة الرأى الذى يذهب الى حتمية التناقض بين المجتمع الصناعى وعالم الاسرة الداخلى بحيث يؤدى الى تفكك عراها وربما أدى الى تحللها النهائى . ففى غضون العقود الخمسة الماضية ، سجلت الأسرة السوفييتية تغيرات عميقة ، لكنها تمت اكثر ما تمت فى مجال ازالة قسمات العهد القيصرى غير المرغوبة .

وتتميز الاسرة السوفييتية الحديثة باتجاه محدد لتحقيق المساواة التامة بين طرفيها ودمقرطة العلاقات الاسرية . فقد حصلت النساء على مركز مهنى وثقافى عال يماثل ذلك الذى يتمتع به الزوج ، وأدى هذا بالطبع الى نمو نفوذ الزوجة . ولم يعد فى الاسرة اليوم من

مجال للاستبداد أو الطغيان الذى يستند الى التفوق الاقتصادى أو القسر البدنى . وأخذ النفوذ المعنوى لكل من الطرفين يلعب دورا متزايدا فى الزواج ، كما يقوم الاتفاق المعنوى بينهما بدور متعاظم فى العلاقات الاسرية . لقد أوضحت أبحاث علماء الاجتماع ان هناك عائلات كثيرة اليوم وخاصة بين العمال والمثقفين يتمتع فيها الزوج والزوجة بنفس الحقوق . وفيما كان الرجل يعتبر ، طبقا للتقليد القديم ، رأس الاسرة ، فان « دوره » لم يعد مطلقا او اجباريا ، وأصبح للزوجة والأعضاء البالغين فى الاسرة تأثير هام على كافة القرارات المتعلقة بميزانية الاسرة وعطلاتها وتعليم الاطفال ، الخ . وقد كشفت الدراسات الاجتماعية الأخيرة ان ٣٠ ٪ من العائلات التى شملتها الدراسات تحتل فيها المرأة — زوجة كانت أو أما لاحد الزوجين الشابين — مركز الصدارة فى الاسرة . كما تبين ايضا ان ٥٠ ٪ من المتزوجين يتمتعون بنفس المستوى الثقافى وان الزوجة فى ٢٠ ٪ من العائلات تتمتع بمستوى ثقافى أعلى من الزوج : وهناك تعادل تقريبى أيضا فى مستويات الدخل . فلما كان الفارق فى السن والتعليم والمؤهلات بين الطرفين ليس كبيرا ، فان دخولهما أيضا تتجه الى التكافؤ . وتحصل ١٠ ٪ من الزوجات على دخول أعلى من تلك التى يحصل عليها أزواجهن . والنتيجة الطبيعية هى ان الاعتبارات المالية فى العلاقات العائلية تختفى بسرعة ويحل محلها أساس قوى من التآلف العاطفى الاصيل ورباط من الاهتمامات المشتركة .

لقد تغير دور الاسرة . ويؤكد لابتنوك هذه الحقيقة فى كتابه « الاخلاق والاسرة » ، إذ يقول : « فى المجتمع الاشتراكى ، يقوم الحب بين الزوج والزوجة على المساواة التامة بين الجنسين ،

وعناية كل منهما بالآخر ، ومسئوليتهما المشتركة عن تربية الاطفال ، وتعاونهما المتبادل فى الحياة الاجتماعية والشخصية ، وتصبح الاخلاق الشيوعية هى المعيار الذى يهتدى به ملايين من أبناء الشعب » .

ويقول ادوارد كوستياشكين : « ان تحرير النساء يجعل النقاء الأصيل ممكنا فى الحب لانه يحررهن من الضعة وعدم التكافؤ والعبودية المنزلية المقنعة » . وأوجز لواشونكو ، من كتاب مجلة « الاتحاد السوفييتى » الفكرة بقوله : « ان الاسرة هى وحدة صغيرة فى الكل ، وبكلمات أخرى المجتمع ، والمجتمع السعيد يعنى اسرة سعيدة ، والعكس بالعكس » .

ووجهت صحيفة « كومسومولسكايا برافدا » ، وهى جريدة يومية للشباب ، ١٢ سؤالا لقرائها حول مشاكل الحب والزواج والجنس فتلقت اجابات من ١٤ ٠٠٠ فرد كان أغلبها على النمط التالى :

كونستانتين فاسيلييف ، من مهندسى موسكو : « الاسرة السوفييتية تقوم على مشاعر عميقة متبادلة . وهذا أمر هام للغاية . ان أبناء جيلى يحتقرون زيجات المنفعة ، التى ورثها مجتمعنا من الماضى » .

فيكتور بجدانوفتش ، ضابط : « ان قوة الاسرة السوفييتية ترجع أساسا الى فضيلة إيمانها بمستقبل سعيد بهى » .

دميترى سيمنكوف ، طالب : « ان الاهتمام بتطوير الانسان الجديد بالمجتمع الشيوعى هو السمة الأساسية للاسرة السوفييتية » .

وقالت تامارا فينوجرادوفا ، من فتيات موسكو ، التى طلقت زوجها لانه تكشف عن شخص ذى نظرة أنانية ضيقة للحياة : « الاسرة السوفييتية تقوم على الحب والمساواة والمساعدة المتبادلة والآراء المشتركة » .

وقال سائق من كييف : « الحب ... لا يعنى تطلع الواحد الى آخر وانما تطلع الاثنين كلاهما فى نفس الاتجاه ».

ان الدليل على نمو المساواة بين الرجال والنساء فى الاسرة يتضح فى عادة اشتراك الرجال والأطفال مع النساء فى تدبير شئون المنزل . وقد تبين من البحث ان الرجل المتزوج ينفق عشر ساعات كل اسبوع فى شئون المنزل اى ثلث الوقت الذى تخصصه الزوجة لذلك . ويساعد الاطفال فى عمليات الشراء وأعمال المطبخ البسيطة مثل تقشير الخضراوات وغسيل الأوانى . وعندما سألت ايرينا كارابتيانتس (٢٨ سنة)، احدى عضوات لجنة النساء السوفييتيات المتحمسات ، عما إذا كان زوجها يساعدها عند عودتها الى المنزل فى المساء ، ابتسمت وأجابت بشىء من الفخر : « لدينا عضو جديد فى الاسرة هو طفلنا . وعندما اعنى به يقوم زوجى بكل العمل فى المطبخ ». وكانت تتحدث معى بالهندية فى طلاقة . ويتولى زوجها الذى يصغرها بعامين ، تدريس قواعد اللغة الصينية .

وتتخذ الحكومة كافة الاجراءات الممكنة لتخفيف أعباء العمل المنزلى . لقد سخرت الكهرباء والغاز والاجهزة المنزلية مثل الثلاجات والمباشر والخلاطات وغسالات الصحاف والمكانس الكهربائية وغسالات الثياب — لمساعدة النساء . وكافة هذه الأجهزة يمكن شراؤها أو استئجارها . واقيمت فى الأحياء مراكز للخدمات بهدف تحرير المرأة من بعض الاعمال المنزلية ، وقد ارتفع عدد هذه المراكز فى السنوات الأخيرة بصورة كبيرة . وتتولى هذه المراكز تنظيف الملابس (على الجاف) وصبغها واصلاح الأدوات المنزلية وتلميع السلع الجلدية والاثاث ورفو الملابس وتفصيلها واصلاح

أجهزة التليفزيون والراديو والأدوات الموسيقية ، الخ . لكن العون الاكبر تحقق فى أعمال المطبخ التى تستهلك كثيرا من الوقت .

وقد أقيمت شبكة واسعة من صالات الطعام العامة والمطاعم والمقاهى التى تقدم لزوارها طعاما صحيا فى محيط سعيد ونظيف ... بأسعار فى متناول الناس . وفى الوقت الحاضر يأكل ٥٠ مليون شخص — اى أقل قليلا من خمس سكان البلاد — فى هذه الأماكن . واتخذ تنظيم الخدمة هذا خطوة أبعد — وهى تنظيم ما يسمى بالمطبخ المنزلى . هنا يستطيع الانسان ان يشترى طعاما جاهزا يأخذه الى المنزل . ولا يحتاج بعد ذلك الا تسخينه لعدة دقائق . ويحب بعض الناس ان يطهوا طعامهم بأنفسهم ، فهؤلاء أيضا يزودون بطعام نصف مطهى . توجد مثل هذه المحلات ايضا فى العمارات السكنية الكثيرة الطوابق وكانت خطة الخمس سنوات التى انتهت عام ١٩٧٠ تستهدف زيادة هذه التسهيلات فى الخدمة مرتين ونصف مع زيادة اكثر من ثلاث مرات فى المناطق الريفية . تؤدى هذه الخطوات من جانب الدولة الى زيادة وقت الفراغ لدى النساء .

وقد أصبح تقليدا لدى العائلات السوفييتية ان يكون لديها مكتبات خاصة ، بعضها يشمل عدة آلاف من الكتب . ويشترى المواطنون السوفييت حوالى ١،٢٠٠ مليون مجلة سنويا لمكتباتهم الخاصة . وقد أجرى استفتاء بين ٢٥٦ عامل فى مصنع ليخاتشوف للسيارات فى موسكو ، فبين ان ٥٠ ٪ من الأسر تعطى الأولوية للاهتمامات العائلية واليومية ، وان ٤٢ فى المائة تعطيها للاهتمامات اليومية وللاهتمامات الاجتماعية ، وان ٨ فى المائة يعطونها أساسا للاهتمامات الاجتماعية . فمن الواضح ان المصالح الشخصية فى الجماعة التى سئلت متشابكة مع مصالح العمل والحياة الاجتماعية والتعليم والفنون .

كتب كاتب من وكالة «نوفوستى» (الانباء) عن النظرة الى مسألة المرأة يقول :

« ان موقف الاحترام الخاص تجاه المرأة ليس باى حال من الأحوال تلطف مع « الجنس الاضعف ». ان الأسطورة القديمة حول ضعفها قد بدلتها منذ وقت طويل أعمال وانجازات نسائنا اللواتى يتمتعن بالاستقلال والحرية والعمل الخلاق فى كل مجالات الحياة . ومع ذلك فقد حددت الطبيعة الدور القيادى للنساء فى تنفيذ القانون الرئيسى للحياة وهو استمرار الجنس البشرى . لقد تسلمت المرأة رسالة الأمومة السامية وليست الأمومة مجرد بهجة عظيمة وسعادة ، ولكنها ايضا عمل هائل لا يقارن بأى شئ تقوم النساء بانجازه مع نكران الذات . وفى هذه الناحية لا يمكن مقارنة دور الأم بدور الأب .

« الرجل مدين دائما بدين لا يرد للمرأة ولا يستطيع ان يعوضه الا جزئيا بحبه المخلص واحترامه ومساعدته التى تقوم على الصداقة وبالمساهمة فى أعمال المنزل ، وبالمساعدة فى تربية الأطفال . ان المساعدة المتبادلة بين الأبوين ، ورغبتهما فى ان يقتسما بشكل متساو فيما بينهما الواجبات التى يمكن ان يقوم بها كل منهما تعتبران فى بلادنا أساس الأسرة القوية السعيدة ».

الأطفال

ان اى زائر للاتحاد السوفييتى يدرك من الوهلة الأولى ان الاطفال يتمتعون بمركز خاص . وعلى سبيل الاعتراف بهذا المركز ، كتبت مجلة « البلاد السوفييتية » فى افتتاحيتها تقول : « الاطفال هم الطبقة الوحيدة المميزة . وهذا حق ... فمن أجل سعادة هذه

12—1849

الطبقة ... قاتل آباؤهم واجدادهم من وراء المتاريس واقتحموا القصر الشتوى فى عام ١٩١٧ . ومن أجل سعادة هذه « الطبقة » قاتل الملايين من أبناء وبنات البلاد وضحوا بحياتهم فى مواجهة « الطاعون النازى » خلال سنوات ١٩٤١ الى ١٩٤٥ . ومن أجل سعادة هذه الطبقة تعمل البلاد بأسرها بكل قواها لبناء الشيوعية وحماية مما تم انجازه خلال نصف قرن من العمل والنضال ».

وكتبت صحيفة « برافدا » من زاوية أخرى تقول : « ان المرأة التى ليس لديها اطفال تستحق منا كل الشفقة لأنها محرومة من كل متع الحياة ». ان مثل هذه النظرة هى مصدر العناية البالغة التى يوليها الوالدان لابنائهم وهى مصدر التسهيلات العديدة التى تمنحها الحكومة من أجل تربية الاطفال . وتتمتع المرأة الأم باحترام لا حدود له فى الاتحاد السوفييتى . وهذا الاحترام يتجلى – فى الدرجة الأولى – فى المزايا التى تتمتع بها الامهات اللائى أنجبن اطفالا



في روضة الاطفال .

كثيرين . فهن فى العادة يجئن فى أول القائمة عند توزيع الشقق ... وعلى سبيل المثال ، فان مولد الطفل الرابع وما يلى ذلك من اطفال يعطى الأم حق الحصول على معونة خاصة (تتراوح من ٢٠ الى ٢٥٠ روبلا) . وعلاوة على ذلك ان كل أم لأربع اطفال او اكثر تحصل على معونة شهرية من الدولة . وتمنح الحكومة جائزة للامهات اللائى انجبن وربين اطفالا عديدين . وقد حصلت نحو ثمانين ألف امرأة سوفييتية قمن بتربية عشرة أطفال واكثر على لقب « الأم البطلة » ومنحن أوسمة خاصة . ومنح مئات الألوف من الامهات اللائى انجبن خمسة اطفال أو اكثر وسام « مجد الأم » او ميدالية « الأمومة » وفى عام ١٩٧١ حصلت ٣ ملايين و ٣٧ ألف أم على معونات شهرية من الحكومة مكافأة لهن على انجاب الطفل الرابع أو على ما يلى ذلك من اطفال . وحصلت ٣٦٣ ألف أم من اللائى انجبن طفلين على منح حكومية عند انجاب الطفل الثالث ... وخلال العام نفسه خصصت الدولة والمؤسسات والمزارع الحكومية والمنظمات اكثر من ١١ ألف مليون روبل لتقديمها على شكل معونات للعائلات الكبيرة العدد ولتغطية اجازات الأمومة وأيضا من أجل الانفاق على مؤسسات الطفولة .

وقد أصبحت مؤسسات الطفولة التى يلتحق بها الطفل قبل المدرسة وتنتشر على شكل شبكة متشعبة جزءا لا يتجزأ من الحياة اليومية للبلاد . ولا يستطيع المرء بدون هذه الشبكة تخيل حياة الأم العاملة . ويجرى تنشئة ما يربو على ١٢ مليون طفل وطفلة فى دور الحضانة ورياض الاطفال المنتشرة فى جميع انحاء البلاد . وفى الحقيقة فان هؤلاء الاطفال لا يلقون مجرد العناية فى الاوقات التى تنهمك فيها الامهات فحسب ولكن ايضا يجرى تنشئتهم ويحصلون

على كل شىء قد يتعذر على الأسرة الميسرة ان توفره لاطفالها ... ويتضمن ذلك وجبة صحية ومنتظمة ... ورعاية طبية وتمرينات رياضية وكذلك تلقين الاطفال المبادئ العامة للفن والموسيقى . وتوفر الدولة أيضا الاستجمام والراحة فى المخيمات الصيفية ومناطق الاستشفاء . ويتم ذلك بفضل معونات الدولة الضخمة ويدفع الأبوان بضعة روبلات شهريا لا تتجاوز ثمن تكاليف تربية الطفل فى دار الحضانة وخمس التكاليف فى رياض الاطفال وواحد على اثنى عشر من تكاليف المدرسة الداخلية . أما بالنسبة الى دور الحضانة فى المزارع الجماعية فهى مجانية . ويتحدد ما يدفعه الابوان حسب دخل الأسرة وعدد اطفالها .

ويلحق ٦٠ فى المائة من النساء العاملات فى المصانع و ٧٠ فى المائة من المستخدمات فى المكاتب اطفالهن فى رياض الاطفال النهارية . وبجانب ذلك توجد المدارس ذات اليوم الكامل ... حيث يستطيع الاطفال حتى الصف الثامن بعد انتهاء دراساتهم ان يتناولوا فيها طعام العشاء ويؤدوا واجباتهم المنزلية ويأخذوا قسطهم من الراحة ... فى الوقت الذى يكون فيه أبواهم فى العمل . ان كل ذلك – مع النظام المتبع بالعمل خمسة أيام فقط فى الأسبوع – يوفر للمرأة السوفييتية وقتا كافيا لتربية ابنائها وللاسهام فى الحياة الاجتماعية للبلاد . وينبغى تذكر هذه الناحية المزدوجة من حياة المرأة السوفييتية حتى يمكن فهم الحجم الصغير للأسرة – فى المتوسط – والذى يبلغ وفقا للاحصائيات الرسمية ٣,٧ شخص أى أقل من طفلين للعائلة . ومن السهل اشباع رغبة المرأة فى الأمومة بانجاب طفلين أو ثلاثة اطفال عاديين اصحاء . ان اية امرأة سوفييتية تدرك ان عددا اكثر من ذلك من الاطفال لن يسبب لها

اية صعوبات بالنسبة الى التعليم والتنشئة ، الا انه سيكون من الصعب عليها ان تمنح الرعاية العاطفية التى يحتاجها كل طفل من الأم . هذا علاوة على ان ذلك سيحد ــ بالطبع ــ من فرحها لتمتع بحياة خصبة متعددة الجوانب . وهناك ايضا الاعتبارات المتعلقة بالصحة والخوف من العجز المبكر نتيجة للحمل المتكرر . والاجهاض مباح ويراعى الاغلبية العظمى من المتزوجين تحديد النسل ويجد المرء عائلات ذات أفراد اكبر عددا ــ نسبيا ــ فى المناطق الشرقية بحكم التقاليد المتبعة هناك .

وهكذا لا يولد أى اطفال غير مرغوب فيهم ويولد الاطفال فقط فى احضان الابوين اللذين يرغبان فى الانجاب . ومنذ اللحظة الأولى يبدأ الأب والأم فى ترتيب تنشئة اطفالهما لكى يكونوا أصحاء وعقلاء ويتسمون بالجمال . أنهما يودان لهم ان يحتلوا مركزا بارزا فى الحياة وان يعيشوا حياة اكثر سعادة من تلك التى عاشها الأبوان فيما مضى ... وفى هذه النقطة بالذات تقدم الدولة للأبوين المساعدة لاعدادهما بصورة أفضل لمهمة تنشئة الاطفال حتى سن الثامنة عشر ، باعتبار ذلك واجبهما وحقهما . ان الاذاعة والتليفزيون والصحافة تقدم برامج خاصة مكرسة لقضايا تنشئة الاطفال على أسس سليمة ويذيع الراديو كل صباح برنامجا خاصا موجها للآباء والأمهات . ويطلق على البرنامج « الى الموجودين فى البيت » وهناك برنامجان فى التليفزيون الأول « جامعة للآباء » والثانى « خاص للآباء عن الاطفال ». ويقدم البرنامجان نصائح تعتمد على المبادئ التربوية السليمة . والناشرون هم ايضا نشيطون فى اصدار المؤلفات الخاصة . وتصدر اكبر دار لنشر المؤلفات التربوية « بروسفيشينى » أى التربية سلسلة من الكتيبات الشعبية بعنوان « للآباء حول التنشئة »

وتوزع صحيفة « العائلة والمدرسة » على نطاق واسع اذ يطبع منها ١,٤ مليون نسخة . وتكتب شيركوفا المرشحة لدرجة الدكتوراه فى علوم التربية حول تنمية شخصية الطفل فى المنزل فتقول : « انها حقيقة مؤكدة ... ان الاخلاق ليست كل شئ ... وينبغى البدء بأن ننمى فى الطفل القدرة على محبة الأشياء والأشخاص بأن يحب الطفل أمه واخته ومنزله والطبيعة ... ان كل هذه المشاعر ، برغم انها تدخل تحت اسم واحد ، الا انها مختلفة تماما . ولكنها تشترك فى شئ واحد : التعلق بالشخص المحبوب والقلق عليه والشعور بالمسئولية ازاءه واظهار الحنان له والفرح به . وبدون القدرة على محبة الأشياء والاشخاص لن يستطيع الاطفال ــ على الاطلاق ــ ادراك السعادة العظمى للحب ».

وقال امرسون ذات مرة « ان الرجال هم صنيعة امهاتهم ». وفى الاتحاد السوفييتى تستطيع الامهات ــ ومعظمهن مثقفات ــ بمساعدة الآباء تشكيل شخصية الاطفال على نحو يتفق مع المبادئ التى يقوم عليها المجتمع الاشتراكى . ان ما تقوم به الامهات يثبت صدق المثل القائل بأنه اذا ما علمنا الرجل فاننا نعلم خبيرا ولكن اذا ما علمت المرأة الطفل فإنها تعلم أمة لأنها باعتبارها أم فهى تربى الأمة .

ان الاسرة السوفييتية اصبحت بصدق اتحادا بين الزوج والزوجة وايضا بين الابوين والاطفال . انه اتحاد الحب الذى لا تحده ولا تشينه اعتبارات المادة . ويتزايد ادراك الاطفال ــ بتقدمهم فى العمر ــ بتطابق وجهات نظرهم مع وجهات نظر أبائهم بشأن قيم الحياة الخاصة والمهام الاجتماعية والمثل العليا . ولا توجد هنا شواهد على وجود الفجوة بين الاجيال والصراع بينها التى يتحدثون عنها

كثيرا فى الدول الغربية . ان احترام وحب الابناء والبنات للابوين فى ايام شيخوختهما هما الجزاء الأعظم لهما . ولا تنفصم الروابط الطبيعية بين الآباء والاطفال بزواج الابناء . وعند ترك الزوجين الشابين منزل العائلة والاستقلال فى شقة خاصة بهما فهما يواصلان الاحتفاظ بعلاقات وثيقة مع ابويهما وأقربائهما . وفى الواقع فان هذه العلاقة وقد أصبحت ـ عندئذ ـ خالية من تعقيدات الاعمال المنزلية المشتركة فى المنازل المزدحمة ... هذه العلاقة هى أميل لان تقوى بدلا عن ان تضعف. ونتيجة لكل ذلك تنمو عادات جديدة. فقد حل محل العادة التى كانت سائدة قبل الثورة وهى تبديد المرتب الأول على المشروبات باقامة احتفال من نوع جديد . ففى حفل عائلى يقدم العامل الشاب هدايا الى ابويه والى كل من ساهم عن طيب خاطر فى تقديم خبرته ومهارته له . لقد ذكرت البطلة العالمية رائدة الفضاء فالنتينا تريشكوفا فى حديث اذاعى « ان اعز انسان على الارض عندى هو ماما ». وقال بطل آخر من رواد الفضاء هو جيرمان تيتوف وهو ابن لدكتور قروى ، « ان كل صفة حسنة عندى انا مدين بها لوالدى ». وتقول اغنية شعبية سوفييتية :

السماء زرقاء صافية ...
والشمس تشرق عالية ...
انها صورة الولد الصغير .
انه رسمها لك
انه كتبها ايضا لك
لمجرد ان يوضح رسمه :
فلتكن هناك دائما الشمس المشرقة
ولتكن هناك دائما السموات الزرقاء
ولتكن هناك دوما « ماما »
ولأكن هناك دائما أنا .

هل عندما تتزوج المرأة ، يعنى ذلك نهاية احلامها ؟ هل تغيّر السنوات الأولى من حياتها الزوجية اهتماماتها ؟ وعلى اى نحو يتم ذلك ؟ وكيف تتصدى كل المشكلات المالية ومشكلات الحياة اليومية ؟ كيف يقضى الزوجان الشابان اوقات فراغهما ؟

لقد طرح مندوب مجلة « المرأة السوفييتية » هذه الأسئلة على عدد من النساء من مختلف المهن والحرف من اللائى لا تزيد اعمارهن عن ٢٥ عاما واللائى عشن حياة زوجية من عام الى ٤ أعوام . وفيما يلى الروايات الباعثة على الاهتمام التى وردت فى الاحاديث الصحفية التى جرت فى مدينة «روستوف على الدون»:

لقد التقيت بتمارا بوتشيكايبفا عند موقف سيارات التاكسى . لقد كانت تنتظر ـ بنفاذ صبر ـ احدى السيارات . وكانت تحمل على ذراعيها طفلا صغيرا هادئا عليه سيماء الجدية . وتبلغ تمارا الثانية والعشرين من عمرها ، نحيفة ، تبدو من النوع العابث وبعيدة عن مظهر الأمومة . وقد تخرجت تمارا منذ ثلاث سنوات من مدرسة روستوف لرقص الباليه وهى الآن مشرفة على فرقة الرقص التابعة لقصر الثقافة لعمال المحطات الكهربائية وتتألف فرقة الرقص من ١٦ فتاة اغلبهن من العاملات والطالبات والتلميذات .

كيف نجحت تمارا فى ان تجمع بين عملها فى المساء مع الفرقة وواجباتها المنزلية بدون ان تغفل عن رعاية ابنها ؟

واعترفت تمارا : « ان ذلك كان مشكلة فعلا ». وأردفت تقول « ... ولكن بعد ستة اشهر سندخل أوليغ ضمن مجموعة الكبار فى دار الحضانة ونأخذه فقط يومى السبت والأحد . ان ذلك سيجعل الأمور اكثر سهولة ... وحتى يتم ذلك فليس امامى الا

ان اعتمد على نفسى او بالأصح على زوجى ... فلو لا بوريس لكنت تخليت عن عملى مع الفرقة ... ان زوجى انسان رائع ».

وبوريس يعمل نظاراتى ، وهو يقوم فى اغلب الأوقات باطعام ابنه ويشرف على استحمامه ويضعه فى فراشه ، ويقول مازحا « اننى اعتقد اننى احد هؤلاء الرجال القلائل الذين تعلموا أسرار الأمومة ».

وتعيش عائلة بوتشيكاييف فى منزل جديد فى روستوف ، فى شقة من حجرتين ومطبخ مجهزة بجميع وسائل الراحة ، ويبلغ دخل الزوجين معا نحو ٣٠٠ روبل شهريا . وهما يدفعان عشرة روبلات كايجار للسكن وينفقان نحو ١٢٠ ، روبلا على الطعام . وتعترف تمارا بانهما « لم يتعلما بعد الاقتصاد ... ولا أدرى أيرجع ذلك الى صغر سننا ام اننا لا نحسن التدبير . اننا نعتزم شراء بعض الأثاث.. فلا يوجد فى شقتنا كل ما نرغب فيه . وانا أود الالتحاق بدورة بالمراسلة فى معهد موسكو للثقافة وان أصبح مخرجة مسرحية او ان ادرس تاريخ الفن . وعندما يبلغ أوليغ الثالثة من عمره سنشرع فى تعليمه اللغة الانجليزية . ويقال انه من الافضل تعليم اللغات فى سن مبكرة . واننى اتمنى له ايضا ان يتعلم العزف على البيانو ».

وذكرت لى زينايدا جولوبوفا ، وهى طالبة فى الصف الأخير فى كلية الفيزياء بالجامعة « اننى كنت أخشى - حتى قبل ان اتزوج - ان يشوه الجانب الواقعى من الحياة مثلى العليا ... ولكن ليس لدى حتى الآن ما أشكو منه ». ويشارك زينايدا وزوجها الكسندر ابويه فى شقة تقع فى شارع انجلس فى قلب روستوف . وللزوجين الشابين حجرة واحدة خاصة بهما ، ومع حجمها المتواضع فلها طابعها المميز ... فهى مكدسة بالكتب والخرائط واللوحات المصورة ومعدات الرياضة والتبلوهات . وقالت زينايدا « اننى سأحصل

على دبلومى قريبا . وعندئذ سأصبح « متخصصة شابة » . وسأعمل فى مختبر المقاييس وسيكون مرتبى ١٠٥ روبلات فى البداية » - « وزوجك ؟ » .

« ان الكسندر يعمل مصمما فى أحد المعامل وفى الوقت نفسه يدرس فى معهد مسائى لتصنيع الماكينات الزراعية . وسينتهى هو ايضا فى القريب من دراسته وسيرتفع مرتبه تبعا لذلك . وآمل ان نحصل على شقة خاصة بنا خلال السنوات الثلاث القادمة . ان ذلك من حق الاخصائيين الشبان ».

« هل تجدين الحياة مع والدىّ زوجك مدعاة للضيق ؟ »

« أبدا . الا اننى أرى انه من الافضل العيش بمفردنا . ومع ذلك انه لم يكن امرا سيئا العيش معا فى البداية ».

« هل تتشاجرين مع زوجك ؟ » وكانت الاجابة الفورية « أوه . نعم ... اننا نتشاجر لاسباب تافهة الا اننا سرعان ما نتصالح ... اننا فى الحقيقة اصدقاء حميمون . ان زوجى عملى التفكير وانا أساعده بالمعرفة النظرية . ومن رأيى ان الزوجين العصريين هما شخصان يكن كل منهما الاحترام للآخر ... واركز على كلمة شخصين ».

« ولكن لماذا تحديدها بأثنين ؟ ينبغى ان يكون هناك ثالث على الأقل . الا توافقين على ذلك ؟ »

أجابت زينايدا قائلة : « بالطبع ... ينبغى ان يكون هناك أطفال . وآمل ان يكون لدى اثنين . صبى وصبية ».

« وماذا كنت ستفعلين اذا كنت ميسرة الحال ولست فى حاجة للتكسب ؟ »

« حسنا اننى بالتأكيد احب ان أربح اكثر مما اربح الآن ، الا اننى لم اكن لأفكر - على الاطلاق - ألّا اعمل ... ان العمل لا يوفر الروبلات فحسب ولكنه يعنى ايضا اشباعا معنويا ».

«اى اشباع بالضبط ؟»

«حسنا... كمثال على ذلك ... الاحساس بان المرء قد ساهم فى جهد مشترك . واعتقد ان عدم العمل يعد امراً غير اخلاقى».

لوبوفا نكولينا ... عاملة على خط تجميع فى احد مصانع الساعات . ويعمل زوجها يفجينى لحاما فى مصنع للآلات الزراعية . ولديهما طفلة ـ ناتاشا ـ تبلغ من العمر عاما واحدا .

وتعيش الأسرة فى شقة من حجرة واحدة تدفع ايجارا لها ثلاثة روبلات شهريا . ولا تشعر الأسرة اطلاقا بأى عبء لمثل هذا الايجار الزهيد اذ يبلغ دخلها الشهرى ٢٠٠ روبل ... الا انه مع الأسف الشديد فهذه الشقة الصغيرة تفتقر الى بعض المنافع .

وقد ذكرت لوبوفا «ان منزلنا سوف يهدم فى القريب وقد وضعت بالفعل القوائم باسماء الاشخاص الذين سينتقلون للسكن فى المنازل الجديدة ... وهكذا فأننا نأمل فى الاحتفال عن قريب بمناسبة الانتقال للمسكن الجديد».

«هل يكون الطبخ هوايتك الثانية بعد كتبك ؟»

«لا ... هى الرقص . اننى ارقص الرقصات الكلاسيكية والحديثة فى قاعات الرقص مثل رقصات فوكس-تروت والتانجو والفالس و«شيك» وغيرها».

«وما رأى زوجك فى ذلك ؟»

«انه لا يحب الرقص ... ومع ذلك فهو كثيرا ما يرافقنى».

«هل تلحقين بنتك بدار حضانة ؟»

«لا . انك ترى ان والدتى تسكن فى المنزل المجاور لنا . وعندما بلغت ناتاشا أربعة أشهر ... عدت الى عملى . وتولت الجدة

رعاية الطفلة . وعندما تبلغ ناتاشا الثالثة من عمرها ... ستذهب الى روضة الاطفال».

تاتيانا ماسارسكايا تعمل عارضة أزياء فى معمل تجريبى لتصميم القبعات ... وزوجها مارك طالب دراسات عليا فى كلية الفلسفة التابعة للجامعة . ولم يخل حديثنا من شد وجذب .

وقد بدأت الحديث بشىء من الحدة . قلت : «تخبرنا الاحصائيات ان نسبة الطلاق تبلغ الذروة بين الزيجات التى لم يمض عليها من عام الى عامين وعندما يكون عمر المرأة يتراوح من ٢٠ الى ٢٤ عاما . هل تعديتم «الفترة الحرجة ؟»

أجابت تاتيانا «ان خبرتى الذاتية تؤكد ذلك . اننى كنت فى الرابعة والعشرين من عمرى عندما انفصلت عن زوجى الأول . وقد انتهينا بعد عامين من الزواج الى ان حياتنا كانت أشبه بحوار بين شخصين يتحدثان بلغتين مختلفتين . وكان زوجى يبغض عملى وكان لا يصدق اننى مولعة بهذا العمل . اما مارك فهو صنف آخر ... فهو على قدر كبير من الثقافة وخال من كافة التحيزات».

«ما هو اعز حلم لديك ؟»

أجابت تاتيانا معتذرة «لدى بضعة احلام ... فى مقدمتها أملى فى ان يحصل مارك على الدرجة العلمية وان انتهى من دراستى فى المعهد الامر الذى يتيح لى الفرصة لعمل كمرشدة ومترجمة ... اننى أرغب فى ذلك كثيرا. وأحب ان يكون لدى اطفال واريد ان أقود سيارة».

تامارا دوديتس ... عاملة فى مصنع الملابس وهى وزوجها بيوتر سيتركان مدينة روستوف على الدون فى القريب . ولكن ليس بسبب انهما لا يحبان المدينة .

وتشرح تمارا ذلك فتقول «اننى ولدت ونشأت هنا، وزوجى من

أوكرانيا من منطقة فيما وراء جبال كاربات . وكنا مرتاحين فى المعيشة مع والدىّ ... واننى لاعترف انه لن يكن من السهل علىّ ان اتركهما ... ولكنهما لا يزالان أقوياء بينما والدا بيوتر ضعاف الصحة وينبغى العناية بهما وهذا هو سبب اننا قررنا الرحيل الى موكاشيفو ، البلدة الصغيرة التى لا تبعد كثيرا عن مكان سكناهما ».

وتواصل تمارا حديثها « لقد تزوجت فى سن مبكرة عندما كنت فى الثامنة عشرة من عمرى . ويقال ان الزواج المبكر لا يعمر . ولا أوافق على ذلك . ان بيوتر صديق طيب ويقدم العون باستمرار . وجدير بك ان تلاحظه وهو يرعى ابنتنا . انه يبدو كمربية حقيقية فى احد دور الحضانة . اننى دائما أحس بساعده القوى الحنون ».

وتتقاضى تمارا مائة روبل شهريا ويتقاضى بيوتر — وهو يعمل سائق سيارة نقل — على ١٢٠ روبلا . وهو دخل متواضع الا ان قيمة ايجار منزلهما ٦ روبلات ويدفعان ١٢ روبلا مقابل الحاق سفتلانا بروضة الاطفال .

تقول لودميلا فاسينا « اننى راضية عن زواجى بوجه عام . وكنت أود ان أسمع الفاظ التحبب تتكرر اكثر ... الا انها اصبحت — على نحو ما — قليلة ».

وقد التقيت بلودميلا فى روضة الاطفال حيث تعمل مربية فهى متخرجة من كلية علم نفس الطفل والتربية التابعة لمعهد العلوم التربوية فى رستوف . وفاديم — زوجها — متخرج من معهد هندسة السكك الحديدية . ويذهب ابنهما ايجور ، البالغ من العمر ثلاثة اعوام، الى روضة الاطفال التى تعمل بها لودميلا .

وتقول لودميلا : « اننى اعتبر مهنتى كواحدة من أهم المهن وانا عازمة على مواصلة العمل ».

« الا تفضلين ان تمكثى فى البيت وترعى ابنك بدلا من تطبيق وسائل التربية لتنشئة الاطفال الآخرين ؟ »

وقالت لودميلا متفادية سؤالى « ما هو هدف التعليم اذا قصر المرء نفسه على امور منزله ؟ ان هذه ليست فكرتى . فاننى كنت أود مواصلة دراستى فى كلية اللغة والآداب فى جامعة روستوف وان أقوم بالتدريس فى احدى المدارس ».

وعندما سألت لودميلا ما اذا كانت تود تغيير اى شىء فى حياتها ، قالت: « انه سيكون شيئا حسنا اذا ما توفر قدر اكبر من وقت الفراغ ». وعندئذ بدأت تساورها احلام اليقظة « اذا كان عندى ساعتان فقط يوميا ، لكنت اقضيهما فى الريف بالقرب من الطبيعة انه امر هام جدا بالنسبة الى ساكنى المدن ...».

العالم الغربى

عندما ينظر المرء الى دول الغرب فانه يشعر بتعاسة لان ملايين النساء هناك محرومات من المساواة والفرصة المتكافئة مع الرجال .

وتقول مارلين جولدبرج فى صحيفة « ليبريشن » الامريكية : « يجرى تعليم المرأة منذ الصغر على ان تقوم بدور التابع ، وان تكون سهلة القيادة وسلبية وان تحصل على ما ترغب فيه بالخنوع وليس بالعدوان . وتلقن المرأة فى المدرسة بان تقضى حياتها كربة المنزل وكأم وتقدم للمرأة على سبيل اللعب لها وهى طفلة الأشياء التى ستستعملها فى حياتها المستقبلة مثل العرائس ، وأطقم الشاى والاثواب المزركشة وهلم جرا ، ولا تشجع المرأة — على الاطلاق — على التفكير خلال الدراسة فى اختيار مهنة لها فما عدا ان يكون هذا المستقبل امتدادا للدور التابع الخانع فى العائلة . وذلك مثل ان

تتخذ لنفسها مهنة التمريض او تعمل كسكرتيرة . وتتعلم المرأة خلال تنشئتها وتقدمها فى السن انه ليس من الأنوثة فى شىء وبالتالى فهو شىء يدعو للنفور ان تكون معتدة الشخصية او ان تتنافس مع الرجل . وهكذا تصل اغلب النساء الى سن النضوج وقد رسخ فى اذهانهن ان دورهن الاساسى هو ان يكن زوجات وأمهات ... واذا تصادف ان اشتغلت الواحدة منهن ... فان مساهمتها لا تقدر ان تكون مساعدة اضافية ومؤقتة ... ولن يكون لها اى مستقبل . ولهذا السبب فان الزوجات ينفقن اموالا هائلة على ان يجعلن من انفسهن اشياء جذابة ».

وجاء فى آخر الاحصائيات التى نشرتها جريدة « امريكان ريبورتر » الرسمية انه فى الوقت الذى تشكل فيه المرأة نسبة ٣٧ فى المائة من مجموع القوى العاملة الامريكية ... الا ان نسبة النساء تمثل ٧٢ فى المائة من جملة العاملين الكتابيين و ١٦ فى المائة فقط من الوظائف الاشرافية . ويشير تقرير وزارة العمل الامريكية الى ان المرأة العاملة طول الوقت تربح فى المتوسط ٥٨ فى المائة مما يكسبه الرجل العامل طول الوقت . وقد حصلت المرأة بعد كفاح شاق على حق التصويت فى عام ١٩٢٠ الا ان هذا الحق لم ينهض بها كثيرا . فخلال نصف قرن بعد اقرار التصويت العام ، هبطت نسبة مساهمة المرأة فى احتلال المناصب الاشرافية وفى العمل فى المهن المختلفة . واليوم لا يوجد الا ما نسبته واحد فى المائة من المهندسات وثلاثة فى المائة من المحاميات وتسعة فى المائة من العلماء بالقياس الى مجموع المهندسين والمحامين والعلماء فى الولايات المتحدة . ومن بين ٤٣٧ من اعضاء الكونجرس توجد تسع نائبات وسيدة واحدة من بين مائة من اعضاء مجلس

الشيوخ . وقد دعت الحركة النسائية الثورية الامريكية بمناسبة مرور ٥٠ عاما على منح المرأة حق التصويت الى القيام باضراب عام ومظاهرات للاعراب عن الاحتجاج . ووجه المتظاهرون تهمة مؤداها « ان صورة المرأة فى الاعلانات كريهة ومهينة ومشوهة للسمعة ». وحمل المتظاهرون ايضا اللافتات التى كتبت عليها مثل هذه العبارات : « اننى لست مواطنا من الدرجة الثانية ». وطالبت الشعارات الأخرى بالأجر المتساوى للمرأة نظير العمل المتساوى وبتوفير التسهيلات لرعاية الطفل واباحة الاجهاض ... الى آخره .

وبينما تعانى الاغلبية العظمى من النساء من انعدام الفرص تعيش قلة من نساء الطبقات العليا حياة فاسدة وهن منغمسات ف التوافه ويفتقدن بذلك المتع الحقة للحياة . ويعطى فريد لورنس أويلز ، مؤرخ حياة نجمة هوليوود مارلين مونرو التى توجت ملكة للجمال فى الولايات المتحدة... يعطى صورة بشعة للأشهر الأخيرة التى عاشتها مونرو بالحبوب المنومة تحيط بها الوحشة ... وقد ألمع الى وجود علاقة بين مونرو ورجل متزوج من الساحل الشرقى مما زاد من يأسها . وبعد ذلك جاء مصرع مونرو الذى وصفه الطبيب الشرعى بانه انتحار .

وفى بريطانيا ايضا لا تتمتع المرأة بالمساواة . واكد حزب المحافظين فى كتيب بعنوان « فرص المرأة » بقلم بيريل كوبر وجيوفرى هاو ان النظام التعليمى ينبغى ان يعدل لكى يتلاءم مع احتياجات الفتيات والسيدات . واوصت الدراسة ايضا بضرورة ازالة ما تبقى من قيود على تشغيل المرأة بعد زواجها وكان حزب المحافظين يأمل فى انه عندما يتولى الحكم فانه سيتمكن من تشكيل لجنة لوضع تقرير بشأن امكانية تحقيق الأجر المتساوى للمرأة .

وهذا أمر ضرورى للغاية لان نصف نساء بريطانيا تقريبا يقمن بدور هام فى اقتصاديات البلاد . وتقول صحيفة « التايمز » اللندنية « انه يتعين القضاء على بقايا القيود وخاصة اللاأهلية الشرعية وحتى القيود التى كانت تستهدف فى الأصل حماية المرأة كما ينبغى توسيع نطاق حرية الاختيار المتاحة للمرأة عن طريق توفير الترتيبات الاكثر مرونة فى العمل وتحسين التعليم ».

ويتضح مدى الظلم فى الموقف ازاء المرأة ، اذا نظرنا الى نسبة تمثيلها فى البرلمان . ففى عام ١٩٦٨ كانت فيه ٢٦ نائبة فقط من مجموع اعضاء المجلس البالغ عددهم ٦٣٠ نائبا .

زيارة لاحدى الأسر

لقد اتيحت لى عدة فرص لزيارة عدد من العائلات ... وكان انطباعى فى كل زيارة باعثا على الغبطة . فقد وجدت الجو السائد فى هذه العائلات مشبعا بالحب . وكان من الصعب القول ما اذا كان الزوجان يحب احدهما الآخر اكثر مما يحبان اولادهما وقد تكون الاجابة الصحيحة هى ان كل فرد فى الأسرة محبوب من الآخرين ... ومثل هذا الحب لا حدود له .

وفى موسكو توجهت الى منزل فاليريا بوكوفا ، السيدة التى اشرفت على تأسيس نادى طاغور فى المدرسة التى تحمل رقم ٢٦ . والمنزل يتألف من شقة من حجرتين تعيش فيهما السيدة بوكوفا وزوجها وطفلان وجدة . وتنتظر الأسرة ان تنتقل عن قريب الى شقة اكبر . والغرفة الرئيسية فى المنزل فسيحة وقد تأثرت بالذوق الفنى الذى تجلى فى تنسيق ووضع الأشياء ذات الاستعمال اليومى والتزيينات وتحف الفن الصينى والهندى مما اضفى على المكان كله

13—1849

جوا من الدفء والجمال . وكان يشاهد على حامل الكتب الحواف المذهبة لمجلدات أعمال طاغور وديكنز ورومان رولان ... وكلها فى مجموعات كاملة . وفى ركن الغرفة كان البيانو .

وجلسنا جميعنا حول مائدة بيضاوية كبيرة . وجلس الاطفال على كراسى مرتفعة بدون ظهر والكبار على كراسى مريحة ذات مساند ولم يرغب الأطفال فى تركى حتى ولو لدقيقة واحدة وبطريقتهم الخاصة ظلوا معى أطول وقت يستطيعونه . وكان الصبى الأصغر ــ كوستيا ــ وعمره ثمانية اعوام ذو المظهر الخشن بشعره القصير يبحلق فى طول الوقت وأنا منهمك فى حديثى مع الآخرين . واكد الطفل ذاته بسؤاله الأول الذى طرحه « هل تريد تفاحة ؟» وعندما سمع « نعم » قفز تقريبا على المائدة واختار أفضل تفاحة وناولها لى . وبعد ان حطم الجليد بينى وبينه ... انهمرت هداياه . وكان يجلس صامتا وبعد فترة يسرع الى شىء يتخيل انه لطيف لى ، وهكذا اطلعنى مرتين على مجموعة طوابعه وما لديه من عملات وقطع الشكولاته المغلفة بالأوراق الملونة والعساكر المعدنية والنياشين وألبوم لينين الذى صنعه بنفسه . وقد اراد ان يعطينى بعضا من الفطر الذى جمعه فى الغابة ... وعندما عاود التفكير فى ذلك رأى انها هدية غير ملائمة . وسررنا جميعا عندما قام بتنفيذ الفكرة التى اقترحها باطفاء الانوار الكهربائية اثناء تناول العشاء واضاء بيديه خمس شمعات على حامل . ولم تضأ الأنوار الا بعد ان حصلت والدته على اذن منه . اما فكتور أخوه البالغ من العمر الثلاثة عشر فكان عليه ان يتصرف بطريقة الكبار . وقد عهدت اليه والدته بان يطلعنى على ألبوم العائلة عندما كانت مشغولة فى المطبخ . وكان عليه ان يقوم بدور المترجم لى لان أباه ــ بخلاف الأولاد ــ لا يعرف

الانجليزية . وكان بالألبوم صور لوالدى فكتور وجدوده عندما كانو شبابا . وشعرت بغبطة عندما اشار بكل جدية الى احدى الصور قائلا « هذا هو أبى عندما كان طفلا » وكان يفعل ذلك بالنسبة الى صور الآخرين . وعندما جاء دور صوره وهو فى مختلف الاوضاع ابتسم وهو يقول « وهذا هو أنا ».

واخبرتنى السيدة بوكوفا بشىء من الاعتزاز ان فكتور يعرف الغناء والعزف الا ان صوته يمر بمرحلة تغير الآن بسبب سنه. وطلبت من فكتور ان يغنى ... وبدأ فى الغناء وعندما لاحظت ان حنجرته ليست على ما يرام وان ذلك ينعكس على انسياب الصوت طلبت منه العزف على البيانو ... فعزف لبضع دقائق ثم تطوع ليرقص . وكان الابوان والجدة يراقبونه بحنان . وجلست والدته على البيانو ورقص فكتور بقوة وعلى نغمة سريعة . وهمست لى بانها لا تحب مثل هذا « القفز العشوائى » وتفضل عليه الرقص الروسى الكلاسيكى . وأظهرت ملاحظتها الى اى مدى تحترم شخصية طفلها . فكان فى استطاعتها اذا شاءت ان تفرض اختيارها على فكتور الا انها لم تفعل . وبعد الرقص استمعنا الى اسطوانات هندية على الجرامافون وكانت مغنيتهم المفضلة لاتا مانجشكار . وأطلعتنى السيدة بوكوفا بدورها على ألبوم لطلابها . وفيه كانت صور التلاميذ تظهرهم ايضا عندما كانوا صغارا . وذكرت لى ان عليها ان تجمع صورا لطفلين آخرين ...

وعندما جلسنا لتناول الطعام ، رأيت المائدة حافلة بالأطعمة الشهية ... وكان عليها العديد من الأصناف : اسماك وبيض باللحم المفروم وقطع من فخذ الخنزير وشربة وكعك وفطائر . وشعرت بالخجل لاننى لست من النوع الذى يقبل كثيرا على الطعام وسوف أخيب ظن مضيفى . وخلال تناولنا الطعام لمحت صورة زيتية

جميلة لباقة من الزهور المتفتحة معلقة أمامى على الحائط . وعندما لاحظ فكتور نظرتى الى الصورة قال « انها هدية بابا الى مامى فى يوم عيد ميلادها الأخير وقد رسمها بنفسه ». وارتسمت نظرة فهم فى عين بوريس بوكوف الذى كان دائم الابتسام طيلة هذه المحادثة . وعندئذ قالت بوكوفا ، « اننى اطلب منه ان يرسم باستمرار الا انه لا يفعل . ويقول انه لا يستطيع الاستغراق فى الرسم بينما نحن جميعا دائمى الحركة فى المنزل . وهو يحتاج الى ساعات هادئة لرسمه . اما لوحة الزهور فقد رسمها فى الريف . وستتاح له فرصة افضل عندما ننتقل الى شقتنا الجديدة ». وعند ذلك تدخل بوكوف بقوله انه يعشق اكواخ القرية . وواصلت بوكوفا حديثها « بوريس مهندس — ومخترع . وتعرض اعماله فى المعرض الاقتصادى . وهو فى المنزل ينغمس فى مشاركة كوستيا فى مزاحه ولا يسمح لى بوضع حد لتصرفاته عند الضرورة . كما انه يجيد الغناء ».

وطول الوقت كانت والدة بوكوفا تنظر للجميع بحنان وهى تحاول تتبع احاديثنا . وطلبت منى مرارا ان اتذوق جميع الاطباق . وهى فى السادسة والستين من عمرها وتتقاضى معاشا . وعلمت من بوكوفا انها هى التى تشرف على المنزل وتدير أموره . وكلاهما هى وبوريس يسلمانها مرتبيهما شهريا ويأخذان منها ما يحتاجان اليه لنفقاتهما . وبوكوفا هى الابنة الوحيدة لها والجدة متعلقة بشدة بابنتها وزوجها وبحفيديها . ومن حين لآخر كانت الجدة تعلق قائلة « كوستيا ... طفل شقى جدا » وعندما انتهى العشاء اشترك الجميع — بالطبع فيما عداى — فى انشاد اغنية جماعية . وتتحدث الاغنية عن « ليالى موسكو » . وعندما أحس كوستيا اننى على وشك مغادرة الأسرة سارع

الى احضار حيوانه المدلل وهو فأر أبيض . واهدانى فكتور ألبوما للميدان الأحمر واسطوانة . وقدمت بوكوفا عقدا جميلا من الخرز لزوجتى وصورة يظهر فيها كوستيا جالسا على كتفى والده ورجلاه مدليان وهو لابس حذاء صغيرا برقبة . وخلف الصورة كتبت بوكوفا بخطها « الى مستر بجوى كومار سينها . مع طفولة سعيدة لكل طفل . واطيب السعادة لكل عائلة » . وكان الوقت متأخرا عندما غادرتهم متوجها الى الفندق حاملا معى ذكريات لا تنسى لمنزل روسى تشيع فيه السعادة .

ان اكثر ما اثار اغتباطى خلال فترة اقامتى فى الاتحاد السوفيتى هى الحياة الجديدة التى توفرت للمرأة . وهناك سبب شخصى ايضا لذلك . فاننى كنت دائما اتذكر ايام والدتى وشقيقتى وكيف ناضلتا وقاسيتا خلال الحركة الثورية فى بلادنا ، وما تعرضتا له مرارا من محن وظروف مهينة . وكثيرا ما كانت الظروف السائدة تشكل عوامل الاحباط نتيجة لوجود كثير من المحرمات الاجتماعية فيما يتعلق بدخول المرأة معترك الحياة العامة . وخلال محاربة هذه المخلفات الثقيلة لسنوات طويلة ، فقدت شقيقتى عقلها وهى الآن تعيش فى عالم من الهلوسة خاص بها فهى تلقى المحاضرات لكى تستمع اليها الجدران مهاجمة الامبريالية البريطانية التى زجت بشقيقيها فى السجون لمدة تصل الى عقدين . وقد توفيت والدتى فى عام ١٩٥٢ . وذكرت جريدة «امريتا بازار باتريكا» فى تقرير لها عن أمى انها عاشت حياة على نمط « الام » لجوركى . فكانت قد حصلت بلادنا لتوها على الحرية وكانت والدتى كلها آمال . وكانت تحلم فى ان تحتل المرأة مكانها الشرعى فى المجتمع . وكثيرا ما كانت تسألنى عن الكيفية التى تقدمت بها المرأة فى الاتحاد

السوفيتى . فيا ليتها الآن على قيد الحياة لكى احكى لها عن الانجازات الباهرة للمرأة السوفييتية التى تمضى قدما فى طريق خال من العقبات .

واتذكر الكلمات التى أدلى بها نيقولاى بودجورنى رئيس هيئة رئاسة مجلس السوفييت الاعلى بمناسبة الاحتفالات بيوم المرأة الدولى فى الاتحاد السوفييتى . حيث قال :

« ان الحزب والحكومة قد عملا وسيواصلان عمل ما فى الوسع من اجل ان تعيش وتعمل المرأة السوفييتية كعضو متساو مساواة حقيقية فى المجتمع وان لا يشوب متع الامومة اية شائبة ، وان يتاح للطفل كل الفرص لكى ينمو سعيدا ووافر الصحة وان يطور قدراته ومواهبه الى أقصى حد » .

وكتبت مجلة « سوفييت لاند » تقول ، « ان المرأة السوفييتية ذات قلب كبير ورحيمة وكريمة ... وهى بالنسبة الى اطفالها مجرد أم بصرف النظر عما اذا كانت من ابطال العمل الاشتراكى أو اكاديمية أو دكتورة أو رئيسة مزرعة جماعية أو مدرّسة . اننا فخورون بها ... اننا نقدر تقديرا عاليا حبها ورقتها وعاطفتها ... وفى هذا اليوم وفى هذا الاحتفال البهيج ننحنى كلنا ، ابناء واحفادا واباء وازواجا وجدودا واشقاء ... احتراما للمرأة ... كأخت ، وابنة ، وزوجة ، وحماة ، وجدة وأم ... لهن جميعا اللائى وهبن الحياة لكل ما هو خيّر فى الانسان » . وكانت على نفس المنوال احاسيس أسقف كانتربرى المعروف لمركزه المرموق فى الكنيسة الانجيلية ولشهرته كداعية للخير والاصلاح الاجتماعى على أساس روحى . وقد كتب يقول فى كتابه عن الاتحاد السوفيتى بعنوان « السدس الاشتراكى من العالم » ... « ان المرأة دخلت عالما جديدا فى الاتحاد

السوفييتى . فالمرأة السوفييتية تشارك الرجل نوعا من المساواة الجديدة فى التعليم والحقوق السياسية والاعمال الفنية وفى نظر القانون وفى الثقافة . ولم يكن هناك عالم اكثر قبحا بالنسبة للمرأة من العالم الذى انهار بنهاية الامبراطورية الروسية وليس هناك عالما اكثر اشراقا لها من العالم الذى جاء الى الوجود مع قيام الاتحاد السوفييتى ».

الفصل الخامس

دعامة الحياة

هل فى وسع جميع البشر ان يحيوا حياة سعيدة ؟ يرد النظام السوفييتى على هذا التساؤل بقوله ان ذلك بالقطع ممكن عندما تتوفر التسهيلات المادية والثقافية بشكل ملائم لجميع ابناء البلاد . ان مستوى المعيشة يصبح عندئذ هو الأساس لتطور الحياة السعيدة . ولتحقيق هذا الهدف تم تنظيم اقتصاد الاتحاد السوفييتى بجميع فروعه : الصناعة والزراعة والتجارة وقطاع البنوك . وجاء فى تقرير اللجنة المركزية للمؤتمر الثالث والعشرين للحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى ما يلى :

« ... ان النظام الاشتراكى ـ لكى يضمن التطور السريع للاقتصاد والقوى الانتاجية ـ قد هيأ افضل الظروف الكفيلة برفع مستوى معيشة العمال والفلاحين والمثقفين اى لكل افراد الشعب العامل بشكل مطرد . ان الاشتراكية هى النظام الوحيد الذى يمكن فى ظله تطبيق قاعدة عادلة للتوزيع وفقا لنوع وكم العمل ... وذلك لانه بفضل سيادة الملكية العامة ينتفى استغلال الانسان للانسان ويصبح جميع ابناء المجتمع متساوين فى علاقاتهم بوسائل الانتاج ... ان كل ما يتم فى بلادنا من اجل رفع مستوى معيشة الشعب ومستواه الثقافى ومن اجل تطوير العلوم والتعليم ونشر الآداب والفنون ... ان كل ما يتحقق فى هذا السبيل يبرهن على حقيقة واحدة الا وهى

ان الهدف الرئيسى للاشتراكية يتركز حول رفاهية الانسان وتطويره الشامل ».

واذ تحدث ليونيد بريجنيف فى خطاب له فى اجتماع فى عام ١٩٧٠ عن هذا الهدف فى عبارات بسيطة اكثر تحديدا قال : « ان الهدف الاساسى لخططنا هو زيادة تحسين حياة الشعب وتطوير المجتمع الاشتراكى من كل النواحى . ونحن نتخذ من ذلك نقطة انطلاق فى وضع الخطة الخمسية الجديدة (الخطة الخمسية التاسعة ١٩٧١ — ١٩٧٥) وان كل شىء نحققه نتيجة لانجاز هذه الخطة سيوجه من اجل تحقيق التقدم لوطننا ، حتى يستطيع الشعب السوفييتى ان يأكل أحسن ويلبس افضل وحتى يرفع من مستوى معيشته ومن الخدمات الطبية والتعليم العام ».

الميزانية

فى المجتمع الاشتراكى يعود الدخل القومى كله للشعب . فالدولة تملك جميع المصانع والمزارع (فيما عدا المزارع التعاونية) والمعامل ووسائل النقل وبقية المشروعات الأخرى كالبنوك ومحطات الطاقة ... وهى تحصل على الجزء الأكبر من وارداتها من الارباح التى تحققها هذه المصادر والتى تكوّن اكثر من ٩٠ فى المائة من مجموع عائدات الميزانية . و٨ فى المائة فقط من هذه الميزانية مصدرها الضرائب واهمها ضريبة الدخل وتفرض بنسبة تتراوح من ٠,٧ الى ١٣ فى المائة . ويدفع المواطنون الذين يعولون اكثر من ثلاثة اطفال ضريبة دخل تقل بنسبة ٣٠ فى المائة . وتفرض ضريبة على العزاب والمتزوجين الذين ليس لديهم اطفال. ولا تفرض ضريبة على

راتب لا يزيد عن ٦٠ روبلا شهريا كما خفضت نسبة الضريبة التى تفرض على دخل لا يزيد عن ٨٠ روبلا شهريا .

وفى الدول الغربية ، يذهب نصيب الأسد من الدخل القومى الى اصحاب وسائل الانتاج . ويحصل عشر السكان — تقريبا — فى المعدل على اكثر من نصف مجموع الدخل القومى للبلاد . اما فى ظل الاشتراكية فالدخل كله يكون من نصيب الشعب بأسره ويجرى توزيعه بصور مختلفة . ففى الاتحاد السوفييتى يقسم الدخل القومى الى قسمين رئيسيين ... قسم للمصروفات الاستهلاكية وآخر للتراكم الاستثمارى . وثلاثة ارباع الدخل تذهب للقسم الأول والربع الباقى يخصص للقسم الثانى . وتستخدم اعتمادات المصروفات الاستهلاكية لدفع اجور ومرتبات العمال والفلاحين والمثقفين ولمواجهة نفقات تطوير التعليم العام والعلوم والثقافة والخدمات الصحية والاسكان وكذلك لدفع المعاشات لكبار السن والعجزة والضمان الاجتماعى ونفقات جهاز الدولة واحتياجات الدفاع . وتستخدم اعتمادات الباب الثانى أساسا للانفاق على توسيع نطاق الانتاج . وقد ارتفع الدخل بالنسبة للفرد فى عام ١٩٦٨ نحو ٢٧ مرة بالقياس الى عام ١٩١٣ . وفيما بين عامى ١٩٥٠ و١٩٦٨ تزايد الانتاج القومى للاتحاد السوفييتى بنسبة ٣٦٠ فى المائة بالمقارنة الى مائة فى المائة فى الولايات المتحدة و٦٠ فى المائة فى بريطانيا و١٢٠ فى المائة فى المانيا الغربية . وارتفع الدخل الحقيقى لكل عامل فى عام ١٩٦٨ بـ ٧,١ مرة بالمقارنة الى فترة ما قبل الثورة .

وفى عام ١٩٧١ بلغ الدخل القومى السوفييتى ٣٠٤١٠٠ مليون روبل خصص منها ٢١٢٢٠٠ مليون روبل للاعتمادات الاستهلاكية و ٨٧١٠٠ مليون روبل للتراكم الاستثمارى . ومن اعتمادات

الاستهلاك انفق ١٨٧٢٠٠ مليون روبل (٨٨,١ فى المائة) على الاستهلاك الفردى على شكل أجور ومرتبات وانفق مبلغ ١٧٥٠٠ مليون روبل (٨,٣ فى المائة) على اشباع حاجات السكان من المسكن والتعليم والخدمات الصحية والاحتياجات الأخرى . لقد بلغ الدخل القومى الذى استخدم فى عام ١٩٧٢ فى اغراض التراكم المالى والاستهلاك اكثر من ٣١٠٠٠٠ مليون روبل وتم تخصيص ثلاثة أرباع الدخل القومى لاغراض الاستهلاك .

الأجور

ويقابل الزيادة المطردة فى الدخل القومى ، ارتفاع فى الأجور والمرتبات من عام لآخر ومع اقتران ذلك بانخفاض الاسعار فالدخل الحقيقى للسكان يتزايد باستمرار . فقد ارتفع المرتب الشهرى فى المتوسط لعمال المصانع والمستخدمين فى الهيئات الرسمية من ٩٦,٥ روبل فى عام ١٩٦٥ الى ١٢٢ روبلا فى عام ١٩٧٠ والى ١٢٦ روبلا فى عام ١٩٧١ . ووصل الى ١٣٠,٣ روبل فى عام ١٩٧٢ .

وزادت مدفوعات وتسهيلات الاعتمادات الاجتماعية خلال هذه الفترة (من عام ١٩٦٥ الى ١٩٧٢) من ٣٢,٧ روبل لكل فرد شهريا الى ٤٥,٧ روبل . وأصبح الحد الادنى من الأجر ٦٠ روبلا . وابتداءا من سنة ١٩٧٢ يجرى تحقيق الحد الادنى الجديد للأجر وهو ٧٠ روبلا فى الشهر . وارتفع عدد العمال والمستخدمين فى الاقتصاد القومى الى ٩٥,٢ مليون شخص . وتتقاضى الغالبية العظمى من العاملين أجورا ومرتبات تتراوح من ١٣٠ الى ٢٤٠ روبلا . ولا يوجد هناك فرق كبير

بين العمل الفكرى والعمل اليدوى الماهر . فدخل سائق اللورى لا يقل عن دخل مدرس الجامعة . وأعلى مستوى الأجور هو من نصيب الاكاديميين وكبار الاساتذة وهم يتقاضون نفس الأجر الذى يتقاضاه رئيس الوزراء ويصل الى ٧٠٠ روبل ولكن هناك قلة محدودة للغاية تتمثل فى كبار الكتاب وراقصى الباليه والموسيقيين والمخترعين وهم يحصلون على دخول اعلى بكثير من ذلك .

ويقول ليفون جريجوريان فى كتابه بعنوان « المجتمع السوفييتى » فى معرض حديثه عن الاختلاف فى نظام الأجور والمكافآت :

«لم تتوفر بعد فى النظام الاشتراكى الظروف التى تسمح بالتوزيع حسب احتياجات الفرد ولذلك فان التوزيع يجرى حسب عمل الفرد . ويوجد — بطبيعة الحال — فى المجتمع الاشتراكى حتى الآن قدر معين من عدم المساواة حيث ان عمل الافراد المختلفين يختلف من حيث نوعيته وكمه . الا ان ذلك لا يشكل الفجوة الكبيرة القائمة فى المجتمعات القديمة بين الذين يملكون والذين لا يملكون ، بين الشعب العامل وأصحاب الملايين . وهذا امر على جانب كبير من الاهمية حيث انه فى مثل هذه الظروف فان اى تحسن يطرأ على الوضع الاقتصادى للشعب بوجه عام يعنى تحسينا لرفاهية كل شخص على حدة . وان عملية تقريب مستويات جميع أفراد المجتمع بعضهم من بعض هى النتيجة المباشرة لتحقيق الملكية العامة . فحالما أصبحت الاراضى والمصانع وجميع وسائل ومعدات الانتاج ملكا للشعب ، لم يعد هدف الانتاج مضاعفة دخول الاحتكارات وأصحاب رأس المال الخاص (وأنتفى وجودهم فى الاتحاد السوفييتى) وبدلا من ذلك أصبح هدف الانتاج زيادة الرفاهية واشباع الاحتياجات المتزايدة لجميع افراد المجتمع ».

ويقول ديرنيك آلاخفرديان الدكتور فى العلوم الاقتصادية :

« ان المبدأ الاقتصادى الرئيسى للتوزيع فى الاتحاد السوفييتى انما يجرى حسب العمل . فكل شخص عامل يحصل على نصيبه او نصيبها من الدخل القومى وبحسب نوع وكمية عمله . وبالاضافة الى ذلك فكل عامل له نصيبه او نصيبها من الاعتمادات الاستهلاكية ، فله الحق فى الاجازة المدفوعة الأجر والتمتع بالخدمات الطبية المجانية التى تغطى بمظلتها جميع افراد عائلته وايضا بان يحصل على بطاقات مجانية او مخفضة الأجر لدخول دور الراحة والمصحات وان يتقاضى معاشا عندما يتقدم فى السن الى آخره .

وقد يطرح سؤال : ما اذا كان من الأفضل ان تنفق الاعتمادات الاستهلاكية لزيادة الأجور ولا يكون هناك خدمات اجتماعية مجانية ؟ وتدحض الاسباب التالية هذا المنطق : أولا : لن يكون هناك توزيع عادل للخدمات الاجتماعية. ففى الاتحاد السوفييتى تتوفر الرعاية الطبية والتعليم للجميع بغض النظر عن دخولهم وانما حسب احتياجاتهم . وهذا يعنى ان الخدمات الاجتماعية يجرى توزيعها أساسا ليس حسب العمل المقدم ولكن وفقا للاحتياجات . وينبغى ان يذكر فى هذا الصدد ان نصيب الاعتمادات الاستهلاكية من ميزانية العائلة تتناسب — فى العادة — تناسبا طرديا مع دخل العائلة ... فالبطاقات المجانية لدخول دور الراحة والمصحات والمنح الدراسية وغيرها من المزايا ... تعطى — فى الدرجة الأولى — الى الاشخاص الذين يتقاضون اجورا منخفضة نسبيا والى افراد عائلاتهم ».

وفى ظل الشيوعية باعتبارها المرحلة الأخيرة فى الاقتصاد فان من المستهدف ان تختفى الفروق فى الأجور وان تقدم الخدمات

والسلع الاستهلاكية لكل شخص حسب احتياجاته وان يقوم كل شخص بالعمل حسب قدراته .

وعلى ذلك ، يجرى تقليل الفروق فى الأجور كخط سياسى ، ويتم اثناء فترات منتظمة زيادة الأجور المنخفضة . ففى عام ١٩٦٩ ارتفعت مستويات أجور عمال البناء بنسبة ٢٥ فى المائة وأجور عمال صناعة مواد البناء بنسبة ٢٣ فى المائة . وقد استفاد من هذه الزيادة نحو ٩ ملايين من النساء والرجال . وابتداء من ١ يوليو (تموز) عام ١٩٧١ ارتفع حتى ٧٠ روبلا فى الشهر الحد الادنى لحجم أجور العمال والموظفين فى النقل بالسكة الحديدية ومترو الانفاق . وفى عام ١٩٧٢ زادت فى المتوسط بنسبة ٢٠ ٪ أجور الأطباء والمعلمين والمربين فى منشآت الأطفال التى تسبق المدرسة ، ومعلمى المعاهد التعليمية الثانوية المتخصصة ، وكذلك معلمى المعاهد التعليمية العليا غير الحاصلين على درجة علمية . وزيدت منح الطلبة فى المعاهد التعليمية العليا بنسبة ٢٥ ٪ ، ومنح تلاميذ المعاهد التعليمية الثانوية المتخصصة بنسبة ٥٠ ٪ .

وفى عامى ١٩٧١ — ١٩٧٢ زادت الدخول النقدية بالنسبة لـ ٢٤ مليون شخص . وفى وقت سابق ، فى عامى ١٩٦٤ — ١٩٦٥ ارتفعت أجور ٢٠ مليون عامل . وبالنسبة الى المدرسين ارتفعت مرتباتهم بنسبة ٢٦ فى المائة والأطباء والممرضين بنسبة ٢٤ فى المائة وعمال المحلات بنسبة ١٩ فى المائة . وخلال الفترة من ١٩٥٠ الى ١٩٦٦ تزايد معدل الأجور والمرتبات للعمال بنسبة ٥٠ فى المائة فى الوقت الذى انخفضت فيه اسعار السلع بالقطاعى فى المحلات الحكومية والتعاونية بنسبة ٢٥ فى المائة تقريبا .

وعلاوة على ذلك فقد خفضت الضرائب بالنسبة لمستويات

الأجور المنخفضة . ففى عام ١٩٦٦ خفضت الضرائب المفروضة على الدخول ما بين ٦١ الى ٨٠ روبلا بنسبة ٢٥ فى المائة . وبالنسبة الى العاملين فى الشرق الأقصى وفى الشمال من المناطق الأوربية حيث الظروف اكثر قسوة فقد استحدث نظام الأجور الأعلى وقدمت مزايا عديدة وبالاضافة الى المرتب الشهرى تمنح المكافآت . ويقضى الاصلاح الاقتصادى الذى طبق اخيرا بتخصيص اعتمادات مالية خاصة للمكافآت .

الملكية

لقد قضت الثورة الاشتراكية فى عام ١٩١٧ على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . ففى الاتحاد السوفييتى تملك الدولة جميع الاراضى ، والمصانع ، والمناجم ، والسكك الحديدية ووسائل النقل البحرية والجوية كما تملك البنوك والمستشفيات والمدارس والمعاهد والمسارح والمحلات . وتقوم الحكومة بادارة كل ذلك لما فيه منفعة الشعب كله. والشكل الثانى من الملكية يتمثل فى مشروعات الانتاج التعاونية ومنظمات التجارة التعاونية والمزارع الجماعية . ويتركز مجال عملها فى الريف أساسا .

والصورة الثالثة للملكية هى ما يسمح به القانون للأفراد . وهى ما يعرف باسم الملكية الشخصية . وبموجب المادة رقم ١٠ من الدستور للمواطن السوفييتى الحق فى تملك — كملكية شخصية — الدخل والمدخرات الناتجة عن عمله وله ان يمتلك منزلا للسكن وعددا محدودا من الماشية وحاجيات المنزل وأدوات الاستخدام الشخصى . وفى القرى تملك العائلة كملكية مشتركة لافرادها قطعة صغيرة من الأرض ملحقة بمنزلها حيث تقوم فى العادة بزراعتها

بالخضروات والفواكه وتربى فيها الدواجن والماشية . وهذه الاراضى — وتبلغ مساحتها نحو فدان — تختلف فى حجمها حسب خصوبة التربة . واى عمل فلاحى يقوم به اعضاء العائلة واستعمال العمل المأجور يعد أمرا غير مشروع . ويستهلك أفراد العائلة الجزء الأكبر من المحصول ويقومون ببيع ما يفيض عنهم مباشرة بأنفسهم فى اكشاك سوق المزرعة التعاونية او الى منظمات التجارة التعاونية .

وفيما يتعلق بالبنوك فهى تطبق نظام التوفير وتدفع عنه فوائد بنسبة ٢ فى المائة . وفى عام ١٩٧٢ بلغت ودائع ٨٤٫٤ مليون شخص ما قيمته ٥٣٢٠٠ مليون روبل وذلك بمعدل ٦٣٠ روبل لكل مودع . وقد ذكر لى مواطن سوفييتى ان الأموال هى للانفاق وليس للاكتناز . ويستخدم السوفييت مدخراتهم لشراء السلع المعمّرة كالأثاث وأجهزة البيانو والتليفزيون والدراجات البخارية والسيارات والثلاجات والغسالات ... الى آخره . وقد تنفق هذه المدخرات احيانا للقيام برحلات طويلة . وبما انه فى استطاعة اى شخص الحصول على فائدة من البنك ، فلا يسمح له بمنح قروض لاى فرد بفوائد والملكية الشخصية تورث . وفى حالة وفاة شخص بدون ان يترك له وصية يصبح ورثته — بحكم القانون — اطفاله وأرملته وأبويه . واذا لم يوجد مثل هؤلاء الأقرباء ... يرثه أخوته وشقيقاته واجداده .

الصحة

يقوم النظام الاشتراكى السوفييتى للخدمة الصحية على مبادئ الديمقراطية . فهو فى متناول كل انسان ويقدم خدماته مجانا . وتخصص الدولة اكثر من ٢٠٠ روبل سنويا من اجل توفير الرعاية الطبية لكل عائلة سوفييتية تتألف من أربعة افراد . وهذا يتناقض

تناقضا صارخا مع ما يجرى فى الولايات المتحدة حيث ان الشعب الامريكى – كما تقول الاحصائيات المنشورة حديثا – انفق فى عام ١٩٦٢ ٢٣ ٠٠٠ مليون دولار من امواله الخاصة على العلاج. وقد انفق الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٧٢ اكثر من ١٠ آلاف مليون روبل على توفير الخدمة الصحية العامة بالاضافة الى انفاق ١٩,٩٠٠ مليون روبل لاغراض الوقاية الصحية من ميزانية الدولة المخصصة للرعاية الاجتماعية .

وتمتلك الدولة شبكة متشعبة من المؤسسات الطبية . ويعمل فى العيادات والمستشفيات التى يبلغ عددها ٢٦ ألف عيادة ومستشفى جيش من الأطباء قوامه ٧٠٠ ألف طبيب اى اكثر من جميع الأطباء الموجودين فى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا مجتمعين ويوجد مليونا ممرضة وقابلة ويبلغ عدد كليات الطب ٨٠ كلية . وفى عام ١٩٧٢ بلغ مجموع عدد الاسرة فى المستشفيات ٢,٨ مليون سرير . وعلاوة على كل ذلك ، تقدم للسكان كل انواع المساعدات الطبية ... فكل شخص يستطيع ان يأخذ علاجا كاملا او ان يحصل على استشارة الاخصائى . وتقدم ٣٩ الف عيادة ومستوصف ونحو ٣ آلاف مركز اسعاف الخدمة الطبية للسكان . اما فى المناطق النائية والاماكن التى يتعذر الوصول اليها بوسائل النقل البرية ، فتستخدم فيها طائرات هليوكبتر وطائرات خفيفة معدة اعدادا خاصا لتقديم الخدمات الطبية . ونتيجة لهذه المساعدات الطبية الشاملة ارتفع معدل الاعمار فى البلاد الى ٧٠ عاما بينما لم يكن يتجاوز ٣٢ عاما قبل الثورة . وخلال نصف القرن الماضى انخفضت نسبة الوفيات الى ربع وعشر ما كانت عليه من قبل بين الكبار والاطفال على التوالى .

14—1849

ويعتبر احد السمات الهامة للخدمات الصحية السوفييتية اعتمادها على الاجراءات الوقائية ، فالطبيب لا ينتظر للوقت الذى يشعر فيه المريض بالمرض ويحضر اليه طلبا مساعدته ، ولكن هناك فحصا دوريا للحالة الصحية لكل فرد . ويتم هذا الفحص الوقائى سنويا لنحو ١٠٠ مليون شخص . وتحتفظ كل عيادة بتقرير كامل عن تاريخ الحالة الصحية لكل مواطن تدخل ضمن نطاق منطقته .

وتقدم للمرأة والطفل خدمات متخصصة . والاهتمام بالطفل يبدأ حتى قبل ولادته . ويشرع الاطباء فى مراكز علاج المرأة فى ملاحظة المرأة الحامل قبل وقت طويل من الولادة وهم لا يدخرون وسعا لمنع اية تعقيدات فى فترة الحمل . ويولد جميع الاطفال فى دور الولادة . ومنذ اليوم الذى يغادر فيه الطفل الحديث الولادة دار الولادة يواظب طبيب وممرضة تابعان لعيادة الاطفال على زيارة الطفل بصورة منتظمة وهما يتابعان ملاحظة تقدمه وفحص صحته من شهر لآخر ومن عام لآخر حتى يبلغ الطفل او الطفلة الخامسة عشرة من عمره او عمرها. ويجرى لجميع الاطفال فحص بأشعة اكس كل عام بعد بلوغهم سن السابعة . كما يجرى فحصهم كل ثلاثة اعوام لاحتمال اصابتهم بالسل. ويكلف الاشراف والرعاية الطبية المقدمان للأم ووليدها الدولة نحو ٦٠ روبلا . ويقوم بهذا العمل جيش يتألف من نحو ٣٦ الف طبيب ومولد واكثر من ٧٥ الف طبيب اطفال . وتستوعب دور ومراكز الولادة ٢٢٣ الف من السيدات الحوامل ويوجد للاطفال حوالى ٤٦٠ الف سرير فى المستشفيات السوفييتية . وتبدى الاتحادات النقابية اهتماما خاصا لحماية عمل المرأة الحامل والامهات المرضعات . ويعتبر

من الجرائم فى الاتحاد السوفييتى رفض تشغيل المرأة او طردها من العمل لاسباب الحمل . ومن غير المسموح تشغيل المرأة الحامل او الأم المرضعة فى ورديات ليلية او تكليفها بعمل مقابل اجر اضافى او ايفادها فى مهمات تتطلب السفر . وللمرأة الحامل او المرضعة الحق – اذا ما دعت الضرورة – فى طلب النقل الى عمل اسهل مع الاحتفاظ بنفس مرتبها .

وحيث ان الرعاية الطبية السوفييتية تتركز على الوقاية من المرض فيجرى توفير المصحات التى توفر وسائل الراحة والعلاج للمرضى الذين يعانون من امراض مزمنة وكذلك المرضى فى دور النقاهة وللاشخاص الذين يرغبون فى الجمع بين الراحة مع اتباع نظام اكل خاص او فى الحصول على اى نوع من العلاج يرغبونه . وفى العهد القيصرى كان الذهاب الى مناطق الاستشفاء مقصورا على ملاك الاراضى والتجار واصحاب المصانع ... اى للاغنياء فقط ، وكان الكثير منهم يمتلكون القصور والفيلات المقامة على سواحل البحر . ان كل ذلك واكثر منه اصبح الآن ملكا للشعب . ويقوم على خدمة الشعب العامل فى الوقت الراهن اكثر من ٥ آلاف مصحة ودار للراحة . وتنتشر مؤسسات الاستشفاء – التى يملكها الشعب – والمصحات ودور الراحة والفنادق على سواحل البحرين الاسود والبلطيق وكذلك فى مختلف المناطق ذات المناظر الخلابة فيما وراء جبال كاربات والجمهوريات الواقعة على شواطئ بحر البلطيق وعلى جبال ألطاى وفى الشرق الاقصى وهى موزعة فى جميع انحاء البلاد مما يساعد اكثرمن ١٠,٦ مليون شخص على قضاء فترات الراحة والحصول على العلاج كل عام فى هذه المناطق .



يستجم ملايين المواطنين السوفييت على سواحل البحر الاسود .

وفى عام ١٩٧٢ عالج واستجم ٢٦ مليون شخص فى دور الراحة والمصحات والمصايف والطرق والمراكز السياحية .

وهناك ترتيبات خاصة بالنسبة للمرأة والطفل . فيوجد تحت تصرف المرأة شبكة من مراكز الرعاية الصحية تابعة لاتحادات النقابات ويذهب اليها الملايين من النساء كل عام . وهناك اكثر من مائة مصحة خاصة بالأم والطفل وقد انشأت الاتحادات النقابية ٣٠ مصحة جديدة من هذا النوع فى عام ١٩٧٠ . وتقدم تسهيلات واسعة النطاق لعلاج الاطفال فى المصحات . ووصل عدد المصحات الخاصة بالاطفال الى الف و١٤٦ مصحة وتضم ١٥٥ الف سرير وهى منتشرة فى جميع انحاء الاتحاد السوفييتى . وامضى ما يزيد

على ٥ ملايين من اطفال المدارس عطلاتهم فى ٨ آلاف و٧٧٦ معسكرا صيفيا فى الريف بينما التحق ٧,٧ مليون طفل بدور الحضانة ورياض الاطفال المستديمة . وعلاوة على كل ذلك ، تقام دور الحضانة الموسمية وملاعب الطفولة خلال مواسم الصيف . وقد آوت هذه المؤسسات ٤ ملايين طفل .

نشرت اخيرا مجلة « اوجونيوك » السوفييتية الواسعة الانتشار احصائية طريفة حول ما تتكبده الدولة من نفقات من اجل تقديم خدمة طبية لاسرة احد العمال وتحسين صحة اعضاء هذه الاسرة . واتخذت المجلة مثالا على ذلك ... اسرة فاسيلى كوزنتسوف وهو عامل فى مصنع ليخاتشيف للسيارات ... وحصلت المجلة من العامل التفصيلات التالية :

الزيارات للاطباء	٧٤ روبلا و٧٤ كوبيكا
استشارة بروفيسور	١٢ روبلا
فحص بأشعة اكس	روبلان و ٢١ كوبيكا
اختبارات معملية	١٤ روبلا و٩٠ كوبيكا
رسوم للقلب	روبلان و ٩٦ كوبيكا
حقن المضادات الحيوية والادوية الاخرى	٤٤ روبلا و٦٤ كوبيكا
علاج طبيعى	٨ روبلات و٨٨ كوبيكا
معونة لبطاقة دخول مصحة	٨٠ روبلا و٥٠ كوبيكا
اعداد وجبات غذائية فى مطعم المصنع	٥٢ روبلا

بطاقات لالتحاق الاطفال فى معسكرات الطلائع لثلاث فترات	٢٨٥ روبلا
معونة لالتحاق الطفل الاصغر جنادى فى روضة الاطفال	٧٦ روبلا
الاجور المدفوعة خلال الاجازات المرضية	٥٢٥ روبلا و٧٩ كوبيكا
المجموع	١١٧٩ روبلا و٦٢ كوبيكا.

ويلجأ الاشخاص فى حالات المرض البسيط الى استشارة الاطباء فى العيادات ويتناولون الادوية الموصوفة لهم فى المنزل . واسعار الادوية زهيدة للغاية ويجرى تخفيض اثمانها دائما وباستمرار . وثمن الدواء ــ فى المتوسط ــ ٢٨ كوبيكا وهو يقل بـ ١٢ مرة عن مثيله فى الولايات المتحدة . ويحصل مرضى السل والسكر والروماتزم وبعض الامراض الاخرى على الدواء بدون مقابل .

كانت الرياضة امتيازا مقصورا على الطبقات الحاكمة فى العهد القيصرى ... واصبحت الآن جزءا لا يتجزأ من حياة الشعب السوفييتى ويجرى تنظيم التربية البدنية وممارسة الالعاب الرياضية على نطاق واسع باعتبارهما شيئين متكاملين. ويصل عدد الذين يمارسون الرياضة الآن الى نحو ٤٥ مليون شخص . ويوجد ٤٠٠ الف ملعب رياضى و٤٨,٥ الف صالة رياضية يتبع اغلبها المصانع والمؤسسات الاخرى . ويدرك الشعب ان التربية البدنية امر حيوى للتمتع بحياة طويلة نشطة . وتخصص جميع المصانع والمصالح

فترات استراحة خاصة خلال ساعات العمل لممارسة تدريبات « اللياقة البدنية » وتذيع محطاتها الاذاعية الداخلية الموجهة لعمالها برنامجين احدهما فى الساعة الحادية عشر صباحا والآخر فى الساعة الثانية بعد الظهر ومدة كل منهما خمس دقائق لممارسة التمرينات الرياضية .

والشباب مغرم بالرياضة وتبذل الدولة السوفييتية كل ما فى وسعها لتوفير الرياضة لكل فرد . ويشرف المدربون على تدريب الاطفال ابتداء من سن الرابعة فى رياض الاطفال ، ودروس الرياضة اجبارية فى المدارس والمعاهد . ويستطيع اى انسان ان يلتحق – فى اى وقت يشاء – بالنادى الرياضى الملائم له سواء كان ناديا محليا او ناديا يقع فى محل عمله . وتتحمل الدولة جميع تكاليف التسهيلات الرياضية . ويدفع الرياضيون رسوما اسمية ... ففى مقابل ٣٠ كوبيكا سنويا يتمتع عضو النادى بممارسة هواياته المفضلة فى ملاعب النادى ويستخدم ادواته الرياضية بل له الحق فى التدريب على اى رياضة يهواها ، بما فى ذلك الهوايات الباهظة التكاليف كالطيران وسباق السيارات والتجديف وركوب الخيل . وتقوم النوادى بتغطية جزء من تكاليفها من الدخل الذى تحصل عليه من بيع تذاكر المباريات الرياضية الهامة .

الاسكان

يعيش ٥٧ من كل مائة فرد من سكان الاتحاد السوفييتى فى المدن الكبرى والمدن الصغيرة . ويخص كل فرد من سكان هذه المدن مساحة سكنية تبلغ – فى المعدل ١١,٢ متر مربع وهى تشتمل على حجرات للمعيشة ومطبخ ومدخل صغير وحمام وغير ذلك من المستلزمات السكنية الاضافية .

وكان يسود البلاد – قبل الثورة الاشتراكية – ظلم اجتماعى صارخ فى توزيع السكن . فكان واحد مثل بروخوروف ملك صناعة النسيج يسكن فى منزل يتألف من ٧٤ حجرة بينما لم يكن ٤٣ فى المائة من العمال المتزوجين و٧٠ فى المائة من العزاب فى البلاد يجدون حجرات منفصلة لكل منهم . وكانت حركة بناء المساكن يقوم بها القطاع الخاص ... وبطبيعة الحال كانت تشيد اضخم واجمل المساكن لكى يمتلكها ملاك الاراضى وكبار الموظفين والنبلاء ورجال الاعمال الاثرياء . وكانت الغالبية العظمى من عائلات العمال تكد وتشقى طول الوقت لتحتال على ان تعيش حياة بائسة فى قبو معتم بارد ، وفى حجرات صغيرة وفى المخابئ او فى جزء من حجرة او فى الثكنات المملوكة لاصحاب المصانع . وتظهر الاحصائيات انه فى عام ١٩٠٨ كان ٧٠ فى المائة من العمال غير المتزوجين فى سانت بترسبورج (مدينة لينينجراد حاليا) يستأجرون سريرا واحدا لكى ينام عليه رجلان بالتناوب وان ٤٣ فى المائة من ارباب العائلات كان عندهم سرير واحد للعائلة كلها او جزء من حجرة واحدة .

وحالما تولى الشعب العامل مقاليد السلطة ، سارع الى اعادة توزيع السكن بصورة جذرية فتحولت المساكن ذات الادوار المتعددة – التى كان يؤجرها اصحابها – الى ملكية عامة . وظلت المنازل التى يعيش فيها اصحابها فقط ملكية خاصة . اما القصور والبيوت الكبيرة المؤممة فقد اعطيت للعمال للعيش فيها نظير دفع الايجار . وبدأ تشييد منازل جديدة على نطاق واسع ووفقا لبرنامج للاسكان قامت الدولة بوضعه .

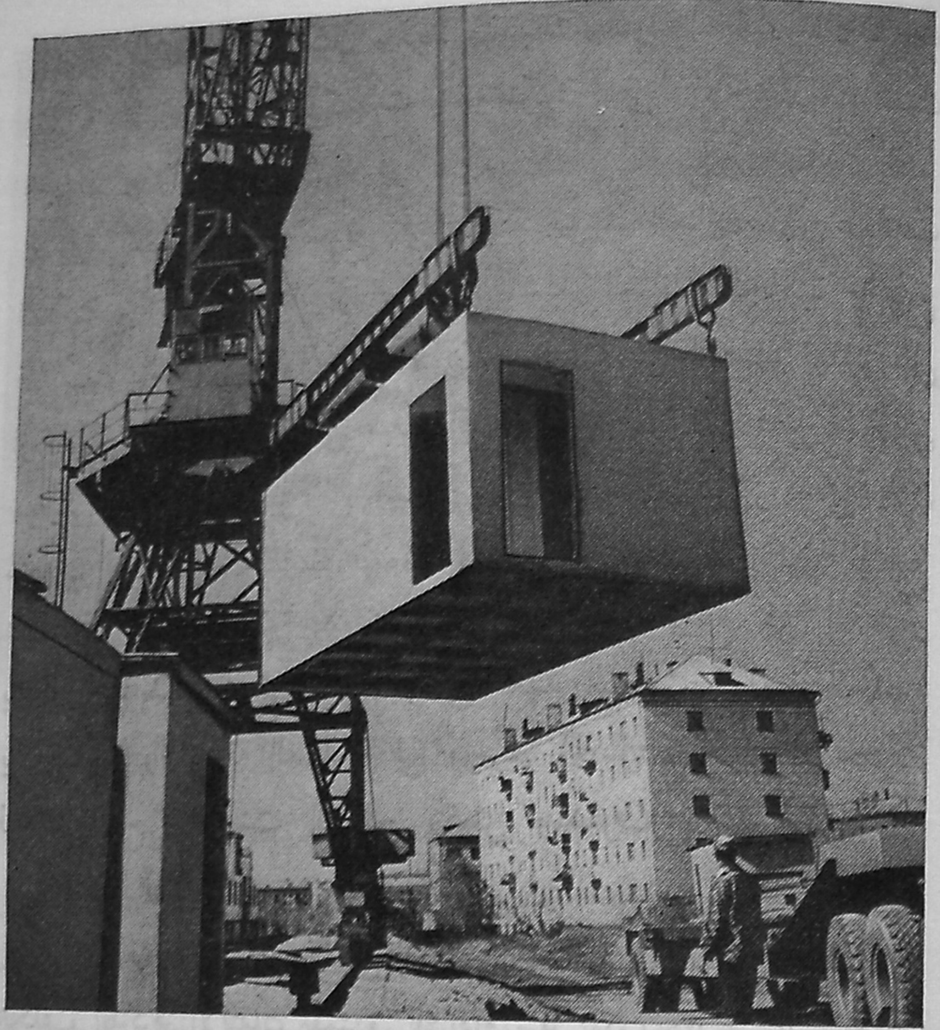
وقد تم بناء ما جملته ٢٦٥٩ مليون متر مربع من المساحات

السكنية فى الاتحاد السوفييتى وذلك اعتبارا من عام ١٩١٨ . وأدى التدمير الذى سببه الاحتلال الفاشستى الى الحاق نكسة كبيرة ببرنامج الاسكان . فكان على الدولة ان تقوم – بعد الحرب – باعادة بناء الف و ٧١٠ مدينة وبلدة وان تشيد منازل من اجل ٢٥ مليون شخص اصبحوا بلا مأوى بعد ان دمر النازيون مساكنهم .

ويشهد كل عام الآن انتقال ١١ مليون شخص الى منازل جديدة . وخلال الفترة من ١٩٥١ الى ١٩٧١ حصل ١٥٧,٥ مليون شخص على سكن جديد وقام ٤٨ مليون شخص بزيادة مساحة سكنهم فى منازلهم القديمة . وكل عام تبنى مليونا و ٣٠٠ الف شقة جديدة فى البلاد .

وتشتمل الشقة النموذجية للعائلة السوفييتية فى الغالب على حجرتين او ثلاث حجرات حسنة التهوية . وتتألف الشقة – فى العادة – من صالة صغيرة فى المدخل ومطبخ تبلغ مساحته من ٦ الى ٧ امتار مربعة وحمام وتواليت وحجرة للمعيشة او حجرات خاصة . ومساحة حجرات المعيشة ٣٠ مترا مربعا ، فاذا ما اضفنا اليها مساحات المطبخ والحمام ... الى آخره تصبح المساحة الكلية ٥٦ مترا مربعا . ولكثير من المنازل شرفات وانابيب للتخلص من النفايات مقامة على السلم . وتوضع المصاعد فى المنازل التى تتألف من اكثر من خمسة طوابق . والمنازل مزودة بانابيب الغاز فى المطابخ ومواسير للمياه الباردة والساخنة . ويتيح نظام توزيع مجمعات المساكن مساحات كبيرة من الاراضى الفضاء والخضرة بين المنازل .

ويبنى الجزء الاكبر من المساكن على حساب الدولة وهى التى تتولى الصيانة . وتشيد نسبة ضئيلة من المنازل على اساس فردى او على اساس تعاونى على نفقة من سيستأجرونها . وفى هذه الحالة



بناء دور السكن من القطع الجاهزة .

توفر الدولة لهم قروضا طويلة الامد . وتعتبر قيمة الايجار فى الاتحاد السوفييتى اقل قيمة فى العالم قاطبة فالايجار لا يزيد عما نسبته من ٤ الى ٥ فى المائة من دخل العائلة . وتضطلع المنظمات الجماهيرية والاتحادات النقابية ومجالس السوفييتات بمهمة توزيع الشقق الجديدة . وهى تسير على مبدأ ان يمنح الاولية الاشخاص الذين يحتاجون الى المسكن اكثر من غيرهم وتعد الحفلات التى تقام

بمناسبة الانتقال الى منزل جديد مناسبات سارة للغاية . فالاصدقاء يقدمون الهدايا والمأكولات ويشتركون فى الاحتفال بالمنزل الجديد .

ويرجع التقدم السريع فى حركة تشييد المنازل الى عمليات الميكنة والاتمتة الشاملة وخاصة الى تشييد المنازل الجاهزة والتوسع فى ذلك باستمرار ويأمل المخططون السوفييت فى القضاء نهائيا على ازمة الاسكان فى البلاد فى ميعاد اقصاه عام ١٩٨٠ . فكل شخص سيعيش فى ذلك الحين فى مسكن مريح . وكان التركيز حتى الآن منصب على الكم والفائدة العملية فى عمليات البناء . الا انه مع ذلك وفى نفس الوقت اخذت النواحى الجمالية توضع فى الاعتبار بشكل متزايد باستمرار . وقد توصل معهد البحوث العلمية الخاصة بالاسمنت والخرسانة المسلحة فى موسكو الى ابتكار طريقة جديدة لزخرفة الواح الاسمنت المسلح بنقوش وزخارف بارزة جذابة .

وسائل النقل

ان تعريفات النقل داخل المدن رخيصة فى الاتحاد السوفييتى . وتكلف تذكرة الانتقال بمترو الانفاق ٥ كوبيكات على جميع خطوطه ... وهذا يعنى ان فى وسع الراكب فى مترو موسكو ان يقطع بهذه التعريفة مسافة تصل الى ١٥٠ كيلومترا هى طول خطوط شبكة المترو الاشبه بشبكة العنكبوت . وتعريفة تذكرة الاتوبيس فى المدينة تكلف ايضا خمسة كوبيكات بالنسبة ايضا لجميع الخطوط ، والتعريفة فى التروللى باس اربعة كوبيكات وهى بالمثل ثلاثة كوبيكات على خطوط الترام . وقيمة الانتقال بالتاكسى ١٠ كوبيكات للكيلومتر . وينتقل يوميا بمترو الانفاق بموسكو ٦,٧ مليون راكب . وفى الوقت الراهن يوجد مترو للانفاق فى خمس مدن هى : موسكو ولينينجراد



الصعود الى الطائرة السوفييتية « ايل – ٦٢ » .

وكييف ، وتبيليسى وباكو . ويشرف مجلس السوفييت المحلى على ادارة شبكات النقل فى المدن . ووفقا للمقاييس السوفييتية المعمول بها فان شبكة النقل قد احسن تنظيمها بحيث لا ينبغى على ساكن المدينة ان ينفق اكثر من ٣٥ الى ٤٠ دقيقة للذهاب من منزله الى محل عمله وان يقطع مسافة تتراوح فى المعدل ما بين ١٥ الى ٢٠ كيلومترا .

وبالنسبة الى شبكة النقل على المستوى القومى تضطلع السكك الحديدية بنسبة ٤٧ فى المائة من حركة نقل الركاب . وتمتاز هذه الشبكة بسرعتها . فالقطار يقطع المسافة بين موسكو ولينينجراد طولها ٦٥٠ كيلومترا فى ٥ ساعات و ٢٠ دقيقة . وقد وجدت عند سفرى فى القطار الليلى جميع الركاب يغطون فى نومهم فى الاسرة التى

زودت بها الدرجات الاولى والثانية بقطارات النوم . ويقتصر الفرق فى الدرجات على نوعيات الوسائد وعدد الاسرة فى كل قمرة . وكانت تعريفة التذكرة فى الدرجة الاولى تبلغ ١٥ روبلا وهى ضعف قيمة الدرجة التالية تقريبا . اما بالنسبة الى السفر لمسافات متوسطة لا تتعدى بضع ساعات ... فتقوم بها قطارات مزودة بكراسى مريحة ذات مساند . ويوجد بقطارات الضواحى والمسافات القصيرة مقاعد خشبية بدون وسائد .

ويسافر ركاب المسافات الطويلة بالطائرات فى الغالب لانها توفر الوقت علاوة على رخصها ايضا فهى تعتبر ارخص تعريفة للسفر بطريق الجو فى العالم . وهى تعادل تقريبا اجور السفر بالقطارات . وخلال الفترة من عام ١٩٦٦ الى ١٩٦٩ بلغ عدد ركاب الطائرات ٢٠٠ مليون شخص وفى عام ١٩٧٠ بلغ عددهم ٧٥ مليون راكب وفى عام ١٩٧١ بلغ ٧٨ مليون وفى عام ١٩٧٢ بلغ ٨٢ مليون راكب اى نحو ثلث تعداد سكان البلاد كلها . والسفر بطريق الجو مفيد للغاية بالنسبة الى المناطق الجبلية والنائية . وتتوفر خدمات جوية فى جميع المدن السوفييتية تقريبا التى يزيد تعداد سكانها عن ٥ آلاف نسمة . وخلال رحلاتى الجوية الى الجمهوريات الآسيوية كنت اجد دائما معى فى الطائرة اعدادا كبيرة من سكان الريف . وحيث ان جميع وسائل الانتقال — فيما عدا السيارات الخاصة — هى ملك للدولة ، فان وسائل الانتقال السوفييتية باكملها تعمل وتتطور وفقا لبرنامج واحد موحد . وبما انه ليس هناك اى مجال للمنافسة ، فلا تنفق الاموال عبثا على انشاء وسائل للانتقال مزدوجة ومتداخلة .

التأمين الاجتماعى

يشعر اغلب الناس فى الدول غير الاشتراكية بقلق ممض على مستقبلهم . فهم ينتابهم القلق — بسبب دخولهم المحدودة — عما قد يحدث لهم ولعائلاتهم فى حالة تعرضهم لاى حادث او عجزهم عن العمل نتيجة للمرض ... كما تقلقهم عدم وجود من يرعاهم عند الكبر ... ان مثل هذه المشكلات قد تلاشت فى ظل النظام الاشتراكى السوفييتى . فالدولة تتدخل وتواجه كل هذه الاوضاع الممكن حدوثها . ويشتمل النظام السوفييتى للتأمين الاجتماعى على عدد كبير من الاجراءات التى تقوم بها الحكومة والمنظمات العامة . ويتضمن هذا النظام منح المعاشات والاعانات وتوفير المصحات ودور الراحة واعالة العجزة مجانا فى بيوت الاعاشة ، كما يتضمن التدريب المهنى وتشغيل المرضى العاجزين وتقديم الاطراف الصناعية والكراسى المتحركة للعاجزين بالاضافة الى العديد من الخدمات المنزلية والترفيهية .

ولا يساهم عمال المصانع والمصالح السوفييت وعمال المزارع الجماعية فى نفقات الاعالة الاجتماعية او التأمين الاجتماعى . فلا يقتطع شىء من اجورهم او مرتباتهم او مصادر دخلهم الاخرى نظير هذه الخدمات . وذلك لان الدولة تأخذ على عاتقها المسئولية كاملة للعناية بالمواطنين العجزة وكبار السن .

وبلغت قيمة المعاشات ٢١,٤ الف مليون روبل من اصل مبلغ ٢٧,٤ الف مليون روبل هى قيمة الاعتمادات التى خصصتها الدولة للانفاق على الاعالة الاجتماعية فى عام ١٩٧٣ . وقد حصل ٤٢ مليون شخص على معاشات ومعونات فى عام ١٩٧٢ . ويستحق

الرجل معاشا فى سن الستين وتستحقه المرأة فى سن الخامسة والخمسين .
وللحصول على معاش ينبغى على الرجل ان يعمل لمدة ٢٥ عاما على الاقل والمرأة ٢٠ عاما . وتخفض هذه المدد بمقدار خمس سنوات فى حالة العمل فى ظروف شاقة مثل العمل فى صناعات قطع الاخشاب والبناء . وتتحدد قيمة المعاش على طول مدة الخدمة . ويتراوح متوسط حجم المعاش ما بين ٦٠ الى ٧٠ فى المائة من الاجر او المرتب . ويسمح للمحالين على التقاعد الاقوياء البنية بالاستمرار فى العمل وفى هذه الحالة فهم يحصلون — بالاضافة الى اجورهم — على نسبة ٥٠ فى المائة من معاشاتهم او ٧٥ فى المائة اذا كان عملهم فى مناطق الاورال وسيبيريا او الشرق الاقصى . ويحصل المحالون للتقاعد الذين لديهم اسرة يعولونها على معونة اضافية مقدارها ١٠ فى المائة من قيمة معاشهم اذا كانوا يعولون شخصا واحدا و١٥ فى المائة اذا زاد العدد الى اثنين او اكثر .

واحيانا يشعر المحال للتقاعد انه لا يستطيع ان يدبر اموره او انه لا يرغب — لسبب ما — فى ان يعيش مع اقربائه . ولمثل هؤلاء الاشخاص انشأت الدولة بيوت الاعاشة حيث يلقى اكثر من ربع مليون من الكهول والذين بلا رفيق كل رعاية . وتقام مثل هذه البيوت عادة فى الضواحى ذات المناظر الخلابة .

ويحق للمواطن السوفييتى ان يحصل على معاش العجز عندما يعجز عن العمل لفترة طويلة او دائمة وتختلف هذه المعاشات حسب السبب الذى ادى الى العجز . فهناك معاشات لمن اصيب خلال العمل او نتيجة لمرض المهنة وهناك معاشات لمن اقعدهم المرض عن العمل ، وتدفع معونات العجز منذ اليوم الاول للاصابة بالمرض حتى اتمام الشفاء الكامل ومن حق العامل الذى اصيب

15*

خلال العمل او من جراء المهنة الحصول على معونة تصل الى نسبة مائة فى المائة من اجره العادى . وتعطى الاصابة الوقتية التى تحدث نتيجة لاسباب اخرى العامل الحق فى معونة تتراوح من ٥٠ فى المائة الى مائة فى المائة من اجره وذلك وفقا للمدة التى قضاها فى عمله . فاذا كان قد عمل لمدة خمس سنوات فمن حقه الحصول على ٨٠ فى المائة ... ويحصل على مائة فى المائة اذا عمل اكثر من ثمانى سنوات . وفى حالة وفاة العامل او المستخدم بسبب اصابته خلال عمله او نتيجة لاحد امراض المهنة تحصل عائلته على معاش بغض النظر عن الفترة التى امضاها فى العمل . والدولة تقدم المساعدات للعائلات التى لديها اطفال مقعدون . وتوفر الدولة لجميع المكفوفين والصم المعاهد الخاصة وكل التسهيلات وهم يحصلون على معاشات ايضا .

وتولى الدولة عناية فائقة للعجزة قدامى المحاربين الذين ساهموا فى الحرب ضد الغزاة النازيين وقدامى المحاربين الذين اشتركوا فى ثورة اكتوبر . وفى عام ١٩٦٣ زادت معاشاتهم زيادة كبيرة مثلما زادت المعاشات التى تحصل عليها عائلات الجنود الذين قضوا نحبهم فى الميدان . وحصل مشوهو الحرب على مزايا جديدة عشية الاحتفال بالذكرى الخمسين لثورة اكتوبر . فقد خفض سن المعاش بالنسبة لهم بمقدار خمس سنوات وطرأت زيادة ضخمة على قيمة معاشاتهم . وكان من نتيجة هذه الاجراءات ان تحسن مستوى معيشة اكثر من ١,٣ مليون من مشوهى الحرب .

ووفقا للبرنامج الذى اقره المؤتمر الرابع والعشرون للحزب الشيوعى السوفييتى لمواصلة رفع مستوى معيشة السكان تمت فى عام ١٩٧١ زيادة الحد الادنى لمعاشات الشيخوخة للعمال والموظفين ،

وامتدت الى عمال المزارع الجماعية ظروف احتساب المعاشات المقررة للعمال والموظفين .

مستوى المعيشة

يقول بعض الاقتصاديين الغربيين ان الآلة اصبحت الاله المعبود فى الاتحاد السوفييتى ... ونتيجة لذلك اهمل كل ما هو طيب فى الحياة . وهذا القول بعيد عن الحقيقة . فالاتحاد السوفييتى كان عليه ان يطور الصناعة الثقيلة فى فترة قصيرة للغاية وفى ظروف بالغة الصعوبة وذلك من اجل ان يكفل له الاستقلال الاقتصادى وان يبنى قدراته الدفاعية . وفى كل هذه الظروف كان من الطبيعى ان يتطور الانتاج الاستهلاكى والخدمات تطورا بطيئا لانه لا توجد المصادر الكافية لعمل كل شىء فى آن واحد . والآن تغير الموقف . فقد تحققت بصورة اساسية الاحتياجات التى كانت تدعو الى تنمية الصناعات الثقيلة . فلاول مرة فى تأريخ الاتحاد السوفييتى وصل معدل النمو السنوى للسلع الاستهلاكية فى عام ١٩٦٨ الى نسبة ٨,٣ فى المائة وهو معدل يفوق معدل نمو السلع الانتاجية حيث ان الاخيرة بلغت ٨ فى المائة . واليوم يحتل المستهلك المركز الرئيسى للاقتصاد السوفييتى . فقد زادت قوته الشرائية بزيادة دخله وفى الوقت نفسه تحققت زيادة مماثلة فى توفير السلع الاستهلاكية له . وحتى اثناء الفترة التى لم يكن فيها الموقف ملائما بمثل هذا القدر ، فقد كانت هناك زيادة مطردة فى توفير السلع الخاصة بالاستعمال الشخصى . ونتيجة لما تحقق من زيادة فى الدخل ، اقبل الناس على شراء الافضل فى طعامهم واحتياجاتهم المنزلية والثقافية . وتوضح الارقام التالية بجلاء هذا الاتجاه :

15—1849

الانتاج بالكيلوجرامات بالنسبة لكل فرد من السكان

	١٩١٣	١٩٥٠	١٩٦٠	١٩٦٦	١٩٧١
انتاج الحبوب	٢٠٠	١٧٢	١٦٤	١٥٤	١٤٩
البطاطس	١١٤	٢٤١	١٤٣	١٣٦	١٢٨
اللحوم وشحوم الخنزير . . .	٢٩	٢٦	٤٠	٤٣	٥٠
الاسماك ومنتجاتها	٦,٧	٧,٠	٩,٩	١٢,٩	١٤,٨
الالبان ومنتجات الالبان (بمصطلحات الالبان)	١٥٤	١٧٢	٢٤٠	٢٥٩	٣٠١
البيض (بالعدد)	٤٨	٦٠	١١٨	١٣٠	١٧٤
الخضروات والبطيخ والشمام . . .	٤٠	٥١	٧٠	٧٢	٨٥
السكر	٨,١	١١,٦	٢٨,٠	٣٥,٣	٣٩,٥

وبينما انخفض استهلاك الحبوب والبطاطس ، حقق استهلاك المواد والمنتجات الغذائية ذات الجودة زيادة مطردة .

استهلاك الملبوسات للفرد

	١٩١٣	١٩٥٠	١٩٦٠	١٩٦٦	١٩٧١
الاقمشة (بالمتر المربع) . . .	١٣,٤	١٦,٥	٢٦,١	٢٧,١	٣٠,٥
الاحذية الجلدية (بالزوج)	٠,٤	١,١	١,٩	٢,٥	٢,٩
الاثواب الجاهزة (بالقطعة)	—	٠,٣	٠,٦	١,٠	١,٩
الملابس الداخلية (بالقطعة) . .	—	٠,٨	٢,٣	٣,٥	٣,٥
الجوارب بنوعيها الطويل والقصير (بالزوج)	—	٢,٦	٤,٩	٥,٥	٥,٧

وقد تزايد بنوع خاص الطلب على السلع المعمرة كما يتبين من الارقام التالية لبيع هذه السلع :

	١٩٥٠	١٩٦٦	١٩٧١
ساعات اليد والحائط	٨,٢٠٠,٠٠٠	٢٣,٧٠٠,٠٠٠	٢٨,٤٥٤,٠٠٠
اجهزة الراديو	٩٩٢,٠٠٠	٤,٩٣٠,٠٠٠	٥,٨٤٦,٠٠٠
اجهزة التليفزيون . . .	١٢,٠٠٠	٣,٨٧٢,٠٠٠	٦,٢٤٤,٠٠٠
الثلاجات	١,٢٠٠	١,٩٦٨,٠٠٠	٤,٢٠٢,٠٠٠
الغسالات	٣٠٠	٣,٥١٨,٠٠٠	٣,٦٨٨,٠٠٠
المكانس الكهربائية . .	٦,٠٠٠	٧٢٠,٠٠٠	١,٢٨٣,٠٠٠
الدراجات والدراجات المزودة بالمتور	٦٨٤,٠٠٠	٣,٩٥٦,٠٠٠	٤,٢١٢,٠٠٠
الدراجات البخارية السكوتيرات	١١٣,٠٠٠	٧١٨,٠٠٠	٩٠١,٠٠٠

ويجرى الآن انتاج السلع الاستهلاكية على نطاق واسع وبانواع اكثر جودة مما كانت عليها من قبل . وينتج ٢٦٠ نوعا من الملابس و ١٣٠ نوعا مختلفا من الاحذية و ٤٥ نوعا من الملابس الجاهزة . وحتى نهاية عام ١٩٧١ كانت كل مائة عائلة سوفييتية تملك ٧٤ جهازا سلكيا ولاسلكيا و٥٨ جهازا للتلفزيون و٣٨ ثلاجة . ومع ذلك فان احتياجات السكان من الاثاث والثلاجات وسيارات الركوب والسلع الاخرى لم يتم اشباعها تماما حتى الآن . وهناك اربع موديلات من السيارات . وطراز «الفولجا» هو اكثرها شعبية ويستخدم كسيارة تاكسى فى الوقت نفسه . وينتج منها سنويا ٧٥٠ الف سيارة . وفى عام

١٩٦٩ انشئ مصنع للسيارات بالتعاون مع شركة « فيات » الايطالية وتبلغ طاقته ٦٠٠ الف سيارة سنويا .

ولا يعانى الاتحاد السوفييتى من التضخم فالدولة السوفييتية تسيطر بصورة كاملة على الاسعار عن طريق الشبكة التجارية التابعة لها وهى تؤثر الى حد كبير على تحديد اسعار السلع التى تباع عن طريق التعاونيات وفى الاسواق . ويتيح استقرار الاسعار لربة البيت ان تخطط لنفقات العائلة مقدما ولفترة طويلة . والاسعار فى الاتحاد السوفييتى رخيصة بالنسبة الى جميع سلع الاطفال تقريبا وسلع النظافة الشخصية والمواد الثقافية والسلع المنزلية . ويباع الكثير من هذه السلع باسعار تقل عن سعر التكلفة وتتحمل الدولة فرق الخسارة . وتباع السلع الاستهلاكية عن طريق شبكة من المحلات يبلغ عددها ٢٠٠ الف محل موزعة فى جميع انحاء البلاد . وهذه المحلات تمتلكها الدولة او التعاونيات . والاستثناء الوحيد لذلك هو الاكشاك التى يبيع فيها المزارعون فائض محاصيلهم من قطع الاراضى المحيطة بمنازلهم وهى فى العادة من الخضروات والفواكه والبيض . وفيما يلى اسعار بعض السلع الشائعة فى عام ١٩٦٩ : كيلو الخبز ١٦ كوبيكا ، وكيلو الارز ٨٨ كوبيكا ويتراوح كيلو اللحم من روبل و٩٠ كوبيكا الى روبلين ، والزبد من روبل و ٩٠ كوبيكا الى ٣ روبلات و ٣٠ كوبيكا والخضروات من ١٠ الى ١٥ كوبيكا ، واللبن ٢٨ كوبيكا للتر وفنجان الشاى بدون لبن ٣ كوبيكات والقهوة بدون لبن ٥ كوبيكات وباللبن ١٠ كوبيكات والحذاء ما بين ١٥ الى ٢٥ روبلا والبدل الرجالى من ٦٠ الى ٩٠ روبلا وبكرة فيلم التصوير ٣٥ مللمترا ٣٥ كوبيكا والاسطوانة بقطر ١٢ بوصة روبلا و٢٥ كوبيكا ، والجيتار ٧

روبلات والقيثارة من ٣٠ الى ٣٥ روبلا وموقد الغاز ١٣ روبلا والمكنسة الكهربائية ١٣,٥٠ روبلا والمسجل ٨٠ روبلا وجهاز التليفزيون ١٦٠ روبلا وجهاز الراديو الكبير ٥٠ روبلا والبيانو ٥٠٠ روبل ومجموعة من الاثاث الحديث تتألف من خزانة للكتب ومائدة طعام بكراسيها واريكة يمكن تحويلها الى سرير ومائدة صغيرة للقهوة وغيرها وذلك فى مقابل مبلغ ٦٤١ روبلا . وتتوفر كل هذه السلع فى المخازن الكبيرة (فيما عدا الاثاث) وهى موزعة فى مختلف الاقسام . وبالاضافة الى هذه المخازن توجد محلات متخصصة لبيع سلع معينة . كما افتتحت محلات الخدمة الذاتية (اخدم نفسك) فى عدد من المدن .

وتسد الخدمات التى توفرها الدولة بعض احتياجات الاسرة باسعار رخيصة للغاية . فسعر الغاز الموصل الى المنازل ١٦ كوبيكا للفرد كل شهر وتكلف المكالمة التليفونية من الاكشاك العامة كوبيكين وتعريفة المكالمة من موسكو الى لينينجراد ١٥ كوبيكا . ولا تفرض ضريبة على اقتناء اجهزة التليفزيون او الراديو . وفى كل بلدة مراكز للتأجير ففى مقابل دفع مبلغ زهيد يستطيع المرء استئجار آلة تصوير او معدات الصيد او قارب هوائى او اكورديون او جهاز راديو او سيارة او غيرها من الاشياء المفيدة .

وفى بيان اصدرته اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى فى مايو عام ١٩٧٠ اعترفت فيه بوجود خلل فى امدادات بعض السلع . فقالت :

« ان الانتاج بالنسبة الى عدد من السلع الاستهلاكية لم يصل بعد الى مستوى الطلب المتزايد . وتتخذ الآن خطوات للقضاء على هذه النواقص من اجل تحقيق رفع مستوى التموين بالسلع والحياة

الثقافية اليومية للسكان . وتعتبر اللجنة المركزية للحزب (الشيوعى) والحكومة السوفييتية انه من الضرورى — عند وضع الخطة الخمسية التاسعة — ان تستهدف الخطة تحقيق المزيد بالنسبة الى رفع مستوى معيشة الشعب السوفييتى على اساس من التنمية المطردة للصناعة الاشتراكية والزراعة » .

الترفيه

ان السعادة الداخلية لشعب ما هى منبع كل مظاهر السرور الذى يتجلى فيما ينتجه هذا الشعب من الاغانى والمسرحيات واللوحات والافلام السينمائية وكذلك الاوقات الحلوة التى تقضى فى احضان الطبيعة ... ان المواطنين السوفييت — وقد تحرروا للابد من هموم المشاكل الاقتصادية — يسعون بالملايين الى التمتع بوسائل الترفيه الراقية فى مختلف المجالات . فيوجد فى الاتحاد السوفييتى ١٣٣ الف ناد ودار للثقافة ويتردد عليها ٣٦٨ الف من مجموعات الهواة واعضاء الروابط لاستخدام التسهيلات المتوفرة بها . وتقدم على مستوى البلاد كلها نحو الف حفلة موسيقية كل يوم . وينظم اتحاد الفنانين السوفييت ٤ آلاف معرض تقريبا كل عام . ويقدم ٦٦ سيركا متنقلا وثابتا حفلات يومية . وهناك ٣٣ سكة حديد خاصة بالاطفال يبلغ طول خطوطها اكثر من مائة كيلومتر ، وهى تنقل اكثر من مليونى طفل كل عام .

وافضل برهان على ما يتسم به الشعب السوفييتى من اقبال على الحياة شغف ابنائه بالقيام برحلات لا تعد ولا تحصى . وقد امضى نيف واربعون مليون سوفييتى عطلاتهم واجازاتهم فى القيام بالرحلات والالتحاق بمعسكرات السياحة والثكنات المعدة لايواء صيادى الاسماك والوحوش .

وعلى مدى العام بطوله تنقل قطارات خاصة هواة الرحلات الى موسكو ولينينجراد وكييف واوديسا وفولجوجراد وكذلك الى المدن الروسية القديمة مثل بسكوف ونوفجورود وفلاديمير وسوزدال وكذلك الى جمهوريات ما وراء القوقاز وآسيا الوسطى .

وبالاضافة الى الرحلات التى تستغرق بضعة ايام ، تقوم بعض القطارات برحلات اثناء عطلة نهاية الاسبوع . فسكان المدن يغادرونها يومى السبت والاحد لقضاء العطلة فى مناطق الاستشفاء . وسكان الريف يفدون الى المدن لزيارة المتاحف والمسارح والمعارض . وتقوم بهذه المهمة قطارات سياحية خاصة تحمل اسماء معبرة مثل « مسرح » و « تزحلق» و « الفطر » و « تساقط الثالج » و « صياد السمك ». وفى استطاعة كل انسان ان يقوم برحلة قصيرة خلال عطلة نهاية الاسبوع يزور اثنائها كبريات المدن فى البلاد .

وينطلق من موسكو وحدها خلال عطلة نهاية الاسبوع قطارات سياحية فى ٩ اتجاهات : الى الفولجا وجوركى وجزيل وكريستى ويحروما واسوفو وغيرها من الاماكن . ويتوجه مئات الآلاف من سائحى عطلة نهاية الاسبوع الى المناطق ذات المناظر الخلابة التى تحيط بموسكو . ويقوم كل العاملين فى المشروعات الصناعية والمصالح والمؤسسات التعليمية برحلات طويلة مشيا على الاقدام . وفى جميع الاحوال يقوم مرشدون بمرافقة السائحين .

ونظمت « ايروفلوت » ـ شركة الطيران السوفييتية ـ اكثر من ٤٠ رحلة سياحية طويلة فى عام ١٩٧٢ . ويستخدم ألوف السياح سياراتهم الخاصة ودراجاتهم البخارية او سكوتيراتهم عند قيامهم برحلاتهم . ويعمل فى البلاد الآن ٦٥٧ مركزا للسياحة وتسلق الجبال وهناك ايضا ١١ الف و ٥٠٠ مركز لتأجير المعدات

السياحية حيث يتوفر للسياح جميع المعدات اللازمة مثل الحقيبة التى تحمل على الظهر والخيام وحقائب النوم واحذية مخصوصة للسير ... الى آخره .

ويعشق ابناء الشعب السوفييتى رحلات السير على الاقدام ... وهناك ما يربو على الفين و ٢٠٠ طريق من هذا النوع ... وهذه الطرق تغطى تقريبا كل الجمهوريات والمناطق والنواحى فى البلاد . ومنها طرق مثيرة عبر الممرات الجبلية فى القوقاز وتيان شان وطرق تقود الى المدن الروسية القديمة فى الشمال وفى جمهوريات البلطيق ... وخلال السير غالبا ما يرددون بصحبة الجيتار الاغانى باصواتهم المفعمة بالحيوية . وهذه كلمات واحدة من هذه الاغانى :

بدون الأغانى تسود البرودة هذه الأرض ،
الأرض المكشوفة تماما لكل الرياح التى تهب .
اننا نهفو الى الأغانى منذ ولادتنا،
ونحن نشب مع الاغانى فى قلوب الرجال .
وما من احد يعرف كيف تولد الاغانى ـ
يسير الجنود فى المدينة ،
ويعزف البعض لحنا ما
وتترنم الفتيات بالاغانى منكسات الرؤوس
واوراق شجر البتولا تتحرك ببطء وتومض بوهن والقلوب تهفو للقلوب
ويخفت الضوء فى السماء باستمرار
وتبدأ اغنية جديدة .
ومثلما تخشخش الغابات ويولد الرجال
ومثل ما يعقب الليل النهار وتتساقط قطرات المطر
ستظل الاغانى تتردد دائما على الأرض
الأغانى التى لم يؤلفها احد وهى من
صنع الجميع .

الفصل السادس

أسرة من الأمم

وسط الصراعات العنصرية المتزايدة التى تجتاح اماكن متعددة فى العالم اليوم وتنشر الدمار والموت على نطاق واسع ... يجىء المثل الملهم الذى يضربه الاتحاد السوفييتى لانه استطاع – لاول مرة فى التأريخ – ان يجعل اكثر من مائة امة وقومية تعيش على اراضيه متآخية ومحققة التقدم كأسرة متحدة من الشعوب . وهذا الانجاز يصبح اكثر روعة اذا لاحظنا انه حدث فى بلد كان نصف سكانه تقريبا من غير الروس – يعانون من الاضطهاد ويفتقرون الى ابسط الاحتياجات والحقوق الاساسية للحياة .

وقد قامت الامبراطورية الروسية عبر فترة امتدت بضع قرون . وهى كانت تتألف من عشرات من الامم بعضها امم كبيرة واخرى صغيرة . ووضعت حكومة القيصر سياستها على اساس من مبدأ تقسيم الامم الى حكام ومحكومين . ولم يطرح على الاطلاق تحقيق اى نوع من المساواة بين هذه الامم . فالقوميات التى تسكن المناطق النائية تحولت الى مجرد توابع تقتصر مهمتها على مد وسط روسيا بالمواد الخام .

وكانت الاغلبية العظمى من سكان الامبراطورية – وهم الفلاحون – يعانون وطأة شظف العيش . ولم يكن فى استطاعة الفلاحين ان يتخلصوا فى يوم ما من عبء ديونهم . وكانوا عبيدا لكل من

سادتهم الاقطاعيين والدولة التى كانت تفرض عليهم ضرائب باهظة . وبلغت الحالة بفقراء الفلاحين الى حد انهم كانوا يجبرون على ايدى جامعى الضرائب المحليين على بيع زوجاتهم وبناتهم سدادا لديونهم . وكثيرا ما كان مئات الالوف من الفلاحين يفلسون ويفقدون ما يملكون من قطع الاراضى الصغيرة. ولم يكن امامهم لكى يعيشوا – باى شكل – الا ان يستأجروا الاراضى ويقبلوا ان يعطوا ملاك الاراضى حصة من المحاصيل قد تصل الى ثلاثة الارباع . وكان الفقر وانعدام تسهيلات التعليم والمساعدات الطبية يجعلان حياتهم فى غاية البؤس . وعمدت حكومة القيصر الى تأجيج التعصب القومى لاحكام سيطرتها . وكان محكوما على الشعوب الكادحة فى المناطق النائية ان تعانى من الفقر والجوع والجهل والنزاعات القومية والحكم التعسفى بل كان محكوما عليها – احيانا – ان تفنى .

وكانت الاراضى الغنية بالمصادر الطبيعية تباع وتؤجر للرأسمال الاجنبى . وكان عمال المصانع يعيشون حياة بائسة للغاية . فيوم عملهم يتراوح ما بين ١٧ الى ١٨ ساعة وكانت اجورهم هزيلة بدرجة انها كانت لا تكاد تكفى مجرد الطعام . وفى مناطق الشرق النائية كان الطعام بالنسبة للفرد الواحد يكلف ٨ روبلات قديمة شهريا بينما كان الأجر السنوى للرجل لا يتعدى ٨٦ روبلا قديما واجر المرأة ٥٦ روبلا قديما والصبى ٣٣ روبلا قديما . وكان من نتيجة ذلك ان زادت العبودية عن طريق الديون واصبح العامل – فى واقع الامر – عبدا لصاحب العمل . وكانت حياة الشخص العادى فى سيبيريا شيئا لا يمكن احتماله . فقد استغل رجال الاعمال واصحاب المشروعات تخلف السكان المحليين لتكوين ثروات هائلة عن طريق مقايضة الخرز والحلى التافهة القيمة والملح

وادوات الصيد مقابل اخذ الذهب والفراء الثمين والاحجار النادرة من السكان المحليين .

وعلاوة على الاستغلال الاقتصادى كان الحكم القيصرى ينتهج سياسة الاضطهاد وخنق الثقافات القومية للسكان المحليين ومنع استخدام اللغات الوطنية وان تحل محلها بطريق القسر اللغة والثقافة الروسيتين .

وكانت هذه الامم فى نظر القيصر والحكام فى ذلك العصر مجرد اقليات قومية وزنادقة . كما كانت تتعرض للاحتقار والمطاردة لاى ذريعة بسيطة حتى بسبب المعتقدات الدينية المختلفة عن مذهب الكنيسة الارثوذكسية الروسية . وكان الاضطهاد بسبب المعتقدات الدينية من الامور المألوفة وكانت الحكومة تباركه رسميا لانها كانت تعترف فقط بالكنيسة الارثوذكسية ككنيسة للدولة . وكانت مذابح اليهود تعتبر هى ايضا امرا عاديا للغاية . فمعاداة السامية كانت جزءا من سياسة الدولة .

وجاءت ثورة اكتوبر الاشتراكية ووضعت حدا — والى الابد — للاضطهاد القومى واللامساواة . فلم تمر تسعة ايام بعد قيام الثورة ، الا واصدرت حكومة العمال والفلاحين « البيان حول حقوق الامم فى روسيا » الذى اعلن عن مساواة جميع الشعوب فى البلاد ، وحقها فى الحرية وتقرير المصير بما فى ذلك حق الانفصال وتشكيل دول مستقلة . كما اعلن الغاء جميع الامتيازات التى تقوم على اساس الانتماء الى امة ما او دين ما . كما الغيت جميع انواع القيود وكفلت حرية التطور لجميع الـ ١٣٠ امة وقومية التى تقطن روسيا بما فى ذلك اصغر هذه القوميات حجما .

ووجدت افكار الاخاء والوحدة والعون المتبادل وهى التى

اعلنتها ثورة اكتوبر ... وجدت التجسيد العملى لها فى تعاون الشعوب الشقيقة . فقد تقرر فى اوائل العشرينات ان يعاد بناء معامل النسيج فى ارمينيا . وكانت البلاد فى ذلك الحين يسودها الخراب وتعانى كثيرا من المجاعة والفقر . ولم تكن المعدات متوفرة ولهذا فقد احضرت الانوال والآلات الى ارمينيا من احد مصانع النسيج بالقرب من موسكو .

وفى عام ١٩٢٤ ، اعفى من دفع الضرائب العامة على مدى بضع سنوات سكان الريف فى آسيا الوسطى وجمهوريات التتار وتشوفاش ومارى وكالميك ذات الحكم الذاتى والتى كانت اكثر تخلفا من الناحية الاقتصادية عن بقية البلاد الاخرى . وفى الوقت نفسه خصصت اموال اضافية وموارد مادية فى ميزانية الدولة لمساعدة هذه الجمهوريات المتخلفة فى التغلب على تأخرها الاقتصادى . وهذا ما ترجع اليه المعدلات العالية لتطور جمهوريات آسيا الوسطى وفيما وراء القوقاز . فبينما تزايد الانتاج الصناعى لروسيا الاتحادية ٦٧ مرة خلال ٥٠ عاما ، تزايد هذا الانتاج فى قرغيزيا ١١٧ مرة وفى كازاخستان ١٠١ مرة وفى ارمينيا ١١٩ مرة وفى مولدافيا ٩٩ مرة .

واقترن ذلك بمنح جميع الشعوب التى تقطن اراضى الامبراطورية الروسية السابقة الحق فى تطوير ثقافتها القومية وشجعت على ذلك . وكانت الخطوة الاولى فى هذا السبيل ان افتتحت المدارس التى يجرى فيها التدريس باللغة القومية . وكان لدى المدارس الروسية خبرة سابقة للاسترشاد بها ، الا ان المدارس التى افتتحت للشعوب غير الروسية كان عليها ان تبدأ من نقطة الصفر . وكانت ٤٠ قومية محرومة من لغة الكتابة ... ولهذا فقد شكلت لجنة لوضع حروف ابجدية لهم .

واوفد المدرسون والاساتذة الروس الى طشقند ، وشحنت ٦ قطارات بالمعدات العلمية والاجهزة والكتب . وتم كل ذلك اثناء اندلاع الحرب الاهلية وكان الاقتصاد فى حالة انهيار والشعب يعانى من الجوع . وعلى الرغم من كل ذلك ، قدمت الدولة الاجهزة اللازمة لاول مؤسسة تعليمية عالية تقام فى آسيا الوسطى . وفى ذلك الحين كانت القطارات تقطع المساحة من موسكو الى طشقند فى ٥٢ يوما (وهى الآن تقطع المساحة عينها فى ٥٢ ساعة فقط). وفى خريف عام ١٩٢٠ ، بدأ ٤٨٠ طالبا دراستهم فى الاقسام الثمانية الاولى من الجامعة . والآن يدرس زهاء ١٥٥٠٠ طالب ينتمون الى ٤٠ قومية فى جامعة طشقند .

وقد تزايد عدد الطلبة فى مدارس التعليم العام على مستوى الاتحاد السوفييتى كله ٥ مرات بالمقارنة الى فترة ما قبل الثورة ، ولكن فى طاجيكستان بلغت الزيادة ٢٠٢٥ مرة ، وفى اوزبكستان ١٨٨ مرة ، وفى قرغيزيا ١١٤ مرة تقريبا ، وفى تركمانيا ٨٣ مرة وفى كازاخستان اكثر من ٣١ مرة وفى اذربيجان وارمينيا نحو ١٩ مرة . ويجرى التعليم فى الاتحاد السوفييتى بـ ٥٩ لغة . وقبل الثورة كان عدد الطلبة فى اوزبكستان ١٨ الف طالب وبلغ عددهم الآن اكثر من ٣ ملايين و ٤٠٠ الف طالب . والارقام المقابلة هى بالنسبة الى قرغيزيا كان العدد ٧ آلاف واصبح الآن ٨٠٠ الف تقريبا. وبالنسبة الى طاجيكستان كان ٤٠٠ واصبح ٨١٠ آلاف . وبالنسبة لارمينيا كان ٣٥ الف واصبح اكثر من ٦٦٧ الف . وفى مجموع عدد عمال البحث العلمى على مستوى البلاد وهم اكثرمن مليون شخص ، تبلغ نسبة غير الروس منهم ٣٣ فى المائة . ويتألف الاتحاد السوفييتى كدولة فيدرالية اشتراكية من ١٥ جمهورية اتحادية . وتستخدم

جميع اجهزة الدولة ومؤسساتها فى كل من هذه الجمهوريات لغتها القومية . واصبحت اللغة الروسية بدورها اللغة المشتركة او حلقة الوصل فى كل البلاد . ويقطن فى بعض الجمهوريات الاتحادية ـ علاوة على سكانها الاصليين ـ شعوب اخرى شكلت بناء على رغبتها ٢٠ جمهورية تتمتع بالحكم الذاتى ، ٨ مناطق ذات حكم ذاتى و١٠ دوائر قومية . وتتمتع جميع الجمهوريات بحقوق متساوية وما من جمهورية واحدة تملك امتيازات سياسية او تشريعية على غيرها من الجمهوريات . ويعكس مجلس القوميات ـ وهو احد المجلسين ذوى الحقوق المتساوية الذين يتألف منهما مجلس السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتى يعكس التشكيل القومى للبلاد . فقد خصص ٣٢ مقعدا لنواب روسيا الاتحادية التى يبلغ تعداد سكانها ١٣٠ مليون نسمة ... وفى الوقت نفسه خصص نفس العدد من المقاعد لجمهورية استونيا الصغيرة الحجم والتى يزيد تعدادها قليلا عن مليون . ولجميع الجمهوريات عدد متساو من المقاعد فى هذا المجلس .

جمهوريات آسيا

تقع ثمان من الجمهوريات فى الجزء الآسيوى من البلاد ، ولا يمكن تقدير التقدم الجبار الذى تحقق فى هذه المنطقة الا بتذكر ايام العهد القيصرى الماضية . ففى ذلك العهد تعرضت شعوب هذه المناطق ـ لانها غير روسية ـ لاستغلال بشع من جانب الحكومة . وكانت الظروف السائدة على مناطق آسيا الوسطى اسوأ من ذلك . فقد اضطهدتهم الكنيسة الروسية الارثوذكسية المسيطرة لاعتناقهم الاسلام . ونهبهم ايضا الاسياد الاقطاعيون المحليون . وكان على

رأسهم امير بخارى الذى عاش حياة مترفة على حسابهم . وكان الناس البسطاء يعيشون فى فقر مدقع . فمساحات شاسعة من اراضى المنطقة – تصل الى ثلاثة ارباع المساحة الكلية كانت عبارة عن صحارى وبرارى قاحلة . وكان الاسياد الاقطاعيون يسيطرون على معظم الاراضى الزراعية وكذلك على المياه القليلة المتاحة للرى من بعض الآبار المتناثرة وعدد قليل من الانهار . وكانت الامية منتشرة بشكل يكاد ان يكون شاملا .

وجاءت الثورة الاشتراكية وغيرت كل شىء فى وقت قصير اشبه بما يحدث فى المعجزات . وبدأت معجزات التقدم تتوالى وتمس جميع جوانب الحياة . وفى اعقاب الثورة اصدرت الحكومة السوفيتية نداء موجها « الى المسلمين الكادحين فى روسيا والشرق » جاء فيه :

« انتم – من الآن وصاعدا – لكم مطلق الحرية فى ممارسة معتقداتكم الدينية واعاداتكم . ان مؤسساتكم القومية والثقافية حرة ومصانة . نظموا حياتكم القومية بحرية وبدون عراقيل . ان هذا هو حقكم . وتذكروا ان حقوقكم ، مثلها مثل حقوق جميع شعوب روسيا ، تحميها بكل قواها ، الثورة واجهزتها الحكومية – وهى مجالس العمال والجنود والفلاحين » .

ونظمت الزراعة الحديثة من اجل الشعوب المحررة وشقت القنوات وبدئ فى تنفيذ المشروعات الهندسية المائية الضخمة . وبدأت الصناعات على نطاق كبير . واقيمت المدارس والكليات والمستشفيات باعداد كبيرة . واليوم فجمهوريات آسيا الوسطى الاربعة – وهى طاجيكستان واوزبكستان وتركمانيا وقرغيزيا – والتى يبلغ تعداد سكانها نحو ٢١ مليون نسمة ، فاقت كثيرا دولا مثل

الولايات المتحدة ، واليابان ، وفرنسا ، وايطاليا ، والمانيا الغربية من حيث عدد الطلاب لكل ١٠ آلاف شخص . فلم يكن يوجد قبل الثورة كلية واحدة فى هذه الجمهوريات والآن يزيد عدد كلياتها عن المائتين . وتحتاج الصناعة والزراعة الميكانيكية الى مهندسين زراعيين واطباء بيطريين وعمال مهرة على اختلاف انواعهم . وهكذا اصبح ابن الفلاح مهندسا وابنة الراعى طبيبة والجمال سائق جرار .

طاجيكستان

نزلت من الطائرة وفى ذهنى تدور مثل هذه الافكار فى دوشانبيه – عاصمة جمهورية طاجيكستان التى يبلغ عدد سكانها ٣ ملايين نسمة . وخلال لقائى فى اليوم التالى مع موسى راجابوف نائب عميد معهد دوشانبيه التربوى حصلت على احدث المعلومات الخاصة بتدعيم اواصر العلاقات الثقافية . وقد ذكر لى ان مؤلفات رابندرانات تاغور ترجمت الى اللغة المحلية وتنشر تباعا فى تسع مجلدات . وقد صدر منها حتى الآن مجلدان ببلغ عدد نسخهما ٦ آلاف وقد نفدت جميعها «ولا توجد الا على ارفف خزائن الكتب فى بيوت ابناء الجمهورية ». وترجمت ايضا مؤلفات برمتشاند . وقال راجابوف انه شغف على نحو خاص بموضوع « جورا » لربندرانات وتحدث عنه بصورة خاصة . كما اعرب عن تقديره للافلام الهندية ذات الطابع الواقعى مثل فيلم بيمال روى « دو بيجا زامين » («هكتاران من الارض») الذى عرض فى دور السينما بالجمهورية. واخبرنى انهم يستعدون لاقامة معرض «الثقافة الهندية » فى طاجيكستان والمقرر له ان يتم خلال شهر واحد .

وسألته « وماذا عن الشباب ؟ هل انت راض عنهم ؟»

واجاب بقوله « ليس لدى ما اشكو منه . انهم يتطورون فى الطريق السليم . ونحن نقول لهم « ادرسوا ! ادرسوا ! ادرسوا ! » ونؤكد لهم انه كلما انتشر التعليم ، كلما تعاظم تقدم الاشتراكية . وقد تخرج حتى الآن من المعهد التربوى ٢٠ الف مدرس ». وعندما ابديت ملاحظة عارضة باعجابى بالالوان الشرقية وعادات اللبس لدى الناس . ابتسم محدثى قائلا « ان الالوان ينبغى ان تكون فى الداخل ايضا ».

وفى مساء اليوم نفسه اجتمعت مع نائب مدير اذاعة طاجيكستان واعضاء اتحاد الصحفيين فى الجمهورية واحد الكتاب البارزين الذى ترجم عددا من الكتب الهندية . وتبادلنا المعلومات بشأن الصحافة وتناقشنا حول التقدم الثقافى الذى تحقق فى الجمهورية . وتكلم الجميع باخلاص وبلهجة بعيدة عن الطابع الرسمى . وقال رئيس رابطة الصحفيين انه رئيس تحرير صحيفة ولم يكن ابوه يحلم بان يتحقق ذلك لانه لم تكن هناك اية صحف على الاطلاق قبل الثورة ولان الحديث قد تطرق لامور شخصية ، فقد اندفع بطريقة عاطفية واخبرنى ان اخاه لديه عشرة اطفال وان لديه هو شخصيا ١١ طفلا . ومع ذلك فهو قادر على اعالتهم كلهم بفضل النظام الاشتراكى . واخبرنى الصحفيون ان نصف تعداد الجمهورية من الطاجيك والربع من الاوزبكيين ونحو ١٣ فى المائة من الروس . ولهذا فهناك ثلاث جرائد يومية تصدر بثلاث لغات . وبالاضافة الى ذلك تصدر فى الجمهورية ٢٦ صحيفة ومجلة اخرى . ورجانى رئيس تحرير احدى الصحف اليومية ان اوقع على رسالة بمناسبة الاحتفال « بيوم الصحفيين » الذى سيحتفلون به فى الاسبوع القادم . وتجرى ترجمة للكتب الهندية وتقوم مجلة « صوت الشرق »

16—1849

بنشرها مسلسلة بصورة منتظمة . وكثيرا ما تذاع ترجمات درامية لهذه الكتب فى الاذاعة والتليفزيون الطاجيكيين .

لقد شاهدت عددا من المدارس فى الجزء الاوربى من الاتحاد السوفييتى ، الا اننى ضمنت برنامجى القيام بزيارات للمؤسسات التعليمية فى الجمهوريات الآسيوية حيث ان الظروف كانت جد مختلفة هنا فى الماضى . لم يكن قبل الثورة فى طاجيكستان ، فى عام ١٩١٦ ، الا واحد متعلم من كل ٢٠٠ شخص . وكان عدد المدارس عشرة ومجموع طلابها ٣٦٩ طالبا ولم تكن بينهم فتاة واحدة . وكانت هذه المدارس متخلفة سواء المدارس الدينية المقامة فى المساجد او المدارس التى يتعلم فيها الروس لان كل مدرسة كان بها مدرس واحد فقط . واليوم توجد اكثر من ٣ آلاف مدرسة للتعليم العام يبلغ عدد تلاميذها اكثر من ٨٠٠ الف طالب وهناك ايضا اكاديمية للعلوم و ٦١ مركزا للابحاث العلمية وبضعة كليات .

وفى دوشانبيه ، التقيت بمديرة احدى المدارس التى تطبق نظام العشر سنوات وهى المدرسة رقم ٣٤ . وهذه المديرة سيدة فى اوائل الخمسينات من عمرها . وتضم المدرسة الف و ٥٠٠ تلميذ اكثر من نصفهم من الفتيات . وشرحت المديرة لى بصبر وعلى مدى ساعة كاملة كيف تقوم بتوجيه الدراسة فى مدرستها بما فى ذلك النشاط الثقافى . وبحنان الام ، تحدثت بحرارة جياشة عن الاطفال الصغار الذين يمكثون فى المدرسة اليوم بطوله وهم يلقون عناية افضل ويتناولون طعاما احسن مما قد يتوفر فى بيوتهم . وهؤلاء الاطفال ينتمون لاسر تضم ٨ او تسع اطفال . وعندما دخلت الصف العاشر سألت فتاتين عن المواد التى اختارتاها لدراستهما الجامعية ومستقبلهما الدراسى . وكانت اجابتهما حاضرة. فقالت الفتاة الاولى

انها اختارت كلية الطب واخبرتنى الثانية – لدهشتى وسرورى – انها ستختار اللغة الهندوكية موضوعا لدراستها وعلى الفور تذكرت اجابة طالبة فى معهد اللغات الاجنبية تدرس اللغة الانجليزية بانها اختارت هذه اللغة بعد ان اعجبت بها خلال ايام دراستها فى المدرسة بفضل اعمال شكسبير التى قرأتها مترجمة الى الروسية .

وعند مغادرتى ، قدم لى كبار الطلبة بعض الفواكه المجففة والزهور وكتاب عن تحرير طاجيكستان وكانت على غلافه صورة تمثل تحطيم الاغلال . واهدانى احد المدرسين قبعة ذات طابع خاص من النوع الذى يرتديه السكان المحليون .

وكان برنامجى بعد ذلك يتضمن زيارة لمزرعة تعاونية واخرى لاحد المصانع للتعرف على كيف يعمل الناس فى مناطق آسيا . وطاجيكستان جمهورية صغيرة الحجم ولهذا فلم اضطر للذهاب بعيدا لمشاهدة المزرعة . وتحمل المزرعة اسم « مزرعة لينين التعاونية » وقد انشئت فى عام ١٩٥٠ وتبلغ الآن مساحتها ٣ آلاف وخمسة افدنة وهى تضم ٣٣ مزرعة جماعية صغيرة . ونتيجة لذلك يوجد لدى المزرعة اليوم ١٠٥ جرارات وآلات حاصدة ودارسة و ٤٥ سيارة نقل و بولدوزران . ووزعت كل هذه المعدات على ثلاث مراكز فى المزرعة من اجل تشغيلها بصورة افضل .

وكان ينتظرنى عند وصولى الى المزرعة رئيسها ومعه سكرتير المنظمة المحلية للحزب الشيوعى ورئيس السوفييت المحلى . وعندما ذكرت لهم اننى اود ان اقوم بجولة فى المزرعة للتعرف على ما فيها ... ابتسموا جميعا وقالوا « طبعا ولكن دعنا اولا نتناول فنجانا من الشاى ونتحدث معا فى المكتب » وكان حقيقة مكتبا ذلك الذى قادونى اليه: ففيه مائدة طويلة ضخمة مغطاة بمفرش من المخمل

الاخضر . وعلى جانبيها وضعت الكراسى . وكان بالحجرة ايضا ثلاث ارائك كبيرة . وعلى الحائط علقت صورة نصفية ضخمة للينين . وعلى مكتب رئيس المزرعة جهازان للتليفون وحامل به عدد من اقلام الرصاص ذات الرؤوس الحادة ومن بينها اقلام ذات اللون الازرق والاحمر . ان كل ذلك اشياء لم اكن اتوقعها فى مثل هذه المزرعة . وهكذا بدأت سؤالى الاول « لماذا تليفونان ؟» وقيل لى ان احدهما من اجل الخط الذى يربط المزرعة بالمدينة والثانى للاتصالات الداخلية للمزرعة .

وبعد ذلك سرد لى رئيس المزرعة طائفة من التفصيلات :

المزروعات الحالية للمزرعة هى على النحو التالى : خضراوات على ٢٠ فدانا ، قطن على الف فدان ، قمح الف فدان ايضا ، فواكه ٣٠٠ فدان . الارض المراحة اى التى تترك بدون زراعة ٣٥٠ فدانا . هناك ٤ حظائر للماشية . والدخل يوزع كالتالى : يخصص ٦٠ فى المائة منه للاجور والاربعون فى المائة المتبقية من اجل البذور والابحاث وشراء الآلات وتغطية التسهيلات الثقافية للاعضاء وكذلك للانفاق على الاحتياجات الضرورية الاخرى ويوجد بالمزرعة مدرستها العامة التى تشمل ٧ صفوف وعدد تلاميذها كبير نسبيا لان عائلات المزرعة لديها فى المتوسط ٨ اطفال . وكان رئيس المزرعة شخصا ظريفا واجتماعيا فقد ذكر ان بالمزرعة ٨ امهات انجبت كل منهن اكثر من ١٠ اطفال وحصلن على لقب « البطلة » وليس ازواجهن الذين لم يعترف بهم « كابطال ». ويقل عدد اعضاء التعاونية من النساء عن النصف بقليل :

وكانت حياة رئيس المزرعة – كما علمت من الآخرين – مثيرة للغاية . فقد اكمل دراسته منهج العشر سنوات فى عام ١٩٦٣

وهو فى سن كبيرة جدا . وعندئذ اوفده اعضاء المزرعة للدراسة لمده ثلاث سنوات لتلقى تدريب خاص على ادارة المزارع الجماعية وعلى الزراعة . وبعد اتمامه للدراسة انتخبه اعضاء المزرعة رئيسا لهم الا ان ذلك لم يكن نهاية المطاف لحياته « كطالب » وهو الآن ، وعمره ٤٤ عاما ، يدرس بالمراسلة فى الصف الثانى للمعهد الزراعى حيث تستمر دراسته لمدة خمس سنوات . ويتلقى ابنه نفس المنهج ، الا انه — على عكس ابيه — طالب منتظم فى المعهد نفسه . وبينما رئيس المزرعة من الطاجيك فكبير المهندسين فيها من الاوزبك ورئيس الميكانيكيين من الروس . وهناك ١١ من التركمان اعضاء فى لجنة ادارة المزرعة ويحصل عضو المزرعة — فى المتوسط — على ٩٠ روبلا شهريا ، يضاف اليها مبلغ ٩٠ روبلا آخر وهو دخله من قطعة الارض التى تحيط بمنزله . ويمتلك ٦٨ عضوا سيارات خاصة ويمتلك ٢٠٠ عضوا دراجات بخارية . وفى كل منزل تقريبا يوجد جهاز للتليفزيون وآخر للراديو . وسألت الرئيس كيف يحدث ان يترك المزرعة بعض ابنائها ويتوجهون الى المدينة للعمل فى وظائف بمرتبات تتراوح من ١٣٠ الى ١٤٠ روبلا مضحين بذلك دخلا مقداره ١٨٠ روبلا . وعندئذ ابتسم الرئيس قائلا ان الذين يغادرون المزرعة هم من الشبان وهم يفضلون التسهيلات الثقافية التى توفرها المدينة .

وان اكثر ما ترك فى نفسى انطباعا حسنا عند تجوالى بالمزرعة كان محطات الآلات ، والنادى ومنازل الفلاحين . فلدى محطات الآلات ورش منظمة بها اقسام منفصلة لتصليح السيارات واللحام والخراطة والكهربة والنجارة . ويحتل النادى قاعة فسيحة تعرض بها بانتظام الافلام والمسرحيات والكونسرتات . وتنقل اتوبيسات المزرعة

الناس الذين يعيشون فى الاماكن البعيدة الى النادى . وتملك ادارة المزرعة ثلاث سيارات لاستخدامها الخاص . وعندما زرت بيوتا لبعض اعضاء المزرعة وجدت انها اكبر حجما من شقق المدن . واول منزل زرته كان خاليا من الرجال . وقد حيتنى ربة المنزل وقادتنى الى الداخل . وارادت ان تجهز لى فنجانا من الشاى الا اننى اعتذرت برقة لاضطرارى للانصراف بسرعة . ان ذلك يظهر مدى التغير الذى حدث . فقبل الثورة كانت المرأة التى تكشف قناعها وتتحدث مع اى شخص غريب ، كانت تتعرض لاعتداء الرجال باعتبارها مجرمة بل انها احيانا قد تقتل نظير فعلتها . ولم يكن يبدو على مظهر المنازل او فى ديكوراتها الداخلية اى من مظاهر سمات الريف . فالمنازل مفروشة بالاثاث وبها جهاز للراديو والصور تزين الجدران وهناك ايضا جهاز للتليفزيون . وكان هناك فى منزلين من المنازل الخمسة التى دخلتها اجنحة اضافية مفتوحة من الداخل وبنيت فى اطراف المنزل . وعند مغادرتى المزرعة فى الساعة السابعة مساء اعتذرت لرئيس المزرعة عن الوقت الذى اخذت منه . فاكتفى بالضحك واردف قائلا « ان على الآن ان اعمل حتى منتصف الليل فهناك اشخاص ينتظرونى لتلقى تعليماتى للغد » . وانه لامر مجدد للنشاط — سماع مثل هذا القول الذى ينطوى على بساطة مطلقة بدلا من المجاملات .

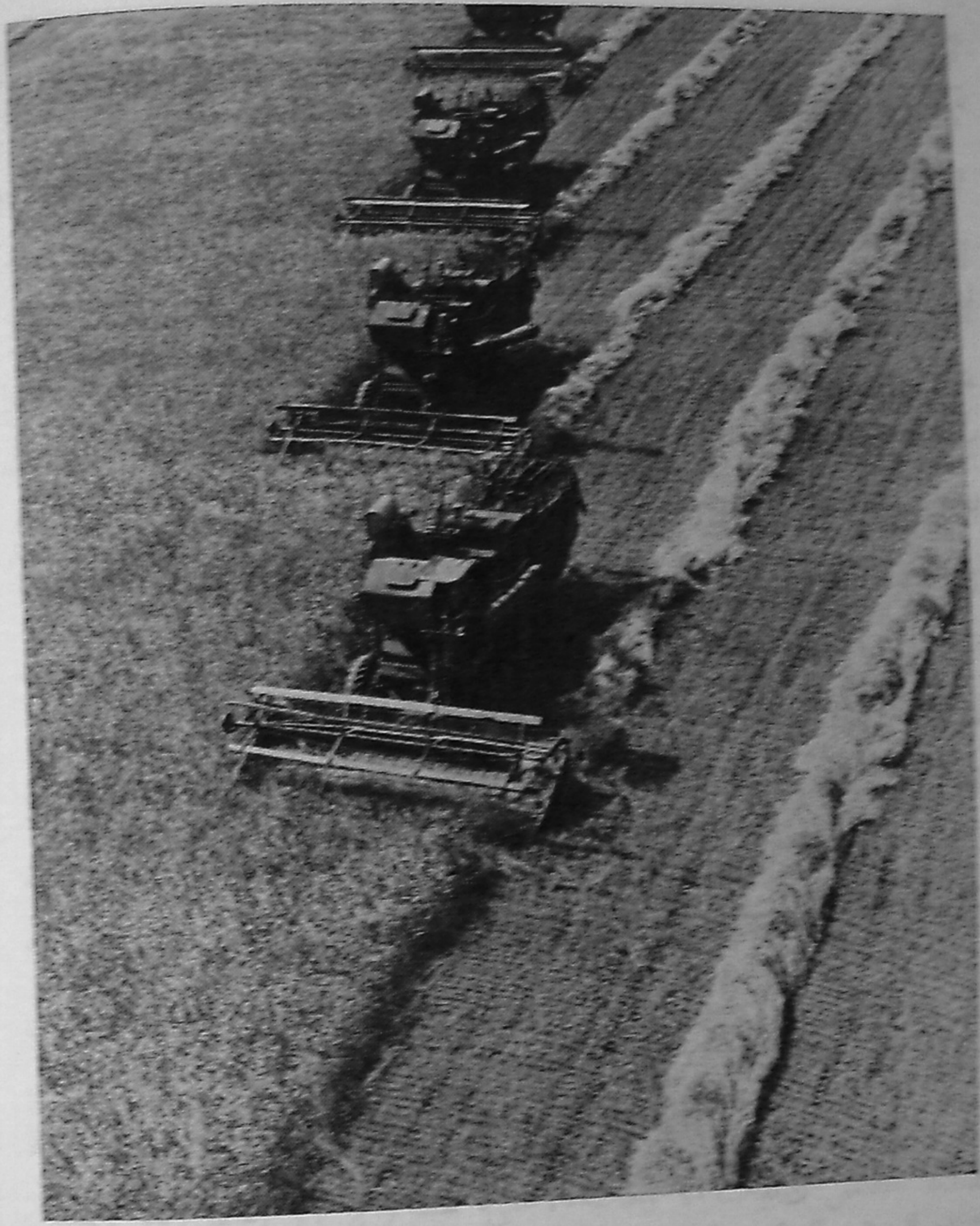
وعندما زرت مصانع النسيج الطاجيكية وجدت ان عمالها البالغ عددهم ١٠ آلاف عامل ينتمون — مثلما كان الحال فى المزرعة — الى مختلف القوميات وقد بلغ عددها فى هذا المصنع عشرين قومية . فرئيس المهندسين اوكرانيى من كييف . وسرد على مسامعى تأريخ المصنع . فقد كانت منسوجات القطن فى طاجيكستان

قبل عام ١٩١٧ تنسج على انوال يدوية . وفى عام ١٩٤٢ بدأ انتاج هذا المصنع . وكانت طاقته السنوية فى البداية تبلغ ٤٠ الف بالة قطن من القماش الخشن المستخدم فى التغليف وملاءات الاسرة وغير ذلك . وخلال سنوات الحرب انتج المصنع القماش لسد احتياجات الجبهة . ومنذ عام ١٩٥٠ وصاعدا اخذ المصنع فى استخدام القطن الممتاز الشبيه بالقطن المصرى الذى تزرعه مزارع الجمهورية واصبح انتاج المصنع من النسيج الراقى . وهو يمتاز بالتصميمات الحديثة بالاضافة الى احتفاظه بالطراز التقليدى الطاجيكى الجميل ذى الالوان المتعددة الزاهية والخطوط المتدرجة فى اللون . واجر العامل فى هذا المصنع فى المتوسط ٩٦ روبلا . ويحصل العمال المهرة على اجر يتراوح ما بين ١٨٠ الى ٢٠٠ روبل بينما اجر العامل المتوسط المهارة يتأرجح ما بين ١٢٠ الى ١٣٠ روبلا . ويتقدم دائما العمال فى مهارتهم بفضل الدراسات والتدريبات المهنية التى يحصلون عليها . وتحدثت مع احد العمال الشبان واسمه مورولايف ناروف ويبلغ من العمر ٢٣ عاما . وقد بدأ عمله كعامل بسيط على المغزل وهو الآن يحتل منصب المسئول عن قسم التشطيبات . وبالاضافة الى ذلك فهو منكب على دراسة الكيمياء لمدة خمس سنوات . وسألته « متى ستتزوج ؟» وكان رده « ليس الآن ، بل بعد عام من اكمالى دراستى ».

وتبلغ نسبة النساء من مجموع عمال المصنع ٣٨ فى المائة . اما بالنسبة الى التعليم ، فان ثمانية فى المائة من العمال اكملوا دراستهم فى مدارس الثمانى سنوات و١٠ فى المائة فى المدارس الثانوية وهى عشر سنوات والبقية درسوا فى المعاهد التكنيكية العالية . وكل عام يتلقى المصنع ما بين ٣٠٠ الى ٣٥٠ اقتراح من العمال

لتحسين العمل فى المصنع . وتقبل تسعون فى المائة تقريبا من هذه الاقتراحات . وشاهدت عند تجوالى فى المصنع صورا فوتوغرافية كبيرة للعمال الممتازين وهى معلقة بشكل بارز على الجدران . والمصنع مقسم الى سبع وحدات انتاجية ، لكل وحدة ناديها الخاص . وعلاوة على ذلك هناك ناديان عامان لعمال المصنع ككل . ومما يلفت النظر ايضا ... الطريقة التى يتحدث بها العمال مع مدير المصنع وكبار الموظفين . فلم الاحظ التذلل المعهود فى حديث المرؤوس للرئيس . فكان العمال يتحدثون حديث الند للند حول الموضوع المثار بدون ان يبدأوا كل جملة بكلمة « سيدى » يقولونها بتذلل. وهذه هى الطريقة المتعارف عليها التى لاحظتها فى كل مكان .

وكان « فندق دوشانبيه » حيث نزلت يعبر — الى حد ما — عن التقدم السريع الذى حققته الجمهورية . والفندق يتألف من مبنى حديث من خمسة طوابق يضم مئات الغرف وكل غرفة مجهزة بجهاز للتليفون وآخر للاذاعة وملحق بها حمام . ودوشانبيه الحالية ظهرت الى الوجود فى العهد السوفييتى . فحتى عام ١٩٢٤ لم تكن الا قرية تضم ٤٢ منزلا من الطين ولا يزيد تعداد سكانها عن ٢٤٢ نسمة ويربطها بالعالم الخارجى طرق جبلية متعرجة . واليوم اصبحت مركزا هاما للمواصلات الحديدية والبرية والجوية ويبلغ عدد سكانها ٤٠٠ الف نسمة . وتقوم على جانبى شوارع المدينة البيوت الحديثة وتجرى الاتوبيسات فى جميع الشوارع الهامة . ولم تتخل المدينة — فى الوقت نفسه — عن طابعها ففيها الشايخانات (المقاهى) التى تنتمى للماضى الا انها الآن احسن تجهيزها وتأثيثها . وقد ذهبت الى واحدة منها وهناك تمتعت بوجبة مؤلفة من الكباب وبراد من الشاى . وفى الشايخانات يجلس روادها متربعين على



حصاد القمح في محافظة تسيلينوجراد .

الارض المفروشة بالحصاد . وبالمدينة ايضا سوق فاكهة تقليدى كبير وفيه يتناثر مئات من البطيخ على الارض داخل اكشاك البيع وفى وسط اكوام البطيخ يجلس البائعون . وبينما كنت اراقب ما يجرى جذب انتباهى فجأة سماع اغانى لافلام هندية انطلقت على

الاثير من المكبر للصوت وضع فى اعلى مبنى السوق . وعلمت ان موسيقانا تتمتع بشعبية كبيرة هنا ولهذا السبب فموسيقى الافلام تذاع يوميا .

وفى يوم مغادرتى للمدينة ، تحدثت طويلا فى المطار مع حكمت رحمتلايف نائب رئيس الجمعية الطاجيكية للصداقة مع الدول الاجنبية . فقد استفدنا من تأجيل قيام الطائرة فى موعدها بسبب سوء الاحوال الجوية لتمضية الوقت فى الحديث . وعندئذ افاض رحمتلايف فى الكلام بحرارة عن تقدم جمهوريته ومخططاتها للمستقبل . ولدى طاجيكستان فى الوقت الراهن مصانع لانتاج الجرارات وقطع غيار السيارات ومحالج القطن ومصانع لغزل الحرير والصوف . وتصدر البلاد ٤٠ نوعا من مختلف السلع . وانشئت الخزانات لتوليد الطاقة الكهربائية وتخزين المياه لرى ملايين الهكتارات من الاراضى . وفى مجال التقدم الثقافى للشعب والترفيه عنه ، يوجد ١١ مسرحا تعمل بانتظام واستوديوهات لانتاج الافلام ... هذا بالاضافة الى ٩٨٠ ناديا ومركزا للثقافة وزهاء ١٢٠٠ مكتبة .

كازاخستان

وخلال زيارتى لواحدة اخرى من الجمهوريات الآسيوية ، وكانت فى هذه المرة كازاخستان اطلعت على نفس النموذج للتقدم الهائل فى المجالات الزراعية والصناعية والثقافية . فهذه المنطقة التى كانت فى الماضى مجرد برارى شاسعة للرعى ، غارقة فى الفقر والجهل خلال عهد القياصرة ، اصبحت اليوم تصدر سلعها المصنعة الى ٨٠ دولة . فمن مطارها الكونى – بايكنور – الذى اصبحت له شهرة عالمية ينطلق رواد الفضاء وسفن الفضاء . وهى من حيث

الحجم من الجمهوريات الكبيرة وتحتل المرتبة الثانية بعد روسيا الاتحادية . وهى تمتاز بسمة خاصة فالروس يشكلون اغلبية سكانها ... الذين وفدوا اليها فى اعداد كبيرة عقب الثورة كرواد وذلك من اجل تطوير الاراضى البكر للجمهورية ومصادرها الطبيعية الغنية . وتتوزع نسب تشكيل سكان الجمهورية البالغ عددهم ١٣،٥ مليون نسمة على الشكل التالى : ٣٢،٦ فى المائة من الكازاخ و ٤٢،٤ من الروس ، و٧،٢ من الاوكرانيين .

وفى مزرعة تشيليك الحكومية القريبة من الما-آتا — العاصمة — يعمل متآخين اناس ينتمون الى ٣٣ قومية . ففى الحقول واقسام تربية المواشى وفى ورش الآلات وفى مواقع البناء يشاهد المرء الكازاخ والروس والاوكرانيين والبيلوروسيين واليونانيين والارمن والجورجيين والاوزبك والبشكير والقرغيزيين واللاتفيين والغجر وكثيرين غيرهم يشاهدهم المرء وهم يعملون جنبا الى جنب .

ان هذا التشكيل المميز للسكان قد هيأ لى الفرصة — واعتقد انها توفرت على احسن ما يكون فى هذه المنطقة المتعددة القوميات — لكى اتعرف على اى مدى يتم المحافظة على الثقافة القومية وتطويرها — وخاصة اثمن ما فيها — وفى الوقت نفسه تكون هناك عملية استيعاب لكل ما هو مفيد فى ثقافة الجمهوريات الاخرى وبقية العالم . كما يمكن الحكم على ما اذا كانت الثقافة الروسية الاوربية قد تغلبت على ثقافة الكازاخ ام لا .

وسنحت لى الفرصة فى اليوم الاول حيث حضرت عرض منوعات اقيم تكريما لوفود احد المؤتمرات الافرو-آسيوية فى الما-آتا . وقدم فى البداية عرض للباليه الروسى وتلاه رقص شعبى تقليدى للكازاخ . وكان الروس يرتدون ملابسهم الضيقة المشدودة على اجسامهم بينما

كان الكازاخ يرتدون ملابسهم الوطنية الفضفاضة التى تغطى كل اجسامهم . وكان العرض التالى عبارة عن اغانى للمغنية الكازاخية بيبى جول توليجينوفا التى منحت لقب فنانة الشعب للاتحاد السوفييتى . وقد افتتنا جميعا بهذه الاغانى . وكان صوتها ساحرا بجمال جرسه ورقته الآسرة . ويطلق عليها — بحق — اسم عندليب الكازاخ . وكان احد العروض التى حظيت بتقدير خاص يمثل مشهدا لفتيان من الرعاة الكازاخ ... قاموا فى البداية بعرض للمصارعة المليئة بالحيوية ثم بسباق على الخيول فى الوقت الذى وقفت فيه فتيات القرية للفرجة عليهم بهدوء ... وكان ديكور المسرح فى هذا المشهد يمثل جبال كازاخستان وصحاريها . وكان العرض الاخير مفاجأة سارة ... وكان يمثل رقصة حصاد بنغالية قامت بها مجموعة من فتيات ارتدين السارى . وبينما كنت اراقب العرض ... قامت ثلاث سيدات كازاخيات كن يجلسن بجانبى بتقديم البوم من الصور الىّ لمشاهد جمهورية كازاخستان . وكتب على الالبوم « تذكر برارى كازاخستان وجبالها » وجاءت هديتهن منسجمة تماما مع ما كنت اشعر به !

وفى اليوم التالى زرت متحف مختار عايزوف . وكان مكانا تذكاريا حسن التنسيق وملحق به قاعة لعرض الافلام التسجيلية التى تصور حياة الكاتب الكبير . وكان مختار (١٨٩٧ — ١٩٦١) شخصية ادبية بارزة فى كازاخستان . وقد سجل بحرارة فى كتبه نهضة شعبه وتقدمه فى ظل عالم جديد من المساواة والحرية . ويتناول فى كتابه المشهور « آباى » قصة حياة آباى كونانبايف ، الشاعر المرموق لدى الشعب الكازاخى . وترجمت كتب مختار الى اللغة الروسية وغيرها من لغات الشعوب السوفييتية ، كما ترجمت كذلك الى الانجليزية وبعض اللغات الاجنبية الاخرى . وقد حصل على جائزة لينين عن كتابه حول حياة آباى .

و« آباى » ايضا موضوع اوبرا شعبية . وهناك مسرحية كازاخية بعنوان « قاراكوز » اى الفتاة ذات العيون السوداء وهى تصور بعمق الظلم الذى كانت تعيش فى ظله المرأة فى الايام الماضية .

ويبلغ عدد المسارح التى تعمل عليها الفرق المحترفة ٢٥ مسرحا فى الجمهورية وهناك ايضا عدد كبير آخر من مسارح الهواة .

والشعب الكازاخى مغرم بالاغانى . وينتقل شعراء الملاحم من قرية لاخرى وهم يغنون ويعزفون الالحان على الآلة الوطنية الموسيقية ذات الوترين والتى يطلق عليها اسم « دومبرا ». وقد بذل عمل جاد ــ خلال سنوات السلطة السوفييتية ــ لجمع ونشر الاغانى الشعبية . وتتمتع بشعبية كبيرة بين الكازاخ الملاحم التى الفها شعراؤهم والتى تنتقل من جيل لآخر . ومن اشهر شعراء الملاحم جمبول جابابيف (١٨٤٦ ــ ١٩٤٥) المعروف جيدا على مستوى الاتحاد السوفييتى كله الذى حصل على لقب « شاعر الشعب فى كازاخستان ».

ولم تولد الفنون الجميلة فى شكل منظم لدى الكازاخ الا بعد ثورة اكتوبر . فانشئت المدارس العالية لتدريس الفنون وافتتحت قاعة عرض للفن الكازاخى . وحظى كانافيا تلجانوف فنان الما-آتا ــ وهو ابن راعى غنم امى بشرف كبير بانتخابه عضوا فى اكاديمية الفنون السوفييتية . واشتهر هذا الفنان برسومه ذات الطابع التأريخى والمناظر الطبيعية . وهو نائب فى برلمان الجمهورية . وحصلت بضعة افلام كازاخية من بينها فيلم « قصة ام » وفيلم « اسمى كوزا » على جوائز فى المهرجانات السينمائية العالمية .

وتزدهر ثقافة كازاخستان فى جميع نواحيها . وقد ادى الاتصال مع الروس الى سرعة تطورها . ولا يوجد اى مظهر على فقدان الطابع



فنانة شعب الاتحاد السوفييتي بيبيّي جول توليجينوفا الحائزة على جائزة الدولة .

القومى . وقد شعرت بتأثير الطابع الكازاخى فى كل ما حولى . وحتى فى الفندق الذى نزلت فيه كان الطعام المقدم ذا مذاق كازاخى . وكانت الشربة والكعك المسطح المصنوع من القمح والشاى ... كلها كانت مختلفة عما يقدم فى موسكو وهى ذات طابع محلى . وبالنسبة الى الزى ، فقد لاحظت ان الملابس الكازاخية التقليدية منتشرة فى الريف اكثر من المدن وانها مقصورة تقريبا على كبار السن . فالرجال يرتدون قمصانا بيضاء طويلة وفضفاضة وسرابيل صوفية او قطنية فى الصيف ويرتدون فى الشتاء معاطف من الفرو او جلد الماشية . وفى المدن يرتدى اهل كازاخستان الملابس المدنية الا ان غالبيتهم يلبسون قبعات مطرزة كازاخية . وفى الايام الغابرة كان اهل البدو من الكازاخ يعيشون فى خيام من اللباد . اما اليوم فقد بنيت القاعة الكبيرة — التى يعقد فيها برلمان الجمهورية جلساته — من الرخام على شكل الخيمة العتيقة . الا ان العادات السيئة تركت للماضى . فقبل الثورة كان من العادات الشائقة اغتصاب العروس ضد ارادتها ... واصبحت هذه العادة من ذكريات الماضى . واليوم لا يدفع مهر للعروس . وبطلت عادة تزويج الارملة الى الاخ الاكبر لزوجها المتوفى . ولكن استمرت تقاليد الضيافة واظهار الاحترام للكبار فى السن الذين يسمونهم باسم « اكساكال ».

وحسب احصائيات عام ١٩٢٦ كان هناك امرأة واحدة متعلمة من كل مائة امرأة فى الجمهورية . واليوم تشكل النساء نسبة تفوق الثلث للعاملين فى العلوم . ويبلغ عدد الطبيبات نحو ثلاثة ارباع المجموع الكلى . وهناك مصنع للملابس الجاهزة فى الما-آتا تشغل النساء فيه كافة الوظائف الادارية . وقد تمت كل هذه الانجازات فى منطقة كان يتردد فيها فى الماضى مثل يقول « مهما جرى الهجين

فلن يصبح كلب صيد ، وبالمثل مهما تعلمت المرأة فلن تصبح ابدا عالمة ».

وفى الما-آتا وهى المدينة الكازاخية الكبيرة التى يبلغ تعداد سكانها اكثر من ٧٧٦ الف نسمة يوجد معهد اللغات الاجنبية وفيه يدرس ألف طالب اللغة الانجليزية ونحو ٨٠٠ طالب اللغة الالمانية و٥٠٠ طالب اللغة الفرنسية . وهناك ايضا طلاب الصفوف المسائية وطلاب الدراسة بالمراسلة لمدة خمس سنوات . وقابلت مجموعة من هؤلاء الطلاب من الفتيات والفتيان وتحدثت معهم حديثا عاما . وطرحت عليهم سؤالا : عمن يكون كاتبهم المفضل . وقال شاب منهم انه يعجب بتولستوى ، واعرب آخر عن تفضيله لبلزاك وذكرت طالبة بونين . واعلم ان بونين — باعتباره كاتبا روسيا بارزا — كان قد كتب عن الحياة فى المدن والقرى قبل الثورة وفضح فيها الظلم والاستغلال اللذين كان الشعب يعانى منهما . الا انه لم يقبل كلية ثورة اكتوبر ... اهدافها وقيمها . ولهذا فقد سألت الفتاة لماذا تقدر بونين . وظهر انها واعية بآراء بونين الا انها مع ذلك متحمسة له « لرؤياه الشاعرية وللطريقة التى صور بها بعمق وباخلاص حياة الريف ».

وقد وجدت هذه النظرة الليبرالية عند آخرين عندما كانوا يتجادلون فى الادب فالفتى المعجب بتولستوى كان يعرف هو ايضا ان الكاتب العظيم الف كتبا عن التصوف الدينى والبرامج الخيالية « يوطوبيا » عن التقدم الاجتماعى الامر الذى لا يتفق مع التفكير السوفييتى . وخرجت من مثل هذه المحادثات مع الشباب بانطباع ان نظرة الجيل الجديد للحياة وللثقافة لا تتسم بالجمود . انها نظرة من اجل الانسان العالمى ... انسان يتحلى بانسانية كاملة ،

انسان متسامح ، انسان ينتمى لاسرة العالم التى تتكون من الامم الحرة . وكانت فتاة كازاخية بسيطة المظهر تستمع لنا بهدوء ولم تشارك فى المناقشة فسألتها « ما هى مشروعاتك بالنسبة للحياة ؟ » فاجابت « اننى ارغب فى وظيفة مدرسة وزوج طيب » وعند ذلك سألها فتى روسى كان يجلس بجانبها وعيناه تلمعان « اخبرينى اذن ما هو مفهومك عن الزوج الطيب ؟ » وهنا انفجرت المجموعة كلها ضاحكين بمرح . ولاذت الفتاة من جديد بالصمت ولم تحر جوابا .

يبلغ عدد الصحف الصادرة فى الجمهورية نحو ٣٠٠ صحيفة وعدد المجلات يزيد عن المائة . وكلها تصدر بلغات متعددة . وزرت مكتب صحيفة « كازاخستانسكايا برافدا » وهى صحيفة يومية تصدر باللغة الروسية . وذكر لى نيقولاى شفتسوف وهو عضو كبير فى هيئة تحرير الصحيفة ان من مجموع ٨١ يشكلون هيئة التحرير يوجد منهم ٣٠ فى المائة من غير اعضاء الحزب . ويسعى المحررون باستمرار الى ان يحصلوا على مقالات من الكتاب غير الحزبيين . فالصحيفة التى تنشر عددا اكبر من مقالات هؤلاء الكتاب تعتبر نفسها انها تقوم بعمل طيب . ويدفع فى مقابل الموضوعات الصحفية مكافأة تتراوح ما بين ٧٠ الى ١٠٠ روبل حتى ولو كان الكاتب عضوا فى هيئة تحرير الصحيفة . وخلال حديثنا ، انضم الينا بعض اعضاء هيئة التحرير الآخرين .

وعلى نحو ما — تطرق بنا الحديث — الى الحياة العائلية وهو موضوع قريب جدا من قلب الشعب السوفييتى . ومن خبرتى التى خرجت بها فى مناسبات عديدة خلال جولتى فى البلاد امتنعت بانهم سينتهزون كل فرصة ممكنة لكى يكشفوا عن مكنون صدورهم فى الحديث عن اعزائهم والمقربين منهم . وتحدث احد اعضاء هيئة التحرير —

وهو روسى ويبلغ من العمر ٦٠ عاما — عن ابنائه الثلاثة . والاول — وعمره ٢٧ عاما — اصبح متخصصا فى بناء السفن فى لينينجراد وتزوج هناك . والابن الثانى — ويبلغ من العمر ٢٢ عاما — يعمل سكرتيرا لاتحاد الصحفيين ولم يتزوج بعد . والثالث وهو اصغر من الثانى بثلاث سنوات يعمل مدربا للتربية البدنية وتزوج من فتاة كازاخية فى نفس عمره . وقد انهت دراستها المدرسية وهى على وشك ان تبدأ دراسة الطب . وكانت ممتعة حكاية اثنين آخرين من بين الحاضرين . واحدهما — شاب ويعمل صحفيا فى بلدة صغيرة . وقد اعتاد ان يحضر ومعه مقالاته يسلمها الى المحررة المسئولة عن قسم التحقيقات . وكان موضوع هذه المقالات ضد الدين . وكثيرا ما كانت تثور المناقشات بين الاثنين وسرعان ما اكتشفا انهما يتفقان فى الرأى بشأن هذا الموضوع وهكذا توثقت علاقاتهما ونشأت بينهما علاقة حب . وانتهى ذلك بزواجهما . وقال الشاب : « ان السعادة — فى الحياة الزوجية — تتعاظم يوما بعد يوم . فالرجل يصبح اكثر خبرة وتتزايد خبرته من الحياة . ثم يأتى الاطفال ويصبحون جسورا بين الابوين ويوسعون من دائرة حبهما الشديد » .

وقبل ان اغادر المكان ، ابلغونى ان ٦ من الكازاخ و٨ من الروس من اعضاء هيئة تحرير الصحيفة الذين اشتركوا فى الحرب الاخيرة لقوا مصرعهم على الجبهات الاوربية .

وكنت فى كازاخستان فى شهر اكتوبر . وفى ذلك الحين وصل ايضا اثنان من الاخصائيين هما الدكتور كريشنان من مدراس والدكتور شانشومار من كيرالا كاعضاء فى احد الوفود الطبية . وقد طلب منا — نحن الثلاثة — المساهمة فى الاحتفال المئوى لغاندى . وقد عقد الاجتماع الرئيسى للاحتفال فى قاعة كبيرة فى الما-آتا .

وقد غصت القاعة حتى آخرها وامتلأت جميع مقاعدها وظل المئات واقفين . وترأس الاجتماع مدير جامعة الما-آتا . وتلا الاكاديمى كاراكولف بحثا عن غاندى وتعاليمه . وتحدث ايضا فى الاجتماع ستاذ كان قد ترجم مؤلفات رابندرانات الى اللغة الكازاخية . وخلال حديثى فى الاجتماع وعندما قلت انه لن يكون بعيدا ذلك اليوم الذى سيشهد تحقيق احلام غاندى ولينين فى العالم كله ... فى مجتمع يسوده العدل ويحمل معه حياة سعيدة وحرة للجميع ... عند ذلك بدا بشكل واضح تأثر الحاضرين . وقد تعالى التصفيق عندما جاء ذكر لينين وغاندى معا .

وفى حفل التوديع الذى اقيم فى تلك الليلة ، عانقنى بحرارة كاراكولف على الطريقة الكازاخية . فلم يكتف بالمصافحة فهو يتمتع بقدر كبير من المرح والتصرف الطفولى فى سلوكه . فلم يفسده التكبر الزائف — على الاطلاق — هذا الاكاديمى البارز . وهو رئيس جمعية الصداقة السوفييتية-الهندية فى الجمهورية . وبعد ان عانقنى ، وضع فى يدى هدية جميلة من الاعمال الجلدية اليدوية الكازاخية ونسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة للبحث الذى القاه فى ذلك المساء وصورة فوتوغرافية له واخرى لحفيده الانيق امير كاراكولف .

ان الروس والكازاخ فى الجمهورية لم يسيروا جنبا الى جنب فى ايام السلطة السوفييتية ويعيشوا حياة من المساعى المشتركة من اجل تحقيق التقدم المادى والثقافى فحسب ولكنهم عانوا ايضا معا تجربة الموت . ففى خلال الحرب ضد النازيين ، قامت كازاخستان بدور المؤخرة التى يركن اليها ، ففيها كان يتم تشكيل وحدات الجيش الاحمر بما فى ذلك فرقة بانفيلوف المشهورة التى قاتلت حتى الموت على مشارف موسكو . وفى احدى حدائق الما-آتا اقيم نصب تكريما

للشهداء من الكازاخ والروس الذين قضوا نحبهم فى المعركة . ويرتفع النصب التذكارى بعلو ٢٥ مترا وتشتعل اسفله الشعلة الخالدة . وعلى النصب كتبت اسماء جميع الشهداء الروس والكازاخ وتحمل الحديقة هى ايضا اسم الشهداء . ومنح نحو ٥٠٠ من ابناء وبنات كازاخستان لقب « ابطال الاتحاد السوفييتى ».

سيبيريا

سيبيريا ! ان مجرد الاسم يثير ذكريات ترجع لايامى الاولى عندما كنا كثوريين شباب نقبل على قراءة ادب النضال التحررى لجميع البلدان . وفى ذلك الحين قرأت عن سيبيريا باعتبارها المنفى الذى يرحل اليه ابناء روسيا الشجعان او يرسلوا اليه لتنفيذ احكام بالسجن لمدد طويلة . وكنا نجد الالهام فى الاقاصيص التى تصور كيف ان المسجونين الثوار — وهم فى المناطق النائية التى تغطيها الغابات الكثيفة او البرارى — يقضون ايامهم بدون ان تشوب مثلهم او شجاعتهم شائبة . والبعض منهم كان يهرب لكى يواصل نشاطه فى الخارج . وجاءت الثورة وغيرت كل ذلك . وتحولت ارض المنفى والسجن الى ارض للشباب المعاصر . فقد اقتحم الشباب ، بالآلاف ، هذه الارض استجابة للنداء الذى يدعو الى تنمية المصادر الطبيعية الهائلة من اجل تقدم بلدهم . ولم تقف — ابدا — الانهار الجبارة ولا الغابات التى لا تخترق ولا الحيوانات المتوحشة ولا الافتقار الى وسائل الحياة ... كل ذلك فشل فى وقف زحف الشباب . فقد شقوا طريقهم عبر غابات الصنوبر الكثيفة ، وشيدوا المصانع فى اماكن نائية عن المناطق المأهولة ... وبنوا مدنا حديثة وقهروا الانهار واقاموا محطات توليد الطاقة واكتشفوا حقول البترول .

وكانت منظمة الشباب ، الكوموسومول ، هى الرائدة فى هذا العمل . فقد نظمت ايفاد المتطوعين الى مواقع البناء الرئيسية حيث العمل صعب للغاية. واخذ الشباب يفدون الى هنا باعداد متزايدة كل عام تاركين خلفهم الحياة الرغيدة فى المدن . وخلال العطلات الصيفية ، تساهم الآن فصائل الطلبة فى عملية البناء . وفى عام ١٩٥٩ وفد الى سيبيريا ٣٣٩ طالبا من قسم الطبيعيات بجامعة موسكو وكانوا بذلك اول الرواد . وسرعان ما اتخذ ذلك شكل الحركة التى تهدف الى ضرب المثل فى العمل المثالى من اجل البناء الوطنى . وفى عام ١٩٦٨ بلغ عدد هؤلاء الطلاب المتطوعين ٢٧٠ الف طالب ويجرى تحديد العدد الاجمالى من الطلاب الذين يحتاج اليهم سنويا ويتم ذلك مسبقا ، وعلى ذلك فان من ٨ الى عشرة من الطلبة يتسابقون من اجل الفوز بمكان شاغر مثلما يحدث تماما فى امتحانات الالتحاق بالجامعة . وخلال العشر سنوات الماضية ، عمل نحو مليونى شاب ، مستجيبين لنداء الكوموسومول — فى مواقع التعمير فى سيبيريا ومناطق الشمال والشرق الاقصى . وتعلم الكثيرون منهم هناك مهنا جديدة واصبحوا عمالا وخبراء مؤهلين بعد ان شيدوا محطات لتوليد الطاقة الكهرمائية وحفروا المناجم وبنوا خطوط السكك الحديدية واستثمروا حقول البترول فى اجزاء من البلاد لم تستثمر من قبل . وقد بنى اعضاء الكوموسومول وغيرهم من الشباب ١٨٥ مدينة جديدة و ٨٠٠ بلدة عمالية . واشتهرت الآن مدن مثل براتسك وانجارسك ودفنوجورسك كمراكز مزدهرة .

ولم تكن فالنتينا تشونيخينا تزيد عن ١٨ عاما عندما بدأت عملها كمتطوعة فى احدى المزارع فى سيبيريا . وقد كتبت فى رسالة بعثت بها الى مدرستها تقول :

« اننى كنت صغيرة جدا عندما بدأت حملة استصلاح الارض البكر ... ولا اعتقد ان الناحية الرومانتيكية هى التى دفعتنى الى اتخاذ قرارى ولكن كان ذلك بالامر يرجع الى احساس بالواجب . ان الناس يحتاجون — قبل كل شىء — الى الخبز واللحم ... وبعد ذلك تجىء المتع الجمالية ... ويوجد هناك شاب كان يريد ان يراهن على اننى لن اتمكن — اطلاقا — من قيادة جرار . وكان يقول « بنت من المدينة تقود جرارا ! انها لن تتعلم ذلك ابدا ». وكان على ان ادخل خمسة امتحانات ودخلتها ونجحت فيها كلها . وفى اليوم التالى عهدوا لى ولزميلى فاسيلى سافين بجرار من طراز « د. ت. — ٥٤ »... وقدنا الجرار الى الحقول وقد عملت بالفعل وردية بمفردى ... ونحن نحاول التغلب على الصعاب فى المسكن الضيق الذى تدخله الريح والبرودة طوال الليل... وقد فقدت الكثير من وزنى ... ولكن ليس بسبب العمل... فانا احبه واجده ممتعا للغاية... وانما يرجع ذلك الى ان نومنا كان غير منتظم ... وبصورة عامة فنحن ننام قليلا جدا... بالاضافة الى الطعام... فنحن نتناول وجبات قليلة ورديئة فى الحقل ».

وكتبت نادجدا بيلوكون سكرتيرة فرع الكوموسومول فى احد مواقع بناء خط حديد تقول فى تقرير لها :

« ان الامر ليس سهلا ... فحالما ينتهى عمل ما ، يبدأ آخر وهو مختلف عن الاول . وقبل كل شىء لا يوجد خبراء على الاطلاق ... وهذا طبيعى للغاية ... لان الذين وفدوا للعمل فى المشروع هم تلاميذ الامس . وهم يحصلون على تدريبهم التكنيكى من خلال ممارسة العمل وبعد وقت قصير ، يسجل فى تقرير خدمتهم ما يلى « اصبح مؤهلا ل ... ». حسنا وكما يقول المثل الشائع ان الانسان لا يعيش على الخبز فقط ... وقد اخترنا طائعين ان نبنى الطرق للشعب وهو

عمل يتطلب قدرا كبيرا من الجهد والوقت . ولهذا فاننا نحتاج من حين لآخر الى بعض المرح ... ويشعر القادمون الجدد بالدهشة ويتساءلون كيف يستطيع هؤلاء الشبان الذين فرغوا لتوهم من خلع بدلة العمل والاحذية الطويلة بعد يوم عمل شاق ... كيف يستطيعون الرقص بمثل هذه الحيوية وان يتملكهم هذا المرح ».

وقد استثيرت البلاد للطريقة التى اضطلع بها الشباب بالعمل .

ومن اجل مشاهدة هذا العمل الرائع على الطبيعة ، وصلت الى براتسك البلدة الجديدة التى انبثقت فى الغابة فى منطقة تقع فى شرق سيبيريا وذلك على اثر بناء محطة كهرمائية تعتبر واحدة من اكبر المحطات العالمية وتبلغ طاقتها ٤ ملايين كيلووات وتنتج طاقة كهربائية رخيصة بدرجة غير عادية حيث تقل تكلفة الكيلووات ساعة عن كوبيك واحد . ويبلغ ارتفاع سد المحطة ١٢٧ مترا ويزيد طوله عن ٥ كيلومترات . وعندما شاهد فيديل كاسترو هذا السد كتب فى دفتر الزيارات ما يلى :

« اننا نعتبره تجسيدا للعمل النبيل الذى لا حد له للبناة الابطال الذين شيدوا هذا البناء العملاق ... وان المرء يرى فى عظمته وعبقريته انتصار هدف لينين العظيم ... فليعش الى الابد انتصار بناة اول دولة اشتراكية فى العالم الذين فتحوا الطريق للشعوب الاخرى ».

ورتبت لجنة الكومسومول المحلية فى براتسك التقائى بهم . وقد اخبرونى انه لم يكن فى المكان اى شئ على الاطلاق منذ اقل من ١٥ عاما . وقد قررت الحكومة السوفييتية فى عام ١٩٥٤ الشروع فى البناء ... وعندئذ وفى العام التالى وفدت اول دفعة من اعضاء الكومسومول . وفى البداية تقدم بطلبات كثيرون من المهندسين والعمال الا انه لم يكن فى الوسع اخذهم جميعهم وفى عام ١٩٦٥ ومن مجموع

٥ آلاف مشترك كان منهم الفا مهندس . ويشير آخر تعداد ان عدد السكان بلغ ١٧٦ الف نسمة اغلبيتهم العظمى من الشباب الذين تبلغ اعمارهم فى المتوسط ٢٧ عاما . وعلاوة على محطة الطاقة ، يجرى بناء مشروعات اخرى عملاقة . ويعمل اكثر من ١٠ آلاف عامل بناء فى اقامة المجمع الخاص بصناعة الخشب وهناك ايضا تحت التشييد مصنع الومنيوم كبير ومصنع لانتاج المعادن . وكان على العاملين فى الايام الاولى ان يعيشوا فى خيام كما لو كانوا فى المعسكرات اما الآن فهناك المنازل المريحة التى تمتاز بها المدن . فقد انشئت المنازل التى تعلو خمس طوابق وزودت بكل وسائل الراحة الحديثة . ولان ظروف المعيشة لم تزل شاقة بالمقارنة الى المعيشة فى الاجزاء الاوربية من البلاد ... وتمنح للعاملين هنا علاوات اضافية تتراوح من ٤٠ الى ٥٠ فى المائة من المرتب او الاجر الاساسى . وخلال الحديث ذكر احد الاعضاء بأدب انه مضطر ان يغادرنا لان عليه ان يبت فى بعض الاوراق العاجلة . وعند ذلك ضج الجميع بالضحك وذكر لى سكرتير اللجنة الكسندر جيليوف ... « حسنا ينبغى ان تعرف انه بيروقراطى » ومغزى النكتة فيما يعنيه هذا اللفظ . وكان من بين الاعضاء مارتشوك المعروف باسم بطل براتسك . وفى الفيلم التسجيلى الذى عرضه على الاصدقاء فى الكومسومول شاهدته وهو يتحرك ضمن المجموعة الاولى التى وفدت الى المكان . ولمعرفة المزيد من التفاصيل عن تلك الايام ، حددت معه موعدا فى منزله .

وكان لقائى مع مارتشوك وافراد عائلته فى شقته الحديثة المؤلفة من اربع حجرات . واخبرنى مارتشوك ان شقته هذه ومساحتها ٦٩ مترا مربعا تذكره بالايام الاولى فى منتصف الخمسينات عندما كان

هو وزوجته يعيشان فى حجرة واحدة مساحتها ٧ امتار مربعة . ولم تكن تحتوى على دورة للمياه . وكان المكان فى ذلك الحين عبارة عن قرية صغيرة وكان الرجال والنساء يستحمون فى حمام عام بالتناوب . فالرجال لهم يوم والنساء لهم اليوم التالى . وكان البعض يستحمون فى نهر انجارا . ووضع الكثيرون ستائر فى الداخل ... وكان الطقس شديد البرودة حيث كانت درجة الحرارة تبلغ احيانا ٥٠ تحت الصفر وكان شتاء ١٩٥٥ – ١٩٥٦ مروعا فقد هبطت درجة الحرارة الى ادنى من ذلك . ولم يكن يوجد هناك اى اثاث . وكان عليهما ان يناما فى حقائب للنوم مفروشة على الارض وكان البعوض هو اكبر مصدر للازعاج حيث كان يوجد فى كل مكان نهارا وليلا . ومن اجل الحماية منه كانت توضع على الوجوه شبكات كثيفة سوداء . ونتيجة لكل هذه المتاعب هبط الانتاج بنسبة ٤٠ فى المائة . كما كانت الغابة الكثيفة تشكل عقبة اخرى . وكان المستوطنون الاوائل ينتقلون من قرية لاخرى بطرق ملتوية فى الغابة .

واجاب مارشوك على سؤالى لماذا جاء الى هذا المكان بقوله :

«كان ذلك استجابة لنداء الحزب. وكنت انا وزوجتى قد اكملنا دراسة الهندسة فى موسكو. وقررنا كلانا المجىء معا . ونصحت لجنة العمل زوجتى بالعدول عن ذلك مشيرة الى ان العمل سيكون شاقا للغاية بالنسبة لها. الا اننا تمسكنا بقرارنا وحضرنا الى هنا . وها قد انقضت ١٥ عاما منذ ذلك الوقت . وولد اولادنا الثلاث هنا . وتغيرت الحياة كلية . ولدينا منزلنا ... وتحيط بنا المنازل فى كل مكان ... وتسير فى البلدة الاتوبيسات. ولدينا النوادى والمكتبات وملاعب الرياضة والمدارس المسائية للعمال . وهناك ايضا قصر الزفاف وهو دائما غاص ».

وخلال حديثنا ، كان اطفالهما الثلاث فانيا ، وميشا ، وفوما يجلسون بالقرب منا . وحكى مارتشوك وزوجته القصص عنهم وعن دراستهم وما حققوه . فانيا وهو صبى عمره ١٢ عاما متفوق فى الموسيقى واخذ يعزف على البيانو . وكان من بين المقطوعات لحن قريب جدا من احدى الاغانى الهندية الشعبية ولذلك فقد توجهت اليه واخذنا ننشد معا . وسادنا جو من السعادة. وبعد ذلك غادرتهم متوجها الى المطار حاملا معى الهدايا التى قدمها لى مارتشوك واطفاله . وبناء على طلبى قدموا لى اسطوانة تحتوى على اربع اغنيات هى : « مارتشوك يعزف على الجيتار » و « لا تكن عجوز القلب » و « فتاة ترقص فى السفينة » و « رسالة الى اوست-اوليم » وهذا اسم لبلدة صناعية جديدة تقع بالقرب من براتسك . ومن الطائرة نظرت الى تحت... الى التايجا وهى تبدو موحشة ومليئة بالالغاز واشجارها الخضراء تنتشر فى كل مكان . وعندئذ تذكرت الاسطر التى كتبها لينين الى والدته وهو فى طريقه الى منفاه فى سيبيريا «ليس هناك اية منازل ولا بلدان ، ووجود القرى نادر للغاية ... وهناك بعض الغابات ... ولكن الشىء السائد هو البرارى». كان ذلك الحال امس اما اليوم فالجديد هو براتسك التى غادرتها لتوى .

وفى مدينة اركوتسك التى تبعد ٦٠٠ كيلومتر جنوبا ، وجدت نفس جو براتسك ... جو الحياة الاقتصادية والثقافية الصاخبة . واركوتسك هى المركز الاقليمى لسيبيريا الشرقية . وهنا ايضا توجد محطة كبيرة للطاقة الكهرمائية . وتضاعف عدد السكان خلال العقد الماضى . ويبلغ تعدادهم الآن نحو نصف مليون نسمة . ومن اجل سد حاجات التنمية الصناعية بمعدلات سريعة فى المنطقة ، يجرى تدريب الالوف فى معاهد المدينة وتعتبر مكتبة جامعة اركوتسك

اكبر مكتبة فى سيبيريا كلها فهى تحتوى على مليونين ونصف مليون كتاب . وخلال تجوالى فى المدينة بهرت بمنظر المبانى الخشبية القديمة والمزينة بالزخارف الخشبية على وجهاتها ، واقيمت بجانبها مباشرة المبانى البسيطة التى بنيت حديثا كمنازل سكنية . كان المنظر يضم القديم والحديث فى تناغم وتناسق . وحيث ان كل شىء بدأ من الصفر تقريبا ... بناء البلدة الحديثة ، ومعاهدها ومصانعها ووحداتها الثقافية ... فقد اتاح ذلك الجو الملائم المثالى لتشكيل كل من الحياة الاجتماعية وحياة الافراد على اسس اشتراكية راسخة .

القوميات الصغيرة

جاءت ثورة اكتوبر بشيرا بحياة جديدة للقوميات الصغيرة التى يبلغ عددها نحو ٢٠ قومية والتى تقطن المناطق النائية فى اقصى الشمال والشرق الاقصى من الاتحاد السوفييتى . وكانت هذه القوميات على وشك الانقراض فى عهد القياصرة . فقد ساءت حالتها على ايدى التجار والرؤساء المحليين حتى وصلت الى الانحلال الكامل . وقد انقرضت بالفعل بضعة قبائل خلال القرن التاسع عشر . وفى اوائل القرن العشرين كانت القوميات الصغيرة فى مرحلة انتقال من حالة المجتمعات البدائية الى المجتمع الطبقى وكان افرادها يعملون بالقنص وصيد الاسماك وبعض المهن الاخرى . وبدأ البعض منهم يزاول تربية الماشية . اما الاغلبية فكانت لا تعرف شيئا عن غزل الملابس ولم يكن الكثيرون منهم معتادين على استخدام الاوانى وقلة بسيطة كانت تعرف كيف تستخدم المعادن . ويبلغ تعداد

اصغر هذه القوميات بضع مئات اما اكبرها وهم البشكير فيصل عددهم الى قرابة المليون .

وفى بداية عام ١٩٢٢ انشئت ادارة خاصة فى قوميسيرية (مفوضية) الشعب للقوميات للاشراف على شئون الامم الصغيرة فى الشمال. وكان الهدف منها توجيه الامم الصغيرة وفقا لتقاليدها ، وحمايتها من الاستغلال ومدها بوسائل الانتاج الضرورية وكذلك توفير الملابس والغذاء والعمل على تطوير ثقافتها تطويرا شاملا .

وانشئت المزارع الجماعية كوسيلة للتنمية الاقتصادية لهذه الامم الصغيرة . وقد ساعد على انتشارها التقليد السائد فى هذه الامم بمد يد المساعدة المتبادلة والاستخدام الجماعى للارض وتملكها . وتطورت على نطاق واسع الزراعة التى كانت غير معروفة بالفعل للشعوب الصغيرة فى الشمال . كما انشئت الصناعة وتم حل مشكلة تدريب التكنيكيين المحليين فى منتصف الثلاثينات . واصبح يوجد الآن فى المنطقة القومية لـ « نينيتس » (وعدد سكانها ٣٩ الف نسمة) اكثر من ٢٠٠ مشروع صناعى . ويشترك فى الوقت الراهن ممثلون عن المناطق القومية فى اعمال مجلس السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتى ويساهمون فى تقرير المسائل ذات الاهمية على مستوى الدولة .

وكتب اليكسى فالديو — وهو كاتب من منطقة خاباروفسك — عنها يقول :

« ان ثورة اكتوبر العظمى طهرت — مثلما تفعل الفيضانات العارمة عند ذوبان الثلوج على نهر آمور — طهرت ارض اجدادى من الجهل والمجاعة والتأخر والمرض والظلم ... كما انقذت شعب

اولشا من خطر الفناء . والآن اصبح عدد الاولشا ٣ آلاف بعد ان تضاعف اربع مرات فى خلال ٥٠ عاما .

ان نظام المزرعة الجماعية قضى على الخوف لدى شعب الاولشا من المستقبل . ونحن نتذكر كمجرد كابوس معسكرات الرعاة الحقيرة المكونة من بضعة اكواخ مهدمة بارضيتها الترابية ونوافذها الضيقة المغطاة بالورق او بقشر السمك ... وجدرانها وسقفها اللتين لوثهما السخام .

والآن قرانا تمتلىء بالمنازل الجميلة بسقوفها من الاردواز واثاثها الحديث وباجهزة الراديو وبتوصيل الكهرباء اليها وبالطبع ، لا يزال هناك الكثير الذى ينبغى عمله لتزويد السكان فى منطقة اولشا بالمزيد من وسائل الراحة ، الا ان ما انجز خلال هذه الفترة القصيرة نسبيا يكشف مدى التغييرات الهائلة التى حدثت . وفى الايام السابقة لم يكن شعبى يفعل شيئا الا الصيد والقنص . والآن فبالاضافة الى ان لديه الخبراء فى مثل هذه الحرف فلدينا الكثيرون من المهندسين والتكنولوجيين وعمال البناء وسائقى اللوريات والجرارات وملاحى الزوارق البخارية ... وكلهم يعملون فى مزارعنا الجماعية ومصايد الاسماك .

وكان من الصعب ان تجد واحدا من ابناء الاولشا يستطيع القراءة والكتابة قبل الثورة ، وكان ذلك اشبه بوجود الثلج فى الصيف . اما اليوم فجميع ابناء الالشا سواء متوسطو العمر او الجيل الجديد فكلهم يستطيعون القراءة والكتابة . وحصل الكثيرون منهم على التعليم العالى والثانوى واصبحوا مدرسين واطباء وصحفيين ومن رجال الثقافة . اننا لا نقدر شيئا مثلما نقدر افكار لينين وثورة اكتوبر التى فتحت عهدا جديدا فى صفحة حياة شعبى الصغير ».

وبشكيريا — التى كانت بمثابة المركز الامامى الاستعمارى للامبراطورية القيصرية ... هى اليوم جمهورية ذات استقلال ذاتى مزدهرة . ولم تكن لدى البشكير قبل الثورة حروف ابجدية للغتهم . ويوجد اليوم فى الجمهورية ٥ آلاف مدرسة ابتدائية وثانوية و٩ معاهد للتعليم العالى علاوة على ٥٠ معهدا للابحاث . ويعمل فى فروع اقتصادها القومى اكثر من ٢١٧ الف خبير متخصص من بينهم اكثر من ٧٦ الف شخص اكملوا دراساتهم العالية . واصبحت بشكيريا من المناطق ذات الاهمية الاقتصادية البالغة بالنسبة للبلاد . وهى تحتل واحدا من المراكز الاولى على مستوى الاتحاد السوفييتى فى مجال استخراج البترول والبتروكيماويات والمنتجات الكيماوية .

وفى عهد القيصر ، كانت منطقة ياقوتيا النائية منفى . واصبحت اليوم ياقوتسك مركزا كبيرا ، اداريا وعلميا وثقافيا لجمهورية ياقوت ذات الحكم الذاتى بفضل ما يوجد بها من مصانع ومعاهد وفرع لاكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتى . وللمدينة مطار يربطها بجميع انحاء البلاد . وقبل الثورة كان تعداد سكان ياقوتسك ٧ آلاف نسمة فقط . واليوم وصل عددهم الى ١٢٠ الف شخص . وفى نهاية عام ١٩٧٠ سينتهى العمل فى مجمع البناء . وعندئذ فسوف تبنى المنازل من قوالب الطوب والالواح الجاهزة وستزود باروقة دافئة لربطها ببعضها البعض . وسترتفع المبانى فى وسط المدينة وعلى ضفة نهر « لينا » الى علو ١٢ طابقا .

وتدحض الخبرة المستفادة من التطور الاجتماعى والسياسى والاقتصادى لهذه الامم الصغيرة الفكرة المزعومة بان الامم الصغيرة غير قابلة للتطور المستقل ، وان اطلاعها على مدنية ارقى يكون له تأثير ضار على قدراتها الحيوية .

الفصل السابع

لمحات

لقد ساعدتنى اللمحات الخاطفة التى تفحصت بها نواحى الحياة فى الاتحاد السوفييتى خلال جولتى فيه ... ساعدتنى على تفهم كيف يتم نسج التركيب الاشتراكى وكيف يكتسب المواطن السوفييتى سماته الجوهرية . واينما ذهبت ، سواء الى معهد ما او عرض ثقافى او دخلت احد المحلات ، كنت دائما احاول رؤية الناس فى عملهم وان اقرأ افكارهم اذا ما تيسر ذلك . ولم اترك اية فرصة اتيحت لى لكى اتبادل الاحاديث . وفى الاماكن العامة ، كنت اراقب عن كثب تجمعات الناس واحاول تلمس احاسيسهم . وزرت عددا من النصب التذكارية وفى مثل هذه الاجواء الخاصة ، كنت احس بنبضات قلوب الشعب .

النصب التذكارية

ان ضريح لينين المقام فى الميدان الاحمر هو بلا منازع قدس الاقداس للثورة الروسية ولايملك اى زائر للوطن السوفييتى الا ينجذب لرؤيته. وذهبت الى هناك فى يوم كانت السماء فيه ملبدة بالسحب ويتساقط الرذاذ من حين لآخر . وبرغم ذلك كان هناك آلاف من الناس ينتظرون فى صبر فى صف بلغ طوله ميلا لكى يلقوا نظرة تقديس على قائدهم العظيم . وبالسؤال علمت ان الرجال

والنساء يواصلون يوما بعد يوم وعاما بعد عام الاعراب عن اجلالهم فى مثل هذا الموكب الذى لا نهاية له . وهم يفدون من جميع انحاء البلاد : من مناطق سيبيريا البعيدة ومن القرى النائية ومن المناطق الجبلية . وكان يبدو على اغلب الناس الذين شاهدتهم فى هذا الصف انهم من الريف . وكان بعضهم يأكل الفطائر او كسر الخبز التى كانوا يحملونها فى جيوبهم بعد ان اخذوا اماكنهم فى الصف منذ الصباح الباكر ... وما من واحد من هؤلاء الناس البسطاء قد شاهد لينين فيما عدا بعض الحالات الاستثنائية القليلة . وهم قد سمعوا به فقط ولكنهم يدركون جيدا ان لينين هو القائد العظيم للثورة التى وفرت لهم ولاعزائهم والمقربين منهم حياة جديدة كفلت لهم الامن الاقتصادى والحرية . والصف يتحرك عادة ببطء شديد ولهذا فلا يحين دور كل واحد الا بعد اربع او خمس ساعات فى العادة ... ولكننى باعتبارى ضيفا منحت مكانا فى اول الصف ولهذا فقد جاءت فرصتى بعد نصف ساعة .

وكانت تجربة حافلة بالايحاءات النادرة . وبينما كنت اتحرك الى الداخل ، الى حجرة تحت الارض ... كان المكان كله يسوده الصمت التام . فالحراس يقفون كالتماثيل . وكان امامى رجل عجوز يتحرك على عكاز . وهناك على منصة عالية من الجرانيت ... كان جسد لينين المحنط داخل صندوق من الزجاج ... ووجهه يشع انسانية ورقة. ويشعر المرء ان لينين يرقد فى راحة وكله ثقة فى ان احلامه تخرج الى خيز التطبيق ليس فى روسيا فحسب ولكن ايضا فى ارجاء اخرى من العالم .

وبعد خروجى ، وقفت هناك لبضع دقائق لاستنشق جو القداسة الذى يغلف المكان كله . وعدت بذاكرتى الى ايام نضالنا

فى الزمن الماضى . وكيف بعثنا من قفص الاتهام عند نظر قضيتنا « قضية التآمر فى لاهور » وكان ذلك فى عام ١٩٣٠ — برسالة الى الاتحاد السوفييتى فى يوم لينين . وكان بهاجات سينخ زميلى المتهم معى حيا فى ذلك الوقت ووقع على الرسالة . ولكن بعد اشهر قليلة صعد الى حبل المشنقة مع اثنين من رفاقه ، دافعا بذلك ثمن ايمانه بالاشتراكية . وقبل ذلك كان اثنان من الثوريين الهنود هما راجا ماهندرا براتاب وباركات الله ، باعتبارهما زعيمى الحكومة الثورية المؤقتة للهند فى المنفى التى اتخذت من كابول مقرا لها ، قد تمكنا من لقاء لينين بعد انتصار الثورة الروسية للحصول على عون للنضال الهندى . وانضم اليهم ايضا قادة آخرون كانوا يعيشون ايضا فى المنفى مثل روى وآبانى موكهرجى من المانيا ومن دول اخرى وعرضوا وجهات نظرهم امام القائد الثورى ... ومن جانبه اعرب لينين عن تعاطفه الكامل ومدهم بالتأييد الفعال .

وانتقلت وفى ذهنى تدور هذه الافكار ، الى صف آخر كانت وجهه حائط الكرملين القابع خلف الضريح . وعلى الحائط شاهدت لوحات من الرخام تشير الى الاماكن التى وضعت بها الاوعية المعدنية التى تحتوى رماد الثوريين البارزين من الروس ومن الاجانب الذين اصبحوا جزءا لا يتجزأ من الحركة الثورية . ومن بينهم كلارا زيتكين الشيوعية الالمانية وجون ريد الكاتب الامريكى المعروف صاحب كتاب « عشرة ايام هزت العالم ». وشاهدت ايضا لوحات تحمل اسماء ماكسيم جوركى وبطلا الفضاء جاجارين وكوماروف . وفى مواجهة الحائط اقيمت فى صف عدد من التماثيل النصفية . وعند انتهاء الصف كان هناك على مستوى الارض حجر اسود لامع يحمل لوحة كتب عليها اسم ستالين . واقيم الآن تمثاله النصفى

18—1849

فى نفس المكان . وعلى مسافة قليلة من الكرملين وفى مكان منخفض ؛ زرت قبر الجندى المجهول وهو احد ابطال الحرب الماضية . وهناك كانت تشتعل النار الخالدة . وتذكرت كلمات مايكوفسكى :

عظام او رماد
تحت الحائط
انها تعيش ...
والبعض لا يترك
حتى الرماد
لكى يوارى التراب .
العمل او الاغلال
او الرصاص
قد اودى بهم .
وما من احد منهم
قضى نحبه
فى اوانه او بتقدمه فى السن .

وكتبت دار التقدم بموسكو حول الجندى المجهول تقول : « اننا لا نعرف اى شئ عن الجندى الذى ترقد رفاته الآن بجانب حائط الكرملين ، الا اننا نعرف مع ذلك الشئ الكثير ، بل ربما اهم شئ بشأنه ونعنى بذلك انه فى وقت المحن التى المت بوطنه ... تحمل طواعية مسئولية مصيره ولم ينكص امام الخطر الداهم ودافع عن حياة وحرية العالم ومستقبله ».

ان الميدان الاحمر جزء لا ينفصل عن تأريخ ثورة ١٩١٧ . ففى اكتوبر من ذلك العام كان الميدان الاحمر مسرحا للقتال بين جنود الثورة وطلاب المدرسة الحربية ... وكان هذا القتال فاتحة النضال المسلح من اجل اقامة سلطة السوفييت فى موسكو . وفيه تحدث لينين فى مناسبات متعددة للعمال وجنود الجيش الاحمر

ليدعوهم الى القتال من اجل تحرير الشعوب من سيطرة الامبريالية ولوضع حد للحروب بين الامم وكذلك من اجل انتصار الاشتراكية.

وفى نفس الاسبوع الذى زرت فيه الكرملين وردت الانباء المؤلمة بوفاة هو شى منه . وحزن الشعب فى جميع انحاء الاتحاد السوفييتى على وفاة هذا الزعيم المخضرم . وكتبت صحيفة « برافدا » تنعيه وتقول :

« ان الشعب الفييتنامى — بزعامة حزب العمال الفيتنامى الذى يرأسه الرفيق هو شى منه قد وجه ضربة قاصمة للمعتدين الامريكيين . وقد اثبت هذا الشعب ان اى شعب يقاتل من اجل الحرية واستقلال الوطن ويعتمد على تأييد الدول الاشتراكية والملايين العديدة من الجماهير الشعبية فى جميع القارات ... ان مثل هذا الشعب لا يقهر ».

وقد قرر مجلس موسكو من اجل تخليد ذكرى الزعيم الفييتنامى اطلاق اسم هو شى منه على احد الميادين الجديدة فى العاصمة . واطلقت وزارة التعليم الاتحادية اسم هو شى منه على معهد اركوتسك التربوى للغات الاجنبية كما اطلق الاسم ايضا على احد سفن الركاب تحت الانشاء بناء على قرار وزارة الاسطول التجارى .

ويلى الكرملين ، من حيث اهمية الارتباط بالثورة ، متحف الثورة الحكومى للاتحاد السوفييتى الذى اختير له قصر يرجع الى القرن الثامن عشر ويشتمل على ٥٠ قاعة. وعندما دخلته ، شاهدت آلاف المعروضات الخاصة بالثورة الروسية . منها الاعلام التى رفعت خلال المعارك واسلحة المشتركين فى الثورة ، والعديد من الاوراق السرية ، وآلات التعذيب التى كان يستخدمها بوليس القيصر ... وتولت امرأة شابة تعمل فى المتحف مهمة الشرح وتفسير المعروضات

وسردت على حكايات عن النضال ضد قوات القيصر وكيف ضحى اعداد كثيرة من الثوار بحياتهم فى سبيل القضية . وفجأة تنهدت وقطعت تسلسل قصتها بالملاحظة التالية « اننى لا ادرى كيف تثور مسألة حول وجود فجوة بين الاجيال . فابى اشترك فى القتال وكان عليه ان يقاسى الشىء الكثير ونتيجة لكل ذلك هو الآن قعيد المنزل لانه اصبح عاجزا من الناحية الجسمية . وانا ارعاه واقوم بواجبى كعضو فى الحزب الشيوعى وهو الحزب الذى ينتمى اليه ». ونظرت اليها ... وكانت فى عينيها نظرة متعلقة بشىء بعيد . كانت مع ابيها فى هذه اللحظة كطفلة متفانية . وتأثرت بعمق وطلبت منها ان تنقل احترامى العميق الى والدها العليل .

وامضيت يوما كاملا فى زيارة متحف تولستوى فى ياسنايا بوليانا وهو يقع على مسافة ١٥٠ ميلا تقريبا من موسكو . وبعيدا عن العاصمة المليئة بالحركة ، تحركت السيارة وسط الريف الشاسع . وكان تشاهد من حين لآخر الاكواخ المتناثرة وسط الحقول الخضراء . وبفضل هذا المشهد غصت فى لجة من الافكار العميقة حول تولستوى ، وكتاباته وحياته وعلاقاته مع الفلاحين . وكنت افكر كيف امكنه وهو سليل عائلة ارستقراطية تمتلك اراضى شاسعة ان يولى ظهره للحياة الفارغة التى كانت تحياها الطبقات الراقية ويختار ان يربط نفسه بحياة الشعب البسيط — ابناء القرية الذين احتفظوا — مع فقرهم المدقع بكرامتهم — وكانت لهم متعهم البسيطة وقيمهم . ووصلت الى المكان فى يوم عطلة وكان المتحف مغلقا . ولكن باعتبارى ضيفا من الهند ، سمح لى بصفة خاصة ان اشاهد المكان . ورافقتنى سيدة متقدمة فى العمر الى منزل تولستوى وهو مؤلف من طابقين واخذت تشرح لى باحترام بالغ الاشياء ذات الارتباط الوثيق

بحياته . وشعرت – وانا اقف فى حجرتى المكتبة والنوم – بروح الكاتب الانسانى العظيم . كانت هناك بضعة اشياء قليلة وضرورية . وليس ثمة اشياء زائدة . وكل ذلك ينسجم مع فلسفة حياة تولستوى . وكانت حجرة زوجته مختلفة نوعا ما . فالديكور به لمسة انثوية واضحة . وكان منتقى بعناية فائقة وبه بعض الزخارف . وعلى الحائط علقت صورة داخل اطار يبدو فيها جميع ابناء عائلة تولستوى وقد التفوا فى دائرة حول صورة نصفية لوالدتهم . وكانت الصورة مؤثرة للغاية وذكرتنى بالحياة المأساوية للزوجين المحبين والتى كان يعكر عليهما صفوهما مسألة كيفية المحافظة المثلى على الاطفال وكانت كثيرا ما تتحول الى نقطة خلاف بين الاثنين . فقد ولد لهما ١٣ طفلا ولكن ٥ منهم ماتوا صغارا . وقد ترك ذلك جرحا لا يندمل فى نفس الزوجة .

وامضيت ساعتين فى رؤية كل شىء فى المنزل وقبل ان اغادره سألت مرشدتى – السيدة العجوز – كم من الوقت امضت فى هذا المكان فاجابت « سنوات عديدة انقضت وما افعله هنا اعتبره عملا مشرفا ولا افكر فى عمل آخر امارسه »... وعندئذ سألتها عن اطفالها . وما اذا كانوا يزورونها بانتظام ... وقد اثارها هذا السؤال البسيط ... فقد امتلأت عيناها بدموع الفرح وقالت بعد ان مسحت دموعها ان اطفالها يدرسون فى الكليات وهم يحضرون لرؤيتها بانتظام ويقدرون عملها للغاية . وتمتد اراضى المتحف فى ياسنايا بوليانا الى مسافة كبيرة وهى عبارة عن حديقة جميلة اشبه بالغابة المليئة بالاشجار العالية . وفيها يشاهد المرء البحيرة الصغيرة التى ورد وصفها فى مؤلفات تولستوى . وعندما يسير الانسان فيها ، يقع تحت تأثير سحر السلام والهدوء المخيمين على المكان . ويبلغ ذلك ذروته

عندما يقف المرء عند قبر تولستوى ... كومة صغيرة من التراب مرتفعة قليلا ومغطاة بالحشائش وتتناثر فوقها الزهور . وحول المكان تقف منتصبة اشجار البتولة السامقة . انها تقف اشبه بحراس من اجل ان يرقد فى سلام وراحة الرجل الذى دعا الى ان نحيا حياة على الفطرة ... اعتبرها الحياة الحقيقية ... الرجل الذى وقف متحديا كل ما يمت الى التظاهر والنفاق والادعاء الكاذب وكلها كانت سمات الطبقات الحاكمة . وبينما كنت اقف بمفردى متذكرا بخشوع هذا الانسان العظيم ، سمعت وشوشة اوراق الشجر فوقى كانها تتغنى بكل رقة بالقيم الخالدة للحياة ... الموضوع المفضل عند تولستوى .

فى موسكو

كنت انتهز كل وقت فراغ يتاح لى لكى اتجول فى الشوارع . وكان يقع فندقى بالقرب من شارع كالينين ، احدث شوارع موسكو . وكان يعد بحق واحدا من اجمل شوارع العاصمة واكثرها ازدحاما . وعلى كلا جانبيه ، تنتصب ناطحات السحاب التى تتألف من ٢١ طابقا . وكانت الاغلبية العظمى من هذه العمارات تضم محلات فى ادوارها الاولى ، اما بقية الادوار ، فقد خصصت للشقق السكنية . وكنت اتعمد اثناء تسكعى على الارصفة العريضة للشارع تأمل وجوه الناس واساريرهم عندما يمرون بى ... ويا له من منظر يبعث على البهجة . وكان آلاف الناس ... من الرجال والنساء ... من الصغار والكبار يروحون ويجيئون ... تبدو عليهم امارات الابتهاج والسعادة . ولم أر وجوها حزينة تغضنت بفعل القلق . كما لم اشاهد اى انسان يرتدى ملابس قذرة او ممزقة ... وخلال جولتى كلها وجدت مرة

واحدة – وكان ذلك فى احدى الورش التابعة لمزرعة فى طاجيكستان – شخصا يرتدى قميصا ممزقا فى الخلف . وكان عاملا شابا يعمل خراطا .

واعتدت ان استغل وقت فراغى – بدون ان يكون معى مرشدى او المترجم – فى دخول مختلف المحلات والتفرج على معروضاتها التى كتب عليها اسعارها وان اكون فكرة عن نوعيتها .

ويمتاز شارع كالينين بوجود محلات خاصة لمختلف انواع البضائع . من بينها محل « علبة من المالاخيت » وهو متخصص فى بيع الحلى الحديثة المصنوعة من الاحجار الكريمة المستخرجة من الاورال . ومحل « سنتيتيكا » وتباع فيه السلع المصنوعة من الالياف الصناعية . ومحل « ميلوديا » لبيع الاسطوانات الموسيقية ومحل « الكتب » ويحتوى على الآلاف منها وكلها معروضة بشكل مرتب فى اقسام خاصة . وعلى مسافة قريبة من الطرف الآخر من الشارع يوجد محل « الجوم » وهو المخزن الكبير الذى يخدم مائة الف مشتر يوميا . وعلاوة على رؤية هذه المحلات فقد ذهبت للفرجة على محلات اخرى متخصصة تقع فى اجزاء متعددة من موسكو . وجدت فيها جميعا مختلف السلع وهى متوافرة بكميات كبيرة وما على المتردد عليها الا ان يختار ويحمل ما يريد . ولم تكن هناك اية اصناف رديئة كما لم اشاهد المستهلكين وهم واقفون فى صفوف طويلة للانتظار ساعات طويلة من اجل الحصول على مشترياتهم . وما على المشترى الا ان يدخل المحل ويختار ما يحتاجه ثم يدفع الثمن ويخرج . وتقوم عشرات من الفتيات بسرعة بحساب قيمة المشتروات على معداد (محسبة) ويسلمن المشترى ورقة بالقيمة فيقدمها الى عامل الخزينة ... ويتم كل ذلك بلا ادنى تأخير .

اما بالنسبة الى السلع المعروضة للبيع فهى على انواع مختلفة ومتعددة . فالآوانى الفخارية مختلفة الاشكال والرسوم الزيتية والملابس من القطن والكتان والحرير والمخمل والوانها ونقوشها حديثة . وتوجد الثلاجات فى ست احجام مختلفة . ويتوافر السجاد اليدوى الصنع وكذلك المصنوع على الآلة . وفى محلات الاثاث يوجد ايضا مجال للاختيار الا انه اختيار محدود . وتشاهد المنتجات الفنية فى كل مكان . وقد شاهدت فى احد الاماكن غطاءا لابريق الشاى مصنوعا على شكل دمية جميلة ترتدى الزى القومى الروسى . وتعرض فى المحلات ايضا السلع الاجنبية جنبا الى جنب مع السلع المحلية مثل عدسات التصوير واجهزة الراديو وغيرها ... وتمتلىء اقسام الاطفال فى المحلات بالمعروضات الجميلة . وهى تشمل ملابس الفضاء وستر العمل الزرقاء والخوذات للاطفال الصغار وتنتصب الدمى على الارفف فى انواع لا حصر لها . ويتحرك آلاف الناس داخل هذه المحلات ويتنقلون من طابق لآخر عن طريق السلالم المتحركة وكان ذلك يمثل لى تجربة جديدة شيقة . وكلما شعرت بالتعب ... اعمل مثلما يعمل الجمهور الذى يحيط بى ... فاتناول مثلهم الجيلاتى المتوفر فى كل مكان . وعندئذ اشعر بالانتعاش . والروس مولعون بتناول الجيلاتى حتى فى شهر ديسمبر عندما تنخفض درجة الحرارة الى ما دون الصفر .

واكتشفت امرا ... وهو انه ليس بالضرورة ان كل انسان فى هذه المحلات يشترى بالفعل . فهناك اعداد غفيرة – وخاصة من النساء اللاتى يبدو عليهن حماس طفلى وحب الاستطلاع ... وهذه الجموع يفحصون السلع الجديدة الواردة حديثا ويبدو عليهم انهم يمعنون التفكير فيما اذا كانت الميزانية تسمح ام لا . وقد كنت

اشاهد فى اغلب الاحيان امام نوافذ العرض الخارجية التى تمتاز بحسن تنسيقها سيدات واقفات للفرجة على المعروضات . ولاحظت شيئا آخر وهو عدم وجود الحمالين . فالزبائن الذين يشترون سلعا ثقيلة غير معبأة فى صناديق يحملونها على اكتافهم وعلى ظهورهم الى اقرب موقف لسيارات الاجرة . لقد تخلصوا من اى مظهر كاذب لما هو جدير بالاحترام .

ان احد الظواهر التى تلفت نظر الاجنبى عند تجوله فى المدينة هى حركة بناء المساكن التى تجرى على نطاق هائل . واينما نظر المرء يشاهد على مدى الافق الرافعات (الونشات) الضخمة المستخدمة فى البناء . وتمتاز مجموعات المبانى الضخمة المتعددة الطوابق — التى تبنى على عجل — بالمظهر البسيط للمعمار الحديث . وقد اصبح الاسكان ضرورة ملحة لان موسكو — التى يبلغ تعداد سكانها الآن اكثر من ٦ ملايين ونصف مليون نسمة — ورثت تركة مثقلة من ايام ما قبل الثورة . ففى ذلك الحين ، كانت الشوارع ضيقة ومتعرجة ومنازلها متداخل بعضها فى بعض . وكان هناك تناقض صارخ بين وسط المدينة وضواحيها . وكان ثلاثة ارباع سكانها يعيشون بدون تسهيلات خاصة بانابيب المياه وشبكة المجارى ... ويتألف كل اربعة منازل من خمسة من طابق واحد او طابقين وكانت المنازل فى الغالب مبنية من الخشب . والآن لم يعد هناك وجود للاكواخ ... وانشئت فى الضواحى مدن باكملها جديدة تابعة للعاصمة . ويضطلع مجلس بلدية موسكو بتوزيع الشقق الجديدة على اساس من اولويات الحاجة اليها . ويقطن عمدتها — مثله كمثل اى مواطن آخر — فى احدى الشقق . وتتألف من ثلاثة غرف بحكم عدد افراد عائلته .

ويغرم الشعب السوفييتى غراما شديدا بجمال الطبيعة . وقد

عمل نظام التربية الجمالية على زيادة هذا الولع بالطبيعة . وقد روعى عند تخطيط مبانى موسكو مراعاة هذا الاتجاه عند سكانها فقد خصصت مساحات كبيرة للخضرة . وتحتل الآن حدائق موسكو ومنتزهاتها وشوارعها المزروعة على الجانبين اكثر من ٢٠ الف هكتار من الاراضى . وتمتد امام جميع المبانى فى الاحياء الجديده مساحات خضراء ويسير انشاء الحدائق الجديدة جنبا الى جنب مع بناء المساكن الجديدة . واستجاب الالوف من سكان موسكو بحماس لنداء « فليزرع كل موسكوفى شجرة » .

ويعتبر المتنزه المركزى للثقافة والراحة الذى يحمل اسم ماكسيم جوركى مكانا مفضلا لراغبى الترفيه عن النفس . وهو يشغل اكثر من مائة هكتار .

ومع هذا الولع الشديد بالخضرة فهناك ايضا طلب متزايد على الازهار . وهى تزرع فى احواض فى عديد من شرفات الشقق . ويشاهد المرء محلات بيع الزهور فى كل انحاء المدينة . وقد توجهت بضعة مرات الى محطة سكة حديد كييف وكل مرة كنت اشاهد الزهور تباع خارج الارصفة. وتكلف باقة الورد نحو روبل واحد. واغلب البائعين من النساء العجائز . وكان لجمالهن الساذج وابتسامتهن البريئة سحرا من نوع خاص ... اشبه بالحقول الخضراء فى الضواحى التى وفدن منها ...

وكنت اجلس فى بعض الايام — التى لا اشعر خلالها برغبة فى المشى — على احد المقاعد الخشبية الطويلة الموضوعة على جانبى بعض الطرق الرئيسية ... وامضى الوقت فى ملاحظة المشهد حولى . يسير الناس ازواجا ، كبارا وصغارا ، متشابكى الايدى فى الغالب وقد بدت عليهم جميعا امارات السعادة. يرتسم على وجوه كبار

السن منهم السلام والرضى . وهذا طبيعى ... هم الآن فى النظام الاشتراكى ليسوا اعضاء مهملين فى العائلة او فى المجتمع . وهم موضع حب عميق لدى ابنائهم واحفادهم . كما انهم – من الناحية الاقتصادية – ليسوا عبئا على احد لان الغالبية العظمى منهم تتقاضى معاشا ولهم شققهم ايضا . ومع هذا فالقانون السوفييتى لم يترك اية ثغرة . فقد نص على ان يعول الاولاد – ماديا – الابوين عندما تقدم بهما العمر اذا دعت الضرورة .

ويمثل مشهد الناس وهم عائدون بعد قضاء مشترياتهم منظرا يبعث على البهجة فكل واحد منهم يحمل بحماس فائق ربطته . وفى احد الايام شاهدت احدى الامهات وكانت قد اشترت كرة ملونة من البلاستيك لطفلها الذى بدأ يتعلم السير ولم تكن الام لتصبر حتى تصل لمنزلها وكانت متشوقة لترى طفلها وهو يلعب بالكرة . وهكذا حاولت وهى لم تزل على الرصيف ان تجعل الطفل يضرب الكرة بقدمه . وكنت ارقب الطفل والسرور المرتسم على وجه الام .

وتمتاز الشوارع بنظافة غير عادية . والناس لا يلقون فى الشوارع بأغلفة الحلوى ، وقصاصات الورق واعقاب السجائر واكواب الجيلاتى ... وهم يضعونها – بحكم العادة – فى صناديق النفايات التى تنتشر فى كل مكان على جانبى الطرق . وفى صباح احد الايام نثرت احدى النساء كسر الخبز امام احد المبانى ... وشعرت بالدهشة ... ولكن بعد وهلة شاهدت سربا من الطيور تهبط على المكان لتناول وجبة طيبة . ونفس المشهد تكرر فى يوم آخر . ويبدو ان هذه الامرأة بالذات تقوم يوميا باطعام الطيور فى ساعات الصباح .

وتنتصب الواح باطارات تثبت عليها الصحف اليومية ليقرأها

الجمهور وقد وضعت بجانب المقاعد الطويلة فى اركان الشوارع . وتتوفر تسهيلات اخرى لشرب المياه وشراب الليمون . فعلى جانبى الطرق توجد الاجهزة الاوتوماتكية لتوزيع مياه الصودا . ويوضع كوبيك واحد فى الثقب فتخرج الآلة كوبا من المياه النظيفة وبثلاثة كوبيكات يحصل المرء على كوب من شراب الليمون . ويتوفر ايضا الكفاس وهو الشراب التقليدى المنعش المصنوع من خبز الجودار المخمر . وهو يحفظ فى براميل وينتظر الناس بيعه بلهفة . ودفعت فى احد المرات خمس كوبيكات وحصلت مقابلها على كأس مترع منه ... ومذاقه لذيذ يجمع بين الحلاوة والحموضة . وهذا الشراب الذى يروى العطش يتمتع بشعبية كبيرة فى اوقات الحر سواء فى المدن او فى القرى .

المترو

يعتبر مترو الانفاق فى موسكو اكثر شئ يفتن ويخلب لب اى سائح . وفى الوسع ان يطلق عليه بحق اسم متحف الفن . فكل محطة من محطاته ذات تصميم معمارى خاص بها . فهى مبنية من الرخام المتعدد الالوان وتضيئها الاضواء الرقيقة اللطيفة المنبعثة من الشمعدانات وتتناثر بها التصميمات والموضوعات التشكيلية التى تجسدت بالموزايك والفريسكات واللوحات ... كلها تخلق عظمة مذهلة . ويمكن للمرء ان يطلق على هذه المحطات « قصور الشعب » وهى مواطن للجمال من نتاج العمل التطوعى للجميع – على عكس – قصور الزمن الغابر للملوك التى بنيت فوق تأوهات الكادحين واستغلالهم . واعترافا بما قدمه الشباب السوفييتى من مساهمة فى بناء المترو اطلق على احدى محطاته الجميلة اسم منظمة الشبيبة



مترو موسكو . محطة « كوموسومولسكايا » على الخط الدائري .

« الكومسومول » وفى احدى المحطات اقيمت لوحات بارزة مختلفة يظهر فيها سائق جرار ، وفلاح ، وبحار ، وعامل — اى كل الناس العاديين وذلك رمزا للجماهير الواسعة من المواطنين السوفييت .. البناة الحقيقيين للمجتمع الاشتراكى .

وتمتد خطوط مترو الانفاق تحت شوارع موسكو فى الاتجاهين لمسافة تزيد عن ١٥٠ كيلوميترا . وللمترو ٩٦ محطة ويستخدمه يوميا نحو ٦,٧ مليون راكب وتساعد السلالم المتحركة على سهولة وسرعة تحرك الناس داخل المحطات . والشىء الذى بهرنى اكثر من غيره هو السلوك المثالى لجماهير الركاب فلم يحدث فى اى يوم حالة ارتباك واحدة . فالناس يراعون النظام بدقة بالغة سواء عند الخروج او الدخول الى القطارات او فى استخدام السلالم المتحركة. ولم اشاهد حالة شد او جذب واحدة . ونفس النظام لاحظته فى

داخل القطارات ذاتها خلال ساعتين كاملتين تقريبا امضيتهما فى المترو فى المساء وهو الوقت الذى يكون الناس فيه متلهفين على العودة الى المنزل بعد يوم عمل . وكان الكثيرون داخل عربة المترو منهمكين فى قراءة الكتب ، بل ان البعض منهم واصل القراءة وهم على السلالم . وشاهدت بعض رجال الميليشيا وكبار ضباط الجيش وهم واقفين داخل العربة ممسكين بالدربزينات مثلهم فى ذلك مثل بقية الركاب العاديين الآخرين . وما من احد اهتم بذلك ، لان هذا هو الوضع الطبيعى للحياة الديمقراطية السوفييتية .

لينينجراد

وصلت لينينجراد فى الصباح قادما من موسكو فى القطار الاكسبريس السريع الليلى . وهبطت من القطار وانا اشعر بمشاعر الرغبة فى الحج الى هذه المدينة العظيمة، مهد الثورة والتى اصبحت بعد ذلك المركز الرئيسى لانتصارات عام ١٩١٧ . وكنت متعودا منذ فترة طويلة — بفضل قراءاتى — على اسماء وتفاصيل الشوارع والقصور والسجون وهى الاماكن المرتبطة بالنضال الثورى . وقرأت عن كل ذلك فى « اندامانز » وهى جزيرة تقع بعيدا عن الساحل الهندى ... حيث رحلت فى الثلاثينات ضمن ٤٠٠ من الثوار الهنود من جميع انحاء البلاد . وتعودنا هناك فى زنزانات السجن الرطبة والمظلمة التى وضعونا فيها ، ان نتصفح صفحات التأريخ الخاص بالثورة الروسية كما سجلها جون ريد وغيره من الكتاب . وكان ذلك مبعث الهام عظيم لنا وكثيرا ما حلمنا باليوم الذى يهب فيه ايضا فى بلادنا عامة الشعب ويستولون على السلطة ويبنون مجتمعا جديدا .

وعلى الرغم من ان مرشدى كان على علم تام بحقيقة مشاعرى لاطلاعه على حياتى السياسية ، الا اننى – على سبيل التأكيد – رجوته ان يضع برنامج زيارتى بحيث لا تفوتنى خلال فترة بقائى فى المدينة فى الايام الاربعة القادمة رؤية اى من اماكنها المقدسة .

واول مكان زرته كان قلعة بطرس وبولوس حيث عانى لعقود طويلة الثوار الروس ايام القيصر . ولفظ الكثيرون منهم انفاسهم الاخيرة فى زنزاناتها . والبعض الآخر اعدم شنقا ومن بينهم الكسندر اوليانوف الشقيق الاكبر للينين الذى اتهم بمحاولة اغتيال القيصر . وهنا ايضا زج بالنساء العضوات فى الحزب الثورى . ووضع فيه ايضا مكسيم جوركى الكاتب الانسانى الكبير ومكث بعض الوقت وراء قضبان هذا السجن . ويحتفظ الآن بمبانى السجن على سبيل الذكرى . وفى مثل هذا المكان حيث يقترب كثيرا الموت والحياة من بعضهما البعض يستغرق الانسان فى التفكير ويتأمل فى قيم الحياة وافراح واحزان الاحياء . ولم يفت هذا الجو المرشدة السياحية التى انضمت الينا لتخبرنا عن المكان .

وعلى مسافة ليست بعيدة عن القلعة شاهدت السفينة الاسطورية « اورورا » التى ترابط باستمرار فى نهر نيفا . وهذه البارجة هى التى اطلقت الطلقات الاولى لثورة اكتوبر . ويزور السفينة يوميا اعداد كبيرة من الناس وتتاح لهم فرصة الاستماع الى القصة الملهمة لايام الثورة من افواه البحارة الذين اشتركوا فى المعركة .

ويوما ما سأل احد السياح البريطانيين البحار رودكوفسكى الذى يبلغ الآن السبعين من عمره : « ينبغى ان تكون شقيا ، ايها السيد ، فهل كانت الثورة تستحق كل هذه المعاناة التى مرت بك ؟ »

وفوجئ البحار بالسؤال الا انه اجاب عليه قائلا « بالطبع انها تستحق ! وليس هناك مصيبة اسوأ من فقدان عائلة الشخص وهم اعز ما عنده . ولكن الم اكن على استعداد للتضحية بحياتى من اجل القضية التى ماتوا من اجلها ؟ قضية سعادة الشعب ... وربما لا تفهم ما اقوله ... »

وكان رودكوفسكى قد فقد ولديه الاثنين وعمر احدهما ١٦ عاما والآخر ١٤ عاما خلال ايام حصار لينينجراد . وذكرنى ذلك بالشجاعة والتضحيات الهائلة لبحارتنا فى الاسطول الهندى الذين رفعوا راية العصيان فى عام ١٩٤٦ خلال الحكم البريطانى الاجنبى . وانضم اليهم فى ذلك الحين ٢٠٠ الف من عمال بومباى وافراد الطبقة المتوسطة بتنظيم المظاهرات التى تدعو الى التضامن الثورى . وقتل المئات برصاص الانجليز . ولكن بعد عام واحد اجبرت نفس القوات الانجليزية على مغادرة البلاد . وانتهى الحكم الاجنبى .

وبعد ذلك ذهبت الى القصر الشتوى . وهذا القصر اجتاحه الثوار فى عام ١٩١٧ فى ليلة الخامس والعشرين من اكتوبر (السابع من نوفمبر) . واعلن الحكم السوفييتى بعد الحاق الهزيمة بالقوات المعادية التى ابدت مقاومة هزيلة امام الجماهير الثورية . هنا عاش القياصرة – فى هذا القصر الذى يحتوى على اكثر من الف حجرة – يتقلبون فى الترف بفضل استغلالهم بلا ادنى رحمة للفلاحين فى البلاد . وعلى الرغم من ان القياصرة عاشوا حياة حافلة فى عرفهم ، الا ان عقولهم كانت صغيرة وكذلك كانت قلوبهم . فقد اصدر احد القياصرة مرسوما يقضى بالا يبنى فى المدينة اى بناء يعلو قصره . وكانت هذه وسيلته لرفع مكانته فى اعين العالم . واليوم يشاهد المرء

فى القصر متحفا عظيما للفن ، يعد بحق من افضل المتاحف فى العالم لما يحويه من مجموعة كبيرة من الروائع الاصلية للرسامين الاوربيين .

ومن القصر الشتوى ، توجهت الى « نفسكى بروسبكت » الشارع الشهير الذى سار فيه الجنود الثوار والبحارة لشن هجومهم الاخير . ووجدت الشارع مزينا بالاعلام واشرطة الزهور وتقدمت السيارة الى مصانع « بوتيلوف » لاننى كنت حريصا على مشاهدة هذه المصانع التى وقف عمالها بتصميم الى جانب قضية الثورة منذ عام ١٩٠٥ . ووجدت الاعلام مرفوعة فى كل مكان على الطريق . وظننت ان كل ذلك من اجل تكريم شخصية هامة ستقوم بزيارة للمصنع . وسألت مرشدى عن اسم هذه الشخصية . فابتسم واخبرنى انه ما من شخصية هناك على الاطلاق وان كل هذه الزينات بسبب احتفال البلاد كلها بيوم اول سبتمبر ، يوم افتتاح المدارس . ففى هذا اليوم يجرى فى كل مدرسة احتفال مرح حيث يقوم فيه المدرسون وتلاميذ الصفوف العليا بالترحيب بالصبية ، اولادا وبناتا ، الذين بلغوا السابعة من اعمارهم ويدخلون المدرسة لاول مرة . ويقوم احد الاطفال بقص الشريط الوردى ويدخل قاعة الدرس . ويقدم الصغار الى المدرس باقات الزهور التى اعطاها لهم آباؤهم فى المنزل . وبدوره يقوم المدرس بمرافقتهم لاطلاعهم على الفصول وحجرة النادى والحديقة وفناء المدرسة .

وسألت مرشدى « وماذا يحدث فى الكليات حيث يوجد الاولاد والبنات الكبار ؟ هل توجد عادة المرح الصاخب واطلاق عنان للمداعبات السمجة التى قد تتسم احيانا بالقسوة والاستهتار وتعريض الطلبة المستجدين لها ؟» وبدت علامات الدهشة واضحة

عليه وقال انه لم يسمع بمثل هذه الافعال . وهو شخصيا لا يتصور ان تحدث مثل هذه الاشيا . « لماذا يتعين ان يتعرض للاذى الطالب فى مثل هذا اليوم السعيد فى حياته ؟» وعندئذ اخبرنى انه فيما يتعلق بالكليات السوفييتية فقد جرت العادة ان يجتمع جميع الطلاب المستجدين منهم والقدامى فى احتفال بهيج يعقد فى اليوم الاول للدراسة . ويكون هناك فى العادة حفل تثقيفى . وتشترى بعض الكليات تذاكر لمشاهدة احد الافلام وتدعو جميع الطلبة الجدد اليه .

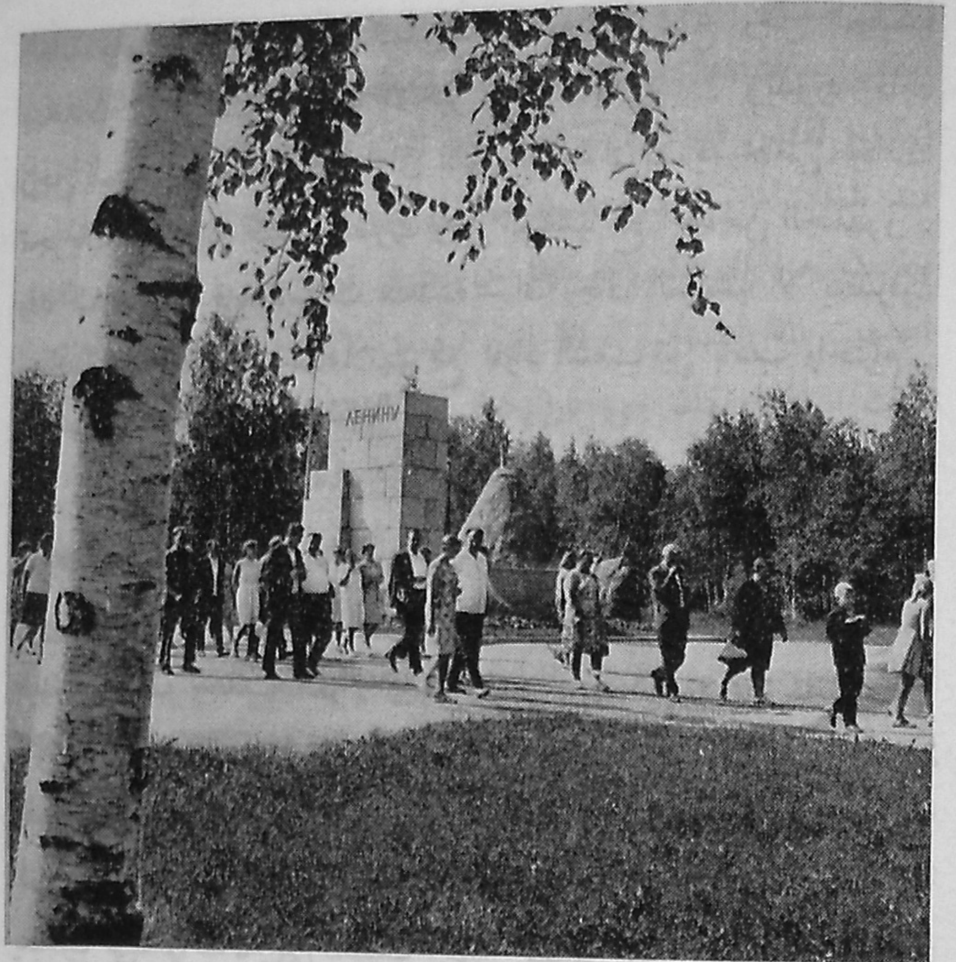
و « سمولنى » المبنى الضخم الذى كانت تتلقى فيه قبل عام ١٩١٧ فتيات الطبقات العليا دراسات خاصة ، واصبح فيما بعد المقر الرئيسى للثورة واول مقر لحكومة العمال والفلاحين لروسيا بعد النصر . ومن احد حجراته قاد لينين النضال الثورى يوما بعد يوم . وكانت تقطن فيه ايضا زوجته كروبسكايا ، رفيقته التى كرست حياتها كلها من اجله . وشاهدت الاثاث البسيط للحجرة . وكان فيها كرسى عادى ومنضدة . وعلى المنضدة مصباح المكتب الذى كان لينين يضيئه حتى ساعات متأخرة من الليل . وتعود عندما يشعر بالتعب ان يستريح فى الحجرة المجاورة وهى اصغر حجما على سرير عادى اعد له . وتبدو مظاهر التقشف واضحة للوهلة الاولى . وتذكرت كلمات هو شى منه عندما قال فى احدى المرات « ان لينين يعتبر قائدا سياسيا عظيما بالنسبة الى الشعوب الاوربية ، اما بالنسبة الى شعوب آسيا فانه اكثر من ذلك ، انه قديس عاش حياة روحية سامية » . وتذكرت ايضا كلمات صن يات-صن الذى قال « لقد وجد — عبر القرون العديدة من تأريخ العالم — الوفا من الزعماء والفلاسفة الذين رددوا حكما بليغة بالكلام ولكنها لم تكن مترجمة ابدا

الى افعال . اما انت يا لينين فالاستثناء الذى لم يكتف بالكلام والتوجيه ولكنك ترجمت اقوالك الى حقيقة واقعة . انك خلقت بلدا جديدا » .

وعندما ذهبت الى « رازليف » القريبة من لينينجراد ، شاهدت مزيدا من مظاهر الحياة المتواضعة التى عاشها لينين . فهنا اضطر الى الاختباء فى منتصف عام ١٩١٧ فى كوخ من اغصان الاشجار لكى يفشل محاولات جواسيس الحكومة المؤقتة الذين كانوا يحاولون فى سعار القبض عليه ، حيا او ميتا . واقدم فلاح عادى على اعداد هذا المخبأ له . ومن هناك تتبع لينين عن كثب تطور الاحداث واشرف على الاستعدادات للقيام بالثورة المسلحة .

وشاهدت فى متحف « رازليف » التذكارى براد الشاى الذى كان يعد فيه لينين الشاى وكذلك قميصه وفراشه وهى كلها من النوع الذى يقتنيه المزارع العادى . وينتصب الآن فى المكان الاصلى للكوخ نموذج تقليدى له وبالقرب منه يقوم ايضا نموذج له من الجرانيت . وخلال فترة وجودى هناك ، وفدت مجموعات تلو مجموعات من طلاب المدارس والكليات لمشاهدة هذا الاثر ، وكانت المجموعات تقف تستمع الى مدرسيهم الذين كانوا يشرحون لهم وقائع التأريخ . وهذا تقليد يتبع دائما فى زيارات الشباب للمتاحف والنصب التذكارية فى جميع انحاء البلاد .

وعلى مسافة قريبة ، فى طرف الطريق ، كان هناك رسامان ومعهما حوامل الرسم . كان احدهما وهو متقدم فى العمر يرسم صورة للكوخ وتحدثت معه وخلال الحديث علمت انه اشترك فى الانتفاضة الثورية فى عام ١٩١٧ ويشعر الآن بسعادة فى التنقل بين مختلف الاماكن التذكارية المرتبطة بتلك الايام المجيدة وهو



تمثال من الغرانيت في رازليف بضواحي لينينجراد حيث عاش لينين طوال يوليو-اغسطس ١٩١٧ في كوخ من اغصان الشجر متخفيا عن انظار الحكومة المؤقتة المعادية للثورة وعن ملاحقاتها .

يقوم برسم صور لها ... اما الآخر فكان فنانا متوسط العمر ويرسم ما بدا انه رسم تجريدى لاشجار الغابة المجاورة للمكان . ولكنه كان يفسد جو المكان بجلبه لانتباه الزوار الشبان . ولهذا فقد اقتربت من احد اعضاء الميليشيا وكان يرتدى الزى العادى ولفت نظره الى ذلك . واقترحت ان يطلب من الرسام ان ينتقل الى مكان آخر من

الغابة وهناك يواصل رسمه كما يشاء . وعندما شرع رجل الميليشيا يتحدث الى الفنان ، اخذ الاخير فى المجادلة ... وبدوره حاول رجل الميليشيا — متجنبا اللجوء الى القوة — اقناعه ان تصرفه خاطئ . وكانت تجربة مثيرة رؤية كيف يتصرف رجل الميليشيا مع احد من الجمهور . وقد شاهدت — فى مناسبات متعددة — ان رجال الميليشيا لا يتصرفون بغطرسة او بعنف فى معاملاتهم مع افراد الشعب بل بأدب واحترام .

الشعب

ان من اعظم الانطباعات التى خرجت بها خلال الايام الاولى من زيارتى للاتحاد السوفييتى كان وضع المرأة فى المجتمع . فاينما ذهبت وجدت المرأة العاملة فى اعداد كبيرة . كانت فى كل مكان : فى الفنادق والقطارات والاتوبيسات والمصالح الحكومية والمحلات والمدارس والكليات . وقد بدا ان المرأة هى المسيطرة على المجتمع ، وسألت مرشدى اين معظم الرجال . واجاب انهم فى العادة يعملون فى الاعمال التى تتطلب جهدا عضليا كبيرا . وخلال زيارتى للمعاهد والمتاحف وغيرها من الاماكن كنت اشاهد عددا من النساء الشابات يعملن بعد تخرجهن من الجامعات وكانت بعض النساء المتوسطات الاعمار يشغلن مراكز مرموقة . وكلهن يتحلين بقدرة فائقة وبقدر كبير من الذكاء . وكن يزاولن العمل بيسر ولكن — فى الوقت نفسه — بطريقة جادة . وكن يولين اهتمامهن كله للتفاصيل وينجزن العمل بسرعة .

وفى لينينجراد التقيت مع السيدة بارانيكوفا زوجة ابن الاكاديمى المشهور بارانيكوف الذى كان رائدا لدراسات الادب الهندى وقام بترجمة ملحمتنا « رامايانا » لتولسيداس الى الروسية شعرا . وقد

واصل زوجها عمل ابيه كمتخصص فى الدراسات الهندية . وقد رافقتنى باعتبارها عضوة فى جمعية الصداقة السوفييتية-الهندية فى زيارتى لقصر الزفاف . وبينما كنا نقف هناك خارج القصر خرج منه شابان تزوجا لتوهما وتقدما الى سيارة كانت فى انتظارهما . وطلبت من السيدة بارانيكوفا ان التقط لهما صورة . وعلى الفور اعددت آلة التصوير ، الا اننى ترددت لاننى لم احصل على اذنهما بذلك . فما كان من بارانيكوفا الا ان ضحكت وقالت بالهندية « لا ، لا تفضل بالتقاط الصورة ... هذه ارض المرح ».

ودعتنى فى اليوم التالى لتناول العشاء فى منزلها . ورحبت بى عند قدومى هناك، وكان معها صغيرها اليكسى، على الطريقة الهندية . وكنت اتخيل بانهم يقطنون بالتأكيد شقة كبيرة لانهم ينتمون الى عائلة مشهورة . ولكنى وجدت ان شقتهم لا تختلف عن شقق غيرهم فهى تتألف من ثلاث حجرات . وكانت عندها ابنة تدرس فى الكلية وجميعهم يعرفون اللغة الهندوكية معرفة جيدة . وكانت حجرة الطعام فى شقتهم مزينة بلعب من « اوريسا » وتحف يدوية من جابور وصور لسرينيكتان وبعد العشاء رافقنى اليكسى والفتاة اولجا وهى من الجيران عند عودتى الى الفندق . وكان اسمه « فندق اوربا » وهو يحتل مبنى ضخما من مبانى الايام الماضية . وكانت حجرتى فى حجم القاعة تقريبا واضواؤها خافتة وعلى السرير غطاء من المخمل وعلى الارض بساط سميك ... وبالحجرة مجموعة من الارائك الكبيرة ومناضد ضخمة وكراسى بوسادات . وهمس الشابان لبعضهما البعض ... مما اثار فضولى واعتقدت انهما يبديان الاعجاب بالقاعة الفسيحة واثاثها حيث انهما يسكنان فى شقق صغيرة . وسألت اليكسى عما يقوله لاولجا . وتردد فى البداية وتحت الحاحى قال :

« كنت اقول لها ... يا له من تبذير ... مثل هذه الحجرة لشخص واحد ». وكشفت ملاحظة الصبى عن مدى مقت ابناء الشعب لحياة التفاخر .

لقد ساعدنى خلال جولتى بضعة اشخاص قاموا بعمل المرشدين والمترجمين لى . واضطلعوا بعملهم بحماس كبير ومع الوقت نمت اواصر الصداقة بينى وبينهم . وكنت اشعر من جانبى بعرفان الجميل ايضا لانه بلغ بهم تفانيهم فى العمل الى حد مساعدتى حتى فى غير ساعات العمل المحدد لهم . وكثيرا ما تغاضوا عن تناول وجباتهم فى الاوقات المعتادة . واتيح لى من الفترات الطويلة التى قضيتها معهم ان اتعرف على سمات مختلف الشخصيات. وكان السيد يورى الذى رافقنى خلال الاسبوعين الاولين من الزيارة صحفيا مقتدرا . وعندما لم يتوفر مترجمون كان يسرع الى مساعدتى بقدر المامه باللغة الانجليزية. كان فى الثلاثينات ، ملئ بالنشاط والاندفاع . وزوجته وصلت الى الصف الرابع من دراستها فى احد المعاهد . وكان ينتظر الانتقال الى شقة جديدة وكان من المعتاد ان يخوض فى مناقشات طويلة مع زوجته حول ديكورات منزلهما الجديد . وفى النهاية قررا ان يشتريا اثاثا جميلا اولا ثم بعد ذلك يعملان على اقتناء سيارة . وعندما ذهب معى الى لينينجراد من موسكو ، كان يفتقد صحبة زوجته وكان يعوض ذلك بالمكالمات التليفونية الطويلة معها وكان يبدو بعدها دائما اكثر انشراحا .

ورافقنى فى سيبيريا السيد ديما ، كان شابا فى الخامسة والعشرين من عمره . وعندما كنا هناك تساقط الثلج بغزارة . وبرغم ذلك ، واصلت التنقل كما فعل هو ايضا بدون اى تبرم . وشعرت فى احد الايام بتعب قليل ، الامر الذى اثار قلق ديما . وعلى الفور

اسرع لاحضار الادوية والغذاء المناسب . وفى الساعة الرابعة صباحا حضر الى حجرتى وقام بحزم امتعتى وجمع اوراقى بعناية بالغة واخذنى الى المطار فى رحلة العودة . ولم يكن فى استطاعة احد من افراد عائلتى ان يخدمنى افضل من ذلك .

ورافقنى فلاديمير ديودين ، وهو صحفى كبير بضعة ايام عندما كنت فى موسكو منهمكا فى المناقشات حول المسائل النظرية والمشكلات الملحة مع عدد من الشخصيات المسئولة الهامة . وكان مختلفا بعض الشىء عن الآخرين ، فهو على قدر من التحفظ واحيانا متقلب المزاج . واحسست ان هناك سببا دفينا لذلك ، واتضح فيما بعد اننى كنت على صواب . فقد علمت انه ووالدته مرا باوقات عصيبة خلال الحرب . وكان له شقيق واختان تقل اعمارهم جميعا عن العشرين عاما ، وذلك عندما اصيب والده اصابة خطيرة خلال الدفاع عن موسكو فى عام ١٩٤١ . وعولج والده فى المستشفى لمدة ٤ اشهر عاد بعدها الى الخدمة . وفى العام التالى جرح والده مرة اخرى . وكانت هذه المرة اصابة قاتلة . وانهارت والدته ، وكان عليه ، وهو صبى صغير ان يواسيها . وكانت امامهم ايام عصيبة للغاية . فكان على الام ان تناضل من اجل العناية بالاطفال الاربعة . ولقيت احدى الفتاتين مصرعها فى حادث سيارة بموسكو . وكان على ديودين ان يكافح لاعالة نفسه ورعاية افراد عائلته ايضا .

وعلى مدى شهر كامل رافقتنى الفتاة لينا فى موسكو . وكانت تتحدث اللغة الانجليزية بطلاقة فقد درستها لمدة ٤ سنوات فى الكلية . وهى تبلغ من العمر ٢٢ عاما ومن النوع الجاد بالقياس الى اقرانها فى مثل هذه السن . وتتصف بقدر كبير من التدقيق فى عملها . وكانت تقول دائما الصدق حتى فى الاوقات التى لا يكون

فيها قول الصدق مستساغا . وفى العادة تزدحم شوارع موسكو بحركة مرور السيارات وينبغى السير فيها ـ بعكس قواعد المرور عندنا ـ على الجانب الايمن بدلا من الايسر . ولاننى غير متعود على ذلك ، كنت احيانا اعبر الطرق بطريقة خطأ . وعندما لاحظت لينا ذلك ، اعتادت ان تمسك بذراعى وتحجب عنى الجانب المواجه لحركة المرور . وابديت معارضتى لهذا التصرف واخبرتها انه لا ينبغى عليها ، وهى بمثل هذا الصغر بالنسبة لى ـ ان تجازف بالمخاطرة . ولم تكن تستمع لى وتقول « انه واجبى ، الست مكلفة بمسئولية المحافظة على سلامتك ؟»

ولاحظت صفة الاحساس الشديد بالواجب فى آخرين غيرها . وعندما زرت المعرض الدائم للانجازات الاقتصادية فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية رافقتنى فتاة اسمها نينا كمرشدة من هيئة المعاملين بالمعرض . وتوجهنا فى البداية الى جناح الفضاء وشرحت لى هناك المعروضات وخاصة الاقمار الصناعية من طراز « سبوتنيك » والصواريخ . وتحدثت باحترام عن الكلبة « لايكا » التى ماتت وعندما تساءلت الا يوجد نصبا تذكاريا لها قالت « ربما لا » ولانها تشعر انه كان من الواجب وجود مثل هذا النصب فقد قالت ذلك بنغمة تشيع فيها رنة اسى . وبعد ذلك قادتنى الى الجناح الرئيسى حيث علقت خريطة ضخمة للاتحاد السوفييتى وعليها مصابيح ملونة لاظهار مدى التقدم الذى تحقق فى البلاد وبدأت بحماس تخبرنى عن الجوانب الضخمة لهذا التقدم ـ التصنيع والتطور الزراعى والوحدة بين القوميات المتعددة .. الخ وكنت قد علمت بكل هذه الاشياء من الكتب وبأدب جم قلت لها ذلك . وشعرت بالخجل . وبعد ان استعادت طبيعتها بعد فترة سألتنى

باخلاص : « اذن اخبرنى ما هو واجبى الآن ؟» فشكرتها وقلت لها انها قامت بالفعل بعمل طيب عندما شرحت لى معروضات جناح الفضاء بالمعرض .

وقد خرجت بتجربة ممتعة للغاية من احتكاكى بسائقى السيارات خلال جولاتى الطويلة . واحد من هؤلاء كان متوسط العمر واسمه فلاديمير بافلوفيتش وكان سائقى عندما زرت ياسنايا بوليانا ومعنا لينا . واصبحت انا وهو صديقين حميمين بعد تقرب بسيط اولى من جانبى . وبعد ان قطعنا ٥٠ ميلا من موسكو اوقف السيارة ونزل وجمع بعض اعشاش الغراب وقدمها لى. ولما وصلنا الى متحف تولستوى ، جلسنا نحن الثلاثة على مائدة واحدة فى المطعم هناك وتناولنا غذاءنا . وتعمل لينا موظفة فى وكالة انباء نوفوستى التى تمتلك السيارة . ولم تظهر لينا ولا السائق اية اشارة على ان جلستنا هذه امر غير عادى . ومن ناحية اخرى تصرف السائق كانه المضيف فكان هو الذى اختار انواع الاطباق وايضا الاسطوانات لتذاع على الجراموفون . وكان الامر بالنسبة لى تجربة جديدة اتاحت لى التعمق فى ادراك كنه المساواة الحقيقية التى نشأت فى المجتمع السوفييتى .

واثير اهتمامى لكى اعرف قصة حياة مستر بافلوفيتش وحصلت عليها منه شخصيا . فهو قد حارب خلال الحرب العالمية الثانية فى مختلف الجبهات واضطر ان يمكث فى احد المستشفيات مدة ٤ اشهر لاصابته بجرح خطير . وعندما انتهت الحرب ، كان مرابطا فى المجر وهناك شاهد « الفظائع التى ارتكبها جيش هتلر فى البلاد التى مر بها » وكان من رأيه ان الالمان بدأوا الحرب « لان قيادتهم كانت رديئة ».

سألت « هل لك عائلة ؟»

اجاب بافلوفيتش بقوله: « بعد الحرب ، تزوجت بفتاة بعد معرفة استمرت ٦ اشهر . وعندنا الآن طفل فى الرابعة من عمره ونقطن فى شقة من حجرتين. وزوجتى مرتبطة جدا بالطفل ولهذا فانها ترعاه بالمنزل ورفضت مزاولة اى عمل منتظم فى الخارج . وعندما يكون الطفل خارج المدينة فى احد المخيمات الصيفية التابعة لرياض الاطفال ـ فانها تنتهز الفرصة وتعمل عملا مؤقتا لمدة ثلاثة اشهر ».

وتساءلت: « لماذا لا نأخذ كلانا صورة فوتوغرافية معا ؟» ووافق بابتسامة . والتقطت لينا لنا صورة . ولفتت لينا نظرى ايضا الى ان فلاديمير حصل على وسام لخدماته فى الحرب . ولم تكن تذكر لقب « سيد » امام الاسم لان ذلك لم يكن عادة متبعة . فالمواطنون السوفييت ينادون بعضهم البعض بالاسم فقط او يستخدمون كلمة « رفيق » كلقب . وهم يشعرون ان هذا السلوك يتسم بقدر اكبر من المساواة . وما من احد يستخدم كلمة « سير » اى « سيدى » عندما يخاطب رئيسه لان ذلك يعتبر نوعا من الانتقاص لاحترام الذات ...

قدامى المحاربين الثوريين

كانت لقاءاتى مع قدامى المحاربين الثوريين حدثا لا ينسى . وكنت متلهفا لتتاح لى فرصة الحصول على معلومات من مصادرها الاصلية من افواه هؤلاء الذين ساهموا بدور بارز فى الحركة الثورية قبل عام ١٩١٧ وفى تلك الايام العاصفة التى تلت ذلك ... والتى تتمثل فى الحرب الاهلية والحرب ضد التدخل الاجنبى . وفى لينينجراد اجتمعت مع السيد فينوجرادوف واثنين من رفاقه . وحياة فينوجرادوف مليئة بالاحداث . فقد بدأ نشاطه كعامل ثورى فى

عام ١٩٠٨ . وانضم الى الحزب الشيوعى فى عام ١٩١٥ . وفى العام التالى زج به فى السجن ولم يفرج عنه الا بعد نشوب الثورة . وفى عام ١٩١٨ نظم حرس البولشفيك على الحدود تحت شعار « قاتلوا بالبندقية وبكل قلوبكم » على حد قوله . واردف يقول « لم يكن لدينا فى ذلك الحين القوة العسكرية التى نملكها الآن ». وبعد انتهاء الحرب فى عام ١٩٢١ ، عين مديرا متشاركا فى احد المصانع الكبرى للرقابة على مديره الاصلى القديم الذى لا يعتمد عليه سياسيا لانتمائه لعائلة ارستقراطية . وقال فينوجرادوف وهو يضحك من كل قلبه « انه كان المدير الاحمر ». وسألته ما هى مشاعره ازاء كل ما مر به ـ وقد بلغ الآن الخامسة والسبعين من عمره ـ وتكونت لديه خبرة عقود من السنين ، فاجاب وهو غارق فى الذكريات ـ « اننى لم اكن احلم عندما افرج عنى ان بلادى ستكون بمثل هذه العظمة وفى مثل هذا الوقت القصير ايضا ».

وكانت حكاية زميليه على نفس المنوال . والتقيت بهم جميعا فى احدى غرف متحف الثورة فى لينينجراد . ولم يكن هناك مكان افضل من هذا لمثل هذه اللقاءات . وبينما كنت اسير فى القاعة الرئيسية شاهدت على الجدران صورة فوتوغرافية للسيد فينوجرادوف وكذلك صور لرفيقيه . ولم يخطر بباله ان يلفت نظرى لها . هكذا كانت بساطة هؤلاء الناس . ويبلغ عدد قدامى المحاربين الثوار فى لينينجراد نحو ٤٠٠ شخص . وتتشكل منهم مجموعة تضم ١٠٠ تقريبا تنتهز المناسبات الخاصة مثل الاحتفال « بيوم لينين » و « يوم ثورة اكتوبر » لكى يقوم اعضاؤها مجتمعين بانشاد الاناشيد التى ترجع الى ايام الثورة . وتوجه الدعوة الى قدامى المحاربين لحضور الاحتفالات فى المدارس والكليات والحفلات التى يقيمها

الكومسومول للتحدث امام الشباب عن ايام النضال الماضية . وسجلت هذه القصص ايضا على اشرطة تسجيلية . ويحظى قدامى المحاربين باحترام جم من جانب ابناء الشعب . وتقدم الحكومة — من جانبها — مزايا خاصة لهم فى الاسكان والمعاشات وتسهيلات فى العلاج الطبى .

وفى موسكو التقيت مع السيد افانيس باراتوف سكرتير منظمة قدامى المحاربين المحلية وتضم ١٥٤ عضوا . وعلى مدى ساعة كاملة ، اخبرنى كيف قام فى العشرينات — متخذا كابول مركزا رئيسيا لهذا الغرض — بتهريب السلاح والمطبوعات الى الثوار الهنود . وكان يتعاون فى هذا الصدد مع راجا ماهيندرا براتاب بركات الله وعدد آخر من الهنود فى المنفى . وخلال قيامه بهذا النشاط ، القت السلطة العسكرية الايرانية القبض عليه وهددته بالموت . الا انه تمكن من الفرار بعد ان قفز من الطابق الثانى من سجنه . وسألته عن مشاعره عندما يتحدث عن هذه الايام امام الجمهور فى الاجتماعات العامة . وقال انه يشعر بالسعادة ، وهى تقوى من ارتباطه بالماضى . وقال انه يتطلع بنوع خاص الى احتفالات « بيوم الثورة » كل عام عندما يدعى هو وزوجته الى طشقند ، التى كانت احد مسارح نشاطه خلال الحرب الاهلية . وسألته « وماذا عن عائلتك ؟» واجاب : « اننى الآن فى السابعة والسبعين من عمرى . وعندى اولاد واحفاد . وتدرس احدى حفيداتى الآن الصحافة فى جامعة موسكو . وعندما تنصت الى حكاياتى عن الثورة تشعر انها مصدر للالهام وقد قررت ان تكتب عنها بعد ان تصبح صحفية ».

زاجورسك

بعد مسيرة بالسيارة لمسافة ٥٠ ميلا تقريبا من موسكو وعبر مناظر طبيعية خلابة ، فالطريق يمر بالمروج والغابات الكثيفة والقرى الصغيرة ، وصلت الى بلدة زاجورسك العتيقة . وهى مشهورة لجمال كنائسها القديمة وديرها واكاديمية اللاهوت بها . وهناك شاهدت تجمع الالوف وازدحام ساحة وقوف السيارات خارج المبانى باتوبيسات السياح والعربات . وعندما ذهبت الى المدخل وجدت الكنيسة مليئة بالناس . وتأملت وجوههم ... فبدا واضحا انهم جميعا لم يجيئوا الى هنا بدافع الايمان . ومع ذلك كان يبدو على العجائز من النساء ، وكان عددهن كبيرا ، مظاهر الايمان الهادئ . وكن يجمعن ، فى مكان ملحق ، « الماء المقدس » الذى يتساقط من صليب منحوت فى الصخر . وبطبيعة الحال كانت هذه المياه ترد عن طريق مضخة وضعت داخل الصليب ومرتبطة بأحد الآبار . وداخل الكنيسة كان الناس يدفعون مبلغ ٣٠ كوبيكا من اجل « العشاء الربانى » ويمنحون كسرة الخبز المقدس . ودفعت انا ايضا . وعند ذلك نظر الى رجل الكنيسة وقد بدا عليه الضيق وسألنى عما اذا كنت مسيحيا . فأجبته باننى هندى وعندها اعاد لى النقود حيث ان المراسم — على حد قوله — ليست لغير المسيحيين . وخرجت بانطباع عن المكان مؤداه انه حتى فى « بيت الله » ليس جميع البشر متساوين .

وعندما خرجت من الكنيسة ، شاهدت مجموعة من طلاب الكليات الذين يعرفون اللغة الانجليزية . وعندما سألتهم عن السبب الذى دفعهم للمجئ الى هذا المكان ، قالوا انهم لا يؤمنون بالدين ،

الا ان الابراج ، والقباب والواجهات المزينة وكذلك تألق الاضواء داخل الكنيسة ... كل ذلك بما يحويه من جمال معمارى يبهجهم للغاية ويسرهم كذلك الاستماع الى موسيقى الكورال العذبة التى توحى نغماتها والحانها بالصفاء . وعلى مقربة وقف شابان من طلبة اكاديمية الكنيسة يتجادلان بعنف مع مجموعة من الفتيات اللاتى كن يشككن فى وجود الله وخلود الانسان . وقالت احدى الفتيات ان ابويها توفيا وكانا متعلقين بها . ومع ذلك فلم يأتيا اليها مرة اخرى . فاذا كانا حقيقة يعيشان فى عالم ما آخر فكيف اذن نسياها . وكان جو المكان كله خارج الكنيسة اشبه ببقعة سياحية . فكثير من الناس يروحون ويجيئون حاملين عدسات التصوير وآلات العزف على الكمان والجيتار وحركة البيع نشطة فى اكشاك الفاكهة والوجبات الخفيفة .

وعلى الرغم من الطابع الالحادى للتعليم العام فى الاتحاد السوفييتى ، الا ان لكل مواطن الحق الدستورى فى ممارسة اية عقيدة . وتوجد الكنائس والمساجد والمعابد البوذية مفتوحة للمؤمنين فى كل البلاد . ولكن فى العادة يقتصر الايمان على كبار السن ولا تعمل كثير من الكنائس العتيقة لعدم توفر العدد الكافى من المؤمنين . وتحافظ الحكومة على مثل هذه الكنائس لما تمتاز به من جمال معمارى وتأريخ قديم باعتبارها من الآثار الفنية والاماكن ذات القيمة التأريخية . وتعتمد الكنائس العاملة ورجال الدين فى تغطية نفقاتها ومعيشة العاملين بها على الدخول المتجمعة من التبرعات الاختيارية من المتدينين وعلى اموال الجمعيات الدينية . وتقوم الهيئات الدينية بطبع ونشر ما تشاء من الكتب الدينية ولها الحرية المطلقة فى تنظيم المؤتمرات والندوات . ووفقا للقانون ، يمكن تشكيل

20*

الجمعيات الدينية فى اى مكان اذا ما طلب ذلك عدد من الناس بحد ادنى ٢٠ شخصا وذلك من اجل اشباع احتياجاتهم الدينية .

ومن ناحية اخرى ، توجد ايضا جمعية «زنانيه» اى المعرفة وتنتشر على المستوى القومى للبلاد . وعضويتها اختيارية وتقوم بالدعوة على اساس من العلم والتاريخ وتكشف مضار الاعتقادات الخرافية للدين وتحيزه ومغالطات الفلسفة الدينية . وتنشر هذه الهيئة كذلك المجلات والكتب المناوئة للدين، الا ان كل ذلك يتم بدون اى تصرف سفيه او بطريقة تنطوى على السخرية بالمؤمنين .

حب الهند

اينما ذهبت وجدت الحب للهند . ويكن الشعب السوفييتى حبا عميقا لبلادنا ويتزايد هذا الحب باطلاعهم على المزيد من ثقافتنا ومشكلاتنا وامانينا القومية . والتقيت مرتين مع كل من الدكتور كوتوفسكى والدكتور كوماروف والدكتور ميلينكوف والبروفيسور جوردون-بولينسكى وجميعهم من كبار اساتذة القسم الهندى فى معهد الدراسات الشرقية التابع لاكاديمية العلوم لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية . وتأثرت تأثرا بالغا بتفانيهم فى الابحاث وجهودهم من اجل الحصول على حقائق تأريخنا . ووضعت البروفيسور بولينسكى قائمة بعدد من الاسئلة لتوجيهها الى لمعرفة تفصيلات تطور الحركة الثورية فى الهند . وكانوا متلهفين لمعرفة كيف ان هذه الحركة الثورية الوطنية تطورت عبر مراحلها المختلفة لتتخذ فى النهاية موقفا اشتراكيا . ويكن المتخصصون فى الشئون الهندية من اعضاء المعهد احتراما عميقا لبعض جوانب الثقافة الهندية القديمة . وقد كتبوا ويكتبون الكتب القيمة حول هذه الثقافة معتمدين فى



فرقة سوفييتية لهواة الرقص تؤدي رقصة هندية .

ذلك على دراساتهم ذات الطابع المستقل . وذكر البروفيسور كاليانوف الذى اضطلع بترجمة كتاب « ماهابهاراتا » فى الاربعينات خلال حديث صحفى « ان هذه الملحمة التى تعظم من شأن حب الوطن والبطولات الحربية والشجاعة والاقدام انما تضرب على وتر حساس فى يومنا هذا عندما تكافح البشرية القوى الفاشية الظالمة . انها تتغنى بأفضل خصال الانسان ... العدل والشرف والصراحة والاخلاص للاصدقاء ومساعدة الضعيف ». ووصفها ايضا بانها « من اثمن جواهر الحضارة القديمة وفخر الشعب الهندى ». واخرج المخرجون السوفييت على المسرح المسرحيات الهندية المشهورة سواء الحديث منها او القديم . ومن بينها « رامايانا » و « ساكينتالا »

20—1849

و « نال ودامايانتى » و « سونى ماهيفال » و « ليلى ومجنون » و « شيترا » وكان يعاد عرض هذه المسرحيات بعد ان اكتسبت شعبية .

وينتشر حب الشعب الهندى على جميع المستويات . وقد اختبرته بنفسى مرارا . فعندما وصلت الى اركوتسك كان الجو سيئا . وكان يتساقط المطر والثلج معا : وامام المطار وقف الناس بحقائبهم ينتظرون سيارات التاكسى . واستقل بعضهم بالفعل سيارة ولكن عندما شاهدونى وادركوا اننى من الهند ، هبطوا من السيارة واجبرت برغمى على ان استقلها . اما هم فقد وقفوا من جديد فى مكانهم فى الصف وملابسهم غارقة بمياه المطر .

والاطفال هم ايضا كانوا يظهرون حبهم . فعندما كنت ازور معرض الانجازات الاقتصادية بموسكو ، رأتنى مجموعة من الطلائع من الفتيان والفتيات ... وتناقشوا فيما بينهم قليلا ... ثم تقدم منى صبى ملئ الجسم واشار لى ان انحنى ولما فعلت ذلك ربط حول رقبتى وشاح الطلائع الاحمر . وشعروا جميعا بالسعادة لهذا الحدث .

اشياء صغيرة

وكثيرة هى الاشياء الصغيرة التى اعتبرتها امثلة نموذجية لطريقة الحياة السوفييتية : واذكر ايضا اننى لم اشاهد فى الاتحاد السوفييتى الكثير من المظاهر التى توجد فى الدول غير الاشتراكية . فلا يشاهد متسولون فى الشوارع ولا يحدث فيها اى شجار . ولم التق فى طريقى بالنوادى الليلية . وفى الفنادق ترفض النادلات اخذ البقشيش ويعتبرنه محطا بالكرامة . ولا يوجد فى الاتوبيسات والقطارات قاطعوا التذاكر . ويحصل الركاب عليها بانفسهم من الماكينات التى تعمل باسقاط عملة نقدية فى ثقب بها : ولا يوجد فى المصالح الحكومية الروتين

والتأشيرات المرهقة وغير الضرورية على الاوراق ومرورها من مكتب الى آخر . ووجوه الناس ليست جامدة مؤدبة وهم يتحدثون بلغة منافقة . ولمست فى سلوك الفئات العريضة من ابناء البلاد فى تصرفاتهم كافراد الصفات الاجتماعية الاساسية والمبادئ التى اصبحت بالفعل جزءا من الوعى الجماعى .

الفصل الثامن

حضارة جديدة

ان المجتمع الذى تكون فى الاتحاد السوفييتى منذ قيام الثورة هو فى واقع الامر انبثاق حضارة جديدة . فالتغيرات التى حدثت بلغت حدا من الشمول والعمق بحيث جعلت هذا المجتمع يختلف عن اى نظام اجتماعى آخر سابق . وتكمن السمة الاساسية لهذا التحول الثورى فى الغاء الملكية الخاصة للاراضى والمناجم والمصانع والبنوك ، اى جميع وسائل الانتاج ووضع حد لاستغلال الانسان للانسان الى الابد . وتتمثل احد الانجازات الايجابية لكل ذلك فى ازدهار مجتمع جديد من اجل الجميع ، ومن اجل ان يحيا الشعب باسره حياة خصبة كاملة فى كل من النواحى المادية والروحية ويجرى ذلك بمعدلات متزايدة السرعة .

وتجسد الشعارات التى تبناها المجتمع السوفييتى آماله واهدافه . وهى تشير الى المثل العليا التى يسعى اليها المجتمع . وفيما يلى هذه الشعارات :

- الفرد للجميع والجميع للفرد .
- الانسان للانسان هو الصديق والرفيق والشقيق .
- كل شىء من اجل سعادة ورفاهية الانسان .
- كل شىء من اجل الانسان ولصالحه .
- الذى لا يعمل ، لا يأكل .

— من كل حسب طاقته لكل حسب عمله (بالنسبة الى المرحلة الحالية لتطور المجتمع الاشتراكى) .

— من كل حسب طاقته لكل حسب احتياجاته (بالنسبة الى المرحلة المتقدمة لتطور المجتمع الشيوعى) .

ومما له دلالة فى هذا الصدد الكلمات والعبارات التى يصادفها المرء كثيرا فى الكتابات السوفييتية وفى تصريحات القادة ومن بينها ما يلى : « التطور الشامل للانسان » و« تشكيل انسان جديد » و« العالم الذاتى » و« النقاء المعنوى » .

واصبحت جماهير الشعب العادى بفضل الثورة ولاول مرة فى التاريخ هى المسيطرة على المجتمع وهى التى تبنى حياتها السعيدة . واليوم — فكل فرد من اعضاء المجتمع منهمك فى عمل مفيد وقد توفرت له وسائل الحياة الرغيدة . واصبح فى الامكان الآن — بعد ان انتقلت الى المجتمع كله وليس للافراد ملكية المصانع والاراضى والسكك الحديدية والبنوك — تنمية اقتصاديات البلاد الشاسعة وفقا لخطة متكاملة وتنسيق جهود ملايين العمال من اجل انجاز الاهداف التى وضعها المجتمع .

واليوم اصبحت روسيا ، البلد المتخلف قبل الثورة ، بفضل هذه الخطط ثانى اكبر دولة صناعية فى العالم بعد الولايات المتحدة وتفوقت فى هذا المضمار على عدد من الدول المتقدمة صناعيا كانجلترا وفرنسا والمانيا الغربية . وهى تحتل — فى مجال التعليم — المكان الاول . ولولا سنوات الحرب ومخلفاتها التى عرقلت مسيرة البلاد لمدة عشرين عاما تقريبا ، لتحقق التقدم بمعدل اسرع . وقد سار هذا التقدم فى طريق متعرج . فاحيانا ارتكبت اخطاء اعترف بها بصراحة عند اكتشافها .

وتحدث الرئيس السوفييتى بودجورنى فى شهر نوفمبر (تشرين الثانى) عام ١٩٦٩ فى هذا الصدد فاستشهد باقوال لينين الذى قال فيها « دعونا نبنى مجتمعا جديدا ! ولن ترعبنا المشكلات الهائلة والاخطاء التى لا مفر منها فى بداية كل عمل صعب للغاية » . وجاء فى كتيب سوفييتى رسمى صدر حديثا ما يلى بالحرف الواحد « يعكف الاتحاد السوفييتى الآن على بناء مجتمع جديد وهو يرتاد طرقا لم يسبق ارتيادها فيما مضى من التاريخ . ان المجتمع السوفييتى والاقتصاد السوفييتى يتسمان بالطابع الديناميكى . وكثيرا ما ردد لينين القول بان الماركسية ليست عقيدة جامدة ولكنها مرشد للعمل . وكان يؤكد ان الممارسة والممارسة فقط فى بناء الاشتراكية والشيوعية والعمل اليومى للملايين فى جميع جوانب العمل الانسانى والخبرة التى يكتسبونها من خلال ذلك ... كل ذلك هو الذى يوفر الاساس لنظرية البناء الاشتراكى » .

ولهذا يلتزم المخططون السوفييت جانب الحذر . فهم يتقدمون الى الامام منتهجين باستمرار اسلوب المحاولة والتجريب . وفى مختلف قطاعات الحياة ، انشئت مراكز ضخمة للدراسات الاجتماعية لاجراء جميع انواع الدراسات المعقدة . وهناك ابتعاد تام عن القيام باى شىء يكون بطبيعته مستحيلا او لم يأت اوانه بعد . انهم على ادراك كامل بدروس التاريخ وبالفشل الذريع للطوبويين واصحاب الاحلام الذين لم يحققوا اية نتائج ملموسة برغم نواياهم الطيبة وتكريسهم حياتهم كلها لعملهم . وكثيرا ما وجهت النداءات الحارة للافراد من جانب الرجال الشرفاء مثل سقراط وكونفوشيوس وبوذا وتولستوى — ومن المبشرين الدينيين والزعماء الدنيويين لكى يعمل الانسان على نهوضه الروحى وبناء شخصيته او من اجل

البعث الثقافى ... الا انه ثبت ان هذه الاهداف تتعدى مقدرة جماهير الافراد وكانت النتيجة ظهور هداة عباقرة ولكنهم قلة كما اخذ عددهم يتضاءل فى النهاية .

وتركز النظرة السوفييتية ــ المرتكزة على العلم ــ على القول بان فى الامكان رفع المستوى الروحى للانسان اذا ما توفرت فقط الظروف المادية الملائمة لحياته فى المجتمع . ومن المستحيل توقع حياة فاضلة مستقرة للانسان الذى يعانى دائما من الجوع والحاجة . ولهذا فان السمة الانسانية للمجتمع السوفييتى لا تنفصل اليوم عن تحرر مواطنيه من القلق بشأن الاحتياجات المادية الاساسية للحياة ... سواء كان ذلك طعاما او اسكانا او ملابسا او علاجا او الرغبة فى الثقافة . اما الكلام المجرد عن الانسانية الذى لا يدخل فى اعتباره الظروف الاجتماعية السائدة فيعتبر امرا عديم الجدوى . وتتعمق الجذور الاشتراكية وتزداد رسوخا بمواصلة التقدم المخطط فى كل من المجالين المادى والروحى . وتبدو مظاهر ذلك جلية فى كل جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ومن الضرورى ، لكى يكون هناك تقييم متوازن لكل ذلك ، ان تلقى نظرة على الصورة كلها بحقائقها الديناميكية ، وبدون التوقف عند اية تواقه فى اى من الجوانب ، قد تكون نتيجة لاخطاء تفصيلية والجدير عمله فى هذا الصدد هو معرفة الاتجاه الذى يتحرك فيه المجتمع باطراد وادراك الاساسيات التى يرتكز عليها كل البناء الاجتماعى .

الديموقراطية الاشتراكية

اعلن لينين ، فى صبيحة تأسيس السلطة السوفييتية انه « لاول مرة فى تاريخ المجتمع المتحضر ، تقوم جماهير السكان بالمساهمة

ليس فى التصويت وفى انتخاب اجهزة الحكم فحسب ولكن ايضا وفى الوقت نفسه بممارسة عمل الحكومة اليومى ». واشار ــ على سبيل تأكيد هذه النقطة ــ الى ان « على كل طباخ ان يصبح قادرا على ادارة الحكم ».

وعلى هذا الاساس الذى تجرى بموجبه حقا ادارة البلاد من قبل الشعب ، اخذ يتطور نموذج الديمقراطية الاشتراكية الجديدة ، واخذت تظهر وسائل واشكال وانشطة جديدة تختلف جذريا عن الانظمة الحكومية الاخرى .

ويضطلع بمسئولية حكم البلاد ٥٠ الف سوفييت (مجلس) منتشرين فى جميع انحاء البلاد ... وتتراوح هذه المجالس من السوفييت المحلى الى مجلس السوفييت الاعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية ، وهو البرلمان ، وهذه المجالس تمارس كلا من السلطة التشريعية والتنفيذية . ويجرى انتخاب هذه الهيئات ، على جميع المستويات ، بالاقتراع المباشر لجميع المواطنين الذين يبلغون الثامنة عشر وما فوق . وتتمتع هذه المجالس بالسلطات الاساسية فى مناطقها فى الشئون السياسية والاقتصادية والثقافية . ويبلغ عدد اعضاء هذه الهيئات مليونين ، وحيث ان الهدف هو جذب اكبر عدد ممكن من الناس للاشتراك فى ادارة الدولة فقد شكلت لجان سوفييتية موسعة لمعالجة شتى الموضوعات ويبلغ عدد اعضائها ٢٣ مليون شخص وهو جيش هائل من المتطوعين النظاميين . وتشير التقديرات الى ان خمس البالغين فى البلاد يشتركون فى عمل المنظمات التى تمسك فى يديها بسلطة الدولة . وتمشيا مع هذا الهدف ، تتحمل الحكومة جميع التكاليف الانتخابية بما فى ذلك الانتخاب لمقاعد البرلمان ، ولا يتحمل المرشحون انفسهم اية

مصاريف بالنسبة الى عقد الاجتماعات او تنظيم الحملة الدعائية ... وغير ذلك . وتشكل لجان انتخابية غير حكومية للاعداد للانتخابات والاشراف عليها .

ويجرى انتخاب مجلس السوفييت الاعلى مرة كل اربع سنوات لانتخاب اعضائه البالغ عددهم ١٥١٧ عضوا ، وهذا المجلس يتسم بملامح خاصة تظهر بجلاء الطابع الديمقراطى الذى يتباين تماما مع ما يجرى فى الدول الغربية . فلا يتنافس المرشح مع غيره على اساس من اختياره الشخصى . فلكى يؤهل لهذا الترشيح ينبغى ان ترشحه اولا بعض الهيئات العامة مثل المصنع او المزرعة او الجمعية الثقافية التى تحكم على سجل خدماته للمجتمع عن طريق اجتماعات عامة تعقد لهذا الغرض . ويتنافس على كل مقعد عدد من هؤلاء المرشحين ويتم اخيرا اختيار واحد منهم عن طريق المشاورات المشتركة بين الهيئات المشرفة . وبعد كل ذلك لا يفوز المرشح المختار الا اذا نجح فى الحصول على اكثر من ٥٠ فى المائة من الاصوات . وهو لا يتقاضى – بعد انتخابه – اى مرتب ثابت او بدل . ويواصل العمل فى وظيفته بين فترات الدورات البرلمانية ويحصل على اجر بنفس معدل راتبه او اجره عن الايام التى كرسها للقيام بواجبه كنائب . وعلاوة على ذلك يدفع له مصاريف البريد والتليفون والانتقال وذلك بالنسبة للامور المتعلقة بعمله فى المجلس . ويراقب ابناء دائرته عن كثب كيفية ادائه المهمة . وينبغى عليه ان يطلعهم على هذا خلال اجتماعات جماهيرية تعقد لهذا الغرض . ومن حق الناخبين سحب الثقة منه بغالبية الاصوات اذا ما رأوا ان عمله غير مرضى . وفى هذه الحالة تجرى انتخابات جديدة . وبهذه الطريقة تم منذ عام ١٩٥٩ حتى الآن سحب الثقة

من احد عشر نائبا من نواب لمجلس السوفييت الاعلى ... وخلال الفترة من ١٩٦٦ الى ١٩٧٢ سحبت الثقة من ٢٦٩٢ نائبا من نواب مجالس السوفييت ذات المستوى الادنى من ذلك :

ولهذا فلا توجد طبقة محترفة من رجال السياسة تحترف عضوية البرلمان للمحافظة على مصالحها الخاصة . وقد جرت العادة ان يعاد تجديد انتخاب نصف اعضاء البرلمان السوفييتى بعد انتهاء الفترة الاولى من عضويتهم ... على ان يكون هذا النصف هو الحد الاعلى ... وهذا العمل – الذى يراعى كمبدأ – يعتبر بمثابة ضمان ضد اى اتجاه لمواصلة عضوية البرلمان . ويقوم البرلمان بتعيين مجلس الوزراء باعتباره السلطة التنفيذية العليا فى البلاد :

وفى ظل هذه الظروف يتعذر تكوين قلة تتربع على القمة – كما يحدث فى الدول الاخرى – وتعمل على استخدام السلطة السياسية لمجدها الشخصى . كما لا تتاح الفرصة للوزراء لمنح مزايا مالية للافراد حيث ان الاقتصاد كله يقع تحت ادارة المؤسسات العامة . وكذلك يصبح التلاعب بمساعدة الموظفين امرا ليس سهلا لانتفاء البيروقراطية بسلطاتها الشاملة . فكثير من كبار الموظفين بما فى ذلك القضاة يتولون مناصبهم بالانتخاب وفى الوقت نفسه ينبغى عليهم ممارسة اعمالهم علنا امام الجمهور . وفى هذا المضمار يقول البرنامج الذى وافق عليه الحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى فى مؤتمره الثالث والعشرين « ان مبدأ الانتخاب والمحاسبة امام ممثلى الهيئات المنتخبة وامام الناخبين سوف يتسع نطاقه بالتدريج حتى يشمل جميع كبار الموظفين فى اجهزة الدولة ».

واكثر من نصف اعضاء البرلمان الحالى من العمال وفلاحى المزارع الجماعية . والبقية من المتخصصين فى مختلف فروع

الاقتصاد — من العلماء ، والكتاب ، والاطباء ، والمدرسين وافراد القوات المسلحة السوفييتية . كما ان ثلث مجموع الاعضاء من النساء . ومما هو جدير بالملاحظة هنا ان نتذكر ان البرلمان الروسى قبل الثورة — « الدوما » الثالث كان يتألف على الوجه التالى : ١١ عضوا من بين صفوف العمال والصناع فى مقابل ٢٤٣ من ملاك الاراضى و ٤٥ من رجال الكنيسة و٣١ من رجال الاعمال و٨٣ محاميا وموظفا . وفى الولايات المتحدة لا يضم الكونجرس اى ممثلين عن العمال او الفلاحين . ويحتل مقاعده فقط رجال البنوك والصناعة وكبار ملاك الاراضى وغيرهم من الاثرياء . وكان الكونجرس فى الفترة من عام ١٩٥٩ الى ١٩٦١ يضم ثلاثة فقط من الزنوج و١٧ امرأة من مجموع عدد اعضائه البالغ ٥٣٧ عضوا .

وتكمن السمة الفريدة فى النظام السوفييتى فى العمل باستمرار من اجل توسيع الديمقراطية من النطاق السياسى للميدان الاقتصادى . ففى هذا المجال يجرى تنظيم ملايين الناس لتطبيق الديمقراطية السياسية فى المجال الاقتصادى حيث الامور هنا قريبة من الناس ومتعلقة بامور حياتهم اليومية .

وقد اعطيت لاكبر منظمة شعبية غير حكومية — وهى اتحاد نقابات العمال التى يبلغ عدد اعضائها ٩٨ مليون شخص — سلطة المساهمة فى ادارة الاقتصاد القومى وفى تنظيم مشروعات الدولة الاشتراكية . ولهذه لمنظمة الحق فى ان تقدم الى مجلس السوفييت الاعلى ومجلس الوزراء لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية مشروعات القوانين والمراسيم والقرارات الخاصة بالمسائل المتعلقة بالعمل والظروف المعيشية للعمال والمستخدمين . كما لها الحق فى البت فى المشروعات التى تستحدث ظروفا للعمل فى هذا المصنع

او ذاك والتى تتقدم بها اجهزة الدولة الاقتصادية . وبالاضافة الى كل ذلك تضطلع اتحادات نقابات العمال بالمهام الخاصة بالتأمين الاجتماعى للدولة وتقديم الخدمات للشعب العامل فى المصحات ومناطق الاستشفاء . وتمارس هذه الاتحادات كذلك الاشراف على سير العمل فى المشروعات واشباع الاحتياجات المادية واليومية للشعب العامل .

ومع نمو القوى الانتاجية والمعنوية للمجتمع ، اخذت تتحول تدريجيا الدولة الاشتراكية الى جهاز للادارة الذاتية للمجتمع الشيوعى . فقد تحولت بعض مهام اجهزة الدولة كلية او جزئيا لتتولاها المنظمات الاجتماعية . وفى مثل هذه الظروف يتعاظم دور اتحادات نقابات العمال — باعتبارها منظمات للشعب العامل — ويأخذ هذا الدور ابعادا لا حد لها . وقد بدأت هذه الاتحادات تقوم بدور متزايد باستمرار فى التقدم الاقتصادى والثقافى . وتتسع سلطاتها فى هذا المجال باطراد .

وتوجد — فى جميع المشروعات الصناعية — مجالس دائمة للانتاج تعمل تحت اشراف نقابات العمال . وتضم هذه المجالس ٥ ملايين عضو . وتتقدم هذه المجالس بالتوصيات بشأن جميع جوانب الانتاج وتنظيم العمل . ولا يمكن فصل اى عامل بدون موافقة اللجنة النقابية . ومن ناحية اخرى ، اذا وجد الاتحاد النقابى ان مدير المصنع ليس كفؤا للقيام بعمله ، فله الحق فى الاصرار على تنحية المدير . وفى عام ١٩٧٠ وضع صندوق التأمين الاجتماعى لهذه السنة — والذى تبلغ امواله اكثر من ١٦ مليون روبل — تحت تصرف اتحاد نقابات العمال . ويشمل العمل الذى عهد به الى اتحاد نقابات العمال الاشراف على اعمال المؤسسات التجارية

والخدمات التجارية ، والترفيه ، والمصحات ومنازل الراحة والنوادى الرياضية . ويضطلع اتحاد نقابات العمال بنشاطه المتعدد الجوانب ليس عن طريق هيئاته الرسمية فحسب ولكن ايضا وفى الاغلب بواسطة عماله المتطوعين . ويصل عدد مثل هؤلاء العمال المتحمسين فى ميدان التأمين الاجتماعى فقط الى ثلاثة ملايين شخص .

واسندت ايضا الى الكومسومول — كمنظمة للشبيبة تضم الملايين من الاعضاء — فى مجالها المتخصص صلاحيات معالجة المشكلات الخاصة بالشباب من الجنسين . وهى تقوم بالتعاون المشترك مع اجهزة الدولة بمعالجة مشكلات الشباب فى ميادين التعليم والتدريب والترفيه والرياضة ... الى آخره . ولها ان تقترح سن القوانين الجديدة . وبناء على اقتراح منها ، وافق البرلمان السوفييتى فى السنوات الاخيرة على عدد من القوانين والمراسيم الخاصة بالتدريب الصناعى والتكنيكى للشباب وتعليمهم عن طريق الفصول المسائية وبالمراسلة . ويمثل الكومسومول فى جميع اجهزة الدولة — من المجالس المحلية الى المجلس الاعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية .

وكمظهر عملى لسيادة الشعب ، انشئ نظام على المستوى القومى للبلاد يقوم بموجبه الشعب بالتحقق على الطبيعة من تنفيذ البرنامج القومى والمحافظة على النظام . وتعمل لجان جماهيرية للرقابة منتخبة تضم اكثر من ٦ ملايين عضو بالتعاون الوثيق مع الكومسومول واتحاد نقابات العمال . وكما يقول متحدث سوفييتى رسمى « ان مهمتها تنمية وتشجيع المبادرات التقدمية وكشف النواقص وتصفيتها والنضال ضد البيروقراطية والسلبية وعدم النزاهة » .

وتتمثل السمة الاخرى المميزة للديمقراطية السوفييتية فى المناقشات التى تتم على مستوى البلاد كلها لمشروعات القوانين الهامة . وتعقد

مختلف الاجتماعات فى المصانع ومواقع البناء ومعاهد الابحاث والمزارع وتطرح فيها الآراء بحرية بشأن المشكلات المعقدة التى يثيرها القانون المقترح . وتوضع الاقتراحات ووجهات النظر التى تسفر عنها هذه الاجتماعات فى اعتبار اللجان التشريعية فيما بعد وكثير من هذه الاقتراحات يتضمنها القانون عند اصداره فى النهاية .

وعلى مستوى الافراد ايضا ، يعبر الناس عن آرائهم عن طريق الصحافة والاذاعة وفى الرسائل التى يبعثون بها لاجهزة سلطات الدولة وتكون هذه الممارسة بمثابة الاستفتاء ولكن فى صورة متطورة حيث لا يكتفى الناس بقول « نعم » او « لا » ولكنهم يناقشون الاقتراح كله بالتفصيل . ولم تتم الموافقة النهائية على قانون الزواج والعائلة الجديد وكذلك مشروعات الخمس سنوات الا بعد مثل هذه المناقشات الشاملة .

ان هذه المساهمة الجماهيرية للشعب فى امور الدولة امر لم يسبق له مثيل . وقد اعطت للمواطن السوفييتى احساسا نادرا بالكرامة . وقد حدث ان ذهبت سيرافيما كوتوفا وهى مساعد لرئيس وردية فى مصنع للنسيج فى موسكو الى الولايات المتحدة منذ بضع سنوات كعضوة فى وفد نسائى سوفييتى . وسألتها سيدة فى نيويورك « الم تلاحظى مدى ثراء امريكا ؟ »

واجابت مسز كوتوفا « ان فكرتك عن الثراء غير كاملة . ان الانسان هو الاكثر ثراء عندما يشعر انه سيد بلاده » .

وكتب اناتول فرانس ، الكاتب الفرنسى البارز مرة يقول « اذا كان هناك حتى الآن انصار للعدالة فى اوربا ، فينبغى عليهم ان يحنوا رؤوسهم احتراما لهذه الثورة التى حاولت — لاول مرة فى تاريخ البشر — اقامة سلطة الشعب وان تعمل لصالح الشعب ...

انها قد بذرت البذور التى ستثمر – اذا ما توافرت لها الظروف الملائمة – براعم يانعة فى كل روسيا – والتى ربما فى احد الايام – تخصب اوربا ». وهو على صواب فى ذلك ، فقد اخصبت بالفعل الارض ليس فى قارة اوربا فحسب ولكن ايضا فى آسيا وفى امريكا البعيدة .

النقاد

هناك بعض نقاد النظام السوفييتى الذين يقولون ان الديمقراطية السوفييتية لا توفر للشعب الحرية . ويمكن البت فى هذه المسألة عن طريق واحد وهو مناقشة مفهوم الحرية ، ليس بالمعنى المجرد وبطريقة غير محددة ولكن فى اطار الحقائق الملموسة للحياة . فالحرية الشخصية لا تحدد عن طريق التصريحات والبيانات . ويعتمد مداها ومحتواها الفعلى بصورة مباشرة على مدى ما يوفره المجتمع لاعضائه من الظروف والفرص للتمتع بخيراته المادية والمعنوية وكذلك انجازات العلوم والثقافة . فلن يكون الانسان حرا طالما كان مكبلا بأغلال الاستغلال . فالحاجة الاقتصادية الملحة التى لا ترحل تخضع روح اى انسان . وهى تحول بينه وبين اتخاذ القرارات حسب ارادته وتمنعه من التعبير بحرية عن ارادته ...

وفى « العالم الحر » فى البلاد الرأسمالية تمتلك حفنة قليلة من الاغنياء الاراضى والمصانع ووسائل الانتاج الاخرى . وهى تسيطر على الاذاعة والتليفزيون والصحافة . ومن مواقعها المسيطرة توجه حياة الشعب العادى وتتيح له الحصول على الاشياء الضرورية للحياة ولكن على ادنى مستوى وتهيئه فرص محدودة للتعليم والثقافة . ويعانى الملايين من البطالة ويحرم الكثيرون من ابسط احتياجات الحياة

بسبب لون بشرتهم . وتحت هذه الظروف ، فان النظام كله لادارة الدولة يخدم – بطبيعة الحال – مصالح الحفنة الصغيرة من الاغنياء . وتقف الحكومة من موقف يعلو الشعب وهى بعيدة ان تخضع لتأثيره او اشرافه . ويتاح للشعب – من حين لآخر – التصويت فى الانتخابات ولكنه يعجز عن ممارسة هذا الحق كاملا بسبب سيطرة الاغنياء فى المجتمع والمستوى المنخفض للتعليم بين الناخبين . وكيف يتصور الانسان وجود ديمقراطية حقيقية وحرية لكل انسان فى الولايات المتحدة حيث يمتلك نصف فى المائة من السكان ٢٥ فى المائة من ثروة البلاد ، او فى بريطانيا حيث يمتلك ثلاثة ارباع الملكيات الخاصة خمسة فى المائة من السكان ؟ ان الاغنياء وحدهم – برغم صياحهم العالى بمنح الديمقراطية للجميع – هم الذين فى واقع الامر يتمتعون بكل الديمقراطية . وهم يسيطرون على نظام سياسى يكفل حياة من الدعة والترف للقلة على حساب حرمان الاكثرية .

وعلى نقيض ذلك تماما ، هيأ النظام الاشتراكى الظروف للديمقراطية الحقيقية للفرد وللشعب ككل وذلك عن طريق وضع الملكيات المؤممة باسرها فى ايدى الشعب ومنحه حق اصدار الرأى الاخير فى جميع مجالات الحياة العامة . فالمواطنون السوفييت يختارون – بفضل الاشكال السياسية التى استحدثت والديمقراطية الاشتراكية المطبقة – طريقتهم الخاصة فى الحياة سواء كان ذلك فى المجالات العامة او الخاصة . وعلى عكس الدول الرأسمالية ، فهم لا يتعرضون لفترات الركود الاقتصادى والازمات الاقتصادية التى تسبب الكوارث وتثير الخوف من المستقبل ، ولا يعانون من البطالة التى تحرم الانسان من المصادر الضرورية للحياة ، وقد

تحرروا من استغلال الانسان للانسان ، واخيرا فلهم حرية العمل والحصول على موارد توفر لهم مستوى مرتفعا من الحياة وظروفا لتنمية كل المواهب الانسانية لديهم .

ومنذ العشرينات عندما كان على السلطة السوفييتية ان تواجه القوى المعادية للاشتراكية فى الداخل والمعتدين الاجانب الى يومنا الحالى حققت الديمقراطية الاشتراكية تقدما مطردا فى مجال الحرية الشخصية للشعب . وسيتزايد هذا الاتجاه باطراد بانتشار التعليم بين افراد الشعب السوفييتى . وسيتم تقريب الفجوة التى تبدو جلية احيانا فى مجال الآداب والفنون . وقد عبر عنها الحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى بصراحة عندما اشار فى برنامجه الذى تبناه فى مؤتمره الثالث والعشرين الى :

« ان الانتقال الى الشيوعية يعنى التطور الشامل للحرية الشخصية ولحقوق المواطنين السوفييت . وقد وفرت الاشتراكية للشعب العامل اقصى قدر من الحقوق والحريات وهى تضمن الا يكون المستوى الذى بلغه تطور حقوق المواطنين السوفييت وحرياتهم فى المجتمع السوفييتى وعلى مستوى الدولة هو آخر المطاف . فلا تزال عملية توسيع نطاق هذه الحقوق والحريات مستمرة . وان تنمية الضمانات الاقتصادية والسياسية والايديولوجية والقانونية للحريات الشخصية وهى التى تحدد فى مجموعها الامكانية الفعلية لممارسة هذه الحقوق والحريات ... ان كل ذلك مع ترسيخ هذه الضمانات تشكل واحدة من اهم السمات التى تميز المجتمع الاشتراكى ونظام الدولة» .

ويقول النقاد ايضا ان اعضاء الحزب الشيوعى يشكلون فى النظام السوفييتى صفوة تتمتع بمزايا محروم منها بقية الشعب . وتثبت الحقائق عكس ذلك ... فعدد اعضاء الحزب بلغ الآن ١٤ مليون

عضو . وهو عدد كبير للغاية ليشكل ما يعنيه مصطلح « صفوة » ومن ناحية اخرى ، ان التاريخ السوفييتى يظهر انه عندما تكون هناك حاجة للتضحية ، يكون اعضاء الحزب اول من يلبى النداء ويسيرون فى المقدمة . وخلال العدوان النازى قتل منهم الملايين وهم يكافحون ببسالة فى مختلف الجبهات . وفى اوقات السلم ايضا ، وفى اراضى وغابات سيبيريا حيث المعيشة صعبة ، ذهبوا باعداد كبيرة لتطوير المنطقة من اجل صالح الاقتصاد القومى . ويفرض على اعضاء الحزب الشيوعى المساهمة بنشاط فى الحياة العامة للبلاد وان « يكونوا مثالا طيبا للنقاء الخلقى والمعنوى » وتؤكد ذلك قواعد السلوك الموضوعة لهم بضرورة مراعاة المبادئ الاخلاقية التالية :

- الولاء لقضية الشيوعية ، وحب الوطن الاشتراكى والدول الاشتراكية الاخرى .
- العمل باخلاص من اجل منفعة المجتمع . فالذى لا يعمل ، لا يستحق ان يأكل .
- ابداء الاهتمام من جانب كل فرد لحماية الثروة العامة وتنميتها .
- الاحساس بالواجب العام ، وعدم التسامح فى اى انتهاك للمصالح العامة .
- الالتزام بالروح الجماعية والمساعدة الرفاقية المتبادلة : الواحد للكل والكل للواحد .
- مراعاة العلاقات الانسانية والاحترام المتبادل بين افراد الشعب : الانسان للانسان صديق ورفيق وأخ .
- الشرف والاخلاص والنقاء المعنوى والبعد عن المظاهر والتواضع فى الحياة العامة والخاصة .

— الاحترام المتبادل فى العائلة والاهتمام بتنشئة الاطفال .

— عدم السكوت على الظلم والطفيلية وعلى انعدام النزاهة والوصولية والكسب غير المشروع .

— الصداقة والاخاء بين جميع الشعوب فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية وعدم التساهل مع اتجاهات العداوة العنصرية والقومية .

— التصدى لاعداء الشيوعية ، اعداء السلام وكل من يعارض حرية الامم .

— التضامن الاخوى مع الطبقة العاملة فى جميع البلدان ومع جميع الشعوب .

وقد دحض الكاتب السوفييتى جيرمان شيتاريف الدكتور فى العلوم التاريخية اتهاما آخر يوجهه نقاد الديمقراطية الاشتراكية على اساس انها لا تسمح لاى حزب سياسى آخر بالعمل فيما عدا الحزب الشيوعى . فقال الكاتب « ان الحزب البلشفى هو الذى قاد الشعب الذى قام بثورة اكتوبر وقد تولى السلطة — بطبيعة الحال — عندما انتصرت الثورة . ومع ذلك فقد دعا الاحزاب الاخرى وخاصة الاشتراكيين الثوريين للاشتراك فى الحكومة . وقد استجاب لبعض الوقت الجناح اليسارى لهذا الحزب . الا انه لم يمض وقت طويل الا وعارض الاشتراكيون الثوريون السلطة السوفييتية مما تسبب فى سقوطهم ، وهذا هو المصير المحتوم لكل من يقف ضد الشعب ».

وكتب فى الموضوع نفسه كاتب سوفييتى آخر هو اكوبوف الدكتور فى الفلسفة فقال « انه ينبغى الاشارة الى ان نظام الحزب الواحد ليس امرا لا مفر منه بالنسبة لجميع الدول التى تسير فى طريق البناء الاشتراكى . وليس فى الامكان تحديد عدد الاحزاب

عن طريق مرسوم كما ان ذلك لا يتوقف على رغبة الزعماء الافراد او حتى على الاحزاب . ان مسألة وجود نظام للحزب الواحد او نظام تعدد الاحزاب تتوقف على الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لتطور بلد معنى . ونتيجة للمواقع المختلفة للقوى الطبقية والظروف الاجتماعية والتاريخية المختلفة فى عدد من دول اوربا الشرقية ، فقد توفرت خلال سير الثورة الاشتراكية الفرصة لقيام تعاون بين عدد من الاحزاب الديمقراطية والمجموعات السياسية . ففى بولندا — على سبيل المثال — يوجد الى جانب حزب العمال الموحد البولندى — وهو الحزب الماركسى اللينينى — حزب الفلاحين الموحد والحزب الديمقراطى. وفى بلغاريا يوجد مع الحزب الشيوعى الاتحاد البلغارى للمزارعين. وفى جمهورية المانيا الديمقراطية يوجد الحزب الاشتراكى الالمانى الموحد ، والاتحاد الديمقراطى المسيحى والحزب الديمقراطى الحر لالمانيا وحزب الفلاحين الديمقراطى والحزب الوطنى الديمقراطى » .

المساواة

من الضرورى لوجود ديمقراطية مثالية ان تتوفر فى المجتمع ليست المساواة فى الفرص للجميع فحسب ، ولكن ايضا وجود سكان منسجمين مع اقل قدر من الاختلاف فى ظروف المعيشة . ويتقدم المجتمع السوفييتى — بفضل خطط الخمس سنوات المتتالية — باطراد فى اتجاه هذه المساواة كهدف له ، وهو يعمل على القضاء على الفروق بين المدينة والقرية ومختلف مناطق البلاد وكذلك بين العمال والفلاحين والمثقفين — وهم الطبقات الثلاث الموجودة حاليا التى تعمل كفريق متعاون فى الاقتصاد السوفييتى .

والفلاحون فى الاتحاد السوفييتى هم الطبقة التى تعرضت لاكبر قدر من التغيير فى عملية البناء الاشتراكى . وكانت روسيا على مدى قرون طويلة دولة زراعية متخلفة. وقد عانى فلاحو الارض — الذين كانوا يشكلون اكثرية السكان — الكثير تحت وطأة الاستغلال الذى لا يرحم الذى مارسه السادة الاقطاعيون . واليوم اصبح الفلاحون فى رخاء وهم يشكلون نسبة ١٩,٣ فى المائة من السكان بينما كان هذا العدد قبل الثورة ٧٠ فى المائة . وجاء هذا الانخفاض الجوهرى فى العدد النسبى للفلاحين بالمقارنة الى مجموع السكان نتيجة لميكنة الزراعة التى اصبحت تتطلب قدرا اقل من العمل ، كما يرجع ايضا الى التقدم السريع للصناعة والنمو العددى لطبقة العمال والمثقفين من وسط الفلاحين .

وتضم الفلاحين ٣٢,٣ الف مزرعة تعاونية يبلغ حجمها فى المعدل ٦٢٠٠ هكتار وهى تتكلف بادارة الاقتصاد الاشتراكى على اساس متقدم من الميكنة . وتملك هذه المزارع ما يزيد عن مليون ونصف مليون جرار ، ونصف مليون لورى وكذلك ربع مليون آلة حاصدة ودارسة . ويتقاضى عضو المزرعة التعاونية اجرا شهريا لا يقل عن اجر العامل فى المزرعة الحكومية كحد ادنى للدخل . واذا كان محصول مزرعته طيبا فى احدى السنوات يحصل على دخل اكبر من ذلك بعد تصفية الحسابات النهائية . وتم مؤخرا مد مظلة التأمين الاجتماعى ليشمل هؤلاء المزارعين كما هو الشأن بالنسبة الى عمال المزارع الحكومية . وقد بنت بعض المزارع التعاونية بيوتا للراحة والاستجمام لعمالها على نفقتها الخاصة .

واخذت الفروق بين ساكن المدينة وساكن القرية تضمحل فى القرى نتيجة لارتفاع مستوى المعيشة فيها . ويتزايد الآن باستمرار

عدد المنازل فى المزارع التعاونية التى توجد فيها شبكات الغاز والمياه الجارية واحواض الاستحمام واجهزة التليفون والتليفزيون والراديو . وللاسراع فى البناء وتحسينه يتم الآن تشييد المنازل عن طريق تجميع الاجزاء الجاهزة الصنع . ويتزايد اقبال المزارعين وافراد عائلاتهم على شراء الساعات وكاميرات التصوير والثلاجات والغسالات والدراجات والدراجات البخارية والسيارات . وقد افتتحت اكثر من ٧٣ الف منشأة للتغذية العامة فى الريف . ويوجد من وسائل الترفيه اكثر من ١١٤٨٠٠ ناد واكثر من ١٢٤ الف قاعة للسينما و ٩١٧٠٠ مكتبة . وتم القضاء على عزلة الفلاحين عن العمل الذهنى . فخلال السنوات الاخيرة ، ظهر عدد كبير من المثقفين من بين صفوف الفلاحين فأصبح منهم المهندسون الزراعيون والبيطريون والمدرسون والاطباء والعلماء وغيرهم .

وفى ظل طريقة الحياة الاشتراكية انبثقت طبقة جديدة من المثقفين ، المثقفبن الشعبيين ، من بين عمال وفلاحى البلاد . ويبلغ تعدادهم الآن ٣٠ مليون فرد. واثبت هذا التقدم الجبار مدى زيف النظرية التى روج لها البعض بأن اعضاء ما يسمى بالطبقات العليا هم فقط المؤهلون للثقافة . ويفند العلماء السوفييت بشدة وجهة النظر الخاطئة هذه ويضربون المثل بتجربة بلادهم ويشيرون الى ان كل الشعوب مهما اختلفت الوانها وتعددت اماكن وجودها على الكرة الارضية قادرة — اذا ما توفرت لها الظروف الملائمة — على اثراء الانسانية بالاختراعات التكنيكية والاكتشافات العلمية والاعمال الفنية . ففى الاتحاد السوفييتى وفى المناطق التى كانت متخلفة فى الماضى ، وفى سيبيريا والمناطق الاسيوية يقوم المثقفون الجدد من ابناء القوميات المحلية بالذات بالاشراف على المراكز الحساسة فى

الميادين الثقافية والاقتصادية . ولا يشكل المثقفون السوفييت « مجتمعا مغلقا » يمنع ان ينضم اليه بانتظام ابناء الشعب من « المستويات الدنيا » . ويدل استقصاء اجرى فى مؤسسات منطقة سفردلوفسك على ان ثلاثة ارباع المهندسين فى المنطقة ولدوا فى عائلات فلاحية وعمالية . ويشعر هؤلاء المثقفون — لانتمائهم الى الشعب — بالسعادة لانه قد اتيحت لهم فرصة استغلال عقولهم فى جميع الميادين وبروح خلاقة من اجل الصالح العام وليس من اجل اى فرد يدفع لهم اجورهم .

وتضيق الفجوة باستمرار بين عمل المثقفين والعمال والفلاحين . فالزراعة يجرى تصنيعها على نطاق واسع باستخدام الماكينات . وفى المصانع يتزايد اكثر واكثر قيام العمال بالاشراف على الماكينات المعقدة . وبفضل هذا التغير فى طبيعة العمل ومع ارتفاع مستوى التعليم ، اصبح من الممكن ان تختفى الفروق بين العمل الذهنى والعمل اليدوى فى النهاية . وليس ثمة فرق يذكر بين اجر العامل الماهر والمهندس العادى اليوم . ويهدف السوفييت الى انشاء مجتمع لاطبقى فى نهاية المطاف ، وتشير القرائن على انهم سائرون فى هذا الاتجاه . وللوصول الى هدف تحقيق المساواة الشاملة ، يجرى تنفيذ البرامج الضرورية بما فى ذلك تحويل جماهير العمال الصناعيين غير المهرة وعمال المكاتب الى عمال مهرة ورفع الحد الادنى من الاجور وتوفير مستويات اعلى للمعيشة للجميع ، كما يتضمن ايضا اشباعاً كاملا للاحتياجات الشخصية والانفاق على ذلك من صناديق الاستهلاك الاجتماعى للفرد العادى . وفيما يتعلق بتصفية التركة المثقلة لعهد القيصرية التى جعلت المناطق غير الروسية متخلفة ، تحقق السياسة السوفييتية نجاحا كاملا فى مشروعاتها للاسراع بتطوير

هذه المناطق عن طريق تخصيص استثمارات اكبر نسبيا . وتقترب بسرعة هذه المناطق لتصبح على قدم المساواة مع المناطق الاوربية .

العمل

نشرت منذ بعض الوقت مجلة « ذى نيشن » الاسبوعية الامريكية — وهى مجلة ليبرالية — مقالا بعنوان « خرافة العامل السعيد » ، وقد ذكر كاتب المقال — وهو عامل عمل فى احد المصانع لمدة طويلة — ان الحياة « تجعل الانسان يكره عمله لانه عديم الحيوية ولا ينتهى وممل الى حد الخبل ، وهو منهك وقذر ، ومفعم بالضجيج ، وقاصم للظهر ، ولا يبشر بالمستقبل وبأى امل فى التقدم . والحقيقة بكل بساطة ان العمل فى المصنع اذلال . وهو مذل لاى انسان يأمل فى تحقيق شىء له قيمة فى الحياة . وقد حان الوقت لكى ندرك ذلك » .

وجاءت الاشتراكية وقضت تماما على مثل هذا البغض للعمل . وذلك لان هذا النظام يمنع ان يذهب ناتج العمل للمالك كربح له فهذا الربح يعود الى المجتمع ككل ، لكى يوزع على الشعب بأسره . ولم يعد العمل وسيلة للاستغلال . ويشعر العامل السوفييتى وهو مكب على عمله ، انه فى الوقت الذى يكسب فيه النقود من اجل معيشته ، فهو فى الوقت نفسه يساهم عن طريق هذا العمل فى تحقيق التقدم المادى لبلاده . وهو يدرك تماما هذا الدور ... دوره كمساهم فى انجاز البرنامج الوطنى للبناء ، الامر الذى يغير من طابع عمله اليومى ويجعله عملا خلاقا يثير البهجة .

وعندما سأل احد الاجانب ليوبوف نيقولينا — وهى عاملة فى خط للتجميع فى احد مصانع الساعات فى روستوف — عما اذا كانت

تعتزم ترك عملها ... وجدت السؤال غريبا للغاية . وردت عليه بقولها : « اعتقد ان ذلك سيكون تصرفا غير اخلاقى على نحوما . ولا يسعنى ان افعله . وعلى كل حال فالانسان لا يعمل من اجل النقود فقط . فالعمل يحقق لك رضى داخليا ، والاحساس بأنك تشترك فى جهد مشترك ، كما انه يجعلك مرتبطا بالناس الذين يعملون فى مجال عملك ».

وتوضح الفجوة بين طرق الحياة السوفييتية والرأسمالية فى هذا الصدد الحكاية التى سردها الكاتب بوريس بوليفوى فى كتابه « يوميات امريكية » فقد سأل مجموعة من الصحفيين السوفييت خلال زيارتهم لاحد مناجم المعادن الضخمة فى ولاية « اوتاوا » المديرين الاداريين عن اسم اشهر عامل عندهم . وهو سؤال عادى جدا من وجهة النظر السوفييتية وهو لا يسبب لهم اى حرج . وعندئذ تساءل هؤلاء المديرون « اشهر عامل ... من اى ناحية ؟... هل تقصدون اشهرهم وجاهة ؟» واخيرا ظهرت لاحدهم فكرة الاطلاع على كشف الماهيات بحثا عن اكثر العمال كسبا .

وتظهر حكاية اخرى الفرق الكبير بين النظامين . فعندما التقى برنارد شو مع كروبسكايا فى قرية جوركى بعد وفاة لينين سألها : « اخبرينى، هل كفل لك زوجك دخلا طيبا لاعالتك ؟»

واجابته فى دهشة « ان زوجى لم يعلنى فى اى يوم من الايام ... فأنا اعمل بنفسى ».

وقال برنارد شو مندهشا « ولكن كتب زوجك تصدر فى ملايين النسخ هنا . ألم يتركها لك ؟»

وقالت « ان مؤلفات زوجى هى ملك للشعب وليست لى ».

وقال شو « اعتقد انك تحصلين على معاش ؟»

وعندما سمع انها لا تتقاضى اى معاش لأنها لا تزال تعمل وتكسب ما يكفى لسد احتياجاتها ، طوح شو بيديه وهو يقول : « لا ... اننى لن استطيع ان اخبر الناس فى بلدى بذلك ولن يصدق اى انسان ان زوجة لينين تعمل لكى تكسب خبزها ».

وهذه هى النظرة العامة للعمل اليوم فى الاتحاد السوفييتى . ويعتبر من الامور العادية جدا فى هذا البلد ان تواصل زوجات مشاهير ابطال الفضاء مثل جاجارين وكوماروف عملهن بعد وفاة ازواجهن . وتعمل زوجة جاجارين فى احد المعامل الطبية وتعمل زوجة كوماروف فى وكالة انباء نوفوستى . وهما لم تطلبا من الحكومة ان تسدى اليهما اى جميل كما لا تعتبر الدولة انه من اللازم منحهما اى مكافأة مالية خاصة او امتياز . وتواصل الاثنتان عملهما مثلهما فى ذلك مثل اية امرأة اخرى فى البلاد .

ويحظى العمل العادى اليومى بتقدير اجتماعى كبير فى النظام الاشتراكى . وينظر اليه كجهد خلاق من اجل خدمة المجتمع . وتمنح الحكومة للعمال البارزين لقب « بطل العمل الاشتراكى » وهى تقدم لفرق العمل التى تنجز عملا مرموقا الجوائز والاوسمة . وقد منح اندريه جروميكو وزير الخارجية السوفييتى لقب بطل العمل الاشتراكى عندما بلغ سن الستين « لخدماته الكبرى » للدولة السوفييتية . وكان جروميكو قد بدأ حياته العملية فى شبابه عاملا على الاطواف . وحصلت على اللقب ذاته البينا ساتيروفا العاملة الشابة التى لم تتجاوز السابعة والعشرين من عمرها وتعمل فى مصنع للاحذية . وقد اصبح اسمها معروفا لدى كافة عمال صناعة الاحذية فى بلادها بعد ان انتجت موديلات جديدة من الاحذية . ويبدى الشعب تقديره العالى للعمال الممتازين فى اى مجال وهو لا يتوانى فى ذلك . وعلى سبيل

المثال ، عملت ليوبوف فاسيليفا سنوات طويلة كمدرسة مثالية فى الريف . ولهذا فقد اختارها السكان المحليون كنائبة لهم فى مجلس السوفييت الاعلى اعترافا منهم بخدماتها الجليلة وكفاءتها . وكان تيخون ترتياكوف عاملا مثاليا لصهر الصلب سنوات عديدة . وهو الآن على المعاش . ومن اجل الاعراب عن تقدير الشعب لهذا العامل ، اطلق اسمه على احدى بواخر نهر الفولجا . واعرب فيكتور يرميلوف ، عامل صناعة الآلات لمدة ٤٠ عاما الذى منح وسام لينين ، عن احساس العمال العام فى مقال له اذ قال فيه « اننى احب عملى ، واعرف دقائقه وانا فخور بلقب عامل ... وان ما اقوم به يزيد من الرفاهية العامة للشعب ولا يثرى احداً من الرأسماليين ».

وصرح اليكسى كوسيجين رئيس الوزراء فى خطاب ادلى به مؤخرا بقوله « ان الكثير والكثير من الاجيال للشعب السوفييتى تتذكر بفخر واحترام وعرفان بالجميل الجهود التى بذلها عن ايثار عمالنا فى المصانع والفلاحون فى المزارع الجماعية والعلماء والمهندسون والتكنيكيون الذين عملوا لسنوات طويلة على تدعيم قوى وطننا والذين يستخدمون انجازات الثورة العلمية والتكنولوجية الحالية لخدمة الهدف العظيم وهو بناء المجتمع الشيوعى ».

ان تفانى المواطنين السوفييت فى العمل لا يظهر فى عملهم العادى فى المصالح والمصانع والمزارع فحسب ولكن ايضا فى مجال العمل التطوعى . ويشترك الملايين — بدون ان يتقاضوا اى جزاء مالى — فى مختلف اعمال المنظمات الجماهيرية بما فى ذلك لجان المجالس والاتحادات النقابية والجمعيات الاستهلاكية والتعاونية وجمعيات المخترعين وتجديد الانتاج ، فرق العمل المثالى ، والمنظمات النسائية ، ومسرح الشعب ، والجامعة الشعبية وفرق

المحافظة على النظام العام . ولا نهاية للجان العمل التطوعى . فهناك ايضا الروابط الرياضية ولجان الاسكان ولجان الآباء وهيئات زراعة الاشجار ... الى آخره . ويندر وجود مواطن سوفييتى لا يساهم فى اى من هذه المنظمات .

ويقضى الناس وقت فراغهم فى الدول — التى يعد فيها العمل عبئا ومجرد وسيلة لكسب القوت — فى التسلية العقيمة والبعد عن اى عمل من اى نوع فى ساعات الفراغ هذه : والقاعدة هنا هى قتل الوقت بلا هدف . والامر مختلف فى الحياة السوفييتية . فمن اجل اثراء حياة الانسان ، اصبحت أهمية تمضية وقت الفراغ بنفس اهمية الوقت المخصص للعمل . وتدل الدراسات الاجتماعية حول هذا الموضوع انه مع ارتفاع مستوى التعليم ، فان اغلب النشاطات خلال وقت الفراغ — وخاصة نشاطات الشباب — توجه للدراسة والعمل الاجتماعى والقراءة وهواية التمثيل وممارسة الفن والرياضة . وتشمل وسائل الترفيه الاخف من ذلك التصوير والقنص وصيد الاسماك والتردد على دور السينما والمسارح وحضور الحفلات الموسيقية والرقص والقيام بالرحلات الخلوية والاستماع للراديو ومشاهدة برامج التليفزيون . ولا توجه الدولة — باية حال — هذا التنوع فى الاهتمامات ووسائل التسلية . وهى تفضل — مع ذلك — الاشكال الايجابية للترفية التى تساعد على تنمية الشخصية وان ينصرف الانسان الى العمل الخلاق مثل الرسم والموسيقى ... الى آخره ... فان مجرد مشاهدة برامج التليفزيون والافلام وسيلة سلبية لاستخدام اوقات الفراغ وليست مفيدة كثيرا .

نشرت صحيفة « ازفستيا » التى تصدر فى موسكو فى احدى المرات نتائج استقصاء اجرته بين قرائها بشأن تمضية اوقات الفراغ :

وجاء فى الاستقصاء ان كبير التكنولوجيين فى احد مصانع السيارات يهوى التمثيل منذ سنوات عديدة . ويربى عامل لحام فى المصنع نفسه السمك فى حوض للاسماك فى منزله . ويقوم مدرس اللغات الاجنبية بتعليم الالمانية للاطفال فى محل سكناه . كما جاء فيه ايضا نماذج اخرى مثل صحفى يهوى صيد الاسماك ، وميكانيكى يمارس التصوير الفوتوغرافى ، وممرضة تهوى الرياضة ، ويهتم سائق جراو بالموسيقى ولعب الشطرنج والى آخره .

وتشعر الحكومة السوفييتية ان ابناء الشعب يحتاجون من اجل التطور الشامل لشخصياتهم — الى مزيد من وقت الفراغ اكثر مما هو متاح لهم الآن فى ظل نظام العمل لمدة خمسة ايام بمعدل ٤٠ ساعة اسبوعيا . ولهذا يتم ادخال نظام الاتمتة بسرعة متزايدة فى الصناعات لهدف تقليل ساعات العمل باطراد للمواطن السوفييتى وجعلها تتراوح يوميا من اربع الى خمس ساعات فقط . وقد يبدو ذلك امرا يدعو الى الدهشة فى الدول الغربية حيث ثبت ان الاتمتة ، كما ذكرت صحيفة نقابية امريكية ، هى « الطريق الموصل للكارثة » لانها تقود الى البطالة على نطاق واسع وما ينجم عن ذلك من خراب .

تقاليد جديدة

ما هى دوافع العمل فى المجتمع الاشتراكى ؟ هل هى ادراك عقلى الى حد كبير وقبول للايديولوجية التى رسمت طريق التقدم المطرد لتحقيق النظام الاجتماعى الذى تسوده المساواة والحرية ؟ ام هى اساسا تعلق عاطفى بعقيدة تنطوى على نداء لتحقيق حلم ، ورؤى ؟ وعلاوة على ذلك ، اليس ثمة ضرورة ملحة تتطلب — من

اجل تحريك الملايين لانجاز برنامج ثورى — ان يكون هناك بواعث للالهام تعتمد على اعمال البسالة والنبل اكثر مما تعتمد على ترديد كلمات الحكمة والتجربة ؟

وقد سعيت خلال جولتى فى الاتحاد السوفييتى للحصول على اجوبة لهذه الاسئلة عن طريق مشاهداتى وايضا بواسطة مناقشاتى مع قادة المنظمات وخاصة زعماء حركة الشبيبة .

ووجدت ان لينين يقدس باعتباره الانسان المثالى للحضارة الجديدة فى الاتحاد السوفييتى . ويتم التعريف بحياته التى كرسها للقضية عن طريق الافلام والموسيقى والآداب . واجريت فى الآونة الاخيرة بحوث مستفيضة لتجميع تفصيلات حياته التى ناضل فيها نضالا شاقا منذ نفيه الى سيبيريا . واقيمت النصب التذكارية له فى قرية رازليف حيث اختفى فى عام ١٩١٧ وفى قرية شوشينسكويه فى سيبيريا حيث نفى وفى اوليانوفسك ، البلدة الصغيرة التى ولد فيها وكذلك فى الاماكن الاخرى التى اصبحت محل تبجيل لارتباطها بحياته ونشاطه . وفى قلب موسكو ، وبالقرب من الميدان الاحمر اقيم متحف ضخم للينين فى المبنى الذى كان يحتله البرلمان السابق فى العهد القيصرى (الدوما) وفى الميدان نفسه انشئ ضريح لينين كمزار يحج اليه .

ولكن فى دولة اشتراكية ، هى من الشعب والى الشعب ، ينبغى ان تكون هناك نصب اخرى للابطال والبطلات الذين ينتمون الى عامة الشعب . وهكذا تنتصب بجانب اضرحة القادة نصب للعمال والفلاحين والمثقفين . وكان من الامور المؤثرة للغاية بالنسبة لى زيارة هذه الاماكن ، هذه البقع المقدسة التى تشهد على التضحيات الجسيمة واعمال البسالة لهؤلاء الابطال الشعبيين والكثيرون منهم

بلغوا قدرا كبيرا من العظمة وهم غفل من الاسم . فقد قاوموا ببسالة الهجمات التى تعرض لها النظام الاشتراكى منذ انتصاره فى ١٩١٧ ، وخلال السنوات الاولى المصيرية لفترة التدخل والحرب الاهلية ، ومرة اخرى وفيما بعد خلال النضال ضد جحافل الفاشيست الالمان .

وفى الميدان الاحمر تضاء الشعلة الخالدة تكريما لهؤلاء الابطال . وعندما ذهبت الى الما ــ اتا ، عاصمة جمهورية كازاخستان الاشتراكية السوفييتية ، شاهدت هناك ايضا الشعلة الخالدة فى حديقة الشهداء كتذكار للمقاتلين من الكازاخ والروس من سكان المنطقة الذين استشهدوا خلال القتال . وتضاء مثل هذه الشعلات فى يريفان ، عاصمة ارمينيا ، وفى يالتا فى القرم ، وفى ميدان ماركس فى لينينجراد وعند النصب التذكارى الضخم فى فولجوجراد حيث جرت معركة ستالينجراد الضارية وفى غيرها من الاماكن . وفى احدى محطات مترو الانفاق شاهدت التماثيل المصنوعة من الرخام التى تصور المقاتل الفدائى ورجل المقاومة والجندى والبحار وعامل السكك الحديدية تقف كامثلة على البطولة ... وقد اقيمت هذه التماثيل على جانب المحطة . وفى المنطقة الاسيوية اقيم ضريح فى المكان الذى نفذ فيه المحتلون البريطانيون حكم الاعدام فى ٢٦ ثوريا فى عام ١٩١٨ . وفى كراسنايا بريسنيا بموسكو ، وضع وعاء معدنى وبجانبه علم منكس ولوحة فى نفس المكان الذى نفذت فيه فرقة الاعدام القيصرية الحكم فى العمال فى عام ١٩٠٥ .

ولا تعنى النصب التى اقيمت فى طول البلاد وعرضها للقادة الراحلين وكذلك لابناء وبنات البلاد الشجعان الذين ضحوا بحياتهم من اجل الاشتراكية ، الاعراب عن الجميل من جانب شعب قد



مراسيم دفن الجندي المجهول . مواكب التشييع في شارع جوركي بموسكو .

تحرر فحسب ولكنها تعنى شيئا اسمى من ذلك . انها جزء من حركة منتظمة ومخطط لها من جانب كل من الحكومة والشعب للايحاء ودعوة المواطنين السوفييت الى ان يحيوا حياة متفانية ذات هدف ، وان يكونوا دوما على استعداد للتضحية من اجل الهدف النبيل . وفى

عام ١٩٦٥ شرعت منظمة الشبيبة الشيوعية ، التى تضم ٢٧ مليون عضو ، فى حملة شملت البلاد بأسرها من اجل زيارة الاماكن التى شهدت انتصارات الشعب السوفييتى الثورية والعسكرية .

وتجمع المشتركون فى هذه الحملة من العناصر النشطة للغاية والمتقدمة — من جميع انحاء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية — فى الميدان الاحمر ليقسموا « قسم الشباب » وفيه يتعهدون بما يلى :

« هنا فى الميدان الاحمر ، وبجانب اسوار الكرملين المقدسة ، نقف نحن احفاد الرجال الذين اقتحموا القصر الشتوى كالعاصفة ، وابناء الرجال الذين حطموا الريخستاج ، نقف لنعلن من اعماق قلوبنا قسم الولاء لقضية لينين ، وقضية الحزب وقضية ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى ... وبكل نبضة فى قلوبنا ، ومع كل يوم يمر ، نقسم اننا سنضحى بحياتنا من اجل تحقيق الشيوعية على الارض ».

ويكن الشعب احتراما كبيرا لقدامى المحاربين الثوريين الذين بقوا على قيد الحياة . وهؤلاء الابطال لا يزالون برغم تقدمهم فى السن ، شبانا بارواحهم وهم يحملون بين جنوبهم النار التى الهبت النضال الثورى . ويكرمهم الشباب السوفييتى لانهم التراث الحى لتركة عظيمة . وعندما تمنح عضوية منظمة الطلائع واتحاد الشبيبة الشيوعية ، يقام لهذه المناسبة احتفال مهيب فى احد الاماكن المقدسة التذكارية ليحلف الاعضاء الجدد القسم امام قدامى المحاربين . وهناك اغنية شائعة يرددها الشباب فى هذه المناسبة وتقول كلماتها :

22—1849

ان الاغنيات التى لم يكمل آباؤنا انشادها
الى النهاية
سوف ننشدها !
والخطط التى بدأها آباؤنا
سوف نبنيها من جديد .

ويرتكز اتساق المثل لدى الاجيال المتعاقبة فى المجتمع الاشتراكى على وحدة المواقف والاخلاقيات . ان اهداف الابناء ومثلهم العليا هى مواصلة الاعمال العظيمة للآباء .

ومن اجل ترسيخ التقليد المتنامى للسير فى الطريق الذى ارتاده الآباء والاجداد ببسالة ، تطبع الكتب بملايين النسخ للتعريف بتضحياتهم الجسيمة واعمالهم الباسلة . ومن امثلة ذلك الكتاب الشهير الذى الفه بوريس بوليفوى بعنوان « قصة رجل حقيقى » ويسرد الكتاب قصة الطيار السوفييتى اليكسى ماريسييف الذى فقد رجليه فى الحرب ضد النازيين الا ان ذلك لم يعقه عن العودة الى ميدان القتال كطيار محارب . ولا يكاد يوجد مواطن سوفييتى شابا وعجوزا الا ويعرف اليوم قصة حياة هذا الطيار كمصدر من مصادر الالهام . ولا تنشر الكتب حول الابطال السوفييت فحسب ولكن ايضا حول ابطال البلاد الاخرى ايضا . فشهداء النضال الشعبى فى جميع البلاد هم دائما محل تكريم واعزاز . ولهذا فلم يكن غريبا ان يكتب مواطن سوفييتى اسمه رايكوف فى احدى الصحف يقول عن بهاجات سينخ « انه ليس من المستغرب ان يكون اسمه معروفا ليس فى الهند فحسب ولكن فى الاتحاد السوفييتى ايضا ».

وكجزء من التقاليد الجديدة ، استحدثت اعياد جديدة تقام كل عام وتتمشى مع المثل العليا للمجتمع السوفييتى . وتضم الاحتفال بيوم ٨ مارس — كيوم المرأة الدولى ، ويوم ٢٢ ابريل — يوم ذكرى

ميلاد لينين واحتفال اول مايو ، كيوم لتضامن العمال الاممى ، ويوم ٩ مايو ، ذكرى انتصار الشعب السوفييتى على المانيا الفاشية واحتفال ٧ نوفمبر ذكرى ثورة اكتوبر الاشتراكية ويوم ٥ ديسمبر (كانون الاول) كيوم للدستور . ويحتفل بهذه الايام كاعياد قومية .

سنوات الحرب

اثبتت بجلاء الفترة من عام ١٩٤١ الى عام ١٩٤٥ ، وهى سنوات الحرب الضارية بين الاتحاد السوفييتى والمانيا النازية ، ان النظام الاشتراكى الجديد قد خلق بالفعل انسانا جديدا يستطيع مواجهة اية تحديات والارتفاع الى مستويات لم يسبق لها مثيل من قبل فى النبل والتضحيات الجماعية . وكان هتلر قد ظن ، بعد ان هزم دول غرب اوربا ووسطها انه اصبح لا يقهر وان فى وسعه قهر الاتحاد السوفييتى ايضا خلال بضعة اسابيع ... وكان قد صرح قبيل الاعتداء النازى بقوله « ان القوات المسلحة السوفييتية تمثال من الصلصال بدون رأس ... ولا يوجد عندها الجنرالات الاكفاء وهى سيئة التجهيز ... » انه لم يستطع — كديكتاتور يعمل فى خدمة الامبريالية — ان يقدر قوة الشعب السوفييتى . انه كان يزن الامور فقط بميزان كم عدد الجنرالات وكم عدد المدافع والطائرات . ولكن من الجانب السوفييتى انبثقت القوى الجبارة للشعب كله . فقد اندفع الجنود الى ساحات المعارك ، وقاتل الانصار فى المناطق المحتلة ، وهرع الاطفال والنساء لساحات العمل للعمل نهارا وليلا من اجل سد امدادات الحرب . وقتل ٢٠ مليون فى ساحات المعارك ودمرت الف و ٧٠٠ مدينة و ٧٠ الف قرية وفقد ثلث ثروة البلاد القومية . ولكن لم يقف

شئ عائقا . فالشعب الذى هب لم يهدأ الا بعد طرد النازيين ثم اندفع فى سيره الظافر عبر اوربا يحرر البلاد الواقعة فى الطريق ، حتى وصل فى النهاية الى برلين لسحق الفاشية فى عقر دارها .

ولم يكن فى الوسع ان تتحقق هذه الملحمة البطولية الا لان الشعب خاض المعارك وهو يشعر انه يدافع عن الوطن وكذلك عن الحياة الاشتراكية التى هددها الفاشست . ولم تكن الحرب مع النازيين تعنى للمواطنين السوفييت مجرد صراع اسلحة فحسب ولكنها تعنى ايضا معركة افكار بين حضارة تؤمن بالانسانية وافكار السلام من ناحية والمفاهيم الفاشية الوحشية المعادية للانسانية من ناحية اخرى . وكان الشباب الذين احتلوا اماكنهم على جميع خطوط الجبهة يعلمون جيدا كيف منحهم الحكم السوفييتى طفولة سعيدة ، وفرصا حقيقية للدراسة واتاح لهم اختيار المهنة التى يرغبون فيها ، وان يعيشوا حياة بهيجة وان يحبوا ويكون لهم اصدقاء . وعندما كانوا يخوضون مع الاعداء معركة الحياة والموت ، كانت هذه هى الاشياء المحسوسة التى يدافعون عنها بشجاعة وعزم لا يلينان .

ووسط انفجارات القنابل وطلقات الرصاص ، كان الجندى السوفييتى يرفع عاليا مشعل القيم الانسانية التى اصبحت جزءا من حياته الجديدة . وعندما كانت تتاح له الفرصة كان يعبر — فى يومياته او فى خطاباته — عن مثل هذه الافكار بكلمات بسيطة تنبثق مباشرة من القلب .

وفى رسالة نموذجية من هذا النوع كتب الكابتن ماسلوفسكى فى يناير (كانون الثانى) عام ١٩٤٤ :

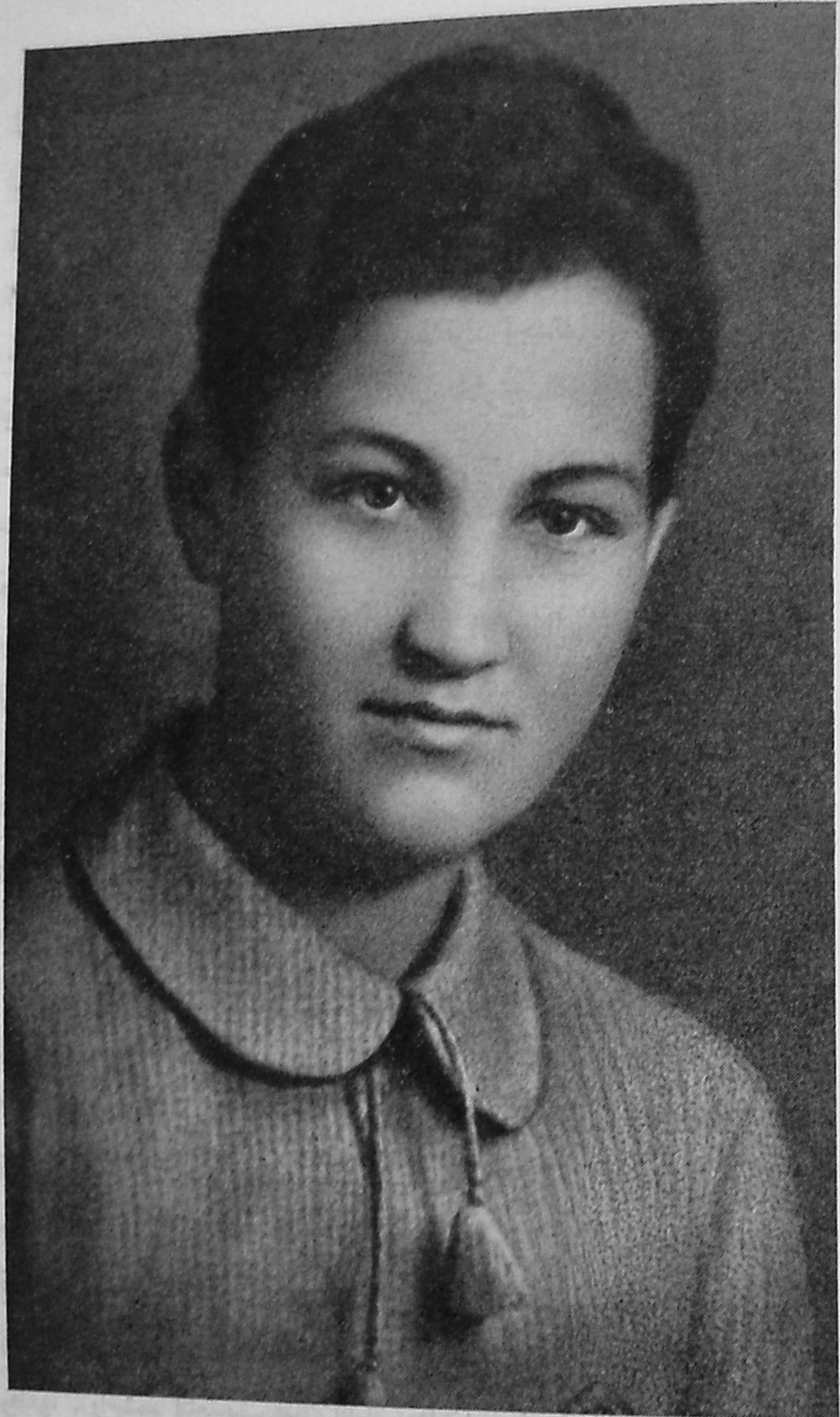
« ولدى العزيز ، اننا لن نرى بعضنا البعض مرة اخرى . فمنذ

ساعة فقط صدرت لى الاوامر بتنفيذ مهمة لن ارجع منها حيا ولكن لا تدع ذلك يخيفك ايها العزيز ولا تترك نفسك نهبا للحزن ... وشارك اباك هذا الفخر الذى يواجه به الموت وجها لوجه ، فليس كل انسان يكلف بالموت فى سبيل الوطن ... ولدى ... انك كنت تسأل فى كل رسالة لك وتقول انك تنتظر عودتى من الجبهة . فلا داعى اذن للتظاهر . لا تنتظر بعد الآن ، ولا تحزن . انك لست وحيدا . اننا لم نكن نرى احدنا الآخر كثيرا اثناء حياتى ولكن حتى على البعد كنت اعزك وكنت اعيش من اجلك . والآن فاننى اعتقد انه برغم اننى سوف اموت الا ان قلبى سيستمر فى الخفقان عن طريقك ... وداعا ولدى ، وداعا زوجتى . بوليا ! يورا ! زوجتى . ولدى ! مع فرحى ، مع دمى ، مع حياتى . احبكما واحبكما الى آخر قطرة من دمى !»

وكتب جندى سوفييتى شاب الى حبيبته فى فبراير (شباط ١٩٤٣) :

«عزيزتى ليدا ، معى ٦ رجال فى المخبأ وسابعهم يقوم بنوبة الحراسة . ويأخذ الآخرون سنة من النوم وانا جالس بجانب الموقد اكتب لك هذه الرسالة على ضوء مصباح يضاء بالفتيل . وسوف اسلم الرسالة الى الجندى المكلف بالبريد غدا . ليدا ، اننى دائما افكر فيك واتمنى اذا استطعت ان اتحدث اليك . لقد شاهدت الكثيرين من رفاقى يموتون وانا اود ان اعيش . واتساءل هل سأبقى حيا . فانت حى فى لحظة ما ، وفى اللحظة التالية تفارق الحياة . فاذا ما حدث ذلك لى ، فآمل ان يكون ذلك فى ساحة المعركة ووجهى نحو الغرب ...»

وكاتب الخطاب هو الكسندر ماتروسوف . وفى اليوم التالى صدرت الاوامر لكتيبة مشاة كان هو من ضمنها لاقتحام موقع



زويا كوسموديميانسكايا

حصين للنازيين فى تشيرنوشكى . واستمر الكسندر فى اطلاق النار حتى نفذت ذخيرته . ومن ثم اخذ يزحف على الارض حتى وصل الى معقل النازيين . وهناك وثب بكل طوله والقى بنفسه على الفوهة التى يخرج منها الرصاص . وقبيل ان يسقط على الارض وقد مزق جسمه الرصاص ، كان قد اعطى لافراد وحدته الوقت الكافى الذى يحتاجونه . ودفنوه فى غابة الصنوبر خارج القرية . ولم يكن يبلغ من العمر فى ذلك اليوم التاسعة عشرة .

وزويا ... اسم معروف ليس فقط فى الاتحاد السوفييتى ولكن ايضا خارجه باعتبار صاحبته احدى بطلات الحرب الشابات . وكتبت والدتها فى عام ١٩٦٨ بمناسبة الاحتفال بالذكرى الخمسينية لانشاء الاتحاد السوفييتى تقول :

« كانت ابنتى لم تتعد الثامنة عشرة من عمرها عندما لف النازيون حبل المشنقة حول رقبتها . انهم قتلوها لانها تحب وطنها ، تحب التربة التى ولدت عليها ولم تكن ترغب فى سيطرة النازيين عليها .

« ان زويا ـ مثلها فى ذلك مثل ملايين الفتيان والفتيات السوفييت فى خريف عام ١٩٤١ المرعب ـ طلبت من منظمة الكمسومول ان ترسلها الى الجبهة . واصبحت من الانصار فى قرية بتريشتشيفو ، ناحية فيريسك وعلى مسافة ٨٠ كيلومترا فقط من موسكو ـ لان النازيين وصلوا الى هذا القرب من العاصمة ـ قامت زويا بتدمير مخزن امدادات تابع للجيش الالمانى . وقبض عليها وتعرضت لتعذيب بشع . وكانوا يرغبون فى حملها على خيانة رفاقها . واستمر التعذيب طول الليل . ولكن ابنتى لم تقل شيئا للسفاحين . بل انها لم تخبرهم باسمها الحقيقى ، وكانت تطلق على نفسها

اسم تانيا . وفى صباح اليوم التالى ساق النازيون القرويين الى ساحة نصبت فيها المشنقة . وسارت زويا عارية القدمين على الثلج . وكانوا قد علقوا لوحة على صدرها تحمل كلمة « حارقة ». انهم ، النازيون غزاة اراضى الغير الذين حرقوا ودمروا الثروة التى بنيناها بأيدينا وجنيناها بعملنا وعرقنا . كانت ابنتى شجاعة . ففكت عقدة الحبل عن عنقها ودعت الشعب الذى ساقوه الى الميدان ليقاتل الغزاة وان يقاتل بلا شفقة . وفيما بعد ، اصبح الكثير من هؤلاء ، من النساء والاطفال ومن كبار السن مع الانصار ... كان عندى ابنة وابن اسمه شورا . وكان لا يزال صبيا عندما ذهب الى الجبهة ليحتل مكان شقيقته ... وقتل هو ايضا ... اننى لن ابكى ... فقد بكيت كثيرا وطويلا ... اننى سأسعد معهما ... لان بلادنا اصبحت بعد هزيمة النازيين اكثر جمالا وثراء ... ولان حياة شعبنا تتحسن باطراد . وسوف يحين الوقت الذى يتحقق فيه بناء الشيوعية فى اول ارض شهدت مولد الثورة الاشتراكية ... وهذا هو المجتمع الذى ضحى من اجله طفلىّ ومئات الالوف من الابطال الآخرين ».

كان الرجال والنساء والشبان والشابات يتنافسون مع بعضهم البعض للذهاب الى الجبهة وان يقاتلوا حتى النفس الاخير . وقد قام فوج حرس تامان رقم ٤٦ الجوى وكله من النساء بـ ٢٤ الف طلعة من شمال القوقاز حتى برلين . ومنح وسام بطل الاتحاد السوفييتى ـ وهو اعلى الاوسمة ـ الى ٢٣ من عضواته . وقتل منهن ١٨ فى المعارك . وفى بيلوروسيا قتل ربع السكان . وفقدت احدى الامهات جميع ابنائها الخمسة . وكان احدهم كشافا من الانصار ، عذب حتى الموت فى احد سجون النازيين . وقتل الثانى فى ستالينجراد

ولقى الثالث مصرعه بالقرب من برلين . وسجل رابعهم مفقودا والخامس سد بجسده فوهة مدفع فى احد خنادق الاعداء واصبح شهيدا . والام اناستاسيا كوبريانوفا لا تزال حية وتعيش على الذكريات . وعلقت صور ابنائها الخمسة على جدران حجرتها .

كان الناس يستشهدون فى مواقف متعددة . فمثلا حوصر فريق نادى « دينامو » لمدينة كييف وهو احد فرق كرة القدم الرئيسية فى البلاد ــ فى مدينة كييف المحتلة ، وامره الالمان ــ تحت تهديد السلاح ــ بان يلعب مباراة مع فريق « لوفتواف » التابع لسلاح الطيران النازى . ووعد الالمان بابقائهم على قيد الحياة اذا ما انهزموا فى المباراة . ودخل الفريق السوفييتى الملعب بهدوء . وبرغم انهم كانوا يعانون من سوء التغذية وفى حالة جسدية سيئة ، الا انهم هزموا الفريق الالمانى امام الآلاف من سكان كييف والجنود والضباط والجنرالات الالمان ... وبعد المباراة ، قامت احدى فرق التنكيل الالمانية بتنفيذ حكم الاعدام فى جميع افراد الفريق . وهناك فيلم سوفييتى طويل بعنوان « الشوط الثالث » يصور قصة « مباراة الموت » هذه ، التى هى مأثرة خالدة من البسالة الرياضية والوطنية .

وخلال حصار النازيين لمدينة لينينجراد الذى استمر لمدة ٩٠٠ يوم ، هب الشعب كرجل واحد لدحر الاعداء . وكان كل منهم يعيش على حصة من الطعام وهى عبارة عن ١٢٥ جراما من الخبز وكمية بسيطة من مياه الشرب . وهلك اكثر من نصف مليون من ابناء المدينة بسبب الظروف الصعبة ، الا انهم جميعا جادوا بارواحهم بدون ان ينال منهم الوهن وهم يقاومون الفاشست حتى النفس الاخير . وتنتصب القبور فى صفوف لا نهاية لها فى مقبرة « بيسكاريفسكويه »

التذكارية . ولم تكتب اية اسماء على القبور واكتفى فقط بكتابة السنوات : ١٩٤١ ، ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ . وحفر على جدار المقبرة الرثاء التالى :

« اننا لن نخبرك باسمائهم النبيلة ... فهنا يرقد العديدون فى حماية الجرانيت الابدية ولكن تأكد ايها الزائر انه ما من واحد منهم وما من عمل لهم سيتلاشى من الذاكرة » . وبعد فك الحصار ، وجدت بين حطام المنازل يوميات كتبها اثنان من الاطفال . واحدهما لطفلة سجلت فيها ما عانته المدينة خلال الحصار من البرد القارس ونقص المياه والطعام والنور ووفاة الاصدقاء . وبعد ذلك وردت فى اليوميات الملاحظات التالية : « مساء امس ــ « انا كارنينا » . « ليلة امس ــ « مدام بوفارى » » ، « طول الليلة الماضية ــ « الدون الهادئ » . وعندما سئلت الفتاة كيف تمكنت من القراءة فى الليل بدون كهرباء اجابت بقولها « اننى لم اكن اقرأ . بل كنت اتذكر الكتب التى قرأتها من قبل . ان ذلك كان يخفف من وطأة الصراع مع الموت والجوع » .

وخلفت تانيا سافيتشيفا ، وهى تلميذة لم تتعد الثانية عشرة من عمرها يوميات مؤثرة للغاية . فقد كتبت فى دفتر ملاحظات صغير مصير عائلتها الكبيرة العدد . قالت :

« مات جينيا يوم ٢٨ ديسمبر ١٩٤١ فى الساعة ١٢,٢٠ » .
« مات الجد يوم ٢٥ يناير ١٩٤٢ فى الساعة الثالثة بعد الظهر » .
« ماتت ليوبكا يوم ١٧ مارس ١٩٤٢ فى الساعة الخامسة صباحا » .
« توفى العم فاسيا يوم ١٢ ابريل ١٩٤٢ فى الساعة الثانية صباحا »
« مات العم ليوشا يوم ١٠ مايو ١٩٤٢ فى الساعة الرابعة بعد الظهر »
« ماما ــ فى يوم ١٣ مايو ١٩٤٢ فى الساعة ٧,٣٠ صباحا » .

وكانت الملاحظة الاخيرة « بقيت تانيا وحيدة ». واخيرا رحلت تانيا ، فقد تعذر بالفعل انقاذها . فقد دمر الجوع صحتها ، فماتت فى الطريق من الجوع بعد ان فقدت بصرها .

وفى ستالينجراد ، جرى القتال من منزل الى منزل حتى من حجر الى حجر . وبعد المعركة عثر على ٤٦٧٠٠ جثة ضابط وجندى سوفييتى وتم دفنها . وفى نهاية الحرب منحت كل من كييف وسفاستبول وستالينجراد ولينينجراد وموسكو واوديسا لقب « المدينة البطلة » تقديرا للبطولات والتضحيات الجماعية التى قدمتها . وبالمثل جرى ذلك لقلعة بريست حيث قاوم الالوف من ابنائها حتى النهاية بدون استثناء .

وكتب المارشال جيورجى جوكوف مقالا عن الدور البطولى للشعب فقال : « لا الوحل او الجليد هو الذى اوقف زحف القوات النازية بعد ان اجتاحت فيازما ووصلت مشارف العاصمة . ولم يكن ايضا المناخ الذى فعل ذلك ، ولكنه كان البشر ، الشعب السوفييتى الذى صنع ذلك . انها كانت اياما غير عادية ولن تمحى هذه الفترة التى وقف فيها الشعب السوفييتى بأسره متحدا بالتصميم على الدفاع عن بلاده ، واندفع الرجال الى صنع البطولات يحركهم احساس وطنى عميق . وكان كل واحد منهم يشعر ان عليه هو يتوقف مستقبل بلده والاتجاه الذى ستسير فيه الحرب والتاريخ ... وكان كل منهم على استعداد للجود بحياته للدفاع عن المثل العليا التى الهمت شعبنا ، وان يحطم هؤلاء الذين حاولوا تمريغها فى الوحل ».

وكتب اندريه جريتشكو ، مارشال الاتحاد السوفييتى ، فى المعنى نفسه فقال :

« ان انتصار الاتحاد السوفييتى على المانيا الهتلرية قد اظهر

امام العالم كله القوة الجبارة الراسخة للاسس التى يرتكز عليها اقتصاد وسياسة بلادنا ، والتضامن الذى لم يسبق له مثيل لأممها ، وتصميمهم الثابت على النصر وكذلك صمودهم فى النضال ... وكانت الايديولوجية الاشتراكية السلاح المعنوى للشعب السوفييتى وجيشه فى النضال ضد المعتدين الالمان الفاشست».

وخلال سنوات الحرب ، لم تضعف بأية حال ، انسانية الشعب السوفييتى وهى الصفة الغالبة عليه. بل على العكس من ذلك ، فقد تعاظمت فى مواجهة وحشية النازية . وكتبت اولجا بيرجولتس قصيدة فى تلك الايام جاء فيها هذه الابيات :

ماذا فى وسع العدو ان يصنع ؟ يقتل ، يدمر .
هل هذا كل ما هناك ؟ انى قادرة على الحب
ولا نهاية ابدا لينابيع الثروة فى روحى .
ولهذا فأنا اود ان احيا وسأحيا :
وعلى النصب التذكارى للعالم سأضع حبى وروحى،
وسأمنح هذا التقدير لاشقائى

وعندما انتهت الحرب ، اقام الشعب السوفييتى نصبا تذكاريا فى برلين يوضح ان انتصاره «لم يكن من اجل المجد ولكن من اجل الحياة على الارض ». هناك اقاموا تمثالا من البرونز لجندى من قوات التحرير يحمل طفلا صغيرا يستند بثقة على كتفه . و يمسك السيف الضخم الذى حطم الصليب المعقوف الفاشستى بقبضة قوية ، الا ان السيف غير مرفوع ولكنه مائل الى الاسفل كسلاح مدخر ضد اى معتدين آخرين قد يحاولون من جديد تعكير سلام البشر مرة اخرى .

ان من الملامح المميزة للمجتمع السوفييتى انسجام العلاقات بين الفرد والمجتمع . ويدخل كل مواطن — فى حياته اليومية — فى علاقات متشعبة اقتصادية او ثقافية على اساس تعاونى مع مختلف المجموعات . وفى جميع اماكن العمل ، سواء فى المزرعة او فى المصنع ، فى المدرسة او الكلية او فى قصر الثقافة ، ليس ثمة عزلة بل ارتباط الفرد بالمجتمع الاكبر فى تعهد لتحقيق غرض مشترك من اجل انجاز كل من اهداف المجتمع والفرد فى وقت واحد . ان الغاء الملكية الخاصة واقامة الملكية العامة محلها من شأنه احداث تحويل روحى للمواطنين الذين اخذوا يكتسبون اتجاهات جماعية ويتركون وراءهم النظرة الفردية . واصبحت الصفة الغالبة على حياة الفرد هى الاحساس بالانتماء والانتساب للمجتمع . ويتجلى ذلك بوضوح فى مجال العمل حيث اختفى الصراع بين العامل وصاحب العمل واصبح المواطن السوفييتى يعمل بحماس وهو يحس ان النظام الاشتراكى قد وفق فى انسجام بين مصالحه الشخصية وهدف المجتمع . ويوضح مدى اهمية هذا الانسجام التباين الصارخ بين هذا الوضع وما يحدث فى الولايات المتحدة حيث لا وجود لمثل هذا الاتحاد فى الهدف ، حيث الملايين يعيشون فى بؤس مدقع وذلك على الرغم من حقيقة ان هذا البلد فى مقدمة العالم من حيث الثورة التكنولوجية والانتاج الصناعى .

وكتب ميشيل هارينجتون العالم الاجتماعى الامريكى فى كتابه المعروف « امريكا الاخرى » يقول : « تضم الولايات المتحدة فى الستينات فى داخلها مجتمعا وافر الثراء . فالملايين بل عشرات الملايين يتمتعون بأعلى مستويات المعيشة التى عرفها العالم . وهذه

نعمة تنطوى على نقمة ... فهذا الثراء مبنى على نظام اقتصادى مشوه بدرجة غريبة فهو نظام يعمل غالبا على تشجيع ظهور الحاجات غير الضرورية اكثر مما يعمل على اشباع الاحتياجات الانسانية . وقد ادى هذا النظام الى ان يولد — فى البعض — شعور بالخواء الروحى والاغتراب . ومع ذلك فالانسان يكون مجنونا اذا فضل الجوع على التخمة ، فان المكاسب المادية تهيئ — على الاقل — امكانيات الوجود الخصب الكامل . وفى الوقت نفسه تضم الولايات المتحدة امة متخلفة وثقافة فقيرة . ومع ان سكانها لا يعانون هذا الحرمان الشامل الذى يعانيه فلاحو آسيا وابناء القبائل فى افريقيا ، الا ان آلية البؤس متماثلة . فهم بعيدون عن صنع التاريخ ، بعيدون عن التقدم ، غارقون فى روتين الشلل والاحباط » .

وفى معرض حديثه عن هؤلاء قال الكاتب الامريكى « ان الفقراء ينعزلون بصورة متزايدة عن خبرة الامة واحساسها . وهم — كمجموعة — قد تم تفتيتهم الى ذرات متناثرة . فليس لهم وجه مميز وليس لهم صوت موحد » .

واكثر الناس معاناة هناك هم الزنوج الذين يزيد عددهم عن ٢٠ مليون نسمة اى عشر مجموع عدد السكان . وقد اندفع الكثيرون منهم — بعد ان عجزوا عن تحمل الحرمان اكثر من ذلك — الى تنظيم انفسهم لخوض معركة يائسة . وعبر الشاعر الزنجى كلود ميكاى عن مشاعرهم فى السطور التالية :

اذا كان علينا ان نموت — فليكن ذلك
ليس مثل الخنازير
الذين اصطادوهم والقوا بهم
فى زريبة مشينة
بينما تنبح حولنا

الكلاب السعرانة الجائعة
ساخرة من مصيرنا التعس .
واذا كتب علينا الموت ،
فدعونا نموت ميتة نبيلة ،
حتى لا يسفك دمنا الغالى
عبثا ، وحتى نجبر الوحوش
الذين نتحداهم ،
الى ان يحترمونا
حتى ولو كنا امواتا
آه ، يا ابناء جلدتى
يجب علينا ان نواجه
العدو المشترك
ومع انهم يفوقوننا فى العدد
فلنكن مع ذلك شجعانا
وفى مقابل آلاف الضربات التى يكيلونها لنا
فلنوجه لهم ضربة قاضية
أى شىء آخر امامنا
الا القبر ؟
مثل الرجال ، سنواجه
تجمع القتلة الجبناء ...
سنموت ، وظهورنا الى الحائط ،
ولكن ونحن نرد على الضربات .

واعترف جالبرايث نفسه فى كتابه « مجتمع الثراء » انه يوجد فى الولايات المتحدة « تباين بشع » بين « الثراء الخاص والفساد السياسى العام ». وكتب ستيوارت تشيز فى مجلة « ساتردى ريفيو » يقول « فيما يتعلق بالدولارات ، فنحن اغنياء الى درجة لم تصل اليها احلام البخلاء ولكن فيما يخص الاشياء التى تجعل الحياة تستحق ان تحيا ، فنحن جد فقراء ونزداد فقرا – ولا ينطبق ذلك

على الاسر ذات الدخول المحدودة فحسب ولكن علينا جميعنا ». وذكر وليام فولبرايت رئيس لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشيوخ الامريكى فى عام ١٩٦٧ ، انه فى الولايات المتحدة « تحول المجتمع العظيم الى مجتمع مريض ». ففى عدم وجود فلسفة تقدمية للمجتمع ولمكانة الفرد فيه ، اصبح المجتمع الامريكى اليوم مسرحا لمأساة انسانية كبرى يعانى فيها كل من الغنى والفقير على حد سواء مما يطلق عليه مصطلح المرض الجديد « للثراء الوافر ». فالنظام الاقتصادى الذى فقد حيويته اخذ ينشر الدمار عن طريق دوره اللاانسانى . فمن جانب ، تؤدى العبادة المشينة للمال الى الانفاق بجنون على رذائل مجتمع الوفرة والمتع الرخيصة ، ومن جانب آخر ، يوجد الملايين من المعذبين المحرومين من ابسط ضروريات الحياة ، ومن كل ما هو ضرورى ليعيشوا حياة آمنة لا يعكر صفوها القلق المستمر من الغد .

وبانتفاء مثل هذه المشكلات والاوضاع فى المجتمع السوفييتى ، يتطلع الشعب السوفييتى بثقة الى المستقبل ويمضى قدما ، عبر مراحل مخطط لها علميا ، لبلوغ مرحلة اعلى هى المجتمع الشيوعى حيث سيكون تنظيم الحياة كلها مرتكزا على مبدأ « من كل حسب طاقته الى كل حسب احتياجاته ». وفى مناقشة كيف سيتحقق ذلك اشار احد الكتاب السوفييت فى كتاب بعنوان « الانسان والمجتمع » الى ما يلى :

« ان بناء الشيوعية لا يعنى تثقيف وتطوير قدرات الانسان فحسب ولكن ايضا احتياجاته . ولا يمكن تصور وجود شيوعية بدون وجود انسان يتحلى بأعلى قدر من التطور والتحلى بالانسانية الحقة وكذلك بالنزوع الى الاحتياجات المعقولة للغاية . ان المقدرة على

تحديد احتياجات الفرد بشكل معقول وفى الوقت نفسه اشباع هذه الاحتياجات هى امور بعيدة كل البعد عن اى تحكم قسرى خارجى او توحيد الاحتياجات . ان مثل هذه القدرة تنطوى على التنوع الفردى والدعوة الى التثقيف والتثقيف الذاتى . ومن بين شروط مرحلة الانتقال الى الشيوعية ليس توافر السلع بوفرة فحسب ولكن ايضا تواجد المستهلك الواعى القادر على التحكم فى احتياجاته وجعلها فى الحدود الانسانية الحقة . ويعمل المجتمع الاشتراكى حاليا على تثقيف الانسان باعتباره مستهلكا للثروة الاجتماعية بطريقة من شأنها ان تجبر كل فرد على انتاج قدر من السلع يفوق السلع التى يستهلكها . وان زيادة الاعتمادات المخصصة للاستهلاك الاجتماعى ـ التى تشمل كل فرد ـ والتوسع السريع فى الادارة الذاتية الاجتماعية ، وتكوين ثقافة شيوعية دولية ، ورفع المستوى الاقتصادى للشعب العامل وزيادة رفاهية الشعب ... كل ذلك من شأنه ان يعمل على زيادة تثقيف الفرد كمستهلك بحيث تكون تصرفاته متفقة مع بناء الشيوعية ».

وبالنسبة الى الجانب المادى ، كتب البروفيسور السوفييتى ارنولد ارنولدوف الدكتور فى الفلسفة يقول « ان الاشتراكية ـ كما هو معروف ـ لا تتفق ابدا مع تأليه وعبادة الثراء المادى الذى يلحق ضررا بالغا بالتطور الروحى للانسان . فالثراء الحقيقى للانسان يكمن فى قيمه الروحية والثقافية وعلاقاته الاجتماعية التى تشمل جميع جوانب الحياة . الا ان تجاهل الاحتياجات المادية للشعب ومعاملتها بنفاق والرفض شبه الثورى لاهمية الدافع المادى ... هو ايضا معاد للاشتراكية ولا يتفق مع طبيعتها ».

وتشعر الحكومة السوفييتية بالفخر للنجاح الذى يتحقق باطراد

23—1849

فى بناء حياة جديدة فى الاتحاد السوفييتى وهى تعمل على اظهاره امام العالم كله . وهى من اجل ذلك تصدر الكتب بملايين النسخ وتقدم مختلف التسهيلات للسياح . ويجد اكثر من مليون ونصف مليون سائح الذين يزورون الاتحاد السوفييتى كل انواع الترحيب . ويثق الاتحاد السوفييتى فى ان كل انسان يتاح له معرفة الحقائق الخاصة بالحياة السوفييتية او رؤيتها على الطبيعة سيقتنع بأن الطريق الاشتراكى هو الطريق الوحيد للانسانية المعذبة فى اى مكان على الارض للتحرر والحرية والحياة السعيدة .

الفصل التاسع

الانسان الجديد

ان اعظم انجاز حققه الاتحاد السوفييتى منذ قيام ثورة اكتوبر هو انبثاق «انسان جديد» على ارضه ، انسان عظيم فى افكاره مثلما هو عظيم فى تصرفاته .

وهذا الانسان الذى يعيش فى المجتمع السوفييتى الديناميكى يوسع باستمرار من معارفه ويطور من شخصيته واخلاقه يساعده فى ذلك النظام الاشتراكى الذى يسعى الى تهيئة الظروف الملائمة اكثر واكثر لهذا التطور . ولا تتوقف ابدا عملية صياغة هذا الانسان والارتفاع به الى طراز ارقى من الانسان المثالى .

وهذا الانسان الجديد ليس من النوع النمطى ، فهو ينمو ويزدهر على اشكال شتى مشرقة وجذوره تمتد عميقة فى الارض ... هو متحرر من الناحية الروحية فهو يقرأ روائع الادب من نتاج بلاده وانتاج العالم كله وهذا يوسع افاق تفكيره باستمرار . وقد اصبح «انسانا عالميا» واكتسب عقلا مفتوحا يرفض الاملاء والتحكم . وهو يحقق حريته باستمرار وعلى نحو متزايد .

وفى النظام الاشتراكى السائد فى بلاده ، فقدت النقود قدرتها على افساد حياته . فقد تقهقرت الى المؤخرة المسائل الاقتصادية الخاصة بالاحتياجات الاساسية للحياة — فى ظل الصرح الجديد للمجتمع الارقى — واخذت تحل محلها بالنسبة الى اهتمامات الانسان الجديد المشكلات الثقافية والقيم الروحية . فقد حرر النظام السوفييتى

المواطنين من القلق بشأن كفالة حاجاتهم الاقتصادية . وهو يوفر لهم التعليم والعمل وهو يعنى بصحتهم ويكفل لهم السكن . كما انه يضمن لهم الامن عند الكبر وفى حالة العجز . وهذا النظام يسهم بالقدر الاعظم فى تنشئة اطفالهم . وهو يوفر لهم — بفضل الملكية العامة — مستوى معيشة معقولا . كما انه لا يشجع الشهوات التى لا حد لها عن طريق انتاج السلع الاستهلاكية غير الضرورية. ولهذا فان الانسان السوفييتى غير مولع بالاكتناز وهو لا يطلق العنان للرغبة فى الاستحواذ كما انه ليس من انصار الحياة المرفلة الباذخة . وهو لا يعرف فى مجتمعه المظاهر الجوفاء . فقد علمته المفاهيم الاشتراكية ان ثروة الانسان الحقيقية لا تكمن فيما يمتلكه من اشياء مادية .

ويقدر الانسان الجديد — فى المجتمع — بصفته الفردية بغض النظر عن الطبقة التى ينتمى اليها او ممتلكاته الخاصة او الدين او الجنس او القومية او العنصر . ومعيار الحكم عليه خدماته للمجتمع فى مجال العمل وفى مجال العمل التطوعى الارحب . وايضا لما يقدمه من مساهمة فى ميادين الثقافة والفنون والعلوم . ولأن الفرص مفتوحة له على مصراعيها ، فأنه يختار حسب ذوقه وميوله وقدراته . وما يحققه بعد ذلك ، يجلب له التقدير من جانب المجتمع ويخلق لديه الاحساس بأنه حقق شيئا فى حياته . وهو يشعر ان مواهبه لم تضع هباءا . انه ورفاقه الآخرون — وهم فى المجتمع الرأسمالى نكرة ، مغمورون واحيانا زائدون عن الحاجة ولا يحتاجهم احد — هؤلاء يبنون بسواعدهم المجتمع الاشتراكى ويفرزون من بينهم الوف الابطال والمتفوقين من العاملين فى الصناعة والزراعة والعلوم والفنون والآداب . وقد اكسبه ذلك حيوية فائقة وحماسا للحياة . وهو لا يعرف السخرية

المرذولة من الآخرين كما لا تنتابه مشاعر الملل ... انه عاكف على بناء بلاده بجد ونشاط ... وليس ثمة مجال لديه للشعور بالاغتراب او الوحشة فى المجتمع .

لقد غيرت سنوات البناء الاشتراكى بصورة جذرية من عادات وصفات الشعب . وقد ثبت ان الانانية والفردية الذاتية ليست صفات اصيلة فى الطبيعة البشرية . وانما هى صفات عارضة اكتسبها الناس فى ظل الانظمة الاجتماعية الجائرة التى تعتمد على استغلال الاغلبية لصالح الاقلية . ففى كل النظام الاشتراكى اصبح الانسان يتميز بروح الجماعية يشارك الآخرين فى متعه . ويشعر بالسعادة عندما توزع الثروة الاجتماعية بعدالة على الجميع . وقد اكتسب ضمن عاداته الجديدة ، مبدأ ان ينجز واجباته للمجتمع عن طريق اداء العمل بحماس سواء تلقى على ذلك اجرا ام بغير جزاء .

وتتألف اخلاقيات الانسان الجديد من خليط من العادات الجديدة ومن المفاهيم النبيلة للمجتمع القديم . انه انسان متسامح ، متواضع ، لطيف المعشر ، صادق ، شريف وقبل كل ذلك هو انسان يكن حبا حقيقيا وتقديرا لجميع الناس . ان الانسان السوفييتى ، وقد تحرر من الشهوات الثلاث : السلطة ، والمال والمرأة وهى نتاج كل مجتمع يسوده التنافس ويحكمه نظام تربوى فاسد . ان هذا الانسان اصبح يتمتع بحياة تتسم بالقناعة والاتزان وخالية من اية توترات لا تنتهى . وتتركز مساعيه كلها فى ان يصبح انسانا كاملا على جانب كبير من الثراء الروحى .

ان هذا الانسان متفان لعائلته ، التى تقوم العلاقات بين افرادها على الحب العميق بعد ان تلاشى عامل الفرقة والخصام بسبب الصراع المستمر على التملك وعلى النقود وكذلك بعد ان لم تعد

هناك الفجوة بين الاجيال : بين الآباء والابناء . ولا يشكل الجنس له اية مشكلة ، فامامه وسائل الترفيه الصحية متاحة ... ولهذا لم يعد الجنس يمتص منه اية طاقة او وقت يضيع هباء .

ويمضى الانسان السوفييتى الجديد بخطى ثابتة فى طريق حياته ... فهو السيد على الارض التى يعيش فيها ... وهو يمشى مرفوع الرأس لاحساسه بالحرية والكرامة ... مؤمنا بالمثل العليا والعواطف الكريمة . انه يعيش حياة نافعة نقية وسعيدة .

ان هذا الانسان الجديد ... البسيط ... الشريف ... المتفانى ... يعيش فى كل مكان من اراضى الاتحاد السوفييتى التى تمتد عبر مساحات شاسعة فى قارتى آسيا واوربا . وهو يمثل النمط الشائع لسكان البلاد البالغ عددهم نيف ومائتين وخمسين مليونا . انه انسان متعلم ومثقف ... وهو يزداد عظمة مع مرور الوقت . ان مثله العليا واخلاقياته ومعتقداته ... وانجازاته وتضحياته ... وجبروته ... ان كل ذلك يشكل الضمان الاكيد لاستمرار الاتحاد السوفييتى فى اتجاهه السليم فى المستقبل . اما بالنسبة لنا ، نحن الذين نوجد خارج الاتحاد السوفييتى ، فان حياة الانسان السوفييتى الجديد ، بما تنطوى عليه من هدف نبيل وسعادة متحققة ، هى بمثابة البشير والدعوة لكى نبنى مجتمعا اشتراكيا جديدا تتحقق فيه السعادة للجميع وتتوفر فيه لهم متع الحياة فى ظل المساواة والحرية والآخاء .

الفهرست

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ٢١
موسكو – الاتحاد السوفييتي

دار التقدم

يوشك ان يصدر

محمد ابراهيموف. التنظيم الصحي في اذربيجان السوفييتية .

ان هذا الكتاب اذ يعتمد على مادة فعلية غنية ، يعطي فكرة عن جميع جوانب التنظيم الصحي في جمهورية اذربيجان السوفييتية : عن تنظيم الخدمات الصحية ، تربية الكوادر الطبية ، العون الذي قدمته جمهورية روسيا الاتحادية والجمهوريات السوفييتية الاخرى في محو تخلف اذربيجان في ميدان الخدمات الصحية للسكان خلال اولى سنوات السلطة السوفييتية. ان تجربة حل الكثير من المسائل الصحية العملية مع مراعاة الخصائص القومية للمعيشة والثقافة في الجمهورية تشكل دون شك مسألة ذات اهمية بالنسبة لبلدان الشرق النامية .

دار التقدم
يوشك ان يصدر

بيريغوفوى . زاوية الهجوم .

كتب احد اوائل الملاحين الكونيين السوفييت بطل الاتحاد السوفييتي مرتين بيريغوفوي كتابه هذا عن الوقت وعن نفسه . ويتناول فيه ايام طفولته وشبابه ، وجطواته الاولى فى حقل الطيران ، وخصائص مهنته وما هو حاضر البحوث الكونية ماو سيكون مستقبلها .

دار التقدم
يوشك ان يصدر

المسيرة التحررية العظمى .

يتحدث الكتاب عن مساهمة القوات السوفييتية في تحرير بلغاريا ورومانيا والمجر وبولونيا ، وعن عملية تحرير بلغراد وطرد القطعان الهتلرية من اراضي النمسا ، وعن المرحلة الختامية للحرب الوطنية العظمى ، مرحلة الاستيلاء على برلين .

ولقد اشترك في تأليف الكتاب كل من ماريشالات الاتحاد السوفييتي غريتشكو وزاخاروف وكونيف والجنرالات جلتوف وتيليغين وشاروخين . وعلى اساس الوثائق والذكريات الشخصية يكشفون عن عظمة المأثرة التي قام بها الجندي السوفييتي ، الجندى المحرر .

ان قيمة هذا الكتاب في وثائقيته وفى التحليل العميق لسير العمليات القتالية . انه يطلع القارىء على اسماء الجنوب السوفييت الذين مجدوا وطنهم في ساحات الوغى ، ويبين ميلاد الاخوة الكفاحية بين الشعوب التي يوحدها هدف مشترك واحد ، ثم تجسد هذه الاخوة فيما بعد باسرة البلدان الاشتراكية .

Художественный редактор Я. МАЛИКОВ
Технический редактор А. ТОКЕР

Подписано к печати 4/IV-1975 г. Формат 84×108 1/32.
Бум. л. 6. Печ. л. 20,16. Уч.-изд. л. 21,17. Изд. № 17407.
Заказ 1849. Цена 2 р. 68 к. Тираж 10900.

Издательство «Прогресс» Государственного комитета
Совета Министров СССР по делам издательств,
полиграфии и книжной торговли.
Москва Г-21, Зубовский бульвар, 21.

Ордена Трудового Красного Знамени
Московская типография № 7 «Искра революции»
«Союзполиграфпрома» при Государственном комитете
Совета Министров СССР по делам
издательств, полиграфии и книжной торговли.
Москва Г-19, пер. Аксакова, 13.